

المعبود الذي هوى
آراء في الشيوعية

♦ المؤلف: نخبة من المؤلفين

♦ العنوان: المعبود الذي هوى - آراء في الشيوعية

♦ ترجمة: عباس حافظ

♦ طبعة آفاق الأولى 2020

♦ تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

♦ مستشار النشر: سوسن بشير

♦ المدير العام: مصطفى الشيخ



رقم الإيداع:

٢٠١٩ / ١٣٤٨٣

الترقيم الدولي: ISBN

978 - 977 - 765 - 218 - 6

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أى جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from the publisher.

Afaq Bookshop & Publishing House

1 Kareem El Dawla st. - From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb

CAIRO - EGYPT - Tel: 00202 25778743 - 00202 25779803 Mobile: +202-01111602787

E-mail: afaqbooks@yahoo.com - www.afaqbooks.com

١ شارع كريم الدولة - من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية

ت: ٢٥٧٧٨٧٤٣ ٠٠٢٠٢ - ٢٥٧٧٩٨٠٣ ٠٠٢٠٢ - موبايل: ٠١١١١٦٠٢٧٨٧

المعبود الذي هوى

آراء في الشيوعية

بأقلام

ستة من أعلام الفكر والسياسة

آرثر كوستلر - إينازيو سيلوني - أندريه جيد

ريتشارد رايت - لويس فيشر - ستيفن سبندر

نقلها إلى العربية

عباس حافظ

آفاق للنشر والتوزيع

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

نخبة من المؤلفين.

المعبود الذي هوى - آراء في الشيوعية

ترجمة: عباس حافظ

ط 1 القاهرة - دار آفاق للنشر والتوزيع - 2020

368 ص، 24 سم.

رقم الإيداع 13483 / 2019

الترقيم الدولي 978 - 977 - 765 - 218 - 6

1 - مذاهب فكرية (سياسية واقتصادية)

أ - العنوان

المحتويات

٧	كلمة المترجم
٩	المقدمة
٢٣	معلومات موجزة عن الرواة في هذا الكتاب
٢٣	آرثر كوستلر
٢٤	إجناسيو سيلوني
٢٥	ريتشارد رايت
٢٥	أندريه جيد
٢٦	إينيد ستاركي
٢٧	لويس فيشر
٢٧	ستيفن سبندر
٢٨	ريتشارد كروسمان
٢٩	القسم الأول: «المبتدئون»
٣١	آرثر كوستلر
١١١	إجناسيو سيلوني

۱۶۱	ریتشارد رایت
۲۲۹	القسم الثاني: العابدون من بعيد
۲۳۱	أندريه جيد: مقدمة بقلم «إينيد ستاركي»
۲۴۳	أندريه جيد.. قصته كما يرويها بنفسه
۲۶۹	لويس فيشر
۳۱۵	ستيفن سبندر

لست للشيوعية نصيرًا، وما أنا لها بخصم؛ ولكني أقرأ، وأبحث، وأندبر مليًا، فإن أعجبني شيء نقلته، وإن لم يرقني قرأته لنفسي وكتمته، ولم أكن به حفيًا.

وقد وقع لي هذا الكتاب نصيحة من ناصح قرأه فأعجبه، لأنه لم يأت دعاية على الشيوعية أو مجرد تشهير ومثّلة، فخففت إلى نقله، متأنيًا له، حريصًا على معانيه وجملته أساليبه، وأرجو أن أكون قد وفقت فيه ناقلًا وفيًا.

ولست أحسبه لمعاشر المتحمسين للديمقراطية مُرضيًا؛ لأنه لم يبرئها براءة كاملة، ولا أظنه لمعاشر المولعين بالشيوعية مقبولًا، لأنه قد شوه لديهم حلمًا ذهبيًا. ولكن أقدار الأمم لا تعتمد على الأحلام، وإنما تنهض على أثبت الأسس، وكل تفكير يأتي عن سخط، ويختم عن تبرم، يخرج فاسدًا، أو حامضًا، وقد يُسوّى عليه في نار الألم، فلا تزيده النار إلا كراهة طعم، في حلوق الطامعين.

وأخشى أن يكون الذين استخفّتهم الشيوعية من الشباب ماضين في أثر فتنة؛ والفتنة تتملك العاطفة قبل العقل؛ وكل ميل إلى العاطفة، يحجب البحث، ويُرقد الفكر، ويرين على البصر، ويأبى إلا أن يكون منفردًا عصيًا.

ورجائي إلى هؤلاء الذين فتنوا أن يقرأوا هذا الكتاب، على مُكث، ويتجردوا في قراءته من النزوع؛ فإن الذين نقلت منهم فيه، كانوا من قبلهم مفتونين، فلما جربوا، عرفوا، وحين خبروا، اهتموا واكتشفوا، ولا يبتك مثل خبير.

المترجم

المقدمة

بقلم ريتشارد كروسمان

النائب البريطاني

وُلدت فكرة هذا الكتاب في استعار نقاش، وحرارة جدل؛ فقد كنت مقيمًا مع «آرثر كوستلر» Arthur Koestler في شمال ويلز. وفي ذات مساء بلغ بنا النقاش السياسي الذي قامت عليه صداقتنا، حدًّا وقف عنده البحث، ونقطة جمود، لا متقدم عنها ولا متأخر، فانشئ صاحبي يقول: «إما أنك لا تستطيع أن تفهم، وإما أنك تأبى أن تفهم، وهذا هو شأنكم جميعًا معاصر الأنجلوسكسونيين المستريحين الناعمين، المحصورين في جزائرهم، المناهضين للشوعية والشيوعيين. فأنتم تكرهون منا صيحاتنا المنذرة، وتنفرون منا كحلفاء، ولكننا معاصر الشيوعيين المرتدين - بعد كل ما يمكن أن يقال لنا أو علينا- لا نزال في الجانب الذي يعرف كل شيء، ويعلم الخافية، ويدرك الحقيقة...».

وعندئذ انعطف بنا الحديث عن فلان، وفلان، وفلان، وكيف انقلبوا شيوعيين، ولماذا خرجوا على الحزب أو بقوا فيه. ومضيت أقول، حين عادت المناقشة تستحي، ومراجل الجدل تغلي: «على رسلك... وتعال قل لي أنت عما جرى حين انضمت إلى الحزب، لا من ناحية شعورك الآن، بل من ناحية شعورك في ذلك الحين...».

وهكذا بدأ كوستلر يقص قصته العجب، ويروي كيف كان لقاؤه بالهر «شنيلر» في مصنع «شنيدمول» للورق، وإذا بي فجأة أقطع عليه الحديث قائلاً: «هذا يصح أن يكون كتاباً...».

وبدأنا نسترجع من الذاكرة أسماء المرتدين الذين في وسعهم أن يرووا للناس قصتهم، ويحدثوهم عن أنفسهم أحاديث الحقيقة كاملة.

واتسع في البداية نطاق اختيارنا، وتعددت الأسماء أمامنا، وترامت الأمثلة لدينا؛ ولكننا قبل أن ينتهي مجلسنا في تلك الليلة، أجمعنا النية على ألا تتجاوز الأسماء ستة من الكتاب والصحفيين، ولم نعن مطلقاً في وضع هذا الكتاب بتضخيم الدعاية ضد الشيوعية، ولا نظرنا فيه إلى تهيئة الفرصة لبسط الشفائع، وسرد المعاذير؛ بل ألقينا بالنا فيه إلى شيء واحد، وهو دراسة نفسية الشخص الذي اعتنق الشيوعية وحالته العقلية عند اعتناقه لها، والجو الذي كان محيطاً به، في الفترة بين عامي ١٩١٧ و ١٩٣٩ حين شاع الاعتناق، وكثرت أفواج المعتنقين.

واقضى تحقيق هذا الهدف ألا يحاول كاتب من هؤلاء الذين حشدنا أحاديثهم في هذا الكتاب أن «يعيش» مرة أخرى في الماضي، فإن ذلك أمر مستحيل، بل أن «يعيد خلقه» بالخيال، وينشئه من جديد بالتحليل النفسي، على الرغم من الحاضر وعلمه به، وما توافر من المعرفة والإحساس فيه.

ولست أجهل أن رواية المرء عن نفسه على هذا النحو، تكاد تكون ضرباً من المستحيل على السياسي العملي، لأن كرامته ستأبى إلا تصوير الماضي بروح الحاضر وتفكيره.

ولست أنكر أيضاً أن ما يسمونه «التحليل العلمي» مضلل هو كذلك، ومبعد بنا عن الحق والواقع، لأن تقطيع الشخصية وتجزئتها إلى مجموعة من العلل النفسية والأسباب والمؤثرات الاجتماعية، من شأنه أن يذهب «بالانفعالات» التي أردنا وصفها، ويفقد الحديث الدوافع العاطفية التي رمينا إلى حشدها بين دفتي هذا الكتاب؛

فلا عجب إذا نحن توخينا «الموضوعية» البحتة منه، وهي أن يتمكن كل كاتب من «استجماع» الماضي، إن لم يكن في هدوء تام، فعلى الأقل في تجرد من الهوى، وتنزه عن الغرض، وهي مقدرة قلما تتوافر لغير الكاتب الذي أوتي ملكة الخيال.

وقد حدث في السنوات التي انقضت بين بداية الثورة البلشفية في أكتوبر، وميثاق التحالف بين هتلر وستالين، أن فتن بالشيوعية خلق لا عداد لهم من الكتاب والأدباء في أوروبا وأمريكا، ولكن هؤلاء لم يكونوا في الواقع من قبيل المعتقدن المألوفين، أو كسائر الذين تحولوا إلى الشيوعية ودخلوا في غمارها، بل كانوا في الحقيقة أشد الشيوعيين الجدد شذوذًا، وأغرب المتحولين أمرًا، لفرط ما بهم من حساسية، وتناهي ما في نفوسهم من سرعة تأثر، مثلهم في ذلك كمثل الكاثوليكي الأديب، إذا قورن بعامّة الكاثالكة؛ فقد كانوا أسمى من سواهم إدراكًا لروح العصر وأشد فطنة من الآخرين، لوجوه فشلها، ونواحي الأمل والرجاء فيها، فكان تحولهم إليها معبرًا بصورة بالغة، أو هستيرية أحيانًا، عن أحاسيس يشاركه فيها، على نحو مبهم، وبمعنى غير واضح، ملايين بُكم لم يؤتوا القدرة على التعبير، ممن أحسوا أن روسيا «في صف العمال والكادحين». ولا يخفى أن الشخص «المستنير» في السياسة هو أبدًا غير «متزن» في تقدير زملائه، لأنه إنما يتمشى حول المنعطف المثالي، أو يطل على المفترق، أما هم فلا تفارق أعينهم النظر إلى الطريق؛ وهو إنما يجازف بإيمانه على أفكار وتصورات لم تتحقق، ولا يأخذ بالحكمة والحرص فيقتصر على الولاء المؤلف. وهو على هذا النحو «متقدم» أو في هذا المعنى «متطرف». فإن جاءت الأيام مصدقة لما كان يقول به، فنعمت العاقبة، وحسنًا فعل؛ وأما إذا اتخذت الأيام منعطفًا آخر، فإما أن يتقدم ويواصل المسير إلى النهاية المحتومة، وإما أن يرضى لنفسه المهانة فيقف راجعًا وينقض أفكارًا وآراء أصبحت جزءًا من نفسه وبضعة من شخصيته.

وفي هذا الكتاب انبرى ستة «مستنيرين» لوصف رحلتهم إلى الشيوعية ومآبهم

منها، بعد أن رأوها في مبدأ الأمر من طريق طويل، ومكان قصي، كما رأى أسلافهم منذ مائة وثلاثين عامًا الثورة الفرنسية، كملكوت الله على الأرض، وراحوا - كما فعل الشاعران وردسورث Wordsworth وشيللي Shelley - يكرسون مواهبهم للعمل في تواضع وخشوع على مجيئها، والتعجيل بمقدمها، ولم تثنهم صدمات الثورين المحترفين لهم، ولا سخریات خصومهم، بل ظلوا ماضين في طريقهم، حتى بدت لهم الفجوة بين ملكوت الله الذي تصوره، وبين حقيقة الدولة الشيوعية - وعندئذ بلغ الصراع بينهم وبين ضمائرهم حدود الانفجار.

وقليل هم الذين يحق لهم أن يقولوا إنهم ألبوا حقًا على المنعطف، ووقفوا عند المفترق؛ فقد استطاع برتراند رسل Bertrand Russell أن يعيد طبع الكتاب الذي نشره في عام ١٩٢٠ وهو «البلشفية نظرية وتطبيقًا» دون أن يغير فيه حرفًا واحدًا؛ ولكن أكثر أولئك الذين رشدوا اليوم بعد غي، وسخروا من بعد يقين، ونفروا من بعد رضی، كانوا إما عميانًا، كما كان إدموند بيرك في أيامه أعمى، فلم يدركوا معنى الثورة الروسية، وإما أنهم تراوحوا مع «البندول» فذموا ثم مدحوا، ثم عادوا فذموا، تبعًا لإملاء السياسة العامة ومقتضياتها.

إن هذه الروايات الست التي يرويها أصحابها عما وقع لهم في حياتهم حَرِيَّة على الأقل بأن تكشف للناس عن مخاطر هذه المناهضة الهينة اللينة للشيوعية، بل هذه المناهضة التي تدفع إليها الظروف والضرورات، كما تكشف فتنة الشيوعية - كأسلوب من أساليب الحياة - لب رجل مسيحي في أعماقه كسيلوني Silone بضع سنين، وينم استيلاؤها على شخصيات بارزة كشخصيتي أندريه جيد Andre Gide وكوستلر Koestler عن نقص بالغ في الديمقراطية الغربية، وعيب كبير. وإن انتقال كاتب زنجي مناضل في شيكاغو كريتشارد رايت Richard Wright إلى صفوف الحزب الشيوعي، بلا تردد، ولا إحجام، لهو في حد ذاته اتهام موجه إلى أسلوب الحياة عند الأمريكيين؛ وأما لويس فيشر Louis Fisher فيمثل ذلك

الفريق الممتاز من المراسلين البريطانيين والأمريكيين الذين وضعوا إيمانهم في روسيا، لا عن احترام للشيوعية قدر ما هو عن زوال أوهامهم بسبيل الديمقراطية الغربية وانقشاع الغشاوة عن أبصارهم، ونفورهم بعد ذلك من محاولات تسكين ثائرة المتسخطين، وتهدة خواطر المستنكرين والمنددين. وهذا هو الدافع ذاته الذي دفع ستيفن سبندر Stephen Spender الشاعر الإنجليزي إلى ناحية الشيوعية، فقد بدت له الحرب الأهلية في إسبانيا، كما بدت لجميع معاصريه، محك السياسات العالمية. وهي سبب رحلته القصيرة إلى الشيوعية، وسر انتقاضه عليها فيما بعد.

وليس بين هذه الشخصيات الست المتباينة من رابطة غير شيء واحد، وهو أنهم جميعاً، بعد صراع أليم مع ضمائرهم، اختاروا الشيوعية، لأنهم فقدوا إيمانهم بالديموقراطية، وارتضوا التضحية بما في «البرجوازية» من حقوق أو «حريات»، لكي يدحروا «الفاشية».

فقد كان تحولهم إلى الشيوعية في الواقع عن يأس من قيم الحضارة الغربية وأقدارها، ومن السهل على المرء أن يستشف بالتأمل في الماضي ذلك اليأس الذي كان يعتمل في نفوسهم، ويرى أنه كان يأساً «عصبياً» أو «هستيرياً»، وإن كانت «الفاشية» قد «اندحرت» بغير تسليم في تلك «الحريات» كما كانت الشيوعية مقتضيتهم. ولكن كيف كان «سيلوني» مستطیعاً أن يتنبأ بهزيمة الفاشية في عام ١٩٢٠، حين كانت الديمقراطية تداعب موسوليني وتجاهله، ولم ينهض لتنظيم حركة مقاومة خطيرة حيالها غير الشيوعيين في إيطاليا دون سواهم. وهل كان «جيد» و«كوستلر» على ضلال مبین، حين أصبحا شيوعيين، في شعورهما بأن الديمقراطية الألمانية والفرنسية فاسدة، وإحساسهما بأنها ستستسلم غداً للفاشية صاغرة؟

إن بعض فضل هذا الكتاب أنه يهز ذاكرتنا هزة عنيفة، ويذكرنا بتلك الوحشة الأليمة التي عاناها خصوم الفاشية قبل الأوان. وهم أولئك الذين فهموها على حقيقتها

وحاولوا أن يحاربوها قبل أن تصبح محاربتها جديرة بالتقدير، حربة بالإكبار؛ فإن تلك الوحشة هي التي جعلت عقولهم تستجيب للشيوعية وتستمع إلى نداءها الجديد.

وقد كانت الاستجابة لها قوية على الأخص في نفوس الذين كانوا من الإخلاص لفطرتهم بحيث لا يرتضون الاشتراك في الإيمان العام بقيام نهضة تقدمية اعتباراً، ورأسمالية متزايدة نامية على الأيام، والقضاء على سياسة القوة في هذا العالم.

وتبين لهم أن «الكولوجية»^(١) في أمريكا، و«البلدوينية والمكدونالية»^(٢) في بريطانيا، والسلامة الجماعية^(٣) في عصبة الأمم، كانت مجرد «بهارج» بليدة مموهة أعمت أبصارنا، معاشر الديموقراطيين الفطنين الحريصين، عن رؤية الهوة السحيقة التي كنا مندفعين نحوها اندفاعاً. وقد كان هؤلاء يشعرون في أعماق نفوسهم بنذير تلك الهوة، فمضوا يبحثون لهم عن فلسفة يستطيعون تحليلها والتغلب عليها، فوجد كثير منهم في الماركسية طلبتهم، ووقعوا منها على ما كانوا ينشدون.

وكان سر فتنة «الماركسية» لعقول المستنيرين أنها قضت على نظريات الأحرار وسفسطاتهم وأثبتت حقيقة مرة، وهي أن «التقدم» لا يأتي «اعتباطاً»، وأن الرواج والكساد أمران ملازمان للرأسمالية، وأن الظلم الاجتماعي، والتعصب العنصري، لا يعالجان بمر الزمن وحده، وأن سياسة القوة هيئات أن تلغى، بل ستستخدم للشر والخير على السواء، ولم يكن في إمكان رجل مستنير بعد عام ١٩١٧ إذا هو خير بين فلسفتين ماديتين أن يختار فكرة «التقدم الاعباطي» التي رأينا فريقاً كبيراً من أهل النفوذ، يعدونها الأساس الأوحى للديموقراطية؛ وكان الاختيار يومئذ بين أقصى «اليمين» واعتزازه استخدام القوة لتدمير الحرية البشرية، وبين «اليسار» الذي كان يومئذ يلوح في لهفة على استخدامها لتحرير البشر. ولم تعد الديموقراطية الغربية

(١) نسبة إلى كوليج رئيس الولايات المتحدة مرتين بين عامي ١٩٢٣ و ١٩٢٩.

(٢) نسبة إلى بلدوين وماكدونالد وهما معروفان.

(٣) يشير إلى جهود عصبة الأمم في سبيل صون السلام الدولي.

اليوم، قليلة الخبرة، مادية متناهية في المادة كما كانت في تلك الفترة الموحشة، فترة الهدنة بين الحربين الماضيتين، ولكنها لم تبدأ تفهم أن مهمتها هي ألا تسمح «للتقدم» بأن يؤدي عنها عملها، ويتولى عنها واجبها، بل تتكفل بإيجاد بديل من الثورة العالمية من طريق التعاون بين الشعوب الحرة. نعم، لم تبدأ تفهم مهمتها هذه إلا بعد حربين عالميتين، وثورتين دكتاتوريتين!

وإذا كان اليأس والدهشة هما الدافعين الكبيرين إلى اعتناق الشيوعية، فقد وجدنا نصيرًا قويًا لهما في الضمير المسيحي، وظهيرًا بالغًا. فإن الرجل المستنير شعر بوخز المسيحية الأرثوذكسية، وإن كان قد تنحى عنها، وهجر عباداتها وشعائرها، بل لقد كان شعوره بهذا الوخز أشد وقعًا في نفسه منه في نفوس خلق كثير من جيرانه الذين ألفوا الذهاب إلى الكنيسة، ولم يؤثروا القدرة التي أوتيتها على التفكير في الدين، والبحث في جوهره وصميمه، لأنه أدرك على الأقل مبلغ الظلم الذي يقترن بالمركز الذي يحتله في المجتمع والامتيازات التي يستمتع بها، سواء ما كان منها بحكم العنصر أو الطبقة أو التعليم. ولعل سر استجابة العاطفة لدعوة الشيوعية وفنونها في تلك التضحيات المادية والمعنوية التي تطلبها من المعتقد لمبادئها. ولك أن تسمي هذه الاستجابة رضى بالألم^(١)، أو تصنفها بأنها رغبة صادقة في خدمة البشرية؛ ولكن أيًا ما تدعوها، فلا تزال فكرة قيام «رفقة» أو «زمالة» عملية في النضال، زمالة تقتضي التضحية الشخصية وإلغاء الفوارق بين الأجناس والطبقات، قوة الأثر في كل ديموقراطية غربية؛ ولا يخفى أن مبلغ فتنة الحزب السياسي العادي رهن بمدى ما يقدمه إلى أعضائه، فلا عجب إذا كان مبلغ فتنة الشيوعية أنها لا تقدم شيئًا، بل تقتضي كل شيء حتى التسليم في الحرية الروحية والرضوخ^(٢) بكل معانيها ومطالبها.

وفي هذا تعليل لظاهرة طالما أحرقت المفكرين، وأعجزت الباحثين، وهي كيف

(١) في الأصل ماسوكيزم، أي رضى بالعذاب عن اختلال في الحاسة الجنسية أو نحوها.

(٢) رضى بالشيء: أعطاه وسلم فيه.

ارتضى هؤلاء المستنيرون نظريات ستالين وتعسفاته؟ والجواب ستجده متناثرًا في الصفحات التالية، فإن المناعم المادية في نظر الرجل المستنير لا تهم، وإنما أكثر اهتمامه منصرف إلى الحرية الروحية، وكانت قوة الكنيسة الكاثوليكية وسلطانها الدائم أنها تقتضي التضحية بتلك الحرية بلا رفق، والتخلي عنها بلا هوادة، وحكمها على الكبرياء بأنها ذنب عظيم، وإثم لا يغتفر؛ وقد كان الشيوعي الجديد في إخضاع روحه لقانون الكرملين يشعر بشيء من تلك الراحة النفسية ذاتها التي توحى بها «الكثلكة» إلى نفس الرجل المستنير الذي يستشعر الألم الواخز من استمتاعه بامتيازات دون الكافة، وحرّيات دون الآخرين.

ويوم يرتضى المستنير التخلي عن حريته الروحية، لا يلبث ذهنه أن يصبح بكليته في خدمة هدف لا يخالجه الشك في سلامته، وغاية لا يساوره الريب في صدقها بدلًا من أن يفكر طليقًا، ويتأمل حرًا من كل قيد أو سلطان، بل إن إنكار الحقيقة يصبح خدمة تؤدي، وعملاً حسنًا. وهذا هو بلا شك السبب في أن مناقشة شيوعي ما في أي ناحية من نواحي السياسة عقيمة لا جدوى منها، وكل اتصال ذهني صادق به ينطوي على تحد لإيمانه، واصطدام بيقينه، وإثارة بالغة لروحه. ولهذا كان تقديم الكبرياء على مذهب الثورة الشيوعية أسهل كثيرًا من انتزاعها منه واستردادها.

وقد يكون هذا سببًا من الأسباب التي جعلت الشيوعية أكثر نجاحًا في الأقطار الكاثوليكية منها في الدول البروتستانتية؛ لأن البروتستانتية، في الأصل على الأقل، يأبى عليه ضميره أن يرتضى الرضوخ بالروح لأي سلطة مستأثرة، ويعتقد أنه يعلم الشر والخير، ويدرك الحق والباطل، بنور قلبه، وضياء روحه، وأن الديموقراطية عنده ليست مجرد شكل مريح أو عادل من أشكال الحكم، بل ضرورة تقتضيها الكرامة الإنسانية. مثله في ذلك كمثل «برومسيوس»^(١) الذي سرق النار من السماء واستقر إلى الأبد

(١) «برومسيوس» في أساطير اليونان: هو نصف إله صنع الإنسان من صلصال، وسرق النار من جبل أوليمب، وعلم الإنسان استخدامها، فعاقبه «زفس» رب الأرباب بقيده في الأغلال.

على جبل القوقاز ينقر النسر كبده، لأنه أبى التسليم في حق معاونة بني البشر بالعقل والهدى. وإني لأسائل نفسي أحياناً ما بالي يوم كنت فتى حدثاً أقيم مع ويلي منزبرج Willy Munzinberg الزعيم الشيوعي في برلين لم أقبل إغراءه إياي بقبول الدعوة إلى الذهاب معه إلى روسيا، وإن كانت شخصيته الرائعة قد أسرتني، تلك الشخصية التي وصفها آرثر كوستلر في هذا الكتاب. وكانت الماركسية تبدو لعيني الجزء المكمل للفلسفة الأفلاطونية، وهي يومئذ موضوع بحثي وجوهر دراستي. وكنت في صيف عام ١٩٣١ على يقين يخالطه زهو بأن الديمقراطية الاشتراكية في ألمانيا سوف تتداعى أمام النازية، وأن نشوب الحرب أمر لا مفر منه حين يستولي هتلر على مقاليد السلطان.

فليت شعري إذن ما الذي جعلني في أعماقي لا أستجيب لنداء الشيوعية وفتونها؟ والجواب أن مرجع ذلك في ملتي واعتقادي إلى «العناد»، أو إن شئت قل إلى «الكبرياء». فلست أرى عليّ سلطاناً لأحد، كائنًا من كان، يستوي في ذلك الروحي والزمني. وهذا هو بعينه الباعث الذي يستطيع المرء أن يجده في شأن «ستيفن سبندر» فقد رأيناه عقب انضمامه إلى الحزب الشيوعي ينشر في جريدة «الديلي وركر» مقالاً سداه ولحمته «الانحراف» عن الشيوعية، لمجرد التصلب والعناد. وأميل إلى الاعتقاد بأن تجاربه في الشيوعية كانت متسمة في الواقع بالطابع «البريطاني». أشبه شيء بما كان من أمر «الرفيق» الذي وصفه لنا «سيلوني» في روايته التي يحدثنا فيها عن نفسه؛ فإن تأثيره الساذج بأكذوبة متعمدة أثارت الضحك في جميع أرجاء «الكرملين». فنحن البريطانيون نُخرَج من الزنادقة - أو الهراطقة - أكثر مما ينبغي، وهم عندنا كثر متوافرون، لما ركب في نفوسنا من النفور الشديد من فكرة «العصمة» من الذنوب. ولكن لا تنس أن هنري الثامن كان في زمانه مثال المؤمن «بالتيتوية»^(١)!

(١) نسبة إلى المارشال تيتو الذي بصر على أن الشيوعية التي يؤمن بها هي الشيوعية الصحيحة الصادقة، وإن كان في الوقت ذاته قد انصرف عن روسيا وشيوعية ستالين. وكذلك كان هنري الثامن بصر على أنه ما فتى مسيحياً كاثوليكياً صميماً، وإن كان في سلوكه وتصرفاته يبدو من المسيحية بعيداً.

ولكن لنعد إلى أوروبا.

إن من أعجب الأسرار التي كشفت عنها هذه الروايات الست التي سنوردها في هذا الكتاب موقف الشيوعيين «المحترفين» من المستنير الذي تحول إلى الشيوعية. فهم لا ينفرون منه ولا يستريبون به فحسب، بل الظاهر أيضًا أنهم يعرضونه لتعذيب بالغ، وإيلاء شديد، واضطهاد عقلي مقصود. وكانت هذه المعاملة في بداية الأمر لا تزيد إلا إيمانًا. بل كانت في الواقع تنمي فيه الشعور بالذلة والضعفة حيال العامل الكادح الصادق في شيوعيته، الأصيل في عقيدته. وكان يرى من المتعين عليه أن يحقق بالتدريب النفسي الصفات التي كان يصور الخيال له، من فرط الإعجاب، أن العامل إنما أوتيتها بالسليقة، واكتسبها بالفطرة. ولكن من الجلي أن هذا الشعور لا يلبث أن يتغير، وسرعان ما يفطن إلى حقيقة الأحوال في روسيا. وعندئذ تستحيل الذلة الأولى التي كان يستشعرها، والتي رأينا «سيلوني» في روايته يجيد وصفها، إلى ذلك الإيمان الذي أوحى به ماركس، على الرغم من سخريته البالغة من الصقالبه Slavs، وهو أنه من المتعين على الغرب «تنوير» الشرق، وعلى الطبقة الوسطى تنوير الطبقة الكادحة.

وكان هذا الاعتقاد بداية انقشاع الأوهام التي كانت مهيمنة على أذهان الذين اعتنقوا الشيوعية ثم ارتدوا، بل بداية التشفع والاعتذار عن البقاء في حزبها. أما انقشاع الأوهام فلأن الدافع الأكبر إلى اعتناقها هو اليأس من الحضارة الغربية بعد أن تبين لأولئك المستنيرين أنها تحوي قيمًا توجب الالتجاء إلى الشيوعية الروسية. وأما الاعتذار فلأن الحجة التي يتيسر لهم التذرع بها هي أن القسوة الشرقية من شأنها، إذا توارى النفوذ الغربي، أن تحيل الدفاع عن الحرية الإنسانية إلى طغيان مقيت، وسلطة غاشمة. وهنا يبدو الصراع الرهيب في أعماق الضمير. ذلك الصراع الذي وصفه «أندريه

جيد» في عرض قضية الغرب القديمة ضد الشيوعية الروسية^(١).

ولولا الحرب الأهلية في إسبانيا، والسياسة التي اتبعتها الغرب حيالها، وهي الامتناع عن التدخل فيها، لارتد بعد أندريه جيد في عام ١٩٣٠ ألوف من «المستعيرين». فإن مأساة الحرب الإسبانية، والحملة المنظمة لإقامة جبهة شعبية حيال «الفاشية»، ساقتا بجيل كامل من الشباب الغربيين إلى معسكر الشيوعية، أو إلى الاتصال الوثيق به، واحتجزت خلقاً كثيراً آخرين عن «الردة» إلى الديمقراطية؛ وإن كانوا قد اشمأزوا مما شاهدوه، وانقلبوا مما عانوه ساخطين.

أما قصة ريتشارد رايت، فلها شأن خاص، وخطر قائم بذاته، لأنها تدخل على المسرح الأمريكي مشاهد «الروح الاستعمارية» Imperialism ونتاجها ومعقاتها، ومناظر «العنصرية» Race ومساوئها وموبقاتها؛ فقد شعر، وهو زنجي يعيش في أكواخ شيكاغو وأعشاشها، بما لم يشعر بمثله أحد من المستعيرين الغربيين، شعر بسلطان عقيدة جديدة تبدو كفيلة برد حاسم كامل على مشاكل المظالم الاجتماعية والعصبيات العنصرية. وبينما ترى الكتاب الآخرين في أحاديثهم التي يجمعها هذا الكتاب قد ضحوا طواعية بمراكزهم الشخصية وحياتهم الخاصة بقبولهم «النظام الشيوعي»، نجد «رايت» يعد هذا النظام سراحاً رائعاً لقوة مكبوتة وإطلاقاً بديعاً لمواهب وملكات محتبسة، وننبين أنه إنما «ضحى» حين غادر صفوف الشيوعيين.

فقد مضى في قصته يقول: «لقد كنت أحس في أعماق قلبي أنني لن أستطيع بعد

(١) وذلك أن أندريه جيد أبدى استعداداً للمساهمة في هذا الكتاب قبل إعداده، ثم تبين له بعد ذلك أن حالته الصحية لا تسمح له بتأدية هذه المهمة، فأسفت لهذا أشد الأسف، ولم أشأ أن أخسر هذا العنصر الخطير من عناصر هذه الدراسات. ولشد ما سرنى أن أعهد إلى الدكتورة إينيد ستاركي بتنسيق ما كتبه أندريه جيد وإعداده للنشر، فمكفت على العمل، واستشارته فيه، وقد أقر ما كتبه في النهاية وأذن به، وهكذا جاء النص من عملها، ولكنها بنته على فقرات بأعيانها من رسالتين كتبهما عقب رجعه من روسيا، كما استأنست بما ورد في «مذكراته» ومناظرة جرت في دار «البحث عن الحقيقة» في باريس عام ١٩٣٥. وأحب هنا أن أقدم إلى الدكتورة ستاركي شكري وشكر الناشر على إجادتها هذه المهمة الشاقة، وعلى عنوان الكتاب، لأنها هي التي اقترحت علينا.

اليوم أن أكتب بذلك الأسلوب الذي كنت أكتب به، ولن أشعر بذلك الشعور الحاد المرهف الذي كنت أستشعره، ولن أعبر بعد الآن عن الأمل الوثاب الغلاب في النفس، التعبير الحماسي البليغ الذي كنت أعبره من قبل، ولن أعود أسلم بالإيمان تسليماً....».

إن هذا الاعتراف المحزن إنما هو تذكرة بأن الشيوعية، مهما طاشت سهامها في الغرب، فلا تزال القوة «المنقذة» و«العامل المحرر» بين الشعوب الملونة Coloured Peoples التي تؤلف الأكثرية الكبرى من البشر، وإن «رايت» كزنجي أمريكي إنما ينتمي إلى تلك الأكثرية، وفي الوقت ذاته لا ينتمي للديموقراطية الغربية. فقد رأيناه ككاتب أمريكي. أشربت نفسه معاني الكرامة الإنسانية كما يؤمن الغرب بها، وتأثرت مشاعره بالقيم الغنية فيه، يصطدم بالجهاز الشيوعي. ولكنه كزنجي راح يبعث من أعماقه تلك الصيحة المحزنة، ويرسل من صدره تلك العبارة الحرى عقب انصرافه عن الحزب الشيوعي. وهي قوله «سأكون لهم، حتى وإن لم يكونوا لي» I'll be for them, even if they are not for me. ولكن ملايين من أفراد الشعوب الملونة لا يستهدفون لهذا الصراع النفسي الذي استهدف له ريتشارد رايت؛ فلا تزال الديموقراطية الغربية في اعتقادهم «رفعة البيض» وسموهم على السود أو الصفر، ولا تزال الشيوعية خارج حدود القارة الهندية حيث تحققت المساواة بفضل براعة الساسة الغربيين، رسول الخلاص بين الشعوب الملونة. وفي وسع «المستنير» من أهل الصين أو أفريقيا أن يقبلها على هذا المعنى ذاته دون أن يدمر شيئاً من شخصيته.

ولعل هذا هو سر الخلاف المشاهد بين الروس وبين الجهاز الحزبي في مسلكه إزاء «المستنيرين» الغربيين. ولعل الكرملين تحسب أن نفوذ هذه الطبقة المخلصة الموثوق بها سيتلاشى أو يصبح شيئاً لا يكاد يذكر، إذا جاءت الحرب القادمة، فإذا هي يومئذ صراع بين الشعوب الكادحة وبين خصومها، لا بين طبقة وأخرى داخل الشعب ذاته.

ومهما يكن من الأمر فلا نزاع في أن معاملة الجهاز الشيوعي للمستنير الغربي وحشية قاسية؛ ولو أن الكومنترن Comintern أظهر شيئاً من الاحترام والتقدير له من الحين

إلى الحين خلال الثلاثين عامًا الماضية، لظفر بتأييد أكبر فريق من معاصر التقدميين في مختلف أرجاء العالم الغربي وبقاعه؛ ولكن الظاهر أن الكومنترن إنما قبل من بداية الأمر ذلك التأييد متكرهًا، ومضى يحاول جاهدًا استنفارهم، ويعمل على إقصائهم؛ حتى لقد رأينا أن أحدًا من هؤلاء الكتاب الذي سقنا في هذا الكتاب أحاديثهم لم يخرج على الشيوعية طائعًا راضيًا، ولا غادر صفوفها مستريح الضمير. ولم يكن أحدهم ليردد في العودة إليها خلال مرحلة الانسحاب التي وصفها في قصته لو أن الحزب الشيوعي أولاه نظرة فهم، ولمحة إدراك، لما كان يؤمن به من الحرية البشرية والكرامة الإنسانية.

ولكنه لم يفعل، بل ذهب الجهاز الشيوعي عن عمد لا هوادة فيه، وتدبير مقصود لا يداخله تردد، يغربل الحب، ولا يبقى من الثقافة الغربية إلا التبن والقش.

وماذا يحدث للشخص الذي يتحول إلى الشيوعية حين يتنحى عنها ويتنصل من صفوفها؟

إن لويس فيشر وستيفن سبندر وأندريه جيد لم يعملوا يومًا مع اللجنة الداخلية في الحزب، ولا اشتغلوا عن كذب من ساداته وأهل السلطان فيه، بل إن فيشر في الواقع لم ينضم إلى الحزب في وقت ما، وإنما كانوا جميعًا، إخوان سفر، ورفقة في القافلة، فلم تفرغ شخصياتهم في قوالب الشيوعية، ولم يندمجوا بها في صميم حياتها، ولهذا لم يكن ارتدادهم، على ما فيه من ألم بالغ، وعذاب شديد، مفسدًا لطبائعهم، أو مشوهًا على الدهر لفطرهم وسليقاتهم.

أما سيلوني وكوستلر وريتشارد رايت فلن يفلتوا يومًا من الشيوعية وبرائتها، بل سيقضون حياتهم إلى النهاية في إسارها، متأثرين آخر الدهر بمنطقها وكلامها، وستكون المعركة بينهم وبين الاتحاد السوفييتي صورة ماثلة لصراع نفسي رهيب في حنايا نفوسهم.

والواقع أن المتمرّد الصادق لن يسترد شخصيته كما كانت أول مرة، وقد رأينا كيف أصبح هذا الصراع عند رجل مثل كوستلر منبع إنشائه، ومصدر جهده، ومنبت تفكيره

وتأملاته. وحسبه أنه في بعض قصصه، وهي «اليوغي» و«القوميسار» يصف كيف نظر اليوغي في المرأة، فرأى نفسه «قوميسارًا» فحطم المرأة حنقًا وغضبًا. وليس ما يكتبه اليوم «تطهرًا» يجلب السكينة، وينزل على النفس بردًا وسلامًا، ولكنه استجواب قاس لها، وبحث في الحركات العالمية التي تنعكس عنها؛ استجواب نفس أخرى غير مبالية بالأم، ولا مكترثة بتعذيب.

وقد استطاع «سيلوني» باستدارته دورة كاملة في الأوبة إلى تعاليم المسيحية التي تركها أن يحقق توازنًا نفسيًا جعله «بمنأى» عن الصراع، ومبعدة عن العراك الناشب في أعماق النفس وأغوارها، وأمسى اعتقاده الأساسي، تقديس كل محاولة من النفس في التفوق على ذاتها، وتقدير كل ما يتصل بأسباب قلقه الدائم، وثورته الأبدية.

وجملة القول أن دراسة هذه المحن التي خاضها أولئك الكتاب الستة تسفر عن شيء واحد، لا يداخله ريب، وهو ما عناه «سيلوني» بقوله لتوليأتي مازحًا: «إن المعركة الحاسمة ستكون بين الشيوعيين، والمرتدين عن الشيوعية. ولكن لن يستطيع أحد أن يفهم حقًا قيم الديمقراطية الغربية، إذا هو لم يسبق له صراع مع الشيوعية كفلسفة، ولا مع الشيوعيين كخصوم سياسيين».

لقد كان إبليس يومًا مقيمًا في الجنة، ولا أحسب الذين لم يلتقوا يومًا به قادرين على تمييزه «كملاك» إذا هم رأوه!



معلومات موجزة عن الرواة في هذا الكتاب

آرثر كوستلر

ولد في بودابست يوم ٥ سبتمبر عام ١٩٠٥ من أب مجري، وأم نمساوية من أهل فيينا، وتلقى التعليم فيها، ولبث عامين كاملين يطوف أرجاء الشرق الأدنى، ثم عُيِّن فيه «مراسلاً» لمجموعة صحف أولشتاين Ulstein في برلين، وهي صحف الأحرار، وانضم إلى الحزب الشيوعي في ٣١ ديسمبر عام ١٩٣١، وخرج منه في ربيع عام ١٩٣٨ بعد أن زجت به السلطات الإسبانية على عهد فرانكو في غيابة السجن خلال الحرب الأهلية التي وصفها في جريدة «العهد».

وسجنته الحكومة الفرنسية مرة أخرى في عام ١٩٣٩، ولكنه فر إلى بريطانيا لينخرط في الجيش البريطاني عام ١٩٤٠.

وتشمل تواليفه «الظلام في الظهيرة Darkness at Noon» و«الطغام» - أو «حتالة الأرض Scum of the Earth» و«القدوم والرحيل» و«لصوص الليل» و«اليوغي والقوميسار» و«البصيرة والبصر Insight and Outlook» و«الوعد والتنفيذ Promise and Fulfilment».

إجنارزيسيلوني

ولد في أول مايو عام ١٩٠٠ في بسكينا دل مارسي إحدى القرى القائمة في جبال «الأبينين» في سفوح «أبروزي» Abruzzi. وكان أبوه من صغار المالكين، وأمه نساجة Weaver. وفي الحرب العالمية الأولى عين وهو يومئذ يناهز السابعة عشرة «سكرتيرًا» لجماعة العمال الزراعيين في ولاية «أبروزي»، وسبق به إلى المحاكمة بتهمة تنظيم مظاهرة عنيفة احتجاجًا على دخول الحرب. وفي عام ١٩٢١ ساهم في تأسيس الحزب الشيوعي الإيطالي، وتولى تحرير مجلة أسبوعية تدعى «الطليلة» في روما، وجريدة يومية تدعى «لافوراتوري» في تريستا، وظل مقيمًا في إيطاليا حتى بعد تنفيذ القوانين الخاصة التي اشترعت ضد خصوم «الفاشية» وإصدار صحف غير مشروعة.

وفي عام ١٩٣٠ بعد أن سجن وأبعد من عدة دول أوروبية استقر به المقام في سويسرا حيث لبث إلى عام ١٩٤٤، وكان خروجه من الحزب الشيوعي في عام ١٩٣٠، وبعد عشرة أعوام من ذلك التاريخ قبل الاضطلاع بإدارة القسم الأجنبي في الحزب الاشتراكي الإيطالي، وهو الذي تولى تنظيم الحركة التي جعلت تنادي بقيام «جبهة ثالثة».

مؤلفاته -رواية «فونتمارا» Fontmara في عام ١٩٣٠ - «الخبز والنبذ» في عام ١٩٣٧ - «مدرسة الطغاة» - «محاورات» ١٩٣٨ - «البذرة تحت الجليد» ١٩٤٠، وأخيرًا مسرحية «وقد أخفى نفسه» And He did hide himself.

ريتشارد رايت

ولد في ٤ سبتمبر عام ١٩٠٨ في مزرعة تبعد مسيرة خمسة وعشرين ميلاً من ناتشز Natchez في ولاية مسيسيبي، من أبوين زنجيين فقيرين، وقد تولى عنه أبوه فكفلته أمه، وكانت تشتغل «غسالة»، ولكنه أصيب في طفولته بالشلل، فتولته جدته وأرسلته إلى مدرسة خيرية. وفي الخامسة عشرة ترك الدار، وخلف العشيرة، واشتغل عامين في مدينة «مفيس»، وقرأ يومئذ كتاب «مقدمات» لمنكن Mencken Prefaces، فلم يلبث أن اعتزم أن يصبح كاتباً، ونزح إلى شيكاغو وهو يحمل مائة وخمسين ريالاً في جيبه، ومضى يكسب قوته بمختلف الحرف ومنوع الأعمال حتى اضطره الكساد إلى ترك العمل والتبطل فانضم إلى الحزب الشيوعي من طريق نادي جون ريد John Reed Club.

مؤلفاته: - «أبناء العم توم» Uncle Tom's Children وهي مجموعة قصص، وقصة «كيف ولد بيجر» و«الابن الوطني» و«الغلام الأسود» Black Boy.

أندريه جيد

ولد في باريس خلال شهر نوفمبر عام ١٨٦٩، وتلقى العلم في البيت ثم ذهب إلى المدرسة الإلزامية في باريس، وكان طيلة حياته رجلاً صاحب موارد، فلم يحتج يوماً إلى كسب الرزق بالانخراط في مهنة ما أو صناعة معينة؛ وقد أغناه صلاح أمره عن الكدح، فطارت في أفق الأدب شهرته، ووضع وهو في العشرين من العمر «الأغذية الأرضية» Nourritures Terrestres وهو الكتاب الذي قيص له أن يحدث أثراً بالغاً في نفسية الجيل الذي تلا الحرب العالمية الأولى، ومن بين كتبه «الباب الضيق» و«السيمفونية القروية» و«أوديب» و«تيزيه» Thésé.

ولكن لعل «يومياته» هي أبلغ ما كتب وأنسب ما تكون لعبقريته الفذة ومواهبه المعلمة، لأنه يتجلى فيها الكاتب الأخلاقي الناصح على منوال القدامى. وأكبر الظن أن نبالة اتجاهاته، ورفعة آرائه، ونقاوة أسلوبه تضعه في مصاف السادات والأعلام في الأدب الفرنسي؛ وقد منحته جامعة أكسفورد في شهر يونية عام ١٩٤٧ الدكتوراه الفخرية في الفلسفة، وكان ذلك أول شرف ناله في حياته، وإن كان يومئذ قد أسند إلى الثامنة والسبعين، كما ظفر بجائزة «نوبل» في الأدب قبيل نهاية ذلك العام.

ولم يكن أندريه جيد يومًا عضوًا في الحزب الشيوعي ولكنه كان معنيًا بمتابعة سير التجربة الشيوعية في روسيا، ويرى أن في نجاحها الوسيلة الوحيدة لإنقاذ البشرية مما تعانيه. وقد زار روسيا في شهر يونية عام ١٩٣٠ تلبية لدعوة من «جمعية المؤلفين» الروس، ولكنه عاد متبرمًا مستنكرًا، وأدرك أنه كان واهمًا، ورجع ينادي بما كان به مناديًا، ونعني به مبادئ «الفردية»، ومذاهب الأحرار. ولم ينشر بعد «تيزيه» منذ عام ١٩٤٦ شيئًا جديدًا، ولكنه راح يتوفر على جمع تواليه، واستكمال «يومياته».

الناقل: «وكانت وفاته في شهر فبراير من العام الحالي - ١٩٥١».

إينيد ستاركي

ولدت في كيلني بولاية «دبلن» في أيرلندا، وكان والداها المرحوم الرايت أونورابل و. ج. م. ستاركي من العلماء الإحصائيين في الفلسفة الإغريقية القديمة، ومندوبًا ساميًا للتعليم في أيرلندا على عهد الحكم البريطاني. وقد تلقت تعليمها في كلية إلكسندرة بدبلن وكلية سومرستفيل في أوكسفورد والسوربون في باريس، وتوفرت على دراسة الأدب الفرنسي، وأحرزت إجازة الامتياز من الدرجة الأولى من أكسفورد، والدكتوراه من جامعة باريس ودكتوراه في الآداب من أكسفورد ومنحت وسام «فرقة الشرف» - اللجيون دونير - لمساهمتها في الآداب الفرنسية.

وتشمل مؤلفاتها في الإنجليزية بحوثًا ودراسات عن مؤلفات ريمبو Rimbaud وبوديلير وغيرهما من الكتاب، وقد توجت بعض كتبها بإقرار من المجمع الفرنسي -الأكاديمية- وهي الآن تشغل منصب «محاضرة» في الأدب الفرنسي بجامعة أوكسفورد، و«زميل» Fellow في كلية سومرفيل.

لويس فيشر

ولد في ٢٩ فبراير عام ١٨٩٦ في فيلادلفيا وقضى بضع سنين يشتغل بالتدريس، ثم ساهم في الصحافة، وأوفد إلى برلين في عام ١٩٢١ من قبل صحيفة «نيويورك بوست» ولبث خمسة وعشرين عامًا يطوف أوروبا وآسيا. ولم ينخرط يومًا في سلك حزب سياسي، ولكنه كان نصيرًا لروسيا ثم مؤيدًا للجمهورية الإسبانية، وظل طيلة الحرب الأهلية في إسبانيا يوافي العالم بأخبارها. تواليفه: السوفييت ومكانهم من الشؤون العالمية - الرجال والسياسة - التحدي الأكبر - غاندي وستالين - الثلاثة عشر الذين هربوا. وهو الآن يضع دراسة وافية عن حياة غاندي.

ستيفن سبندر

شاعر وناقد أدبي، وابن الكاتب الحر المعروف، إدورد هارولد سبندر، وكان مولده في عام ١٩٠٩ وتلقى بعض علومه في سويسرا وبعضها الآخر في جامعة أكسفورد وبدأ ينظم الشعر فيها مع داي لويس Day Lewis وأودن Auden. واندمج في دنيا السياسة عام ١٩٣٠ فوضع كتابه «خطوة أخرى بعد مذهب الأحرار» عام ١٩٣٧. ولم يلبث أن انضم إلى الحزب الشيوعي ولكنه لم يقض فيه إلا أمدًا قصيرًا.

وفي عام ١٩٤٦ عكف على دراسة النازية وأثرها في نفسية الشباب الألمان، لتقديم

تقارير عنها إلى قلم المخابرات السياسية بوزارة الخارجية البريطانية.
ونشرت بواكير قصائده عام ١٩٣٣، ونقداته الأدبية «العنصر الهدام» عام ١٩٣٥،
وكتابه «شاهد من الغرب» عام ١٩٤٦. وهو الآن يجمع ديوانه.

ريتشارد كروسمان

كان مولده في ١٥ ديسمبر ١٩٠٧ من أب كان يشتغل أولاً بالمحاماة ثم انتقل إلى
القضاء. وقد تلقى علومه في كلية ونشستر في جامعة أكسفورد حيث برز في الأدب
والفلسفة، وظل في الجامعة «زميلاً» ثمانية أعوام يدرس للطلبة فلسفة أفلاطون
والعلوم السياسية. وفي الفترة ذاتها بدأ حياته السياسية كاشتراكي في مجلس المدينة،
ورشح نفسه في عام ١٩٣٧ للانتخاب عن حزب العمال عن دائرة كوفنتري وفاز
بالمقعد في انتخابات عام ١٩٤٥.

وفي عام ١٩٣٧ عين مساعد رئيس تحرير لجريدة «نيو ستيتسمان ونيشن»، وهو
لا يزال محتفظاً بهذا المنصب، واشتغل خلال الحرب الأخيرة في وزارة الخارجية
البريطانية أولاً ثم انضم إلى هيئة أركان حرب الجنرال أيزنهاور كخبير بالألمانية
ليتولى الدعاية بها.

وفي عام ١٩٤٦ اشتغل مع اللجنة البريطانية الأمريكية التي عهد إليها البحث في
مسألة فلسطين. وقد انتهى الأمر به إلى الوقوف في طليعة المعارضين لسياسة بيفن.
تواليفه: أفلاطون اليوم - الحكومة والمحكومون - لجنة فلسطين.

القسم الأول
«المبتدئون»

أرثر كوستلر

-١-

لا يكتسب الإيمان بالحجة والمنطق. والمرء لا يقع في حب امرأة، أو يدين بمذهب، أو يعتنق ملة، نتيجة إقناع، أو وليد منطق. وقد تدافع الحجة عن فعل من أفعال الإيمان، ولكن ذلك إنما يأتي بعد انتهاء الفعل، وارتباط الفاعل به؛ وقد يكون للحث أو الحض أو الإقناع أثر في تحويل المرء من اعتقاد إلى اعتقاد، وانتقاله من مذهب إلى مذهب، ولكن دور الحث أو الإقناع لا يتعدى مجرد الوصول بعملية نفسية ظلت دهرًا طويلًا تختلج وتستوي وتنضج في ناحية لا ينفذ إليها الحث، أو يخرقها الإقناع، إلى ذروتها الكاملة، وأقصى حدود الإحساس بها واليقين.

الإيمان لا يُكتسب، وإنما ينمو نمو الشجر. وإن رأسه ليذهب في السماء، وقمته لتمضي مصعدة في الأفق؛ أما جذوره فتغيب في أعماق الماضي، وتغذي من عصارة تربة الأجداد، ونشأة السلالة، وتنقل الأجيال في التاريخ.

وليس ثمة فارق كبير، في رأي علماء النفس، بين عقيدة جديدة، وعقيدة قديمة، أو بين مذهب ثوري وآخر تقليدي. وكل إيمان صادق لا يعرف التراوح، ولا يطبق المهاودة، لأنه إيمان أصيل نقي. ومن هنا نرى الحريص الحق على القديم، متحمسًا ثائرًا في نضاله وصراعه حيال «الفريسيين» Pharisees أو «الملاحدة» أو معاصر الفاترين المفسدين للعقيدة والعابثين بالدين، والعكس بالعكس، فإن الإيمان «بالأمثلة

العليا» في العصر الحديث، هذا الإيمان الذي يلوح في الظاهر رمزًا للتمرد التام على الماضي وتحطيم كل ارتباط به، إنما يتشكل طبقًا لصورة من الفردوس المفقود، أو ترسم معالمه على غرار عصر ذهبي قديم، أو عهد كان صالحًا في ماضي الأحقاب وسالف القرون.

ولم يكن ماركس وأنجلز Engels يرميان من قيام مجتمع شيوعي لا فوارق فيه ولا طبقات، إلا إلى تجديد الجماعة الشيوعية البدائية، التي كانت قائمة عند نشأة العالم الإنساني وبداية تكوينه، بعد أن ينتهي البحث في الشيوعية والدرس، والأخذ والرد بين علماء الكلام ومناطقته.

وكذلك كل إيمان صحيح ينطوي في ذاته على تمرد وسخط وتبرم بالبيئة الاجتماعية الراهنة، والتقدم إلى المستقبل بفكرة جديدة، أو مثل عليا، مستمدة من الماضي البعيد. وكل المثل العليا، ومطالب الكمال، أو «الطوبوية»^(١) إنما تتغذى من أساطير الأولين. وليست تصميمات المهندس الحديد في بناء صروح المبادئ الاجتماعية، ولا أوراقه الشفافة الزرقاء اللون، إلا طبقات منقحة من النصوص الغابرة.

إن التفاني في مثل عليا نقية، والتمرد على مجتمع فاسد ملوث، هما إذن القطبان اللذان تنهض عليهما قوة جميع العقائد المجاهدة. وما سؤالك: أيهما يمد التيار الحاضر ويشير الأمواج المتقاذفة: أهو الفتون بالعقيدة الجديدة، أم النفور من البيئة الحالية؟ - إلا ترديد للسؤال القديم، حول الدجاجة والبيضة. ومن رأي علماء النفس أن كلا من اللفظة على المثل العليا والسخط على «الوضع الحاضر» هو بعض أعراض الاختلال الاجتماعي وعلاماته. ولكن المصلحين الاجتماعيين يرون فيهما العكس، ويعتقدون أنهما من المظاهر الاجتماعية السليمة، والاستعداد الحسن للإصلاح والتنظيم. وقد ينسى علماء النفس أو يتناسون أن الإصلاح اللين الرفيق لمجتمع مشوه

(١) Utopia لعلها من «طوبى» على وزن فعلى، فيقال لك: «طوبى لك» وطوباك أيضًا، وطوبى اسم شجرة في الجنة.

لا يخلق إلا أفرادًا مشنوثين^(١) مشوهين مثله. كما قد ينسى المصلحون الاجتماعيون أن الكراهية، ولو لشيء كرهه في ذاته، لا يمكن أن تثمر المبرة والعدالة اللتين ينبغي أن يقوم عليهما كل مجتمع صالح.

ومن هنا يصح لي أن أستخلص أن كلتا الوجهتين: رأي العالم النفسي، ونظرة العالم الاجتماعي - تصور نصف الحقيقة، ولا ترسم الحقيقة كاملة.

ولست أنكر أن تاريخ جمهرة الثوريين والمصلحين يكشف لنا عن صراع عصبي بينهم وبين الأسرة، أو المجتمع؛ ولكن هذا ليس إلا دليلًا - كما يقول ماركس - على أن المجتمع المريض لا يخرج غير «لحادين» مرضى يحفرون له قبره.

ولست أنكر أيضًا أن الموقف المشرف الأوحى في وجه كل ظالم صارخ، هو التمرد عليه، وترك البحث والدرس والتأمل إلى وقت أفضل، وفرص أسنح وأصلح؛ ولكن إذا نحن عدنا إلى التاريخ، وقارنا بين الأهداف العالية التي قامت الثورات باسمها، وبين الخواتيم السيئة التي انتهت إليها - تبين لنا، في أكثر من شاهد، كيف لوثت الحضارة المدنسة ثمارها، ودنست ذرايعها، وأخرجت أسوأ البنين.

أما إذا جمعنا بين نظرة العلماء النفسيين، ونظرة العلماء الاجتماعيين، وكتاهما نصف الحقيقة، أدركنا أنه إذا كان فرط التأثير بالظلم الاجتماعي والتلهف الملح على المبادئ المثلى هما علامة اختلال عصبي، فإن المجتمع قد يصل مع ذلك إلى حال من الانحلال يصبح فيها التأثير المختل الأعصاب أهون ذنبًا عند الله وأخف جرمًا من العاقل السليم الذي يأمر بإلقاء الخراف^(٢) في اليم مغرقة على أعين قوم جياع ساغبين!

كذلك كانت حالة حضارتنا، في شهر ديسمبر عام ١٩٣١، حين انضمت إلى الحزب الشيوعي في ألمانيا، وأنا يومئذ في السادسة والعشرين.

(١) مشنوثين: أي قباحًا مشوهين.

(٢) في الأصل «الخنازير»، وهي كلمة مأخوذة من الإنجيل.

وقد تحولت إلى الشيوعية لأنني كنت يومئذ قد نضجت لهذا التحول وتأهبت نفسي له، فقد كنت أعيش في مجتمع ممزق الأوصال متلهف على الإيمان ظمآن لموارده، ولكن اليوم الذي تسلمت فيه بطاقة العضوية لم يكن سوى الذروة التي انتهت إليها نفسيتي بعد تطور بدأ قبل أن أقرأ عن «الخراف» المغرقة على أبصار الجياع، وقبل أن أسمع باسمي ماركس ولينين، بعهد طويل؛ بل لقد كانت تلك الحالة النفسية متأصلة الجذور في حدثاتي، غائبة الأصول في أعماق طفولتي.

ولئن كان تحول كل فرد منا نحن رفاق العهد الباكر قبل الشيوعية أو رفاق الفترة الوردية^(١) Pink Decade يرجع إلى أسباب وعوامل وجذور مختلفة، فقد كنا جميعاً أو كانت كثرتنا، ثمرات جيل واحد، ونتاج بيئة ثقافية بذاتها. وهذه الوحدة التي جمعتنا، على اختلاف أسبابنا وعواملنا، هي التي تحدوني إلى الأمل في أن تكون قصتي هذه خليقة بأن تُقص، وحديثي هذا حرياً بأن يُروى.

ولدت عام ١٩٠٥ في بودابست حيث أقمنا حتى عام ١٩١٩ ثم نزحنا منها إلى فيينا. وكنا في حال حسنة إلى نشوب الحرب العالمية الأولى، مثال الأسرة الأوروبية التي تمثل «الطبقة الوسطى» في الغرب. فقد كان أبي «مجرّياً» يشتغل مندوباً لبعض مصانع النسيج البريطانية والألمانية القديمة العهد، ولكن هذا الأسلوب من العيش انتهى كغيره وعدة من أشباهه في شهر سبتمبر عام ١٩١٤ على خاتمة فجائية. فلم يستطع أبي من ذلك العهد أن يقف على ساقيه أو يسترد في يوم من الأيام مكانه. وقد لجأ إلى عدة أعمال والتمس الرزق من وجوه مختلفة. ولكن كلما فقد الثقة بالنفس في عالم متغير، ودنيا متقلبة، كان التجاؤه أعجب وأغرب، وإقدامه على المحاولات وهمّاً ومفارقة. فقد فتح مصنعاً للصابون الإشعاعي ومضى يمول عدة مخترعات صغيرة كالثرثريات الكهربائية التي لا يتطرق إليها الفساد والطوب المستخدم في تدفئة

(١) هي السنوات العشر الأولى التي كانت النفوس فيها سكرى بالنشوة الجديدة، ولذلك سميت «الوردية» أو «القرنفلية» Pink Decade أي فترة التمهيد أو تورد الزهرة قبل احمرارها.

سرر المرضي وما إليها. ولكنه في النهاية خسر البقية الباقية من رأس ماله في فترة التضخم النقدي الذي طرأ على النمسا في عام ١٩٢٠، ففارقت أبوي وأنا يومئذ في الحادية والعشرين. ومن ذلك الحين أصبحت المعين الوحيد لهما، القائم بأودهما.

وقد أدركت فجأة وأنا في التاسعة، حين انهار كيان الطبقة الوسطى، جملة الحقائق الاقتصادية في الحياة، وكنت وحيد أبوي فظلاً يدللاني، ولكنني كنت بعسرتهما عليماً، وعلى أبي مشفقاً، فقد كان كريماً سخياً، وأخاً طبيعة ساذجة نقية؛ فلا عجب إذا أنا مضيت بوخر أليم، واستنكاف موجه، كلما ابتاعا لي كتباً أو اقتنيا لي ألعيب. ولبث هذا الإحساس مخالجي حين شببت عن الطوق: كلما اشتريت لنفسني ثوباً، أدركت أن شراءه سيضطرني إلى الإقلال من المال الذي سأرسله إليهما، وأحسست عندئذ كراهية بالغة للأغنياء والمترفين، لا لأنهم مستطيعون أن يشتروا ما هم مشتهوه - فإن للحسد في المعترك الاجتماعي أثراً أقل كثيراً مما يظن الناس عامة - ولكن لمقدرتهم على الشراء، دون تحرج أو وخز ضمير.

وهكذا أدخلت العامل الشخصي في كيان المجتمع عامة، وكان ذلك بلا شك طريقاً ملتوياً لاكتساب وعي اجتماعي. وقد أصبح الاعتقاد الذي أخذ يومئذ ينمو في نفسي، بسبب هذا العنصر الشخصي الدقيق فيما يتصل بحياتي، جزءاً من كياني، وقطعة وثيقة من شعوري ووجداني؛ ولكنه ظل بضعة أعوام لا يستحيل عندي إلى عقيدة سياسية. وإنما أخذ في بداية الأمر صورة تأفف واشمئزاز. فكان أي احتكاك بأناس أشد فاقة مني أليماً لا يطاق. فالطالب الذي لا يملك قفازاً لتدفئة يديه حتى ليلوح «القشف» على أنامله، والبائع الجوال الذي كان من قبل في خدمة أبي، أصبح لا يجد طعاماً، وأكثر وجباته تطفلاً، أو وغولاً على موائد الناس، كان يؤسهما يزيد في وخز ضميري، وتأنمي وخرج صدري. وأحسب العالم النفسي لا يجد مشقة في التدليل على أن هذه العقدة النفسية التي لازمتني ترجع إلى عوامل أخرى أعمق جذوراً من مجرد إعسار أهلي، وفاقه عشيرتي. بل لو أنه أطال التنقيب وأوغل في البحث، ونفذ إلى صميم الأمر وسائر

ألفافه وأغشيته وطبقاته، لوصل إلى العوامل الأصلية ذاتها التي أدت إلى قيام ملايين من الحالات المشابهة لحالتي، والتي يجمعها القول المأثور «ويل للذين يغنون على صوت العود، ويدهنون بالأدهان النفيسة، ولا يكتئبون لانكسار يوسف...»^(١).

وكذلك هيأني فرط التأثير بحالتي الخاصة وشدة الإحساس بسوء عيشي، للشعور بصدمة أليمة حين عرفت أن القمح أتلّف، والفاكهة أفسدت، والخراف أَلقيت في اليم وأغرقت، في أعوام الكساد - لحفظ الأسعار وتمكين الرأسماليين السمان من الغناء على أنغام الأوتار، بينما راحت أوروبا ترعرش من الجوع، وترجف من السغب؛ ومضى أبي يخفي كم ثوبه الناصل^(٢) تحت المائدة.

ولم تلبث الأكمام الناصلة الممزقة والخراف المغرقة أن اندمجت فأحدثت انفجاراً عاطفياً بمجرد لمس «الفتيل» العام: فقد رحنا يومئذ نشد لحن «الدولية»، ولكن كان أولى أن تكون كلمات ذلك اللحن هي بذاتها الكلمات القديمة «ويل للرعاة الذين يأكلون هم، ولا يؤكلون قطيعهم»^(٣).

وأحسب قصتي أقرب مثلاً إلى قصص الآخرين وأشدّ شبهاً بها من وجوه أخرى. فقد دمر التضخم النقدي الذي عرا العالم في عام ١٩٢٠ نسبة كبيرة من الطبقات المتوسطة التي كانت تشبهنا في أوروبا الوسطى. وكان ذلك بداية تدهور أوروبا وأفول نجمها؛ فقد أدى هذا التمزيق في أوصال الطبقة الوسطى إلى قيام عملية رهيبة قاضية، وهي عملية «الاستقطاب»^(٤) التي لا تزال إلى اليوم قائمة. وأصبحت البورجوازية التي هوت إلى الفاقة والعوز متمردة: فريق منها إلى اليمين، وفريق إلى اليسار؛ وإذا بكل من «شيكلاجروبر»^(٥) - أي هتلر - و«جوجاشفيلي»^(٦) - أي ستالين - ينتفعان

(١) لعلها من كلمات المسيح عليه السلام.

(٢) الثوب الناصل: الذي نحل وبره وذهب لونه.

(٣) في النص: ويل للرعاة الذين يهلكون ويبددون غنم رعيّتهم.

(٤) الاستقطاب في عالم الطبيعة أي «التحويل الإرغامي أو التعسفي».

(٥) اسم هتلر في الأصل.

(٦) اسم ستالين في الأصل.

بفوائد هذا الانتقال الاجتماعي. وأما الذين أبوا الاعتراف بأنهم أمسوا بلا طبقة ينتمون إليها، وأصروا على الاستمتاع بلقب الطبقة ومظاهرها الفارغة؛ واسمها الأجوف الفارغ، فقد انضموا إلى «النازية»، ووجدوا العزاء في إلقاء تبعه ما أصابهم على مؤتمر «فرساي» واليهود. ولكن فريقاً كبيراً منهم لم يجدوا حتى هذا العزاء يتأسون به، فعاشوا هيمًا ضالين، على غير هدى، أشبه بجماعات من ذباب الشتاء المكدود، تتسلل على نوافذ أوروبا القاتمة، بل أمسوا أفراداً في طبقة مشردة في التاريخ.

أما الفريق الآخر فقد ولى وجهة شطر اليسار، محققاً بذلك نبوءة «البيان الشيوعي»^(١) في قوله «إن فئات بأكملها من الطبقات الحاكمة... هوت إلى مصاف الطبقة الكادحة»^(٢) أو أصبحت على الأقل مهددة في أحوال عيشها... وهي تمد الطبقة الكادحة بعناصر جديدة من «التنوير والتقدم».

ولشد ما سرنى أن اكتشفت أن ذلك «العنصر الجديد» من التنور، هو أنا، فقد عدت نفسي - ما دمت قد اقتربت من حدود الجوع والمسغبة - أحد الذراري المشردة إلى حين من أفراد البرجوازية وأفراخها الناشئة.

وفي عام ١٩٣١، حين استطعت بعد خاتمة المطاف أن أصيب دخلاً حسناً، لم ألبث أن أدركت أنه قد حان لي أن أنضم إلى صفوف «الكادحين»، ولكن سخرية هذا الحدث لم تقع لي إلا فيما بعد، حين عدت أفكر في الماضي وألقي البصر كرةً إليه.

- ٢ -

«وستتوارى الأسرة البرجوازية قطعاً بتواري الرأسمال... وكلما رثت»^(٣) روابط الأسرة ووشائجها بين الكادين، كانت الشقشقة البرجوازية وكثرة كلامها عن الأسرة

(١) المانيفستو.

(٢) الكادحة: أي البروليتاريا.

(٣) رثت: أي تقطعت ووهنت.

والتعليم، والروابط بين الأبوين والأبناء، أدعى إلى السخرية والاشمئزاز بسبب النهضة الصناعية الحديثة».

هذه فقرة جاءت في البيان الشيوعي، وقد راحت كل صفحة أقرأها لماركس وإنجلز، تكشف لعيني عن جديد، وتدخل على نفسي فرحاً ذهنياً بالغاً لم أجربه إلا مرة واحدة من قبل، حين بدأت أقرأ «فرويد»^(١).

وأحسب أن اقتطاع هذه الفقرة من أصل البيان ونصوصه يجعلها تبدو سخيفة مضحكة. ولكن إيضاح الفوارق والروابط التاريخية، بين القوانين الموضوعية للأسرة، والطبقة، والوطنية، والأخلاق، وأسرار العلاقة الجنسية وخفاياها، وبين أمثلتها العليا، وما يراد أن تسمو إليه كجزء من نظام واضح المعالم، يجعل الفلسفة الاجتماعية تتخذ قالباً عاماً، وشكلاً شاملاً واضحاً - جاء يومئذ كنشوة بديعة أشبه بتأثير التحرر الفجائي من الأصفاد والأغلال الصدئة التي كانت تقيد عقول الأحداث في الطبقات الوسطى قبل عام ١٩١٤، وتحطم أذهانهم تحطيمًا.

ولكن اليوم قد هوت فلسفة ماركس إلى درك السفسطاء البيزنطية، وتحولت كل فقرة في برنامجها من حيث المعنى إلى نقيضها. فلم يعد من السهل استعادة تلك الحماسة القديمة التي كانت لها، والحمية الأولى التي كان المرء يشعر بها، واللذة الذهنية التي كان يحسها.

لقد كنت مهياً للتحويل إلى الشيوعية كنتيجة لتاريخ حالتي الشخصية، كما تهيأ له ألاف آخرون غيري من الشباب «المثقف المستنير» في الطبقة الوسطى، ذلك الشباب الذي يتألف منه الجيل الذي نشأت فيه، نتيجة لتواريخ حالاته الخاصة، إذ مهما تباينت تلك الحالات في ذاتها، فقد كان يجمعها عامل مشترك عقب الحرب العالمية الأولى، وهو التدهور السريع في القيم الأخلاقية، وأساليب العيش التي كانت قائمة قبل عام

(١) العلامة فرويد Freud الذي توفر في كتبه وبحوثه على دراسة الحاسة الجنسية من جميع جهاتها، وله فيها نظريات فريدة، وتخريجات عجيبة.

١٩١٤ في أوروبا، كما كانت تجمعها الفتنة المستحوزة على الأبواب التي اقترنت بها العقيدة الجديدة القادمة من الشرق^(١).

وانضمت في عام ١٩٣١ إلى الحزب. ونحن لا نزال إلى اليوم نقول «الحزب» بأداة التعريف كلما تحدثنا عنه نحن معاصر الذين كنا منتمين إليه. وكان انضمامي في بداية تلك الفترة القصيرة التي سادها التفاؤل، واستفاض فيها الانتعاش الروحي إلى حين. تلك الفترة التي عرفت فيما بعد «بالفترة الوردية». وكانت الأنجم الزهر التي طلعت في ذلك الفجر الكاذب تتألف يومئذ من باريوس، ورومان رولان، وأندريه جيد، ومالريه في فرنسا؛ ومن بيسكاتور، وبيخر، ورن، وبرخت، وإيسلر، وسيغرز في ألمانيا، ومن أون، وأيسر، وود، وسبندر في إنجلترا؛ ومن دوس باسوس، وأبتون سنكلر، وستانيسك في أمريكا. وكان الجو الثقافي مشبعًا بمؤتمرات الكتاب التقدميين ومعاهد التجارب، ولجان السلام ومقاومة «الفاشية»، وقيام الجمعيات العاملة على الاتصال الثقافي بروسيا السوفيتية. كما كان يغشى ذلك الأفق أفلام روسية، ومجلات توطن للمبادئ الجديدة؛ وخيّل للمرء يومئذ أن العالم الغربي الذي اضطرب في عقابيل الحرب، واختلت أعصابه، واصطلحت عليه عوامل التضخم النقدي، والكساد التجاري، والبطالة، والخلاء من عقيدة يحيا الناس من أجلها، وإيمان يعيشون في سبيله - قد أوشك أخيرًا أن يزيل من الرؤوس جملة الأفكار السخيفة، وكتلة الهراء التي استقرت فيها، «ويجمع شتات قوى الإرادة المضمحلة الواهنة - على حد قول «أودن» - وإطلاق سراحها في الأرض، حتى تغمرها وتقيم في النهاية أساس عدالة بشرية».

لقد بزغ كوكب «بيت لحم» الجديد في الشرق، واستعد الحارس أن يأذن لك لقاء قليل من المال في الاستمتاع بلمحة قصيرة، أو نظرة عاجلة، إلى أرض الميعاد. وكنت أقيم يومئذ في برلين، وقد قضيت خمسة أعوام أعمل في مجموعة صحف

(١) يعني الشيوعية الروسية، تشبيهاً لها بالمسيحية عند ظهورها بمولد عيسى في بيت لحم.

«أولشتاين» Ullestein، بادئاً كمراسل لها في فلسطين والشرق الأوسط. ثم انتقلت بعد ذلك إلى باريس، وانضمت في عام ١٩٣٠ إلى هيئة التحرير في دارها الكبرى ببرلين. وأجد لزماً عليّ، في سبيل معاونة القارئ على فهم ما سيلي من هذا الحديث، أن أحدثه قليلاً عن دار «أولشتاين» التي تعد رمزاً للجمهورية فيمر^(١).

كانت دار «أولشتاين» مجموعة ضخمة من شركات متضامنة Trusts وأكبر هيئة من نوعها في أوروبا، وعلى الأرجح في العالم كله؛ فقد كانت تصدر خمس صحف يومية في برلين وحدها، ومن بينها صحيفة فوسيش زيتونج Vossische Zeitung الكبيرة المكانة التي أنشئت في القرن الثامن عشر، وصحيفة الـ ب. ز. آم ميتاج Am Mittag، وهي مسائية ضربت الرقم القياسي في كثرة التوزيع وسرعة الإصدار. وكانت دار أولشتاين تصدر إلى جانب هذه الصحف أكثر من اثنتي عشرة مجلة بين أسبوعية وشهرية، وتتولى بذاتها جمع الأنباء من مظانها. ولها وسائل نقلها الخاصة. وهي يومئذ أيضاً من أكبر دور نشر الكتب وطبع المؤلفات، وكان يملكها إخوان أولشتاين، وهم خمسة أشقاء، كشأن إخوان روتشلد، وكانوا يهوداً أيضاً مثلهم، وكانت سياستهم حرة ديموقراطية، وفي المسائل الثقافية «تقدمية» إلى حد «الطليعية»^(٢). وكان هؤلاء الإخوة يناهضون «العسكرية» أو «الميليتاريزم»، ويكرهون النعرات الوطنية^(٣) Anti Chauvinistic-. وإلى نفوذهم في الرأي العام يرجع أكثر الفضل في انتشار فكرة التقريب بين ألمانيا وفرنسا. وهي الخطة التي سعى في تحقيقها بريان وسترسمان، وتداولها بين معاصر «التقدميين» في الشعب الألماني. ولم تكن دار أولشتاين قوة سياسية في ألمانيا فحسب، بل كانت أيضاً رمز كل حركة تقدمية أو عالمية «كوزومو بوليتانية» في جمهورية فيمر. حتى لقد كان جو الدار في شارع كوخ Koch Strasse

(١) أي الجمهورية الألمانية الأولى التي أنشئت بعد الانتخاب الذي تم في «فيمر» عام ١٩١٩ ووضع بعدئذ الدستور وانتخب «إيرت» للرئاسة، وذلك قبل عهد النازيين.

(٢) الطليعية -نسبة إلى الطليعة وهي Avant-Guardism أي الحركة التي تتقدم الصفوف.

(٣) أي التهوس الوطني أو الغلو في «الوطنية».

يلوح أدنى إلى جو «وزارة» منه إلى جو إدارة تحرير وصحافة.

وكان سبب انتقاله من مكتب باريس إلى الدار الكبرى في برلين مقالاً كتبت بمناسبة منح جائزة نوبل في العلوم الطبيعية إلى البرنس دي بروجلي؛ فقد أجمع رؤسائي عقب صدور المقال على أنني قد أوتيت ملكة تبسيط العلوم وتقريبها إلى أذهان العامة - وقد كنت طالب علوم في فيينا - فعرضوا عليّ العمل كرئيس تحرير القسم العلمي في جريدة «الفوسيش» ومستشار في المسائل العلمية لجميع صحف أولشتاين ومطبوعاتها الدورية.

ووصلت إلى برلين في ذلك اليوم المشؤم، يوم ١٤ سبتمبر عام ١٩٣٠ - يوم الانتخابات لعضوية الريشتاغ، وهي الانتخابات التي وثب فيها الحزب الاشتراكي الوطني وثبته الكبرى، فارتفع عدد نوابه من أربعة إلى ١٠٧ كما ظفر الشيوعيون فيه بكسب كبير، واندحرت الأحزاب الديموقراطية في الوسط، وكان بداية النهاية في حياة «فيمر»، وتجلى الموقف على حقيقته في عنوان الكتاب الذي أخرجه يومئذ نيكر بوكر، ووجد أشد الرواج، وظفر بأعظم الإقبال، وكان عنوانه «ألمانيا - أنازية هي أم شيوعية؟». والظاهر أنه لم يكن ثمة شيء ثالث.

وعكفت على عملي، فجعلت أكتب عن «الإلكترونيات» والجزيئات والسفن النيزكية والإنسان النيندرتالي^(١) والسديم الحلزوني والعلوم الكونية عامة. ولكن لم يلبث ضغط الحوادث أن اشتد، فقد أصبح ثلث مجموع العمال في ألمانيا بلا عمل، حتى كادت البلاد تعيش في حالة حرب أهلية كامنة، وأصبح محتملاً على المرء أن يتخذ جانباً معيناً أو يختار له موقفاً ما، إذا ما لم يشأ أن تكتسحه الأعاصير القادمة، ويذهب ضحية مغمورة لا شأن لها ولا خطر. وكان حزب سترزمان قد قضى نحبه، وانقرض، وأخذ الاشتراكيون ينتهجون سياسة النفعية وانتهاز الفرص، وبدأ الشيوعيون يومئذ القوة الوحيدة التي تستطيع مقاومة سيل النازية الجارف وشارة

(١) نسبة إلى نيندرتال وهو واد في أوروبا الوسطى، ومعناه الإنسان الأول الذي كان يعيش قبل عصر الجليد.

صليبيها المعقوف، حتى ولو بعملية استئصال محض ما دام الاتحاد السوفيتي الضخم من ورائهم. ولكنني لم أصبح شيوعياً بعملية استئصال محض، وإنما كرهت نفسي الكهيربات، وعافت البحث في الجزئيات، والأمواج والتيارات، فأنشيت لأول مرة أقرأ كارل ماركس وأنجلز ولينين قراءة ممعن مدقق. ولم أكد أنتهي من قراءة «فيرباخ» و«الدولة» و«الثورة» حتى أحسست أنيماً في أعماق خاطري هزناً كأنه انفجار ذهني شديد. وما قول المرء في تصوير ذلك الإحساس إنه «قد أبصر الضياء» إلا وصف ضعيف لتلك اللذة التي لا يعرفها إلا المعتقد الجديد لأي عقيدة، والمتحول إلى أي ملة أو إيمان. فكأنما راح الضياء الجديد يتدفق من كل مكان، ويغمر الرأس من كل ناحية، فتتجمع أجزاء الكون كله كما تتجمع القطع المتناثرة من لعبة لغز، بحركة سحرية واحدة، وقد تراءى لي عندئذ الجواب عن كل سؤال، والرد على كل إشكال، والحل لكل عقدة؛ وتوارت الشكوك والهواجس التي كانت تتابني فيما مضى من الدهر، أو تلك الحقبة التي كنت فيها أعيش في جهل مطبق، أو في عالم خليّ من الذوق واللون، عالم الجهل والخلاء من المعرفة. فلم يعد ثمة شيء بعد اليوم يمكن أن يزعج سكينتي أو يبدد هدوء نفسي، خلا الخوف أحياناً من فقدان الإيمان مرة أخرى، بل فقدان كل ما يجعل الحياة جديرة بأن تُحيا، والخشية من العودة إلى الظلام، حيث يتعالى الصياح وتكشر الأنياب في كل مكان.

ولعل هذا هو السر في أن الشيوعية التي أوتيت أعيناً بها تبصر، وعقولاً بها تفكر، لا تزال مستطبعة أن تعمل بنيات سليمة من جانب أشخاصها وأفرادها حتى الساعة. ولم يخل عهد من العهود، ولا عقيدة من العقائد، ولا دين من الأديان من أقلية عابثة تستوجب الحرّم^(١) والبت، وتنتحر على الطريقة اليابانية -الهارة كيري- باسم العقيدة ذاتها، والحق في صميمه وجوهره.

ومن السهل أن أتذكر التاريخ الذي قدمت فيه طلباً للانضمام إلى الحزب الشيوعي

(١) الحرّم -أو الفصل من عضوية الكنيسة.

في ألمانيا، فقد كان ذلك في الحادي والثلاثين من شهر ديسمبر عام ١٩٣١، كأنما قدر لي أن أبدأ الحياة الجديدة مع استهلال العام الجديد، وكان طلبي في صورة كتاب وجهته إلى اللجنة المركزية، وأرفقت به منهاجاً قصيراً بينت فيه استعدادي لخدمة القضية بأي صفة يقررها الحزب.

ولم تجر العادة بأن تقدم طلبات العضوية إلى اللجنة المركزية ولكني فعلت ذلك عملاً بنصيحة أصدقاء وصحاب على صلة وثيقة بالحزب، وإنما كان الإجراء المؤلف أن ينضم المرء إلى إحدى الخلايا، وهي الوحدات الأساسية التي تتألف منها هيئة الحزب ويقوم على شبكتها نظامه. وكانت الخلايا نوعين: خلايا «الورش» التي تضم الأعضاء الذين يشتغلون في مصنع أو معمل أو «ورشة» أو مكتب أو ما إليها، وخلايا «الشوارع» وهي خلايا منظمة بحسب العمارات والأبنية والمناطق والأحياء. وكان أكثر العمال والأجراء ينتمون لكلتا الخليتين، خلية المصنع الذي يعملون فيه، وخلية الشارع الذي يسكنونه، وكان هذا النظام عامّاً في جميع الأمصار والبلدان التي يستمتع فيها الحزب الشيوعي بوجود مشروع. وكانت القاعدة العامة التي لا مفر من اتباعها أن ينتمي العضو مهما يكن شأنه في الحزب أو خطره إلى خلية ما، حتى لقد قيل لنا إن هناك خلية من خلايا الورش في الكرملين ذاتها، حيث يجتمع أعضاء المكتب السياسي، والحراس والبوابون والغسالات في صعيد واحد للمناقشة في سياسة الحزب معاً في ديموقراطية أخوية، وكانت الاجتماعات تنعقد عادة كل أسبوع مرة، وكان ستالين يمنع من حضورها إذا هو نسي أن يدفع اشتراكه.

ولكن صديقي «ن» الذي اضطلع بدور حاسم في مسألة انضمامي، نصح لي ألا أنضم إلى إحدى الخلايا على النحو المؤلف؛ وأنا أرمز له بالحرف «ن» لأنه ترك الحزب منذ سنين وقيم الآن في بلد إذا عرف فيه عن المرء أن له ماضياً في الشيوعية حتى وإن كان قد تنحى عنها، ودفن الماضي بيديه، استهدف لخطب كبير، وتعرض لمتاعب جمة. وكان «ن» هذا يشتغل من قبل صبي «سباك»، فما زال بالدراسة في

الفرق والفصول الليلية، والإكباب على المطالعة، حتى تخرج وأصبح كاتبًا سياسيًا معروفًا، وكان يحفظ كتب ماركس ولينين استظهارًا؛ وقد أوتي ذلك الإيمان المطلق الهادئ الذي يفعل فعل التنويم المغناطيسي في عقول الناس ونفوسهم؛ فقد مضى يقول لي: «لا تكن أحمق» لأنك إذا انضممت إلى خلية وعرف عنك أنك أصبحت عضوًا في الحزب، فقدت عملك في دار أولشتاين، وهو عمل يهتم الحزب كثيرًا».

ولا يفوتني هنا أن أقول إنني عينت إلى جانب شغلتي العلمية في صحيفة «فوسيش» رئيس تحرير القسم الأجنبي في صحيفة «أم ميتاج»، وهو مركز يكسب شاغله شيئًا من النفوذ ويمكنه من الظفر بأدق المعلومات السياسية وبواطن الأمور الجارية.

وعملًا بنصيحة صديقي «ن» كتبت رأسًا إلى اللجنة المركزية، وجاءني الرد بعد أسبوع أو قرابته في صورة كتاب محير، فقد جاء مكتوبًا بالأداة الكاتبة، على ورقة بيضاء، بلا عنوان، وكان نصه فيما يلي:

سيدي العزيز

بالإشارة إلى كتابكم المرقوم ٣١ ديسمبر يسرنا أن نتكرموا بمقابلة مندوبنا الهر شنيلر في إدارة مصنع شنيدمول للورق بشارع.... في التاسعة من مساء الإثنين القادم.

المخلص

«الإمضاء غير مقروء»

وكانت مصانع شنيدمول معروفة في ألمانيا ولكن لم يخطر يومًا ببالي أن لها صلة أو شأنًا باللجنة المركزية للحزب الشيوعي. ولست أدري العلاقة بينهما تمامًا. ولكن الواقع أن مكاتبتها في برلين كانت ملتقى لاجتماعات سرية، ومقابلات تجري في الخفاء. ولم أستطع أن أفهم السر في هذا التكتم المتناهي، ولكنني وجدت هزة لها في مشاعري، وقلقًا بالغًا في نفسي، فلم يحن الموعد المضروب حتى كنت في مصانع

شنيدمول أطلب لقاء الهر شنيلر .

ونظرت الفتاة الجالسة قبالة منصة الاستعلامات نحوي نظرة «متفحصة» كما ألفنا أن نقول في وصفها، وإن كان الأصح أن ندعوها «حملقة» من عين سمكة أو «تخازراً»^(١). وقد لقيت هذه النظرة ذاتها مراراً من ذلك الحين في مواقف مماثلة. وقد ألف الناس كلما اصطدمت الرغبة في المؤاخاة بالتخوف والريبة أن يتبادلوا نظرات غير نافذة ولا متفحصة، بل نظرات بليدة كالسمك.

وانتنت الفتاة تسألني: هل أتيت على ميعاد مع إرنست؟

قلت: كلا.. بل مع الهر شنيلر.

وبدأ لي أن هذه العبارة أقنعتها نوعاً ما بسلامة نيتي، فقالت إن الهر إرنست شنيلر لم يصل بعد وسألني أن أجلس وأنتظر؛ فجلست وانتظرت أكثر من نصف ساعة، وكان ذلك أول عهدي باستخفاف الطبقة العليا من الحزب الشيوعي بالمواعيد ولا عجب، فإن الروس، وهم أشباه شرقيين، غير حريصين بطبعهم على المواعيد، وكان كل بيروقراطي في الحزب يحاول عامداً أو غير عامد أن يعيش على الأسلوب الروسي، فلم تلبث عادة الاستخفاف بالمواعيد أن انتقلت شيئاً فشيئاً من كبار الشيوعيين إلى كل شيوعي في أوروبا.

وأخيراً وصل الهر شنيلر، وراح يعرفني بنفسه على الطريقة المألوفة في القارة الأوروبية، صائحاً «شنيلر»، فصحت بدوري «كوستلر»، وتصافحنا، وبعد اعتذار «صوري» عن «التأخير قليلاً» دعاني إلى الجلوس في مقهى مقابل للدار في الشارع ذاته.

وكان شنيلر ناحلاً معروفاً بادي العظام في نحو الخامسة والثلاثين، ذا وجه ضيق، بادي الأشداق، مشدود البشرة، وابتسامة نابية، كحركته وطريقته. وكان يلوح أبداً

(١) تخازر بعينه أي ضيقهما ليحدد النظر.

مضطرباً قلقاً، وحسبته يومئذ عضواً صغيراً الشأن في بيروقراطية الحزب ومكاتبه. وعلمت فيما بعد أن اسمه في الحقيقة إرنست شنيلر، أو هو «شنيلر» العضو في اللجنة المركزية ورئيس إدارة التحريض والدعاية المعروفة باسم أجيتروب^(١) Agit Prop ثم علمت بعد هذا أيضاً أنه رئيس «الإبارات ن» وهي أحد أقلام «المخابرات» الأربعة أو الخمسة المستقلة بعملها وإدارتها، والتي يديرها الحزب الشيوعي الألماني ويتولى الأوجبو^(٢) تنظيم بعضها رأساً. ولست أعرف إلى اليوم العمل الذي كان «القلم» الذي يرأسه شنيلر يؤديه، هل كان عملاً من أعمال «المخابرات» العسكرية أو مجرد جاسوسية صناعية بريئة؟ وقد حكم النازيون عليه بالسجن ست سنوات مع الأشغال الشاقة وقضى نجهه أو قتل في السجن.

ولم أكن بالطبع أعرف من ذلك كله شيئاً حين التقيت بذلك الرجل الأعرج الرث المعروق البدن في تلك المكاتب «الرثية»^(٣) التابعة لمصانع شنيدمول، عند أول عهدي بالحزب وأهله. ولا أذكر من حديثنا في ذلك المقهى الصغير غير أنه نبأني أنه رجل «نباتي» لا يعيش إلا على الخضر النيئة والفاكهة، ولعل ذلك سر وجهه المعروق، وفمه المشدوق، وبشرته الجافة الناشفة.

وأذكر أيضاً أنني سألته هل قرأ مقالاً معيناً ذكرته له في إحدى الصحف السيارة؟ فكان جوابه أنه لا يقرأ الصحف البرجوازية في حياته، وأنه إنما يقرأ جريدة «روت فاهن» Rote Fahn لسان حال الحزب دون سواها.

فأدركت أن اللجنة المركزية أوفدت للقائي رجلاً بيروقراطياً ضيق الفكر حزبياً استبدت به حزبته؛ إذ لم أتبين السخف الذي ينطوي عليه اختيار مخلوق لا يقرأ إلا جريدة حزبه ليتولى إدارة الدعاية له إلا حين علمت فيما بعد بخافية أمر شنيلر وحقيقة عمله ومركزه.

(١) كلمة مركبة تركيباً مزجياً من اللفظتين (التحريض والدعاية).

(٢) «الأوجبو» الروسية كالجستابو الألمانية، أي فرق البوليس السياسي.

(٣) الرث والرثيث: أي «المدهول» أو «المبهدل».

ولم يوجه لي أسئلة كثيرة، ولكنه سألني تفصيلاً عن طبيعة عملي وحقيقة مركزي في دار أولشتاين، فأبلغته رغبتني في ترك عملي والتفرغ لخدمة الحزب كداعية، أو أفضل من ذلك، كسائق جرارة في الاتحاد السوفيتي. وكان ذلك العهد عهد الزراعة الجماعية والصحف الروسية يومئذ تنادي بالحاجة الملحة إلى سائقي جرارات. وكان صديقي «ن» من قبل قد حذرني من هذه الفكرة وكان يسميها «خيالاً برجوازيًا تافهًا» ويقول إنني إذا تحدثت بها إلى موظف في الحزب، انكشفت وعرضت نفسي للسخرية والتهانف^(١)، ولكنني لم أستمع لتحذيره وحسبته الهازل الماجن، لأنني لم أكن أجد أي بأس أو ضير في العمل ولو عامًا واحدًا كسائق جرارات أو عامين ما دامت جبهة الإنشاء والتعمير بحاجة ملحة إلى السائقين.

ولكن شنيلر راح في رفق وتؤدة يبين لي أن الواجب الأول المفروض على كل شيوعي هو العمل في سبيل الثورة داخل بلاده، وفي عقر موطنه، وأن السماح بدخوله في الاتحاد السوفيتي حيث تواتى النصر للثورة امتياز نادر لا يصيبه غير القدامى في الحركة والراسخي القدم، وأن من الخطأ أيضًا أن أترك وظيفتي، إذ يتيسر لي أن أكون أنفع للحزب وأكثر إفادة إذا بقيت فيها، ولزمت الصمت في أمر معتقداتي السياسية وآرائي.

قلت: وما وجه النفع والإفادة؟ وأنا لا أستطيع أن أحيل الجريدة التي أشتغل فيها، وهي «أم تاج» إلى صحيفة شيوعية؟ أو أحدث تغييرًا في سياسة دار أولشتاين.

قال: إنك وضعت السؤال في قالب «سوقي». ولكن هناك وجوهًا عدة نستطيع منها أن تؤثر في سياسة الصحيفة من طريق «الرتوش» والتحسين في الأسلوب، كإبراز الأخطار التي تهدد السلام العالمي مثلًا من العدوان الياباني على الصين^(٢).

وقال: إنني أستطيع إذا شئت أن أقابله مرة في الأسبوع للبحث في هذه المسائل

(١) التهانف أي الاستهزاء والزراية.

(٢) كانت روسيا يومئذ تخشى هجومًا عليها من اليابان.

ونحوها، ولكنه يفضل أن يتدب من هو أقل مشاغل منه ليكون تحت تصرفي في كل وقت لتوجيهي وإرشادي، وأنه في إمكاني من طريق هذا الصديق أن أقدم إلى الحزب أي معلومات ذات أهمية خاصة تقع لي، فإن الحزب على الأرجح سيضطر وشيكًا إلى العمل سرًا، والجهد في الخفاء، فإذا حدث ذلك كان أمثالي من الذين يشغلون مراكز محترمة، لا تشوبها من الريب شائبة، أنفع وأجدى على الحزب في معركة الحياة والموت التي ستشب بينه وبين الفاشية والعدوان الاستعماري.

وبدا لي ذلك كله معقولًا وجيهًا فلم يلبث نفوري الأول من شنيلر أن استحال إلى احترام لطريقته الصريحة في البحث والنقاش، واتفقنا على اللقاء بعد أسبوع لتعريفني بمرشدي السياسي الجديد.

قلت: ومن تراه سيكون؟

قال: رفيق يدعى إدجار.

وبعد أن ودعته خطر لي فجأة أننا لم نتحدث إطلاقًا عن موضوع قبولي في عضوية الحزب، بل تركناه مغلقًا ولم نتناوله بقول، ولا قطعنا برأي فيما إذا كنت قد أصبحت شيوعيًا فعلاً أم لا.

فعدوت في إثره ووجهت إليه هذا السؤال.

فابتسم ابتسامته الغريبة وقال: إذا كنت مصرًا جعلناك عضوًا، بشرط أن تبقى عضويتك سرًا مجهولًا، فلن تلحق بأي خلية، بل ستعرف في الحزب باسم منتحل. فارتضيت ذلك متكرهًا، لأنني لن أستطيع، إذا أنا حرمت من الالتحاق بخلية ما، أن أدخل في صميم حياة الحزب وجوّه ووسطه ورفقته.

وانثنى شنيلر يقول: نبئني أي اسم منتحل تختاره لكي آتيك ببطاقتك حين نلتقي في المرة التالية؟

وكان الاسم الذي خطر لي بعد لحظة السرحان المألوفة هو «إيفان ستانبرج».

أما إيفان فلأنه اسم له رنين أسماء الروس، وأما ستانيرج فقد كان اسم صديق من المعنيين بالتحليل النفسي في «تل أبيب»، وقد مضت عدة أعوام لم أره ولم أسمع به، وكان يحاول جهده حتي على إتمام دراستي في جامعة فيينا بعد انقطاعي عنها قائلاً: إذا أنت لم تستكمل دراستك ولن تتخرج، فسوف تظل متشرداً، وسوف يكشف الناس تشردك، مهما يكن المركز الذي تصل إليه.

واجتمعت بشنيلر مرة أخرى بعد أسبوع في الموضوع ذاته، فإذا به يصطحب فتاة بدلاً من «إدجار» الذي تحدث عنه، وقد عرفني بها قائلاً: إنها الرفيقة «بولا» وإنها تعمل وتتعاون مع إدجار.

ورأيت حيالي فتاة سمراء ذات حَوَل خفيف تناهز الخامسة والعشرين.

وذهبت مرة أخرى إلى ذلك المقهى الصغير.

ووفق شنيلر يحدثني عن الفتاة قائلاً إنها ستشتغل معي كحلقة اتصال بيني وبين إدجار، لأنه «صعب المنال» وليس من السهل الاتصال به في أي وقت. أما هي ففي إمكانني أن أتحدث إليها في التليفون متى شئت، وهي تستطيع الاتصال بي متى شاءت، أو بمعنى آخر أنني لن أعرف شخصية إدجار هذا ولا مقامه وعنوانه.

ولا يفوتني هنا أن أقول إن الحزب الشيوعي كان في ذلك العهد -يناير عام ١٩٣١- مشروعاً في ألمانيا ومعترفاً به، وله نواب في الريشتاغ، ومنهم شنيلر هذا، وصحفه تنادي جهاراً في كل صبح بوجوب النضال والثورة، واجتماعاته العامة تنعقد تحت حماية البوليس، وهيئة شبه العسكرية وأعني بها «الروتترفرونتكمفربند» أي رابطة الجنود الأحمر القدامى -وهي أحد أربعة جيوش خاصة في ألمانيا- معترف رسمياً بها. أما الثلاثة الآخر فهي جنود العاصفة النازيون S. A. والستاهلهم الوطني والرايشباند التابع للديموقراطيين الاشتراكيين^(١).

(١) ويعرف بالأحرف الأولى وهي ر. ف. ب. R. F. B.، بينما تعرف جنود العاصفة بالأسطورم.

ولكن الحزب كان في الوقت ذاته يعد العدة للجهاد السري، وكانت مظاهر نشاطه، إلى جانب هذا الجيش العلني الظاهر، سرية في الغالب، وغير مشروعة، أو مخالفة للقانون، فلا يلبث العضو الجديد فيه أن يجد نفسه هابطاً عالمًا جديدًا، ودنيا ليس له بمثلها عهد، كأنما قد دخل بركة أسماك عميقة، حوت أشكالا وأشباحًا فوسفورية مضئية مارقة سريعة الحركة، مفلتة هاربة، عالمًا آهلاً بقوم ليست لهم غير أسماء بلا ألقاب، من أمثال إدجار، وبولا، وإيفان، وما إليها، ولا نعرف لهم مقارّ ولا عناوين، ولم يكن هذا مقصوراً على أفراد الشبكات^(١) المختلفة، وإن كانت لجمهرة أعضاء الحزب صلة مباشرة بشبكة منها، بل كان يتعداهم إلى أفراد الخلايا أنفسهم أيضاً. فلا عجب إذا كان الجو مشبعاً بالمتناقضات، أو مزيجاً من رفقة أخوية، وريبة متبادلة؛ كأن شعاره «أحب رفيقك، ولكن لا تأمن قيد شبر إليه، فإن ذلك في مصلحتكما معاً. أما أنه في مصلحتك فلا لأنه قد يخونك، ويكشفك؛ وأما أنه في مصلحته فلا لأنه كلما كان أقل بالخيانة إغراء، كان ذلك خيراً له وأجدى». وكذلك هو شأن كل حركة سرية، وكان ذلك أمراً مسلماً به في الحزب إلى حد جعل القوم لا يدركون مدى التحول الذي يطرأ حتماً على أخلاق المرء ونفسيته وشخصيته، ويعتري بالضرورة العلاقات بين الناس، من أثر البقاء طويلاً في الحزب والاندماج فيه.

وكان لقائي الثاني بشنيلر هو الأخير، فقد ذهبنا مرة أخرى إلى المقهى، حيث كتبت عندي رقم تليفون «بولا» واتفقت معها على الاجتماع بها في «شقتي» بعد يومين.

وأخرج شنيلر عندئذ بطاقة عضويتي، وقد كتب عليها اسمي المنحول «إيفان ستانبيرج» وتصافحنا مصافحة غريبة، وراحت بولا تحدجني تلك الحدجة المتخازرة «السمكية» التي رأيتها في عيني الفتاة التي لقيتها في ردهة الاستقبال من قبل.

وأحسست أنني لن أكتسب ثقة هذا النوع من الفتيات إلا بعد وقت طويل. فقد كن في ثياب رثة، مهملات زينة وجوههن، كأنما من احتقار لمحاولة التجميل والظهور

(١) الإبارات Aparat أو الشبكة، أو مجموعة من الخلايا.

حساناً على الأعين ما دام التجمل والزينة من شأن «البرجوازيات» وديدنهن؛ وقد ألفن جميعاً هذه الحملقة الجريئة للإيحاء بأنهن «فاهمات» فلا يخدعهن شيء.

وقبل أن ينصرف شنيلر ذهب يقول بابتسامته المرتبكة: الآن وقد أصبحت عضواً في الحزب، فلا تخاطبني بعبارات التعظيم. أنتم. وحضرتكم. وما إليها. بل قل «أنت» وكذلك فلتخاطب «بولا» سواء بسواء.

وشعرت عندئذ كأنني «فارس» يتلقى رسامته ويخلع عليه لقبه الجديد.

وفي الموعد المضروب جاءت بولا وإدجار للقاء في شقتي بحي ويستند، وقد جاء في «تاكسي» وأحضرت بولا معها أدواتها الكاتبة وكان إدجار فتى ناعماً باسمًا، أشقر، يناهز الثلاثين.

وتحدثنا في مسائل السياسة، وكانت في نفسي أشياء من خطة الحزب وسياسته فكنت مثلاً أسألك: لماذا لا يتفاهم الحزب مع الاشتراكيين ما دام هتلى على الأبواب؟ ولماذا نصر على تسميتهم «الفاشييين الاشتراكيين» تلك التسمية التي أحققتهم وجعلت التعاون معهم ضرباً من المستحيل؟

ووفق إدجار يشرح لي الأسباب في تؤدة وصبر طويل فقال: إنه ليس ثمة شيء أحب إلى الحزب من إنشاء «جبهة متحدة» من الطبقة الكادحة والكتلة الديموقراطية الاشتراكية، ولكن الوحدة يجب أن تبدأ من القاعدة، لا من القمة، فإن الزعماء الديموقراطيين خونة، وقد ينكثون بأي عهد أو حلف يبرمه الحزب معهم، فلا سبيل إذن إلى تحقيق فكرة «الجبهة المتحدة» إلا بكشف القناع عن الزعماء الاشتراكيين، وكسب الجماهير التي يتزعمونها.

وكان لإدجار منطق خلاب، فلم تنقض بضعة دقائق حتى اقتنعت بأنه من الحمق البالغ أن يؤيد أحد فكرة التعاون بين شقي الحركة العمالية في ألمانيا، حيال النازيين. وسألني إدجار هل من حاجة إلى الإرشاد بسبيل شيء آخر، فلما أجبت سلباً،

انثنى يقترح عليّ، وهو يبدي طمأنينة ملحوظة، حين وجدني مكتفياً بما سألته، أن أنبئه بأي معلومات سياسية أو أسرار أو أحاديث سمعتها في دار أولشتاين أو وصلت إلى علمي.

وعاد يسألني بعد لحظة أخرى هل لي اعتراض على أن تتولى بولا كتابة ما قلته الساعة له، اقتصاداً في العمل، والوقت، فقلت لا مانع عندي.

واقصر نشاطي في الأسابيع التالية على إملاء تقارير على «بولا» مرة أو مرتين في الأسبوع.

وكان «إدجار» يهبط أحياناً علينا، فيستمع هو كذلك، وعلى وجهه تلك الابتسامة الناعمة الخليطة بشيء من السخرية وهو يذرع الغرفة ذهاباً وجيئة، وكانت عادتي أنا أيضاً أن أتمشى، حين ألمي، فجعلنا أحياناً نتمشى على زوايا قوائم فوق بساط الحجرة، مما كان له أثر في جوها، وأضفى عليها أفقاً من التعاون والإخاء.

وكان ذلك هو كل ما أحسسته من الحمية والحماسة عقب انضمامي إلى الحزب. أما «بولا» فقلما كانت تخرج عن صمتها، أو تزايل وجومها، وقد تكلمت مرة أو مرتين في التليفون مع بعض رفاقها، وكان كلامها همساً، أو أنصاف ألفاظ، أو تلميحاً، ثم لا تلبث عندئذ أن تنقلب خلقاً آخر، فإذا هي المرححة البسامة المتوثبة.

ولم تكن بيني وبينها أي جاذبية طبيعية، وكنت أشعر بأنها من الناحية الروحية لا ترتضييني في عالمها، ولن تقبلني في دنيها، لأنني في نظرها غريب، أو أجنبي، وقد أكون للحزب نافعاً، وقد لا أكون أميناً موضع ثقته، ولكنني على الحالين أجنبي دخيل من دنيا «البرجوازية» الفاسدة.

ولم تكن يوماً لتقبل شرباً أو مرطباً، كلما اجتمعنا في المقهى، وكانت تصر على دفع ثمن ما تطلبه، ولمحت في أول مرة أريتها أين تغتسل، نظرة غضب واستنكار إلى جلباب البيت الذي كنت أرثديه.

أما إدجار فكان أرق وأكثر مجاملة، ولكنه كان كلما أركبته السيارة «الأجرة» أصر على أن ينزل منها عند منعطف أو في زاوية أو شارع جانبي، قبل أن تصل إلى المكان الذي يقصده؛ وكلما التقينا في المقهى، كان أول منصرف، مشروطاً ألا أنصرف إلا بعد خمس دقائق من خروجه؛ مخافة أن أعرف مقره، أو أتبعه إلى مسكنه. وكان يقول لي وهو يتسم: إن ذلك كله مما جرى عليه العرف في الحزب، وإنني لن ألبث أن اعتاده وأنحو نحوه من تلقاء نفسي.

ولكنني شعرت في الواقع بامتناع وخيبة أمل متزايدة، وإن قبلت هذا التدقيق كضرورة، وارتضيت هذا التخفي، بطبيعة الحال؛ فقد كنت أجري في أذيال الحزب ظمآن متلهفًا على الارتقاء في أحضانه، وكلما اجتهدت في امتلاكه، وأردت أن يمتلكني، رأيته يزداد تهربًا، وتدللًا، وابتعادًا من قبضتي، فلم ألبث أن فعلت ما يفعل معاشر الخطاب الذين تتأبى الحسان عليهم، ورحت أفكر جاهدًا في إطاره بالهدايا الكفيلة بترقيق قلبه، وكسب حبه، والظفر بابتسامه ورضاه.

فقد عرضت أن أضحي بوظيفتي، وأن أعيش عيشة مهينة متواضعة، كسائق جرارة في سهول روسيا المترامية، فقيل لي إن هذا خيال «برجوازي» رخيص؛ وألححت على «إدجار» أن يدعني ألتحق بخلية لا يعرفني فيها أحد إلا باسمي المستعار، فقال لي إنني قد أكتشف وتعرف حقيقة أمري فيُحرم الحزب من نفعي وعوني. فسألته ماذا في وسعي أن أفعل بعد هذا أو أقدمه من الخير للحزب، فكان جوابه أنه سوف يفكر في الأمر، ولكن انقضت أسابيع ولم يقل شيئًا.

وفي ذلك الحين وضعت جريدة «آم ميتاج» تحت إشرافي شابًا يدعى فون A... Von A، وهو نجل سفير سابق لألمانيا في تركيا، وكان الفتى في الحادية والعشرين ويريد أن يكون صحافيًا، فجاء ليشتغل بضعة أشهر تحت التمرين براتب اسمي، وكان مجلسه قبالي في المكتب، فكنا إذا انتهى عملنا نخرج لبعض الألعاب الرياضية في النادي الذي أنشأته دار أولشتاين للترفيه عن موظفيها؛ وكان الفارق بيننا في العمر لا

يتجاوز خمسة أعوام، فلم نلبث أن أصبحنا صديقين وتوثقت أواصر المودة بيننا، فجعلت أبحث في نفسه تعاليم «ماركس» ونظرياته أو «إنجيله» كما ألفنا أن نقول؛ وكانت حجبتي بوصفي معلمه ومدربه على الفن الصحفي ومطالبه تقع حتمًا من نفسه، وتجد أذنًا واعية لديه؛ فلم يكذب ينقضي أسبوعان حتى توسمت فيه تقدمًا كافيًا لأن أربطه بعجلة الشيوعية وأسلكه في خدمتها، ولكنني بالطبع لم أنبئه بأنني عضو في الحزب، وإنما قلت له إن لي فيه أصدقاء اعتدت أن أوافيهم من حين إلى آخر بما يقع لي من «دردشة» أو معلومات سياسية، أو أحاديث المجالس، ولم يخطر عندئذ بخلدني أن هذا التعبير هو وصف «ملطف» لعملي مع إدجار وبولا، فكأنني قد بدأت فعلاً أجنبي حصاد اعتناقي للدين الجديد، وأعني به نعمة هدوء الضمير وراحته.

وكان آل «فون!...» يعيشون عيشة اجتماعية مترفة، ويختلف إلى دارهم ضباط وساسة وأعيان، فطلبت إلى صديقي الشاب أن يرهف أذنيه، ويوافيني بما قد يسمعه في سبيل خدمة القضية المشتركة، من نحو الاستعداد في ألمانيا لمحاربة الاتحاد السوفييتي، أو في أي دولة أخرى، فوعدني أن يبذل كل جهده، معترًا بهذه الثقة التي وضعت فيه.

وهكذا أخذت التقارير التي جعلت أملها على بولا تمتلئ حياة وتزداد خطرًا، وهي في جملتها أحاديث دبلوماسية و«دردشة» مجالس، وترف وشذرات عن التسليح والدسائس الجارية بين الأحزاب الألمانية في العام الأخير من عمر الجمهورية الأولى. وقد وقع يومئذ حادث لا يزال ماثلاً في خاطري بارزًا على غيره من الأحداث، وهو أن الصحف المنتمية إلى الحزب الشيوعي لبثت عدة أسابيع تسخر من رفض الحكومة البروسية الألمانية ذات النزعة الفاشية الاشتراكية اتخاذ إجراء شديد حيال «القمصان السود» الذين كانوا يعدون العدة جهرة للقيام بحركة تطهير «البوتش»^(١) وقد علمت في ذات يوم من «رانير» المراسل السياسي لجريدة فوسيش زيتونج، أن

(١) أو البوتش Potsch أي الحمام، وقد عرف فيما بعد بحمام الدم.

البوليس البروسي سيعد «كبسة» فجائية على مقر رئاسة جنود العاصفة النازيين في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي، فيستولي على أسلحتهم وأوراقهم، ويصدر أمراً بحظر ارتداء «البذلة» النازية.

فبادرت إلى نقل الخبر إلى بولا وإدجار، وقد تم الأمر وفقاً للخطة المرسومة، ولكن بينما كانت برلين على بكرة أبيها تتحدث عن وشك قيام حرب أهلية بين النازيين والاشتراكيين، صدرت جريدتنا الشيوعية «روت فاهن» ساخرة في صفحتها الأولى كعادتها من التسامح الذي تبديه الحكومة الاشتراكية الديمقراطية حيال النازيين، وكان صدور ذلك المقال هدفاً لسخرية بالغة، ولكن الجريدة هي التي عرضت نفسها لها.

وسألت إدجار عن سر إغفالهم إنذاري، ورفضهم الأخذ بتحذيري فقال: إن موقف الحزب من الديمقراطيين الاشتراكيين وليد سياسة ثابتة طويلة الأمد فلا يمكن أن تتغير لحادث عارض، أو إجراء عابر.

قلت: ولكن الواقع يكذب كل كلمة وردت في ذلك المقال ويناقضها.

قال وهو يتسم ابتسامة المتسامح: إن نظرتك لا تزال «سوقية».

وانطلق يشرح لي الوقائع بأسلوب «التحليل المنطقي» فقال: إن إجراءات البوليس لم تكن إلا عملية «صورية» لذر الرماد في العيون، وإخفاء «الشركة» القائمة بين الفريقين. فلئن رأيت فريقاً من الزعماء الاشتراكيين مناهضين «شخصياً للفاشية، فلا يزال الحزب الاشتراكي نفسه من الناحية «الموضوعية» أداة في يد النازية، بل الواقع أن الاشتراكيين هم العدد الأكبر، لأنهم الذين أحدثوا صدعاً في الطبقة العاملة.

وقد اقتنعت بما قال لي ولكنني اعترضت لتغطية وجهي قائلاً: إن الحزب الشيوعي على كل حال هو الذي انفصل من الاشتراكيين في عام ١٩١٩.

قال: هذه هي النظرة «السوقية» إلى الموضوع مرة أخرى، فقد كنا يومئذ في الظاهر

أقلية، ولكننا نحن الذين نهضنا برسالة الثورة «العملية»، فأبى الزعماء الاشتراكيون أن يسيروا خلفنا، ومضوا يقسمون الطبقة العاملة ويحدثون صدعاً في صفوفها، فأصبحوا خدماً للرجعية وأولياء.

وأخذت شيئاً فشيئاً استريب بآرائي ونظراتي «السوقية» كما وصف لي، والنظر إلى العالم المحيط بي على ضوء التعليقات «المنطقية» التي يتحدثون عنها، وكانت هذه الحالة النفسية عندي مرضية كل الإرضاء، لأنك بمجرد تنسيق عقليتك وفقاً للفن ومصطلحاته ومآخذه ومقتضياته، لا تلبث أن تروضها على مواجهة الحقائق، في غير اضطراب أو انزعاج، ولهذا بدأت الوقائع تتخذ اعتباراً اللون الصالح لها عندي وتنزل في المكان المناسب.

واعتقدت يومئذ أن الحزب معصوم من الخطأ، أدبياً ومنطقياً على السواء، أما أدبياً فلأن أهدافه صادقة أي وفقاً «للمنطق التاريخ» وعلوم الكلام، وهي أهداف وغايات تبرر الوساطة، وأما «منطقياً» فلأن الحزب هو طليعة الطبقات الكادحة «البروليتاريا»، وهذه بدورها هي كيان المبدأ الفعّال في التاريخ.

وكان خصوم الحزب من الرجعيين الظاهرين أي الفاشيين الاشتراكيين هم ثمرات بيئتهم ونتاج محيطهم، فلا غرو إذا جاءت أفكارهم صورة «للبرجوازية» ومساويها ومقابحها. وما كان الخوارج على الحزب إلا نفوساً «ضالة» باءت بعار، وليس الجدل معهم، والاستماع ذاته لهم، إلا تعاملًا مع قوى الشر، واتصالاً بعناصر الإثم والسوء.

وكانت أيام جمهورية «فيمر» معدودات، وكان كل عنصر منا في الحزب الشيوعي الألماني منتظراً أن يرسل إلى داشا أو أوراينبرج أو غيرهما من المعتقلات ويرتقب سوء المصير.

ولكننا جميعاً مضينا نسير هائئين فرحين خلال سراب خداع من المصطلحات والأقيسة والتعبيرات الخاصة تحجب عن أعيننا عالم الحقيقة والواقع، فليكن الفاشيون البهائم أنعماء أو أضل سبيلاً، فما لنا ولهم، إن كل ما يهمنا هو أمر الهراطقة

«التروتسكيين» والمنشقين الاشتراكيين.

وقد وضع الحزب الشيوعي في عام ١٩٣١ يده في أيدي النازيين عند إجراء استفتاء عام حيال الحكومة البروسية الاشتراكية؛ وفي خريف ١٩٣٢ عدنا نضعها في أيديهم في حوادث الإضراب الذي عمد إليه عمال النقل في برلين. وكان هاينز نيومان Neumann الزعيم الشيوعي الألمعي هو الذي ابتكر تلك الكلمة المشهورة «اضرب الفاشي أينما ثقفته»، وهي كلمة كانت تبدو يومئذ ذات رنين خلاب، ولكنه لم يلبث أن خمل وتوارت شهرته قبل القضاء عليه، وراحت سياسة الحزب متراوحة لا تستقر على حال، كما رأيناها قبل ميثاق مولوتوف - ريبنتروب، وإن كان الحزب قد قرر أن يجعل عام ١٩٣٢ عام النصر للثورة «العمالية» في ألمانيا؛ فقد ثبت لدينا يومئذ الإيمان المكين الذي لم يعد يتخذ الوعود جدًّا، والألماني يقينًا، بل الإيمان الذاتي المستمد من أعماق الروح؛ فلا عجب إذا كنا سعداء مستبشرين، وإن ظللنا يومئذ القوم المستقيمين في عالم معوج، الصالحين في دنيا فاسدة.

وفي ذات يوم سألني إدجار عرضًا: هل ذهبت مرة إلى اليابان؟
قلت: كلا.

قال: أتود الذهاب إليها؟

فأجبت قائلاً: ولم لا... إنني أحب الأسفار.

قال: هل تستطيع أن تقنع دار أولشتاين بفكرة إيفادك إليها كمراسل لها.

قلت: كلا. فإن لنا فيها مراسلين وأنا لا أعرف عنها شيئًا.

قال في رفق: ولكنك لمصلحة الحزب تستطيع أن تكون فيها أنفع منك هنا، فهل في وسعك أن تحمل صحيفة أخرى على إيفادك إليها؟

قلت: إن في ذلك مشقة، ولكن أي عمل يمكن أو أؤديه فيها إذا أنا ذهبت؟

فبدا عليه شيء من التألم لسؤالي، ولكنه أجابني قائلاً: إنني هناك سوف أؤدي

عملي الصحفي وأكسب رزقي، وأصيب مرتبًا حسنًا كما هو شأني هنا في الوقت الحاضر. وبجانب ذلك أستطيع أن أوافي الحزب بمعلومات طيبة وتقارير هامة من طريق أصدقاء سيدلونني عليهم، ويعرفونني بهم. فهل لي أن أفكر في هذا الأمر مليًا؟ قلت: لا مدعاة للتفكير، فإني لن أتردد في الذهاب، ما دام الحزب يريد مني أن أذهب، ولكن ليس ثمة أمل في الظفر بصحيفة تعهد إليّ بالسفر أو تعين لي مهمة أؤديها.

فسكت إدجار لحظة ثم استرسل يقول: هل تترضي السفر إذا تولينا نحن إيجاد الصحيفة التي تقبل فكرة إفادك؟

قلت: إنني أكرر لك أن ليس لديّ ما أفكر فيه، لأنني سأذهب إذا شاء الحزب ذلك. قال: إنني سأنبئك بما نريد بعد أيام.

وترك الحديث في هذه المسألة، ولم يعاوده بعد ذلك فلم أشأ أن أسأله، فقد كنت قد عرفت آداب الحزب ولقنت طريقته كل التلقين. ووقع لي حادث غريب آخر بعد قليل.

فقد جاءني ذات يوم وأنا في المكتب فتاة تدعى «مس ماير» وطلبت لقائي، وقد كتبت على البطاقة التي تقدم عادة إلى الزائر ليبين ما حاجته تقول «لأمر خطير... صديقة قديمة».

فلما دخلت عليّ الحجرة إذا هي فتاة مسيحة من الجمال^(١) دميمة صغيرة الجسم لم أكن رأيتها من قبل، ولكن زيها المهمل وجرأتها وتصغير خدها، وهي داخلة عليّ في مكثبي، لم تلبث أن دلتني على أنها «رفيقة».

وبدا لي من حديثها أنها جاءت لتسألني أن أقبل وظيفة «محرر مسؤول» في وكالة صحفية حديثة العهد بالإنشاء؛ وكان القانون في ألمانيا يحتم أن يكون لكل نشرة دورية

(١) مسيحة من الجمال أي خالية منه، وللإنجليز تعبير آخر وهو قولهم «سادة» أي لا جمال فيها ولا ملاحه.

محرر مسؤول عما ينشر فيها، وكان المؤلف في المجلات الصغيرة وأشباهها من النشرات السريعة النمو، العاجلة الزوال، ك بعض النباتات الفطرية، أو عش الغراب^(١) ألا يكون للمحرر المسؤول عمل ما في التحرير، بل هو في الغالب شخص أوتي مكاناً في المجتمع، وله في المصرف حساب، ويجدي اسمه على المجلة إذا صدرت به. فسألت المس ماير أن تشرح لي أهداف هذه الوكالة الصحفية وماضيها، لأنني لم أكن قد سمعت في حياتي بها.

وهزت كتفيها متأففة واثنت تقول: ولكن ألا تفهم أنني قد أوفدت من أصدقائنا، وأن هذه المسألة ليست سوى «شكلية» لمجرد توقيعك؟ قلت بحذر متغايًا: ومن هم أصدقاؤنا هؤلاء؟ وازدادت تمللاً، وكادت تسب.

ولا عجب فقد كانت من نوع «سندريللا»^(٢) العصبي، أو مثال الفتاة البورجوازية الخائبة التي استحالت عن طوعية واختيار إلى صفوف الطبقة الكادحة «البروليتاريا»، وأمثالها كثيرات في الحزب الشيوعي الألماني. فطلبت إليها أن تعين أسماء أولئك الأصدقاء.

قالت متكرهة، وهي تلقي نظرة حول المكتب لكي تستوثق من أنه خال من «الميكروفونات»: «جورج طبعًا».

ولم يكن معارفي في الحزب إلى ذلك العهد يتجاوزون أرنست وإدجار وبولا، وكنت أجهل هذا الاسم، فلم أكد أصارحها بجهلي له حتى استشاطت غضبًا، واثنت تقول: «كيف تسول لهم نفوسهم إيفادي إلى إنسان مثلك لإضاعة وقتي». وانطلقت منصرفة.

(١) نبات فطري سريع النمو، عاجل الزوال.

(٢) سندريللا في الأسطورة المعروفة: فتاة يتيمة عذبتهامرأة أبيها عذابًا أليمًا.

وفي المرة التالية للقائي بولا ذكرت لها الحادث، فعجبت له وارتبكت، ووعدتني أن تبحث عن «المس ماير» هذه وتبثني ولكنها حين اجتمعت بي بعد ذلك قالت إنها لم تجد متسعاً من الوقت للبحث.

ومضت يومئذ تهز كتفيها لكل سؤال ألقيه عليها بشأن تلك الفتاة، وتقول إنه لا بد من أن يكون قد اختلط الأمر عليّ، وأنه يحسن أن أنسى ما جرى.

وجرت لي وقائع حال كثيرة من هذا القبيل، ولكنها بجملتها لم تكن شيئاً مذكوراً. ومن يدريني لعل اقتراح إدجار بشأن سفري إلى طوكيو كان مجرد اختبار نفسي، أو لعله أراد فعلاً أن يوفدني إليها، ولكن رؤساء لم يطمئنا لي ولم يثقوا بي؛ وقد تكون «المس ماير» قد جاءت فعلاً من قبل «إدجار»، الذي كان معروفاً لها باسم «جورج»، فإن هذه الأمور ونحوها كثيرة الوقوع، أو لعلها جاءت من قبل شبكة شيوعية منافسة تحاول التعدي على منطقة اختصاص إدجار ونفوذه.

وقد تبين لي من هذا الحادث وغيره في ألمانيا وروسيا أن أعمال هذه الشبكات أقل كفاية وإتقاناً ودقة مما يظن خصومها ومنافسوها المروّعون منها، وأن الوسائل التي تحت تصرفها أكثر قيوداً مما يحسبون، وأن هناك ثلاثة عوامل نفسية كثيراً ما يساء تقديرها، ولا يدرك خطرها على حقيقته، وهي الروح الخيالية التي تلازم فرق الأعوان المتطوعين في خدمة «الهيئات السوفييتية الصامتة»^(١) وسذاجتها، وجرأتها التي لا تعرف تردداً.

ولم تتجاوز صلتي بشبكة شنيلر أكثر من ثلاثة أشهر أو شهرين، ولم يكن هذا الاتصال سوى اتصال خارجي، ولكن وقوفه عند هذا الحد فلم يجاوزه إلى الانغماس، حتى أصبح «شبكة» صميماً، وهو الاصطلاح الحزبي الذي وضع للجواسيس والصنائع، لم يكن مرجعه إلى شيء من جانبي، فقد كنت مستعداً أن أكونه، لأنني

(١) سميت الصامتة أي التي تعمل في هدوء وخفية بغير إعلان أو كلام ويرمز لها بالأحرف «S. S. S.»

أصبحت يومئذ أحد أنصاف العذارى في الثورة، ممن ينتظر مجرد إشارة ليكون في مصاف أولئك الصنائع لحماً ودمًا، وبدنًا وروحًا.

وما أريد بذكر هذا أو الوقوف لحظة عنده أن أسوقه اعترافًا أو أستشهد به في قصتي استشهاده، بل لأنني كفتي ترجع نشأته إلى أوروبا الوسطى، ويتوافر فيه القدر العادي من الخيال، والحد الوسط من الخبرة، أمسيت يومئذ نموذجًا أو مثالًا من ألوف النماذج والأمثلة للشباب والفتيات الذين أقبلوا بكليتهم على الشيوعية، وتفانوا فيها تفانيًا، وأن الكومنترن و«الأوجبو» كانا في ذلك يتجران بالرقيق الأبيض وأن فريساتهما وضحاياهما هم أولئك الشباب الخياليون الذين يداعبون العنف، ويتحاليون على الانغماس في وسائله.

ولم تكن نجاتي من مخالف هذه «الشبكات» الشيوعية، بفضل بعد بصري، أو يقطتي وحذري، بل مرجعها إلى براءة الشاب «فون...» ونقاء سريره، فقد كان في الحادية والعشرين، وكانت نفسه تستشعر نحوي تلك المودة التي يحسها الشاب في تلك السن نحو معلمه ومدربه.

وقد مضت علاقاتنا بضعة أسابيع طيبة، وظلت صلاتنا على ما يرام، ولكني بدأت بعد ذلك ألمح فتورًا من جانبه وإن لم ألق بالآ كثيرًا إليه، وجاءني مرة أو مرتين يقول في تهيب ومخافة إنه يود أن يكون له معي «حديث طويل».

ولكني يومئذ كنت مرهقًا بكثرة العمل، متورطًا في حب غير موفق، كما بدأت أمل تعليمه وأتبرم بتدريبه، فجعلت أرجئ هذا «الحديث الطويل» المطلوب من حين إلى آخر، وإن بدا لي فيما بعد أن إرجائي إياه كان غلطة من تلك الأغلاط التي يهيئها القدر للإنقاذي، أشبه بمن يفوته ركوب الطائرة لأنها مقدر لها أن تسقط أو تقع لها كارثة.

وفي ذات يوم، وإنني لماض في إملاء بعض الرسائل على إحدى الكاتبات، إذ انقض الفتى «فون...» علينا فجأة وطلب أن يتحدث معي في الحال على انفراد.

وكان يبدو أشعث تاركاً شعر ذقنه ينمو، وتلوح عيناه حمراوين، وهو مضطرب هائج، فلم يسع الكاتبة إلا أن تنصرف من الحجرة مروعة.

قلت وأنا متطير موجس: «ما الخبر؟».

قال: لقد انتهى بي مطاف التفكير إلى نتيجة قاطعة، وهي إما أن أطلق الرصاص على رأسي فأتحر، أو أكشف القناع عن حركتنا ونشاطنا، فاختر من الأمرين ما تشاء.

قلت: ما هي هذه الحركات التي تتحدث عنها؟

قال بلهجة حماسية: حركات يصح أن تسمى «خيانة عظمى»؛ وأنشأ يقص قصته.

قال: إن هواجس وشكوكاً خالجتة منذ أسبوع في هذا الأمر الذي حملته على ارتضاءه، ولم تلبث هذه الشكوك في الليلة الماضية أن تحولت إلى يقين قاطع بأنه ليس إلا جاسوساً، وخائناً.

وعاد يكرر أنه لم يبق أمامه إلا أن يختار بين أحد أمرين: إما أن ينتحر، وإما أن يعترف بما فعل، ويقبل النتائج.

فقلت له: إن هذا القول هراء كله، وإن الجاسوس هو الذي يسرق وثائق حرية أو يبيع أسرار الدولة لدولة أخرى، وإن كل ما فعله هو نقل أحاديث و«دردشات» في المجامع إلى صديق له.

قال مهاجماً: وماذا فعلت أنت بتلك الأحاديث؟

قلت: رويتها لأصدقائي على علاتها.

فصاح بي قائلاً: أصدقاء...! هل تريد أن تقول جواسيس أجنب؟

قلت: إن الحزب الشيوعي هو حزب العمال في ألمانيا، فهو وطني كالحزب النازي أو الكاثوليكي سواء بسواء.

قال: كلا... فإن كل إنسان يعرف أنه آلة في أيدي الروس.

وتولاني العجب من أمره، وتساءلت في نفسي ماذا جرى له، أفتراه انقلب «نازيًا» بين عشية وضحاها.

ولكن تبين لي أنه لم يغير ميوله السياسية، وإنما أدرك أن تحول المرء إلى الاشتراكية، أو الماركسية، شيء، ونقل المعلومات إلى دولة أجنبية شيء آخر. واعترف وهو يهز كتفيه مستخفًا بأننا من الناحية الفنية قد لا نكون جاسوسين، ولكن ذلك عنده لا يغير شيئًا من الواقع، وهو أن سلوكنا كان خيانة، وعملاً غير شريف.

وقال إنه يستحيل عليه أن يعيش إذا هو لم يعترف بكل ما جرى، وقد كتب فعلاً اعترافه في الليلة البارحة ولكنه لن يسلمه إلا بعد موافقتي عليه.

وألقى بين يديّ كتابًا مسهبًا كتب على الأداة الكاتبة، فإذا هو في ثماني صفحات، وموجه إلى «المدير العام».

وطلب مني أن أقرأه.

فقرأت السطرين الأولين منه أو الأسطر الثلاثة الأولى، وهي «أنا الموقع على هذا... أرى من واجبي أن أحيطكم علمًا بما يلي... إلخ».

ولكنني وقفت عن القراءة نافرًا مستنكرًا.

ولم يلبث الفتى وكان واقفًا قبالي متأبياً الجلوس أن اكفهر، وبدا منظره أليماً، وعينه أشد من قبل تورماً واحمراراً، فلم يخالجنني الشك في أنه قد راح ينظر إلى الموقف نظرة «دراماتيكية»، ويريد الخروج منه بحماسة الشباب وتسرع ونزقه؛ ولكن قلما تقع حوادث الانتحار لدوافع قوية، وبواعث كبيرة، وإن بدا لي مع ذلك أن هذا الشاب قد أوتي من العزيمة ما سيدفعه فعلاً إلى إطلاق الرصاص على نفسه.

وظهر لي الموقف مضحكاً ومؤلمًا في آن واحد، أما أنه مضحك فلأن الشاب كان مغالياً كثيراً في أهمية شخصه، مبالغاً إلى حد بعيد في حقيقة ما فعلناه؛ وكنت لا أزال

أشعر بأن الأمر لم يتعد حد «الفضول السياسي» وإن أحسست العجز عن مجادلته أو قراءة كتابه، على الرغم من أنه يتصل رأسًا بمصري.

وعندما أبلغت «إدجار» الأمر فيما بعد، لم أستطع أن أعلل له سر امتناعي عن قراءة الكتاب؛ ولعل هذا هو ما جعل «الشبكة» تتخلى عني كإنسان لا رجاء فيه.

أما اليوم فإن شرح المسألة سهل، وهو أنني لم أقو على مواجهة شيء يتضمن وقائع كنت أنظر يومئذ إليها نظرة خاصة، وأغالط في قيمتها المغالطات الحزبية المألوفة، متلطفًا في أخذها كل التلطف، مترخصًا أقصى حدود الترخص.

ولئن كنت مقتنعًا يومئذ بأن الفتى «فون...» كان حمارًا غريبًا، أو غبيًا شاذًا غريب الأطوار، وأنني كنت العامل المجاهد الصادق في خدمة «القضية»، فقد شعرت بأنني مخطئ في حق ذلك الشاب، مروع الخاطر من تلك الخطرة التي أُنذرنى بها، متخيلاً وقفته أمام المرأة لإطلاق النار على رأسه.

وتناولت الكتاب فدسسته في جيبه وقلت له إنني لا أمانع في تسليمه، وليذهب في داهية، مشيعًا مني بالبركات....!

قال: هل تعني أنك موافق على أن أفعل ما أشرت إليه فيه.

فقد أخذته كلماتي مأخذ المفاجأة الأليمة، وراح يسألني هذا السؤال مترقبًا الجواب كأنه آخر فرصة أمامه؛ وعندئذ بدا لي في لحظة ما أنني تصرف تصرفًا جنونيًا، فلعلي بشيء من الجدل على الطريقة الخاصة، مستطيع إخراجهم من الحرج المحيط به.

ولكنني لم أستطع الإقدام، فقد تلاشى عندئذ اعتدادي بنفسى كمعلم، وتبددت ثقتي بذاتي كمرشد، وإذا بي أرى الشاب يعود من لدن الباب فيشد يدي في عاطفة رهيبية، وينصرف لا يلوي على شيء، وهو يلوح أقل اضطرابًا مما بدا عند حضوره.

وهكذا انتهى عملي في دار «أولشتاين» وبدأت مرحلة جديدة في حياتي سلخت سبع سنين عجافًا، وقد كنت متقبلًا من قبل أن أستغنى عن وظيفتي من أجل الحزب،

ولكنني أكن أظن أنني خاسرها على هذا النحو الجنوني العجيب.

وكان ذلك أيضًا نهاية علاقتي بالشبكة الشيوعية، فقد خسرت الوسيلة التي كنت أستطيع أن أتوسل بها لخدمتهم، على صورة تثبت أنني غير صالح إطلاقًا لأعمال «المخابرات»، فلم يسعهم إلا الإعراض عني بغير احتفال، ولم أعد أرى إدجار أو بولا أبدًا، وإنما علمت فيما بعد أن بولا قتلها «النازيون» في رافنسبروك، ولا تزال شخصية إدجار مجهولة لديّ إلى اليوم.

ويصح أن تسمى الطريقة التي فصلتني بها دار أولشتاين من العمل طريقة «قويمة» أو «معتدلة» أو بعض الأمثلة على «النفاق» البرجوازي، تبعًا للزاوية التي تنظر منها؛ فقد كنت أرتقب عقب انصراف الشاب «فون» لتسليم كتابه أن أدعى في أي لحظة إلى مقابلة المدير «مولر»، وكنت قد أعددت دفاعي وهو أنني فعلاً طلبت إلى هذا الفتى أن يروي لي الأحاديث السياسية التي قد تصل إلى علمه، وأني جعلت أحيانًا أنقلها إلى أصدقائي في الحزب الشيوعي الألماني، فأني إثم في ذلك أو ضير، فكل الناس يتحدثون في السياسة، ويتبادلون الأنباء مع الأصدقاء والأصحاب، وليس للدار شأن بميولي السياسية ما دامت لا تؤثر في عملي الصحفي، وما إلى ذلك كله من الحجج والاعتبارات التي كان إدجار قد أشار عليّ بها.

ولهذا ظلت بعد زوال الصدمة التي أحسستها على أثر مقابلتي للشاب فون أ، أترقب المشهد المنتظر بيني وبين المدير العام، وأنا ممتلئ الصدر غضبًا، ناظم على هذا الحادث الذي كنت على يقين من أنه سيؤدي إلى نتيجة سيئة، وأنا في الواقع منه بريء، لم أقترف إثمًا في حق الأخلاق، أو أسئ إلى الفضيلة، ولا عجب، فإن من يعيش في بركة عميقة ملأى بالأسماك، يشق عليه أن يميز بين الأجسام فيها والأشباح.

ولكن انقضت الأيام ولم يحدث شيء.

وإذا بي بعد أسبوع من واقعة الحال التي جرت بيني وبين ذلك الشاب أبصر كتابًا على منضدتي، ففضضته، وإذا به يحوي اعتذارًا جميلًا يقول إنه بسبب التخفيض

العام في عدد الموظفين مراعاة للأزمة الاقتصادية، اقتضت الضرورة الاستغناء عنكم، تاركين لكم حرية الاختيار بين كتابة مقالات لصحفنا من الخارج لقاء أجر شهري يعين حده الأدنى، وبين قبول مبلغ من المال نظير المدة الباقية من العقد المبرم معكم لمدة خمس سنوات.

وهكذا لم ترد في الكتاب ولا كلمة واحدة عن الشاب فون...، أو عن خيانة الأمانة؛ ولا ريب في أن دار أولشتاين أرادت ألا تحدث ضجة، أو تكشف عن فضيحة، وكان ذلك أيضًا رأي الحزب، فقد أشار عليّ إدجار بقبول هذه التسوية وإلقاء الغطاء على هذا الحادث.

ومن ذلك الحين، كما أسلفت عليك، لم أره طيلة الحياة.

- ٣ -

وكذلك وجدتني بعد فقدان الوظيفة حرًا طليقًا من قيود دنيا البرجوازية وأصفادها، ورحت أرسل جملة المال الذي قبضته من الدار إلى أبوي، وكان يكفي للقيام بأودهما عامين أو ثلاثة أعوام، وقد أحسست أنني قد أخليت نفسي من تبعاتها نحوهما فترة طويلة من الزمن، ولكنني أبقيت مائتي «مارك» أو قرابة عشرة جنيهات لأدفع منها أجر السفر إلى روسيا إذا سمح لي الحزب بالهجرة.

وتركت الطبقة التي كنت أسكنها في حي «وستند» وكنت أدفع عنها أجرًا كبيرًا، وانتقلت إلى عمارة أخرى رخيصة الأجور في ميدان بونر، وجل سكانه من الفنانين «المفلسين» أصحاب المبادئ الراديكالية، ولهذا سمي «المربع الأحمر».

وكانت الأشهر الثلاثة التي قضيتها فيه أسعد الأيام في فترة السنين السبع التي لبثتها عضوًا في الحزب الشيوعي.

ولم يعد ثمة حائل بعد أن زال وجه الفائدة مني للشبكة الشيوعية يحول دون انضمامي إلى إحدى الخلايا والعيش المنظم الرتيب كعضو عامل في الحزب. والواقع أن إدجار كان قد سمح لي بالانضمام إلى خلية «المربع الأحمر» باسمي المستعار، «إيفان ستاينبرج»، وكان سماحه لي به قبل فصلي من دار أولشتاين بوقت قصير جزاء لي على الاجتهاد الذي بدا مني في إملاء تلك التقارير الطوال على «بولا»، وكنت يومئذ أقيم في حي «وستند»، وهو يبعد عدة أميال من ميدان «بونر»، فلا مخافة إذا أنا انضمت إلى خلية الحي الجديد الذي نزلت به من أن يكشف أحد من الناس أمري، أو يدرك شخصية «إيفان ستاينبرج» وما يخفي وراءها.

وكان ذلك من الأغلاط السمجة التي تقع من تلك «الشبكات» المكيافيلية^(١)، فقد كان حي «المربع الأحمر» حي الفنانين والكتاب، ولم أكد أظهر في الخلية ويعلن للجمع عني كعضو جديد يدعي «الرفيق إيفان» حتى رأيت بضعة وجوه تتسم لي مرحبة محيية، وكنت قد ألقت مشهدا من قبل.

ولم أعد أجد سبباً يدعوني إلى إبقاء عضويتي في الحزب سرّاً مكتوماً، بعد أن تركت العمل في دار أولشتاين، فلم ألبث في خلية «المربع الأحمر» أن ألقيت بنفسي كلية في حياة الخلية وأفقتها ورفقتها، وكان أعضاؤها عشرين رجلاً، وكنا نجتمع بانتظام مرة أو مرتين في الأسبوع، وكانت كسائر الخلايا الشيوعية مقسمة إلى ثلاثة أقسام: الأول منها يدعي «بول ليدر» أي «الزعيم السياسي»، والثاني «أورج ليدر» أي «المنظم الإداري»، والثالث «أجيت بروب» أي العضو المسؤول عن التهييج والدعاية؛ وكان زعيمنا السياسي «ألفريد كانتورفيكز» الذي يعمل الآن رئيساً لتحرير مجلة أدبية يحتضنها الروس في برلين، وكان يومئذ في الثلاثين أو نحوها، وهو الممشوق الناحل الأحول المعروف في عالم النقد والأدب، ومؤلف قصة تدعي «قصة زماننا» وهي

(١) تسمية إلى «مكيافيللي» صاحب كتاب «الأمير» ومذهب «الغاية تبرر الوسيلة». وجواز استخدام النفاق والملق والبطش والخداع لتحقيق الأهداف السياسية.

رواية لم تشهد الضياء في يوم من الأيام.

ولكنه كان بعد ذلك كله رفيقاً طيب القلب إلى حد بالغ وصديقاً كريماً يبذل النفس رخيصة في سبيل صديقه، وقد أوتي حفاظاً وملكة مجون خصيبة فياضة، ولكن عيبه الوحيد هو الافتقار إلى الشجاعة الأدبية.

وقد لبثنا صديقين طيلة أعوام الهجرة التي قضيتها في باريس، وحين خرجت من الحزب كان الرجل الأوحـد الذي لم يبص في وجهي، وهو الآن من كبار أهل الأدب في السوفييت؛ وإنـي لأرجو أن تحميه براءة سريره واستسلامه وطاعته من الوقوع يوماً في فخاخ التقاليد المناهضة للثورة أو شرك الكوزموبوليتانية البرجوازية، أو اللصوصية «الكانطية» الجديدة، أو مجرد الإباحية الحرة^(١).

وكان زعيم خـليتنا «الإداري» الموكل بشؤون التنظيم هو «ماكس شرودر»، وهو أيضاً من الأدباء، يعيش على الشهرة التي اكتسبها بعدة القصائد العامرة التي نشرها وهو في التاسعة عشرة من العمر، أي منذ خمسة عشر عاماً مضت، ولكنه كان أيضاً «بيضة» طيبة، أو مثال «البوهيمي» المحبب الذي انحدر من «ميونخ» والذي وجد في تفانيه وإخلاصه للحزب تعويضاً عن خيبة آماله في الأدب والحاسة الجنسية، والمال، وما إليها.

وأسندت مهمة التهييج والدعاية إليّ عقب انضمامي إلى الخلية بوقت قصير، ولا أزال أعتقد أن بعض الرسائل والمناشير التي وضعتها بقلمـي ملأى بروح اليعقوبية^(٢) الحارة الصادقة.

وأذكر أن من بين أعضاء خـليتنا الدكتور ويلهلم راينخ مؤسس معهد السياسة «الجنسية» ومديره العام، وكان من الماركسيين المؤمنين بنظريات العلامة «فرويد»،

(١) كل هذه نعوت وصفات يطلقها الشيوعيون على من يريدون التشهير بهم أو اتهامهم بغير صـادقين في تفسيرهم للتاريخ ونظراتهم إلى الطبيعة.

(٢) أي الروح الثورية العنيفة التي لا تستند إلى العلم المادي ولكن كل كلامها حماسة.

وقد أصدر أخيراً بإيحاء من مالفينوفسكي كتاباً بعنوان «وظيفة الحاسة الجنسية»، شرح فيه النظرية القائلة إن إضعاف الحاسة الجنسية عند الطبقة الكادحة هو الذي خنق فيها الوعي السياسي، وإنه إذا لم تطلق الدوافع الجنسية وتسرح سراحاً تاماً بغير قيد لها ولا حد من نشاطها، فلن تدرك هذه الطبقة مدى مقدرتها الثورية، ومبلغ رسالتها التاريخية.

ولكن هذا الكلام وأشباهه كان أقل وضوحاً وجلاء مما يبدو من رنينه وأنغامه. وقد أصدر راينخ بعد انتصار هتلر دراسة باهرة في علم النفس، تناول فيها تحليل «العقلية النازية» التي كان الحزب يندد بها، ولم يلبث أن خرج عليه وانشق من صفوفه، وهو اليوم يدير معهد أبحاث علمية في الولايات المتحدة الأمريكية. وكان معنا أيضاً في الخلية ممثلان في مسرح من المسارح «الطليعية» يدعى «فخ الفأر» وعدة فتيات ذوات مطامع أدبية غير ظاهرة، وموظف في شركة تأمين، وشاب يدعى «أرنست» ابن الفاكهي القائم في الحي ونفر من العمال الكادحين. وكان نصف نشاطنا داخلاً في حدود القانون والنصف الآخر خارجاً عنه. وكنا نبدأ اجتماعاتنا بمحاضرة سياسية يلقيها عادة الزعيم السياسي بعد أن تراجع في مقر رئاسة الحزب أو من «معلم» يوفدونه لهذا الغرض. وكان الهدف المراد من هذه المحاضرات شرح الخطة السياسية المرسومة بسبيل مختلف المسائل الراهنة والشؤون الجارية.

وقد جرت في ربيع عام ١٩٣٢ وخريفه المشؤومين، سلسلة انتخابات هزت البلاد هزة الزلازل، كانتخابات الرئاسة، وانتخابات الريشتاغ مرتين، والانتخاب المتصل بمجلس النواب البروسي، وهي أربعة انتخابات سلخت معاركها ثمانية أشهر في بلد أوشك أن يرتطم في حرب أهلية.

وقد اشتركنا في تلك الانتخابات، من باب إلى باب، ودار إلى دار، موزعين

نشرات شيوعية، ومصدرين رسالات تدعو لحزبنا، وكان أشق شطر من جهودنا، تصيد النخبين، والطواف بالدوائر الانتخابية، فقد اعتدنا التجول في صباح الأحد من الأسبوع، حين يكون الناس في بيوتهم، فكان الرجل منا يدق جرس الباب ويدخل إحدى قدميه بين الباب والعمود ويعرض النشرات، ويدعو القوم برفق إلى مناقشة سياسية فيها إذا شاءوا.

وكان الناس في الغالب يلاقوننا بجفاء، ولكنهم قلما يعمدون إلى الاعتداء، وكثيرًا ما كان الباب يوصد في وجهي بعنف، ولكن لم يتقدم أحد يومًا إلى شجار أو عدوان. وكنا نتجنب دق أجراس بيوت النازيين المعروفين، وكان أكثر الذين يقيمون في مربعا أو حواليه منهم معروفين لدينا، كما كنا جميعًا لديهم معروفين، لقيام خلايا لهم مثلنا، وتشكيلات من ذوي «القمصان السود»؛ فقد عمت ألمانيا حضرها وريفها تلك الخلايا المتقنة وشباكها الدقيقة، ولا أزال أعتقد أننا كنا سنصيب رائد التوفيق، لو لم نعتمد موسكو إلى خطط نزقة ولا تفتأ بأساليبها الطائشة تمزق شباننا وتخرجها من أيدينا؛ فقد اجتمعت يومئذ الفكرة، والاستعداد للتضحية، والتأييد العام، فكانت في عوننا، وكنا مصيبي النجاح، لولا ذلك العائق القائم في طريقنا.

وقد تلاشت من نفوسنا روح النضال، لأننا لم نكن الصيادين، كما كنا نظن، بل «الطعم» المتدلي من الخطاف، وإذا كنا يومئذ قد جهلنا هذه الحقيقة فما ذلك إلا لأن عقولنا «كيفت» تكييفًا جديدًا من شأنه أن يجعلنا نتقبل أي تصرف سخيف يأتي به الأمر من فوق، كأنه من أصدق رغباتنا، وبعض مظاهر اعتقادنا وبقيننا.

وكنا قد رفضنا تعيين مرشح مشترك مع الاشتراكيين في انتخابات الرئاسة، وحين ناصر هؤلاء «هندنبرج» كأهون الشرّين، حيال هتلر، مضينا نحن نرشح «تالمان» Thalmann، وإن لم يكن ثمة أمل في نجاحه، إلا من ناحية واحدة، وهي أن ترشيحه سيقسم أصوات النخبين العمال ويوزعها توزيعًا يكفي لجلب هتلر في الحال إلى مقعد الحكم وزمام السلطان.

وقد ألقى «معلم» الخلية علينا محاضرة يثبت فيها أن ليس هناك شيء يسمى «أهون الشرين» وإنما كل هذا كلام يجري مجرى المغالطة والمناورة، بل هو فكرة «تروتسكية» منافية للثورة، يراد بها تحويل الأذهان عن الشيوعية، وتشتيت صفوفها، فلا عجب إذا نحن لم نضمّر غير الإشفاق على الذين يرددون هذه العبارة ويتحدثون عنها، ولم نكنّ لهم سوى الحقد والحقد، لاقتناعنا من البداية أنها دسيّة علينا، واختراع يراد به الكيد لنا، وكيف يعجز المرء أن يدرك أن بتر الساقين خير من محاولة إنقاذ واحدة منهما، وأن السياسة الثورية الصحيحة هي انتزاع العكازين من كفي الجمهورية الكسيحة المقعدة.

إن الإيمان ليأتي بالعجب، لا لأنه يحرك الجبال فحسب، بل يحملك أيضًا على الاعتقاد بأن سمكة «الرنجة» هي حصان سباق...!

ولم يكن «التكييف» الجديد مقتصرًا على طريقة تفكيرنا، بل تعداها إلى مجموعة عباراتنا وألفاظنا ذاتها، فقد منعنا من استخدام كلمات معينة، كقولنا «أهون الشرين» ولفظة «الذاتي» أو «الاعتباطي» لأن المظاهر «الذاتية» والدلالات «الاعتباطية» على وعي الطبقات الكادحة، كانت جزءًا من نظرية «تروتسكي» عن الثورة الدائمة، بينما أصبحت كلمات أخرى وعبارات بذاتها محببة شائعة مصطفىة؛ ولست أعني بهذا تلك الكلمات الشيوعية السائرة من نحو قولهم «الجماهير الكادحة»، بل أقصد كلمات أخرى ككلمة «محسوس» ولفظة «طائفي»، في قولهم «يجب أن تضع سؤالك في صيغة محسوسة» أو «إنك تتخذ أيها الرفيق موقفًا طائفيًا يساريًا»، أو كلمة «هيروستراتي»؛ فقد رأينا لينين في بعض مؤلفاته يذكر «هيروستراتاس» الإغريقي الذي أحرق معبدًا لا شيء سوى أنه لم يجد وسيلة أخرى يظفر منها بالشهرة والصيت، وأصبحنا نسمع بعضهم يقول أحيانًا «إن هذا هو «الجنون الهيروستراتي» الأثيم الذي يبيده أعداء الثورة في سبيل القضاء على الجهود الرائعة التي تبذلها الطبقات الكادحة في وطننا لتحقيق مشروع السنوات الخمس في أربع فقط».

وفي وسعك طبقاً لمجموعة ألفاظهم «وكليشياتهم» المحببة إلى نفوسهم أن تعرف في الحال منزع الشخص الذي تتحدث إليه، هل هو «تروتسكي» أو «إصلاحي» Reformist أو «براندليري» Brandlerite أو «بلانكستي» Blanquist أو سواء من نعوت الخوارج وأسماء المنشقين؛ وكثيراً ما دل شيوعيون على أنفسهم أمام البوليس من طريقة حديثهم وألفاظهم وعباراتهم.

وأعرف فتاة كشف الجستابو في الحال عن حقيقتها، بغير دليل قائم عليها، أو بينة ظاهرة تدينها، بل لمجرد أنها قالت في عرض كلامها «محسوس»، وقد ظل القوميسار يصغى إليها ملولاً متبرماً، وهو مقتنع إلى حد ما بأن مرؤوسيه أخطأوا في اعتقالها، حتى عادت تكرر كلمة «محسوس» أمامه، فإذا بأذنيه تنتشران، وهو ينظر إليها قائلاً: من أين التقطت هذا التعبير؟، فلم تلبث الفتاة، بعد أن كانت إلى تلك اللحظة هادئة متمالكة أن اضطربت وتلعثمت ومتى تلعثم المرء فالويل ويله، والمصاب مصابه.

وكذلك أعيد «تكييف» أذواقنا في الأدب والرسم والتصوير والموسيقى، وقد تحدث لينين في بعض تواليفه عن نفسه فقال إنه عرف عن فرنسا من قصص بلزاك، أكثر مما عرفه عنها من كل كتب التاريخ مجتمعة، فلا عجب إذا عد الشيوعيون بلزاك أكبر كتاب الدنيا عامة، وقيل عن الكتاب الآخرين إنهم كانوا «يصورون القيم المشوهة للمجتمع المتداعي الفاسد الذي أخرجهم».

وكان المبدأ الغالب في المسائل المتصلة بالفنون هو «الديناميزم الثوري»^(١) Revolutionary Dynamism فكل صورة تخلو من مدخنة مصنع أو جرارة هي صورة رسام «تهربي» أو «متهرب» Escapist. وأما كلمة «الديناميزم» فقد أفصحت المجال لدخول أساليب تجريبية جديدة كقولهم الرسم التكعيبي Cubism والفن «التعبيري» Expressionism وغيرهما؛ ولكن ذلك كله تغير بعد بضع سنين حين استعيز عن «الديناميزم»، «بالرياليزم» الاجتماعي أو الفن «الواقعي». ومن هنا

(١) مذهب في الرسم والتصوير يروق الشيوعيين كما ترى من اشتراطهم فيه.

أصبح كل ما هو حديث أو «تجريبي» يوسم بميسم «الصياغة البرجوازية» للتعبير عن فساد «الرأسمالية» وانحطاطها وتدهور أقيستها وفنونها؛ وكان «الكورس» في الموسيقى والتمثيل يعد يومئذ أسمى ضروب التعبير وأرفعها، لأنه يصور الروح «الجماعية» في اللحن والغناء، ويتناقض مع الموسيقى «المنفردة» التي شاعت في «البرجوازية» واستمكنت منها، ولم يكن في الإمكان إلغاء «الأشخاص» أو «الأفراد» من «المسرحيات»، فاقضى الأمر تحديد الأساليب والنماذج وتجريد الأشخاص من الفردية، وقصرهم على الرموز.

وعمد الشيوعيون أيضاً إلى علم النفس فبسّطوه تبسيطاً واسع المدى، واكتفوا بإقرار دافعين انفعاليين، وما دافع «التضامن الطبقي» Class Solidarity والدافع الجنسي Sexual Urge ووصف كل ما عداهما بأنه داخل فيما وراء الطبيعة عند البرجوازيين، أو أثر من التنافس الاقتصادي عند الرأسماليين، كالطمع والطموح ونشوة السلطان والنفوذ.

أما الدافع الجنسي فقد كنا في حيرة بالغة من أمره، وإن أقره الحزب رسمياً، واعترف به، فإن الوجدانية في الزواج، وشريعة الحياة الزوجية بجملتهما من ثمرات النظام الاقتصادي، وهما يولدان «الفردية»، ويغرسان النفاق، ويحدثان نزوعاً إلى «التهرب» من الصراع الطبقي، فلا معدى عن رفضهما جملة واحدة، وليست «الزوجية البرجوازية» إلا ضرباً من «البغاء» أقره المجتمع، ولكن الزواج «العرفي» مردول أيضاً، وقد راج في الحزب وشاع في روسيا والخارج، حتى أعلن لينين مخالفته لنظرية «قدح الماء» Glass of Water وهي قولهم إن «العملية الجنسية» لا نتيجة لها غير ما يحدثه قدح من الماء في إطفاء الظمأ إلى الشراب» ومن هنا كانت الأخلاق أو الحاسة الأدبية عند البرجوازية سيئة، والزواج العرفي مثلها في السوء؛ والرأي الصائب في مسألة «الدافع الجنسي» هو سلامة الحاسة الأدبية عند الطبقة الكادحة، لأنها تقتضي الزواج والإخلاص للزوج وإخراج الذراري الكادحة والبنين العاملين.

ولكن قد يسأل سائل: أليست هذه جميعاً واحدة عند الطبقتين؟

والجواب الشيوعي هو أن هذا السؤال أيها الرفيق يدل على أن تفكيرك «سوقي» وليس تفكيراً «منطقياً»، إذ ما هو الفرق بين البندقية وهي في يد الشرطي، وبينها وهي في يد العامل؟ إن الفرق هو أن الشرطي ليس إلا خادماً يجري في أذبال الطبقة الحاكمة، وليست البندقية في يده إلا آلة عسف واضطهاد، ولكنها في يد العامل الكادح أداة تحرير للطبقات المظلومة المضطهدة، وهذا هو بالذات وجه الحق في مسألة الفارق بين «الحاسة الأدبية» عند البرجوازية، وبينها عند الطبقة الكادحة؛ فإن شرعة الزواج في المجتمع الرأسمالي هي مظهر من مظاهر الانحطاط البرجوازي، ولكنها في الجماعات الكادحة السليمة قد تحولت تحولاً منطقياً خاصاً، طهرها من الشوائب، فهل فهمت أيها الرفيق، أم تريد مني أن أكرر الجواب في صيغة أوضح بياناً، وأكثر جلاءً؟

وكان تكرار الصيغ والعبارات، وإلقاء الأسئلة وإعادتها بنصها في الأجوبة والردود عليها، واستخدام نعوت معينة، وصفات بذواتها، ورفض رأي أو حقيقة بمجرد وضع الكلمات بين أقواس، وإضفاء غشاء تهكمي سافر عليها كقولهم: ماضي تروتسكي «الثوري»! والرغاء «الإنساني» الذي تلح صحف الأحرار فيه!... كل أولئك كانت أجزاء لا معدى عنها من الأسلوب الذي كان فيه جوزف جوجاشفيلي^(١) السيد الذي لا يبارى، والمولى غير مدافع؛ بل الأسلوب الذي جعل من طول تكراره وجريانه على وتيرة واحدة، يحدث تأثيراً أشبه بتأثير التنويم المغناطيسي، فإن حضرت هذه اللهجة الرتيبة ساعتين من الزمن لم تعد تدري أنت غلام أم فتاة، بل أصبحت على استعداد للإيمان بأنك أحدهما، بمجرد ظهور الآخر بين قوسين، وتأهبت للاعتقاد أيضاً بأن الاشتراكيين هم (أ) أعداؤك الألداء (ب) وحلفاؤك الطبيعيون، وأن البلاد الاشتراكية والأقطار الرأسمالية تستطيع أن تعيش جنباً إلى جنب في سلام، وأن «إنجلز» كان

(١) اسم ستالين في الأصل.

يقصد العكس تمامًا حين كتب يقول إن قيام الاشتراكية في بلد واحد مستحيل؛ بل لقد علمك الشيوعيون من قبل أن تبرهن بطريقة «الاستنتاج المسلسل» أن كل من يخالفك هو صنيعة من صنائع الفاشية لأنه (١) بمخالفته لرأيك يهدد وحدة الحزب (٢) وبتهديد وحدة الحزب يفسح المجال لانتصار الفاشية ومن ثم (٣) قد تصرف معك «موضوعيًا» تصرف صنيعة من صنائعها وإن كان «شخصيًا» قد حطم كليتيك يومًا بالضرب المبرح في معسكر الاعتقال، وكانت لكلمة «صنيعة» ولفظة «ديموقراطية» وعبارة «حرية» معان في تقدير الحزب تختلف عن معانيها العامة المفهومة عند الناس؛ وكلما تغيرت معانيها الحزبية تبعًا لتغير الخطط وتبدل السياسات، أصبحت أساليب الجدل أشبه شيء في لعبة الكروكيه «بملكة القلوب» حيث يتحرك الطوق حول الساحة وتبدو الكرات قناذ حية، مع فارق واحد، وهو أنه عندما يفوت الدور أحد اللاعبين، وتصبح الملكة «اقطعوا رأسه» ينفذ الأمر حقيقة وفعلاً، فلكي ننجو بالأرواح كان علينا أن نصبح «غواة» في لعبة الكروكيه!

وكان من أبرز معالم الحياة في الحزب يومئذ الإيمان «بالطبقة الكادحة» كملة ودين، واحتقار أهل الطبقة المستنيرة وامتهانها، فقد كان هؤلاء «الدمل» الخبيث و«الخراج» المليء بالصديد، وفلول المتعلمين المنحدرين من أصل برجوازي، وإذا كنا من أفراد الحركة وأعضائها، فما دخلنا إلا لتعذب، لا لأنه حق من حقوقنا، وكان هذا الاعتقاد يغرس في نفوسنا ليل نهار، ويلقن لنا تلقينًا، وما أطاق الحزب وجودنا، وتسامح معنا، إلا لأن لينين قال بهذا التسامح ونصح به، ولأن روسيا لم تكن تستطيع أن تستغني عن الأطباء، والمهندسين، والعلماء، الذين ينتمون إلى الطبقة المتعلمة قبل الثورة، ولا يمكنها أن تعيش في غناء عن الإخصائين الأجانب الملاعين، ولكننا مع هذا كله لم نكن موضع ثقة أو أكثر احترامًا في نظرهم من فئة «اليهود النافعين» في الرايخ الثالث الذين خلى بينهم، ولم يذبحوا تذبيحًا، بل أعطوا شارات مميزة حتى لا يساق بهم خطأ إلى حجرة من حجرات الاختناق بالغاز قبل أن يعتصروا

اعتصارًا وتستخلص وجوه النفع فيهم استخلاصًا، وكان «الآريون» في الحزب هم الطبقة الكادحة، وكان الأصل الاجتماعي للآباء والأجداد عاملاً له خطره ووزنه عند طلب العضوية وخلال حركتي التطهير العادي الذي يجري مرتين في كل عام، كشأن فكرة الأصل الآري عند النازيين، كما كان البروليتاريون الأقحاح هم عمال المصانع الروس، والصفوة المختارة منهم هم عمال مصانع «بوتيلوف» في مدينة ليننجراد ومناجم الزيت في باكو، وكان العامل «المثالي» في كل ما قرأناه أو وضعناه من الكتب هو العامل العريض المنكبين الصريح الوجه والقسمات، الواعي كل الوعي، المدرك كل الإدراك، لكرامة طبقته، الرقيب على واقع حاسته الجنسية، القوي الصموت الحار العاطفة، ولكنه الخشن الغليظ عند الاقتضاء، ذو القدمين الكبيرتين واليدين المشققتين، والصوت الجهوري الذي يعينه على التغني بأغاني الثورة وإنشاد أناشيدها. أما «البروليتاريون» الذين ليسوا شيوعيين فهم أبعد ما يكونون عنهم حقًا، لأنهم إما أن يكونوا منتمين إلى بروليتارية لامبن^(١) أو إلى الأرستقراطية العمالية^(٢) وليس لأي حركة حياة بغير مثل من أمثلة البطولة، وكان بطل خيلتنا إيفان إيفانوفتش الذي يشتغل في مصانع «بونيلوف».

وهيئات لفرد من الطبقة «المستنيرة» أن يصبح عاملاً كادحًا صميمًا، ولكن المتعين عليه أن يحاول أن يكون أدنى منه وأقرب شيء إليه، وقد حاول فريق منهم تحقيق ذلك فأقلعوا عن استخدام رابطة العنق «الكرافت»، وارتداء «العراقات» التي ترتدي في لعبة «البولو» وترك أظافرهم طوالاً سودًا، ولكن الحزب لم يرقه هذا ولم يقره، بل عده «رقاعة» وتصنعًا وافتعالًا، وجعل السبيل القويم ألا يكتب المرء ولا يقول ولا يفكر في شيء يعجز الكناس في الشارع عن فهمه، فجعلنا نلقي عنا بضاعة العلم وحقائب التفكير، كما يلقيها المسافر على ظهر باخرة في ساعة الفرع، أو الخطر من الغرق،

(١) Lumpin أو العمال الذين لم يؤثروا وعيًا طبيعيًا.

(٢) الأرستقراطية العمالية أو العمال الذوات.

ولم يبق لنا منها إلا القدر القليل المحدود من العبارات الشائعة، والجمل الثابت كالكليشيات والشذرات المقتبسة من «الماركسية» التي يتألف من مجموعتها كلام ستالين وأشياعه في المجال الدولي، وأصبح الأخذ بنصيب من التعليم البرجوازي، والبروز بحصة من الثقافة، والقدرة على رؤية مشكلة ما من عديد نواحيها لا من ناحية واحدة -مصدر ندامة لصاحبها وباعث وخز وألم، ورحنا نتلهف على أن نصبح واضحي الأذهان، بسطاء العقول، وأضحى «الإخصاء» العقلي^(١)، ثمنًا زهيدًا في سبيل الظفر بشبه ولو قليل لما فعله بطل خليتنا الرفيق إيفان إيفانوفتش.

- ٤ -

ولنعد إلى سير الحياة في الخلية.

فقد كانت الاجتماعات كما أسلفت عليك تبدأ بمحاضرة سياسية، أو بمحاضرتين، لبسط الخطط، وشرح المعالم، ثم تتلوها المناقشات، وكانت ذات طابع خاص، فقد كان من القواعد الأساسية في روح النظام الشيوعي أن كل انتقاد يوجه إلى قرار اتخذه الحزب، بشأن سياسة معينة، أو تصرف من التصرفات، في مسألة من المسائل، يعد «تخريبًا»، ويوصف الناقد بأنه من «المنحرفين» أو «المنشقين»، وكانت المناقشة مسموحًا بها جائزة قبل صدور القرار، ولكن القرارات إنما تأتي من فوق، وتهبط من السماء، دون الاستئناس بآراء أي هيئة تمثل الدهماء، أو عامة الأعضاء، فليس لهؤلاء إذن نفوذ ما أو شأن في السياسة وتكييفها ورسم خططها ولا أمل لهم في التعبير عن آرائهم، ولكن لا تنس أيضًا أن الزعامة محرومة من الوسائل التي تستطيع بها أن تقيس نفسية الجماهير وتتعرف وجهتها، حتى لقد أصبح من الكلام السائر قولهم «إن الخط الأمامي ليس مكانًا للمناقشات». أو قولهم «أيما يقف شيوعي، فهو أبدًا في الخط الأمامي...».

(١) كالإخصاء في الخراف؛ حتى لا تبقى لهم حرية التفكير.

ولهذا كانت مناقشاتنا تدل دائماً على إجماع تام على رأي واحد، وكان الشكل الذي تتخذه أن ينبري واحد في إثر واحد «فيتلو» كلاماً يختلف تعبيراً، من ناحية الأساليب المأخوذة عن شوجاشفيلي -أي ستالين- والألفاظ الثابت المحاكاة لعباراته، ولكنها تجتمع في الجملة على إقرار ما جاء في المحاضرة والتأمين على ما ساقه المحاضر فيها، ولعل التعبير بكلمة «يتلو» ليس بالوصف الصحيح هنا، فقد كنا نتحسس بألم بالغ في أعماق عقولنا لكي نجد مبرراً للخطة المعروضة علينا، ونعثر على آثار لأفكار وخواطر سابقة تثبت لنا أننا كنا من قبل نرى هذا الرأي المطلوب، ونفكر هذا التفكير المعروض، وكنا في هذه العملية المجهدة كثيراً ما نوفق، ولعلي أحسست الحيرة والدهشة حين ذهب معلمنا في بعض اجتماعاتنا ينبئنا أن الشعار الذي سوف يتخذه الحزب في الانتخابات القادمة لمجلس النواب البروسي لن يكون بسبيل الملايين السبعة من العمال المتعطلين في ألمانيا، ولا خطر «ذوي القمصان السود» ولكنه سوف يكون «الدفاع عن الطبقة الكادحة في الصين ضد عدوان اليابانيين القراصنة».

ولكني لم أعد أذكر حيرتي تلك، أو يقف عندها خاطري طويلاً، وإنما أذكر أنني كتبت رسالة صادقة بليغة في موسم الانتخابات، دلت فيها على أن الحوادث التي تقع في «شنغهاي» أهم شأنًا في عين الطبقة العاملة في ألمانيا من الحوادث التي تجري في برلين، وأذكر أيضًا الكف التي ربت على كتفي عقب تلك الرسالة من جانب مقر رئاسة المركز، ولا تزال ذكرها تسعدني، وأنا لا أزال العاجز عن مغالبة هذا الإحساس.

وكان أعضاء الخلية من «العمال» يجلسون عادة في الاجتماعات «مهمومين» يبدو النعاس على وجوههم، وكانوا يصغون بأجفان متثاقلة من ريبة، أو مفتحة قليلاً من التشكك، إلى ما كان «المعلمون» يشرحونه كأسباب لموافقتهم، وعوامل تؤيد إقرارهم، ولكن لا يلبث بعد تردد يسير أن ينهض أحدهم فيردد بشكل غريب ولهجة

تحدّ ظاهرة، الأقوال السائرة التي وردت في كلام المحاضر باعتبارها الشعار الذي ينبغي اتخاذه، والبرنامج الذي يجب السير عليه، دون أن يكلف نفسه مؤونة التغيير في الألفاظ، أو التبديل في التعبير، وكان الآخرون ينصتون إليه في صمت رهيب، فإذا فرغ من مقالته، عاد إلى مجلسه وسط همهمة موافقة، ومخافتة بتأمين، وعندئذ يتولى «المعلم» تلخيص ما دار في الجلسة، ويقول إن الرفيق س... هو الذي استطاع دون سائر الخطباء المتكلمين أن يضع الموضوع المطروح في أحسن عبارة وأسلم تعبير.

وقد أسلفت أن صيف عام ١٩٣٢ كان فترة انتقال؛ إذ كان الحزب يتأهب للعمل في الخفاء، ويعاود لهذا السبب تنظيم صفوفه، وتكوين هيئاته وشعبه وخلاياه، فقد كان من المحتمل بين عشية وضحاها أن يصدر أمر بإلغاء الحزب أو تحريم وجوده قانوناً فلا معدى عن الاستعداد لهذا الطارئ، لأن جميع الخلايا إذا نحن أكرهنا على العمل ضد القانون سوف تتلاشى، ويحل محلها تنظيم جديد يغمر البلاد كلها، ونعني به «الجماعات الخماسية» السرية Groups of Five لأن الخلايا كانت عادة بين عشرة رفاق وثلاثين رفيقاً، وهي لكثرة أعضائها لا تحسن العمل في الحركة السرية، وتهيئ الفرص أمام المخبرين لكشف مخابئها، ومعرفة خافيتها.

وكان تقسيم «الكادرات» إلى جماعات تتألف من خمسة أفراد يستوجب تنظيمًا لا يتوافر فيه التركيز، ولكنه أمان من الخطر، وأقل ما يكون استهدافاً للمجازفات، إذ لا يعرف شخصية الأعضاء الأربعة ومحال إقامتهم غير «المسؤول»، أو الخامس فيهم، وهو وحده الذي يتصل بالهيئة العليا التالية لهيئته في الصرح الشيوعي العام، فإذا قبض عليه فلن يكون في إمكانه غير الغدر بالأربعة الآخرين في جماعته والشخص الأوحد الذي كان على صلة به.

وقد اقتضى الاستعداد أن تظل الخلية مؤدية عملها، وأن يخصص سرّاً لكل عضو جماعة خماسية ينتمي في الوقت ذاته إليها، وكان المراد من ذلك ألا تعرف أي جماعة خماسية شيئاً عن تكوين الجماعات الأخرى، والواقع أننا كجيران في «المربع» كنا

نعرف أي جماعة كانت منعقدة سرًّا، وفي شقة أي عضو. وفي الليلة التي أحرقت فيها دار «الريشتاغ»، حين وجه جورنج ضربته القاتلة إلى الحزب الشيوعي، لم تلبث تلك الجماعة الخماسية أن تناثرت وتفرقت، وتداعى البنيان الدقيق كله في البلاد، وكان إعجابنا بالغًا ببراعة زعمائنا ودقة حيلهم للمؤامرة، ولئن كان كل فرد منا قد قرأ كتبًا ومؤلفات عن التمرد ووسائله الفنية، والحرب الأهلية وأساليبها الجهنمية، فلم تلبث ملكاتنا الانتقادية أن اضطربت يومئذ واختلت إلى حد جعلنا جميعًا حيارى مبهورين لا ندرك حكمة تلك الخطة الجديدة وما قد يترتب عليها من الأخطار والنكبات، فإن الاستعداد لحركة سرية طويلة الأمد بتشكيل جماعات صغيرة بعيدة عن التركيز، كان معناه أن زعماءنا سلموا لا محالة بأن النصر واقع للنازيين، وأن تجزئة «الكادرات» إلى وحدات صغيرة توهي بأن الحزب سوف لا يلجأ إلى مقاومة صريحة مسلحة حيال صعدة هتلر إلى ذروة السلطان، بل كان يستعد لمقاومات أو مناوشات متقطعة محدودة النطاق.

ولكن نحن معاشر الدهماء، أو الصفوف، لم نكن يومئذ ندري من ذلك شيئًا بل مضينا خلال ذلك الصيف المستطيل الخائق عام ١٩٣٢ نواصل معاركنا المألوفة مع النازيين، فلم يكن ينقضي يوم دون مصرع واحد منهم أو اثنين في برلين، وكانت ميادين هذا الصراع تلك الحانات الصغيرة المختنقة بسحائب الدخان، التي تكثر في الجهات التي يقطنها العمال، أو مشارب «الجمعة» فقد كان بعضها ملتقى النازيين، والبعض الآخر متدانا نحن ومجتمعنا، وكان دخول حانة غير الحانة الصحيحة معناه الوقوع في خطوط الأعداء، وقد اعتاد النازيون في الفينة بعد الفينة أن يطلقوا الرصاص على حانة من حاناتنا، على طريقة العصابات الأمريكية في شيكاغو، إذ يمشى فريق من جنود العاصفة النازيين قبالة المشرب أو يمرون بالسيارة عليه بطاء فيطلقون النيران من خلال زجاج النوافذ ثم يتوارون مسرعين، ولم يكن لدينا من السيارات القدر الوفير الذي كان لديهم، فكانت ثاراتنا تقع ونحن في سيارات مسروقة أو مستعارة من

العاطفين علينا والحاديين، وكان الذين يتولونها منا هم أعضاء رابطة الجنود القدامى الشيوعيين، وكانت سيارتي أحياناً تعار لرفاق لم أشهدهم من قبل ولا رأيتهم في حياتي، وكانت تعاد لي بعد بضع ساعات فلا أسأل أين كانت، ولا يقال لي ماذا صنع بها، وكانت السيارة صغيرة حمراء اللون، مكشوفة من نوع «الفيات» موديل ٥٠٩، أي أنها لم تكن تناسب مطلقاً هذه الأغراض، ولكن لم يكن أحد سواي في الخلية يملك سيارة حتى يعيرها، وكانت بقية ما كان عندي من الماضي البرجوازي البائد فأصبحت أداة من أدوات «الثورة العمالية»، وكنت أنفق نصف وقتي في الطواف بها عدة مشاوير، وتأدية مختلف المهام، من نحو نقل منشورات، أو توزيع كتيبات، أو اقتفاء أثر سيارات نازية، أعطيت لنا أرقامها من قبل، أو أخرج بها أحياناً لحراسة بعض الرفاق في خرجتهم لعمل معين، وحدث يوماً أن طلب مني نقل أدوات مطبعة يد بكامل أجزائها ولوازمها من إحدى محطات السكك الحديدية إلى مخزن تحت دكان بقال.

وكان أعضاء الرابطة الذين يجيئون لأخذ السيارة تمهيداً لغزواتهم المباغته، من الأشرار الذين يعيشون عادة في مواخير برلين وبؤرها الخفية، وكنت أنبأ بقرب مقدمتهم بإشارة تليفونية أو رسالة شفوية من مقر رئاسة المركز، ولكني لم أشهد أشخاصاً منهم يأتون مرتين، بل في كل مرة يأتي أناس مختلفون عن السابقين، وأحياناً كنت أوامر بأن أتولى قيادة السيارة، إذا كانت المهمة بسيطة أو قليلة الخطر، فكنا ننطلق بها في رفق قبالة بعض الحانات التي يختلف النازيون إليها، لمراقبة الحال، أو نطوف بحانة من حاناتنا إذا جاءنا أحد مخبرينا الذين يتجسسون لنا على النازيين فأبلغنا أن هناك هجمة مرتقبة علينا؛ وكانت هذه المهمة ثقيلة على النفس ممجوجة، فقد جعلنا نكمن عن كذب من الحانة مطفئي الأنوار تاركين المحرك دائراً، وكنت على مقرب سيارة ما أسمع قعقة «سقاطة الأمان» في مدافع الركاب الذين أتولى قيادة سيارتي لهم، مشفوعة بهمس في أذني أن «طأطى رأسك» ولكن لم يحدث أمامي مرة أن انتهى

الاستعداد للإطلاق إلى الضرب فعلاً.

وحدث يوماً أن عمد الذين جاءوا لأخذ السيارة إلى التنكر في «شقتي» قبل المسير، فوضعوا شوارب مستعارة ومناظير على أعينهم، وارتدوا سترات سوداء، ولبسوا على رؤوسهم قبعات مثلثة الأركان، ووقفت أرقبهم من نافذتي وهم منطلقون كأنهم سادات أكابر، في سيارة صغيرة حمراء، أو جمع في جنازة أو سير موكب، وقد عادوا بعد أربع ساعات من ذهابهم، فغيروا ثيابهم، وانصرفوا بعد أن شدوا على يدي في صمت مصافحين.

وكانت التعليمات الصادرة إليّ أن أقول إذا تمكن البوليس مرة من أخذ رقم السيارة، خلال غزوة من تلك الغزوات، أنها سرقت مني وأني عثرت عليها ملقاة في شارع مهجور.

وأحياناً كانت الإشاعة تسري في حيننا «المربع الأحمر» بأن النازيين متوون مهاجمته كما سبق أن هاجموا أحياء شيوعية أخرى، فكنا نقف لهم بالمرصاد، ويتولى أعضاء الرابطة مهمة الرقابة والحراسة.

وحدث في ذات ليلة رهيبة أن حوت «شقتي» الصغيرة نحو ثلاثين فرداً، وهم راصدون مدججون بالسلاح والمواسير والهراوات المصنوعة من الجلد «الباسطونيات» واتفق أن وصل في تلك الليلة بالذات صديق لي من «فيينا» يدعى «أرنست» للمقام في برلين بضعة أيام، وكان من العلماء الشباب، رقيق العاطفة، حياً، منزوياً وإن كان حاد الذهن، ألمعي الذكاء.

وبدت «الشقة» غائمة قاتمة من كثافة سحائب التبغ الملبدة في أفقها، والقوم جلوس أو نيام في كل ناحية منها، فوق السرر، أو على أديم الأرض، أو تحت البالوعة في المطبخ، وسط المواسير الرصاص، والهراوات وزجاجات الجعة.

ولما جاء دوري للحراسة في الشارع، اصطحبت صديقي معي، فراح يسألني: لم

كل هذا الحشد في مسكنك؟ ولم يكذب يسمع مني السر، حتى مضى يقول: «أنا عارف، أنا عارف، ولكن نبئني، ماذا أنت بهذا صانع بحياتك؟».

قلت بفرح وتهلل: «إنني أعاون في الاستعداد للثورة».

قال: «إن الأمر لا يبدو لعيني كذلك؟ ولست أدري لماذا، لأنني لا أعرف طبعاً كيف تعد الثورات وتتخذ لها الأهبة وتوفر المطالب، ولكن المشهد الذي رأيته في مسكنك يلوح لي مشهد شرذمة من المكافحين، أو فلول جيش مندرج».

وقد أصاب فيما قال، فقد كنا نعد أنفسنا «طليعة» الثورة، وإذا بنا في الواقع «مؤخرة» حركة «عمالية» ممزقة متناثرة.

ولم تمض بضعة أسابيع حتى دبر «فون بابن» انقلابه، وتمكن ضابط واحد وثمانية جنود من طرد الحكومة الاشتراكية وإقصائها عن الحكم، ولم يبد الحزب الاشتراكي وقوامه ثمانية ملايين أو يزيدون، شيئاً من المقاومة، ولم يحدثوا يومئذ حدثاً، بل لم تعتمد النقابات التي كان يشرف الحزب الاشتراكي عليها إلى دعوة العمال إلى الإضراب احتجاجاً، ولكننا نحن وحدنا، معاصر الشيوعيين، الذين انضمنا منذ عام واحد إلى النازيين، على تلك الحكومة الاشتراكية ذاتها، نحن الذين ما فتئنا يومئذ نقول إن الاشتراكيين هم أعدى أعداء الطبقة العاملة... مضينا ندعو إلى الإضراب العام في الحال، ولكن الدعوة لقيت آذاناً صماء في جميع أرجاء ألمانيا وربوعها، فقد فقدت كلماتنا معانيها الحقيقية في نفوس الجماهير، كما تفقد العملة المتضخمة قيمتها في الأسواق.

وهكذا خسرنا المعركة حيال هتلر قبل أن تبدأ، وأصبح من الجلي بعد ٢٠ يولية عام ١٩٣٢ لكل إنسان سوانا أن الحزب الشيوعي الألماني، وهو أقوى الأحزاب الشيوعية في أوروبا كلها، لم يعد غير عملاق خصي كل كلامه الضخم وزهو وثرثرته لا تعدو مجرد «تغطية» لإخفاء رجولته المفقودة، وذكورته الضائعة!

وانشئت صحف الحزب بعد اليوم الأولى لحركة الإضراب الميتة في المهد تؤكد أن الدعوة إليه كانت وحدها نصرًا متردد الأصداء، ما دام الحزب الاشتراكي نفسه قد وقف جامدًا لا حراك به، وذهبت تقول إن حزبنا بهذا الإجراء الذي اتخذه، قد كشف عن خيانة زعماء الفاشية الاشتراكية وغدرهم.

ولم تمض أشهر أخرى حتى انتهى الأمر بخيبة تامة، وظهر في بضع ساعات أن الأعوام التي انقضت في التدريب على المؤامرات والحركات الفنية والاستعدادات للطوارئ والخطوب، كانت هباء منثورًا، وجهدًا ضائعًا، بل تبين أن ذلك «العملاق» خارت ساقاه فانهار كما ينهار «الجبار» المقنع في «المرافع» أو الكرنفال، إذا لم يلبث «تالمان» زعيم الحزب، وأكثر أعوانه أن قبض عليهم في المكامن التي حرصوا من قبل على إخفائها، واعتقلوا بجملتهم في بضعة أيام.

وتفرقت اللجنة المركزية، ونزح أهلها من البلاد، وغمر الليل البهيم ألمانيا بأسرها.

واليوم، بعد سبعة عشر عامًا، لا يزال ذلك الليل البهيم مُرخيًا عليها سدوله! وأخيرًا، بعد أن تربع هتلر دست السلطان، وألقى «تالمان» في غيابة السجن، وذهب ألوف من أعضاء الحزب صرعى، وسيق بعشرات الألوف إلى معسكرات الاعتقال، استيقظ الكومترن وانتبه إلى تبعاته، وجلس قضاة الحزب في خارج روسيا وداخلها، مجلس الحكم على «العدو الكامن في الصفوف» وراحوا ينددون بهم، قائلين عنهم إنهم «أعوان الفاشية وعصاباتا وصنائعها» لأنهم يهتممون ويتبرمون سرًا بسياسة الحزب ويتسخطون على خطته، وهي أن الاشتراكي لا يزال العدو رقم ١ للعمال في ألمانيا، بل مضى أولئك القضاة يحكمون بأن الشيوعية لم «تنهزم» وإنما انسحبت انسحابًا فينيًا اقتضته الظروف، وحتمته الملابسات.

* * *

ولا يخفى أن ذاكرة المرء تحيط الماضي دائمًا بهالات من الخيال لتجميله، ولكن

حين يتخلى الإنسان عن عقيدة ما، أو تنكشف له خيانة من صديق، أو غدر من صاحب، تنعكس العملية، ويحدث النقيض، فلا تلبث التجربة الأولى، أو الماضي، على ضوء ما انكشف أخيراً وظهر، أن تفقد طهارتها، وجمالها القديم وروعها، وتصبح عند استعادة ذكرها سيئة الوقع، أليمة، معتمة. وقد حاولت جهدي في هذه الصفحات أن أستحضر نفسي ذاتها التي كنت أحسها في ذلك العهد الذي أروي قصته، ولكنني أعلم أنني فشلت في هذه المحاولة، فلا تزال تغالبني السخرية، ويتملكني الغضب والاستحياء، ويلوح لي أن عواطفني في ذلك الحين تحولت اليوم إلى أضدادها، وانقلبت إلى حياة أشبه بالحياة التي يحياها «المدمن» الملحّ على المخدرات، وليس الذين وقعوا في أحبولة هذه «الخدعة» الكبرى التي ظهرت في عصرنا الحديث، وعانوا من فجورها وأضرارها، وخاضوا مواجهها وعذاباتها، فاستسلموا لإدمان جديد وإلحاح على مخدر آخر، من نوع مختلف، أو قدر عليهم أن يعيشوا إلى الأبد في «خُمار»^(١) دائم، إلا المقابر المتحركة لأصحابهم القتلى وإخوانهم المضرجين، بل هم المتخذون من أكفان زملائهم أعلاماً وبنوداً.

ومن هنا رأينا كيف يتأبى هؤلاء المدمنون على كل علاج ويقاومون جاهدين الدواء الذي يشفيهم من الداء...!

وفي أوائل صيف عام ١٩٣٢ رخص لي أخيراً بجواز سفر إلى روسيا، وقد ظفرت به بناء على دعوة وجهت إليّ من «الهيئة الدولية للكتاب الثوريين» للطواف بها ووضع كتاب عنها، واقترح أن يكون عنوانه «أرض السوفييت كما تراها عين برجوازية»، وأن يكون هدفه أن يصف مسيو ك... المراسل «البرجوازي» المعروف بتحيزه ضد السوفييت، كيف زار تلك البلاد فلم يلبث أن عدل عن رأيه الأول فيها وتحول إلى الإعجاب بها، عقب مشاهدة ثمرات الإنشاء والتعمير خلال السنوات الخمس الأولى، وكيف أصبح «الرفيق ك...» بعد أن كان بالشيوعية من الكافرين.

(١) الخمار على وزن دوار تأثير الخمر في الصباح.

وسافرت إلى روسيا، قبل استيلاء هتلر على زمام السلطان في ألمانيا بستة أشهر مزودًا بتوصية إلى الرفيق جوبنر الذي كان يومئذ يرأس قسم الدعاية في اللجنة التنفيذية للشيوعية الدولية في موسكو، كما زودتني هذه اللجنة بكتاب «تزكية» تطلب فيه إلى جميع السلطات السوفيتية مساعدتي على تأدية «مهمتي» كمندوب من قبل «الهيئة الدولية للكتاب الثوريين».

وكان كتاب هذه اللجنة في روسيا أشبه في قوة تأثيره «بمرسوم» أو قرار^(١)، فلا عجب إذا هو ذلل لي السفر والتجوال في تلك البلاد حرًا طليقًا لا أجد عقبة أو حائلًا ولا أحتاج في نقلتي وتطوافي إلى مرشد أو دليل، كما أعاني على الظفر بتذاكر السكك الحديدية دون الوقوف في الصف، والحصول على أماكن للنوم في «المضاييف» الحكومية، وعلى الطعام في المطاعم المخصصة للموظفين المدنيين، بل لقد يسر لي أيضًا دفع نفقات أسفاري، من عدة الألوف من «الروبلات» التي اجتمعت لي في نهاية مقامي.

وقد جرت الرحلة كما يلي:

كنت كلما وصلت إلى إحدى عواصم الأقاليم، كمدينة «تفليس» مثلاً، قصدت إلى دار الهيئة الدولية للكتاب الثوريين فأبرزت لها كتاب «التوصية» الذي كان معي، وإذا بالسكرتير يبادر إلى إعداد المآدب والولائم والاجتماعات بالزعماء السياسيين وأفراد الطبقة المستنيرة في المدينة، وتعيين من يرافقني ويوفر وسائل الراحة لي، ويقدمني إلى رئيس تحرير المجلة الأدبية، ومدير شركة النشر الحكومية، وهي في تفليس تدعى شركة النشر التابعة لجمهورية «الكرج» السوفيتية.

وحين لقيني رئيس تحرير المجلة مضى يقول مرحبًا بي إنه كان من أعز أمانيه منذ عدة سنين أن ينشر لي شيئًا بقلمي، فسلمته صورة من قصة لي كنت قد نشرتها في

(١) أو «ديكريتو» في الأصل.

ألمانيا منذ حين، فإذا بي ألتقى منه في اليوم ذاته شيكاً ببضعة آلاف روبل، أرسله إلى الفندق الذي كنت أقيم به.

وفاتحني مدير النشر في أمر السماح له بنشر ترجمة الكتاب الذي انتويت وضعه، وقدم لي «أورنيكا» مطبوعاً يتضمن صيغة «اتفاق» على النشر، وبعث إليّ بشيك ببضعة ألوف أخرى، وكان معدل أجر العامل يومئذ مائة وثلاثين روبلاً في الشهر.

وهكذا بعث حق طبع هذه القصة ذاتها لثمانى مجلات أو عشرة في المدائن المختلفة بين ليننجراد وطشقند، وبعث حقوق طبع كتاب لم أضعه بعد لشركات طباعة روسية، وألمانية وأوكرانية وكرجية وأرمنية، وتقاضيت دفعات سلفاً تبلغ حدود ثروة كبيرة ومال لا يستهان به.

وهكذا وجدت تشجيعاً بالغاً من السلطات السوفيتية الرسمية، كما وجد غيري أشباهه ونظائره منها، فلم يخالجنى يومئذ الشك في أن روسيا السوفيتية هي جنة الكاتب وفردوس الأديب، وأن ليس في العالم بلد آخر أسخى منها على الفنان ولا أجزل عطاء، ولا أوفر إكباراً وأحسن تقديرًا، ولم يخطر بخلدي يومئذ، كما هي طبيعة البشر، أن تلك العقود التي أبرمت معي، والأموال التي صرفت مقدماً لي، لم تتم معي لسمعتي الأدبية، وإنما جرت لأسباب أخرى، إذ لم أكن إلى ذلك الحين قد أخرجت كتباً، أو ظهرت لي في السوق مؤلفات، بل كان اسمي لا يزال «نكرة» لا يعرفه أحد ممن سخوا عليّ بتلك الأموال لقاء قصة لم يقرأوها من قبل وكتاب لم يوضع بعد، وإنما كانوا في الواقع موظفين ينفذون «التعليمات»، فإن الكتاب والناشرين والنقاد الفنيين في بلد أصبح كل ما ينشر فيه ملكاً للدولة لا يلبثون أن يصبحوا هم أيضاً جزءاً من الأداة الحكومية ذاتها، فهي تستطيع أن ترفع كتاباً أو تضعه، طبقاً للتعليمات التي تصدر إليها من طريق الناشر، يطبع عدة ألوف من كتابه، أو موارد كتبه الماضية، ومن طريق الناقد، تستطيع أن تسميه «تولستوي» الجديد، أو تصفه بأنه أسخف السخفاء، أو تجمع بين الوصفين، في بضعة شهور.

وقلما يدري الكاتب الطارئ على روسيا شيئاً من ذلك، أو يشعر به، والقليل الذي يحزره أو يتشكك فيه أو يستريب به، لا يلبث الغرور أن يغالبه فيجعله ينساه أو يتناساه، إذ يبدو له من المآدب والولائم التي تقام لتكريمه أن جميع الذين يلقاها فيها يعرفون كتبه عن ظهر قلب، فمن أين يدري أن ذلك كله إنما اصطنع له اصطناعاً، ودبر لمخادعته تدبيراً، إلا أن يكون فطناً إلى أبعد حد، أو متشككاً يتهم كل ما حوله، ولا يصدق ما يحيط به من شيء.

فلنتصور مثلاً أن لجنة النشر عرضت على الكاتب توقيع اتفاق معه على كتابه القادم، وأعطته «عربوناً» يغطي عمولته في بيع مائة وخمسين ألف نسخة، فإن كان أميناً، استحيا من هذا الإغداق قائلاً إن هذا القدر هو خمسة عشر ضعفاً لعدد النسخ الذي ينتظر الكاتب الغربي الذائع الصيت أن يُحاسب عليه ويعطى عنه «عربوناً» قبل انتهاء البيع، ولكن الناشر عندئذ سيبتسم ابتسامة ساخرة وينثني يقول له هذا هو ما يفعله الناشرون في البلاد «الرأسمالية» ولكننا هنا لا نفعل ذلك مع الكتاب والمؤلفين، ولا تنس أيضاً أن جميع هيئات الطباعة والنشر في الاتحاد السوفييتي ملك للدولة، وأن الفرد الواحد فيه أكثر شراءً للكتب من الفرد العادي في أمريكا بنسبة ٢٣٠ من مائة في المائة، وأن هذه النسبة ستصل في نهاية مشروع السنوات الخمس الثانية إلى ٣٦٥ في المائة أو تتجاوزها بكثير، فلا عجب إذا رأينا الكتاب المُكرَّمين في روسيا السوفييتية لا يسكنون في السطوح كما هو شأن الكتاب في البلاد الرأسمالية، بل يقيمون في «شقق» ذوات غرفتين، ولهم مغسل مستقل، وحمّام بديع، بله السيارات الخاصة، والزوارق الفخمة أو «الذهبيات» في موسم الصيف.

وقد يستاء الكاتب القادم إلى روسيا من تلميح مدير النشر لسكنى السطوح، ولكنه لا يلبث أن يهدأ، قائلاً لنفسه إنه لا موجب لهذا الاستياء، لأنه ليس سوى زهو صغير أولى به أن يترفع عنه فلا يني في توقيع العقد، ويعود بعد أيام إلى بلاده فيعلن على رؤوس الإشهاد أنه ليس في الدنيا بلد أكثر من روسيا السوفييتية تقديراً لأهل الفنون

ولا أكبر إجلالاً لشأن الكتاب وأرباب الأقلام.

وأما المال فلا يستطيع أن يأخذه معه روبلات لأنه غير قابل للتحويل إلى العملة الأجنبية في الخارج، ولكنه قد يشتري ببعضه سجاجيد من صنع «بُخَارَى» ويودع الباقي في بنك الدولة بموسكو، فإن المرء ليشعر بشيء من اللذة إذا هو ترك بيضة تفريخ في بلد يشغل سدس مساحة العالم. ولكن في بعض الحالات الاستثنائية ترخص لدار الطباعة والنشر الحكومية أن تحول جزءاً من هذا المال إلى العملة المتداولة في بلد الكاتب الأجنبي وترسله إليه على أقساط شهرية، وأعرف كاتبين من الألمان المبعدين يقيمان في فرنسا ويتلقيان منذ سنين «شيكات» شهرية من هذا النوع، وإن لم يكن لأحدهما كتاب مطبوع في روسيا إطلاقاً، وإنما كانا من الناقدين المشتهرين في الحملة على الديمقراطية وفسادها، ولم يكتب أحدهما كلمة نقد واحدة في حياته ضد النظام السوفييتي، ولست أعني بهذا أنهما كانا يتقاضيان «رشوة» من الروس، لأننا لا نعالج هنا الكلام في هذه الوسائل الساذجة وأمثالها، وإنما نحن نتحدث عن الشعور الداخلي الخفي الذي يهمس لنا بأن الناشرين في دنيا الرأسمالية حيتان مفترسة، لا يهمهم ما يكتبه الكاتب، ما دامت كتبه رائجة في السوق؛ بينما نرى الناشرين في الاتحاد السوفييتي هم الشعب السوفييتي نفسه، الذي لا يرتضي بالطبع نقداً بوجهه إلى بلده الحر.

وإذا قيل إن روسيا جنة الفنان، وفردوس الأديب، فلا تنس أن في هذه الجنة أشجاراً «محترمة» يقوم على حراستها ملائكة ذوات قلانس مدببة، وتحمل سيوفاً مرهفة حاداً.

- ٥ -

وأقمت في الاتحاد السوفييتي عامًا كاملاً، قضيت نصفه متجولاً طائفاً، وأنفقت النصف الثاني منه في خركوف وموسكو منكمشاً في وضع كتابي، وقد صدرت

منه فعلاً طبعة ألمانية في خركوف بعنوان مختلف عن العنوان الذي اقترح عليّ، أما الطبعات الروسية والكرجية والأرمنية وغيرها فلم تشهد الضياء أبداً.

وانتهى بي المطاف في سفري إلى المناطق الصناعية القائمة على طول ضفاف نهر «القولجا» ثم جنوباً إلى أوكرانيا، ومنها كان اجتيازي الجمهوريات القوقازية، وأعني بها الكرج وأرمينيا وأذربيجان وباكو، حيث مضيت أعبر بحر قزوين وأخترق أراضي جمهوريات آسيا، كتركمانستان وأوزبكستان حتى وصلت إلى حدود الأفغان وانتقلت منها إلى طشقند وكازاخستان عائداً أدراجي إلى موسكو.

وكان ما شاهدته وعايته بنفسي في تلك النقلات صدمة لي، ولكنها في الواقع كانت صدمة بطيئة الأثر، لا يبدو فعلها إلا بعد حين، فإن تربيتي الحزبية قد زودت عقلي بحواجز واستحكامات مطاطة وتحصينات مرنة تقيه الصدمات، وترد عنه المؤثرات، فلا يهز ما أراه أو أسمعه شيئاً من فكري الأولى، أو يزلزل اعتقادي أو يحول نفسي عما أشربته من قبل أدنى تحويل.

وكنت أتكلم الروسية بطلاقة لا بأس بها، ولكنني على الرغم من سفري بمفردي لم أجد مجالاً للكلام بها والتدرب على الحديث بأساليبها مع الناس، خلا المعارف الرسميين، وقد بدا لي أن المواطن الروسي العادي يشعر بأن ظهوره على أعين الملاء وهو يتحدث بالروسية إلى أجنبي أمر معيب، وفعلة خطيرة، كلمس الأبرص، أو مصافحة المجذوم.

أما الذين كانوا يتحدثون معي في المطاعم أو مركبات السكك الحديدية فقد كانوا لا يخرجون في كلامهم عن اللوازم والعبارات المتكررة «والكليشيهات» المعتادة في المقالات الافتتاحية في صحيفة «البرافدا» حتى ليخيل للمرء أنهم يرددون نصوصاً بأعيانها، ويتلون قطعاً إنشائية محفوظة.

وقد سجلت ذلك كله عندي موافقاً مرتضياً، لأنه بدا لي يومئذ كعلامة طيبة على يقظة بلشفية تامة وأخذ بروح النظام الشوري.

وشاهدت بعيني ما فعلته المجاعة في أوكرانيا خلال الفترة بين ١٩٣٢ و ١٩٣٣، إذا أبصرت بأسر وعشائر تتسول في محطات السكك الحديدية، وهم في أسمال بالية، ورأيت النساء يرفعن إلى المركبات ولدانهن الساغبين، وهم في منظرهم الأليم، سيقان كالعصي، ورؤوس كبيرة كجماجم الموتى، وبطون ضامرة، يلوحون أشبه «بالأجنة» أو «السقط» الموضوعة في الزجاجات المملأى بالكحول، وبدا الرجال بين تلك الجموع في أحذية ممزقة، تلوح منها أطراف أقدامهم التي هراها الجليد.

وقيل لي إن أولئك هم «الكولاك» Kolak الذين رفضوا الزراعة الجماعية في البلاد. فارتضيت هذا التعليل، فهم إذن أعداء الشعب الذين أثروا التسول على العمل. ورأيت الخادم التي كانت تشتغل في فندق ريجينا الذي نزلت به في «خركوف» يغمي عليها من شدة الجوع وهي تنظف غرفتي؛ وأنبأني المدير أنها قدمت أخيراً من الريف، وأنها لم تتلق بطاقة جرايتها إلى الآن، بسبب بعض الإجراءات الفنية، فلم يسعني إلا قبول هذا التفسير.

ولم أستطع أن أتجاهل بشجاعة ما رأيته على الحياة الأسوية في تلك الأصقاع من التخلف والانحطاط، وما كان يلوح على الناس من الفتور والخلاء من الشعور في زحمة الشوارع، ومركبات الترام، والقطر الحديدية، ومشهد المساكن وسوء ما هي فيه إلى حد لا يكاد المرء معه يصدق عينه، مما جعل المدن الصناعية تلوح أشبه شيء «ببؤرة» واحدة مترامية المدى، إذ كان كل اثنين أو ثلاثة أفراد يتشاركون في حجرة واحدة، يفصل جزءاً عن الآخر ملاءة أو غطاء منشور على حبل غسيل.

وتبينت ضالة الجرايات التي كانت توزعها الجمعيات التعاونية، وعلمت أن سعر الكيلو من الزبد في السوق الحرة يوازي أجر العامل العادي في شهر كامل، وثمان الحذاء أجر شهرين.

ولكني لقنت أن أقدر الوقائع تقديرًا لا أنظر فيه إلى الظواهر، ولا أراعي فيه التفكير الجامد والعقيدة الراسخة، بل تنبغي فيه الموازنة، والتمشي مع الزمن؛ فإذا كان مستوى

المعيشة منخفضاً كما رأيت، فلا يصح أن أنسى أنه كان على العهد القيصري أدنى من ذلك وأشد انخفاضاً، وأنه إذا كانت الطبقات العاملة في البلاد الرأسمالية أحسن حالاً منها في الاتحاد السوفيتي، فإن هذه الموازنة بعيدة عن الصواب، جامدة لا تتمشى مع الظروف وقرائن الأحوال، لأن المستوى هنا في روسيا أخذ في الارتفاع، بينما هو هناك مستمر في الهبوط، وأنه لا تنقضي السنوات الخمس التي أعد لها المشروع حتى يتوازي المستويان، وتتعدل الحالتان؛ فلا معدى إذن عن القول بأن كل مقارنة قبل أن يتم ذلك ويقع فعلاً، هي مقارنة مضللة، بل ضارة بالروح المعنوية في الشعب السوفيتي.

فلا عجب إذا أنا لم أقف عند قبول المجاعة الضاربة أطنابها في البلاد كأمر لا سبيل إلى تجنبه، بل ارتضيت أيضاً حكمة الحظر المفروض على سفر الأجانب وتنقلهم في أرجائها ودخول الصحف والكتب الأجنبية إليها، وكل ما يراد به تشويه حقيقة الحياة الروسية في الخارج.

وقد عجبت العجب كله في بداية الأمر، عقب أن ألقيت محاضرة، أن راح السامعون يوجهون إليّ أسئلة كهذه: هل سحبت بطاقة جرايتك عندما تركت العمل في الصحف البرجوازية، وركلت ركلاً من الغرفة التي كنت فيها مقيماً؟ وما هو متوسط عدد الأسر التي تموت في كل يوم من المجاعة في مدن فرنسا وأقاليمها؟ وما هي الوسائل التي تذرّع بها رفاقنا في الغرب ولو إلى حين في قطع السبيل على الرأسماليين الذين راحوا يعدون العدة لحرب الوساطات، ويستعينون عليها بالخونة من الفاشيين الاشتراكيين في الطبقة العاملة؟

وكانت هذه الأسئلة ونحوها تصاغ دائماً في الأسلوب الروسي الجديد الذي ابتدعه جوجاشفيلي^(١) ولكنني لم ألبث أن وجدتتها طبيعية لا غرابة فيها، لأن فيها عنصراً يسيراً من الحقيقة، ولكنها مبالغ فيها طبعاً من أثر الدعاية ومحاولاتها.

(١) ستالين كما مر بك.

ولكنني كنت أقول لنفسي إذا ما تذكرت الدعاية وأفانينها إن هذه الوسيلة لا غناء عنها لنجاة الاتحاد السوفيتي، ما دام قد أحيط بعالم كاره له، ودنيا تمقته ولا تسيغه. وقد تبدو الأكذوبة الضرورية، والغيبة التي لا بد منها، والتخويف الذي لا مفر منه، لحمل الجماهير على التوقي من الوقوع في الأغلاط، والتهافت على الحماقات، والتصفية اللازمة للمعارضين، والقضاء التام على الخصوم والمقاومين، والتضحية المحتمومة بجيل كامل لمصلحة الجيل الذي بعده - كل أولئك قد يبدو بشعاً منكراً ولكن كان من السهل قبوله وارتضاؤه ما دام المرء منطلقاً مع إيمانه، سائراً على هدي عقيدته؛ وهو ما حدث فعلاً مثله في التاريخ، ووقعت أشباه له؛ ففي تاريخ الكنيسة عبر القرون الوسطى جرى شيء منه، وفي بيزنطة، بل في «الخلوة» على أيام الصوفيين أو المتصوفين؛ وإن كان من الصعب في عالم الإدمان والمدمنين أن يشرح أحد للغريب عنه الذي لم تحوه دائرة السحر، ولم يجرب شيئاً من تجاربي، هذا الذي بدا لي يومئذ مقبولاً على علاته، لا بأس منه ولا ضير.

- ٦ -

وغادرت روسيا السوفيتية في خريف عام ١٩٣٣، ولكنني بقيت في الحزب أربعة أعوام أخرى ونصف عام حتى أوائل ربيع ١٩٣٨ حين تزلزل إيماني زلزالاً شديداً، وإن بقيت بطيئاً في إدراك الأثر الذي حدث في نفسي، لكثرة الحواجز والاستحكامات التي كانت مقامة في أطواء جوانحي، لاستيعاب كل صدمة، وامتصاص كل مفاجأة، كما جاءت عدة أحداث خارجية، وعرتني جملة أحاسيس، فأعانتني على المضي في طريقي والبقاء في الحزب، وأخرت الهزة الأخيرة، والقطيعة الفاصلة.

وكان أهم تلك الأحداث انعقاد المؤتمر السابع للكونمترن في عام ١٩٣٤، فقد وضع المؤتمر سياسة جديدة تنافي السياسة القديمة على خط مستقيم، ولكن

تتولى الزعامة ذاتها مهمة التنفيذ، كما هي العادة، وكانت الخطة الجديدة تقضي بوضع العبارات القديمة والكليشيهات الثابتة، وكل ما كان يشير إلى صراع الطبقات، ودكتاتورية البروليتاريا «في مخزن» الأشياء البالية، والمخلفات المهلهلة، والاستعاضة عنها بواجهة طريفة مبتكرة مزدانة بالأزهار والرياحين، تدعي «الجبهة الشعبية للسلام ومناهضة الفاشية»، وفتحت أبوابها على مصاريعها لكل الأختار وسليمي النية من اشتراكيين وكاثوليك ومحافظين ووطنيين.

واقضى المنهج الحديث الاستخفاف بالفكرة القائلة إن الشيوعيين ينادون بالثورة والعنف، ووصفها بأنها كلام مزيف أريد به التخويف والتفكير منها، ووشاية دسها على الشيوعية الرجعيون من طلاب الحرب والمحرضون على إثارة نيرانها.

وهكذا لم نعد ندعو أنفسنا «بلاشفة» ولا «شيوعيين» أيضاً، بل بدأ الحزب ذاته يعبس ويتجههم كلما سمع هذه الكلمة تجري على ألسنة العامة وأفواههم قائلاً إننا لسنا إلا قومًا صرحاء أمناء محبين للسلام كارهين للفاشية، ذادة عن الديمقراطية ومناضلين..

وانثنى الزعيم الشيوعي المخضرم، ونعني به مارسل كاشان، في يوم ذكرى تحطيم «الباستيل»، يعانق في قاعة بلييه في باريس، وسط عدة ألوف من الهتافين والمتحمسين ذلك الثعبان الخبيث «ليون بلوم» الزعيم الفاشي الاشتراكي، ويقبل خديه، فما كان من نصف النظارة إلا أن بكوا ومضى نصفهم الآخر ينشد «المارسيليز» ويعقبه بالنشيد الدولي.

وهكذا اتحدت أخيراً الطبقة العاملة مرة أخرى ولم تلبث الجبهة الشعبية في انتخابات عام ١٩٣٦ التي جرت في كل من إسبانيا وفرنسا أن ظفرت بفوز مبين.

وكان ذلك كله نتيجة مباشرة للتغيرات التي طرأت على سياسة روسيا الخارجية، كدخول الاتحاد السوفيتي في عصبة الأمم؛ وانتصار سياسة لتفينوف، والميثاقين اللذين عقدا بينه وبين فرنسا وتشيكوسلوفاكيا؛ واليوم ونحن نعود بالذاكرة إلى

الماضي لتأمله بعين الحصر لا نلبث أن نشعر بأن عهد تلك الجبهة الشعبية كان مشوبًا بالخيانة المستهترة، والخديعة الجريئة المستنكرة، التي كانت تختفي خلف واجهة حسنة ظاهرة، وأن ذكرياتها ملأى بنتائج سيئة، وأحداث وعبر مريرة، وإن بدت يومئذ وقبل انكشاف حقيقتها قوية ذات سحر خلاب، ولاحت محجبة غامضة، كبعض التصوف، أو المذاهب الدينية الغريبة.

أما في تقديري فقد كانت شهر العسل الثاني بيني وبين الحزب الشيوعي . وعندما كنت مقيمًا في روسيا، صعد هتلر ذروة السلطان في ألمانيا، فلم ألبث في خريف عام ١٩٣٣ أن انضمت إلى أصدقائي في الحزب الذين كانوا يومئذ مقصيين في باريس، وكان أصحابنا الذين يسكنون «المربع الأحمر» قد توافوا إليها، خلا الذين استطاع الجستابو القبض عليهم، وكان الناجون قد نزلوا في الفنادق الصغيرة المنتشرة على الضفة اليسرى لنهر السين.

وكانت السنوات الخمس التالية أعوام شقاء لي ومسغبة، لم يعزني عنها غير النشاط السياسي الذي غمرني موجته، وكان مركز هذا النشاط وقطب رحاه صديقي «ويلي منزبرج»، وكان رجلًا قصير القامة، بدينًا، من أصل «بروليتاري»، وقد أوتي شخصية لها فعل السحر أو أشد، وفننة مغربية فعالة بالغة. في عام ١٩٣٨ انشق على الكومترن، أي بعد خروجي بستة أشهر، وقضى نحبه مقتولاً في صيف ١٩٤٠. ولا يزال قتله مجهولين، ولم يهتد أحد إلى أدلة قاطعة، وإنما عرفت قرائن غير مباشرة، ولكنها تتحد جميعًا اتحادًا واحدًا، كما تتجه إبرة المغناطيس إلى القطب.

وكان «ويلي» الشخصية الحمراء البارزة في الحركة الدولية ضد الفاشية، والبيانات التي أذيعت في باريس ولندن عام ١٩٣٣. ونبهت أذهان العالم كله يومئذ إلى فظائع الأحداث التي اقترفها الرايخ الثالث.

وتلت ذلك سلسلة «الكتب السود» وهي طوفان من الرسائل والمناشير والصحف التي كان ويلي يتولى الإنفاق عليها وتوجيهها. وإن لم يظهر عليها اسمه. كما مضى

يؤلف لجاناً «دولية» وينظم عقد مؤتمرات. ويقوم بحملات وحركات مختلفة. كما يخرج «الحاوي» أرناب من قبعته؛ كلجنة الترفيه عن ضحايا الفاشية، ولجان الإشراف والرقابة الديمقراطية، ومؤتمرات الشباب الدولية وما إليها. وكانت كل هيئة من هذه الهيئات تحوي جموعاً من أهل الخطر والمكانة: بين دوقات من الإنجليز، إلى كتاب كبار من الأمريكيين، والعلماء الفرنسيين. وكان أكثر هؤلاء لم يسمعو باسم «منزبرج» في حياتهم، وكانوا يحسبون أن الكومنترن لم يكن سوى «بعبع» اخترعه جوبلز وابتدعه.

والواقع أن مشروعاته أمست محيرة مذهلة، بعد التغيير الذي طرأ على الخطة العامة؛ تنفيذاً للقرار الذي اتخذه «المؤتمر السابع» وظهور فجر «الجبهة الشعبية»؛ وهو الذي أشرف على تأليف «لجنة السلام» المناهضة للفاشية، وهي الحركة التي كانت تدعى «حركة أمستردام-بلييل» والتي كان يرأسها «باريوس» كما ألف «جمعية الكتاب» للدفاع عن الثقافة، ولجنة التحقيق في أسباب المخالفات غير القانونية لنصوص اتفاق الامتناع عن التدخل في مسألة إسبانيا، وغيرها من الهيئات الدولية «الفطرية» السريعة النمو، والعاجلة الفناء، كأعشاش الغراب.

فقد كان منزبرج عبقرياً في التنظيم والتنسيق والتدبير والترتيب، وداعية موهوباً من أكبر الدعاة لا يتردد في عمل يوحى الخاطر به، ولا يتوسوس في وسيلة من وسائله، إلا كما ينتظر أن يتردد الرجل الذي يريد الاحتفاظ بمركزه وسط دسائس الكومنترن ومكايد المرهوبة. ويوم يكتب تاريخ هذا الرجل، سوف يكون من أعجب الوثائق في كشف أسرار الفترة التي وقعت بين الحربين العالميتين ورفع السدول عن خباياها العجيبة وخفاياها المدهشة.

وقد اشتغلت معه في بداية العام في المنفى بباريس، وخلال محاكمات الريشتاغ، وشيوع «الكتب السود»، وعدت أعمل معه في الحرب الإسبانية، وأخيراً في عام ١٩٣٥ بعد اختلافه مع الكومنترن. حين أصدرنا معاً صحيفة «دي زوكونفت» وهي

صحيفة مناقضة للنازية وغير معادية لستالين. أما الفترات التي تخللت تلك العهود فقد قضيتها في العمل كصحفي طليق وتوليت تحرير صحيفة هزلية للحزب خلال الحملة التي نظمت للاستفتاء العام في منطقة «الसार». ولكن الحزب وقفها عن الصدور بعد العدد الأول لمجونها البالغ، وهزلها المكشوف. واشتغلت في ملجأ لرعاية أطفال العمال الشيوعيين الذين يعملون في الحركة السرية بألمانيا. وانتقلت منه إلى «وكالة أنباء» يتولى إخراجها «إليكس رادو» الذي أصبح فيما بعد من أكبر رجال المخابرات العسكرية الروسية في سويسرا ثم قُضي عليه في روسيا عقب الحرب الثانية وكنت مديراً للمعهد دراسات في الفاشية. كان بمثابة دار محفوظات وبحوث ضدها. يشرف عليها الحزب الشيوعي، ويتولى رقابتها الكومنترن، ولكنه لا يمدّها بالمال. وكان العام الذي قضيته في ذلك المعهد عامًا مليئًا بحماسة ومسغبة، وسعادة أيضًا؛ فقد كانت الفكرة التي رمينا إليها من إنشائه إقامة مركز للبحث الجدي في دخيلة الحزب الفاشي وحقائقه. بعيدًا عن الوسائل التي تتوسل بها لجان منزبرج وتشكيلاته؛ وكنا نتلقى هبات ومعونات من نقابات العمال والجمعيات الأدبية والعلمية في فرنسا؛ وكنا نعمل جميعًا بلا أجر. وقد تبلغ ساعات العمل في اليوم عشرًا أو اثنتي عشرة أحيانًا. وكان المكتب الذي استأجرناه رقم ٢٥ شارع بيفون يحوي لحسن الحظ مطبخًا. فكان أعضاء المكتب يتناولون في كل ظهر حساء كثيفًا من نقيع الفول. وكان هذا هو غذائي الأوحده عدة أسابيع. وكنت يومئذ أسكن في «طبقة» في حي أهل بتلامذة «رايموند دونكان» وهو حي «ميدون فال فليري». إذ كان هذا هو المكان الأوحده الذي أستطيع فيه النوم دون دفع أجرة. وإن اقتضاني السير على قدمي عدة أميال في اليوم غاديًا رائحًا بين المكتب وذلك المسكن المجانيّ الحقيق.

ولكن العمل كالعقار المؤثر، وله فعل المخدر. وأن يستشعر المرء منا أنه إنما يعمل عملاً صالحًا وهو فيه المجهول، ويفني فيه عصارة نفسه، وهو المضحي الذي لا يعرفه أحد - خير وسيلة وأقوى ذريعة لإرضاء الضمير أو «رشوته».

ولم تلبث تصرفات العهد الجوجاشفيلي^(١) ومساوئ حكمه، وأداة الكومنترن وشنائعها، أن توارت ولم يعد شيء جديرًا بالاهتمام منا غير محاربة النازية ودرء خطر الحرب، ولم أكن أدري يومئذ أنها كانت محاربة «صورية» وأنا كنا فيها مجرد ظلال وأشباح.

وقد أعانني عامل نفسي آخر على مواصلة العمل في خدمة الشيوعية عقب عودتي من روسيا، وهو الاعتقاد الذي كان يشاركني فيه صفوة صحيبي وخيرة أصدقائي الذين تركوا الحزب اليوم أو فصلوا منه فقد كنا معصوبي الأعين، ولكننا لم نكن عميانًا، ولم يكن أشد المتعصبين للشيوعية بيننا يستطيع أن يغفل عن الواقع الملموس أمامنا، وهو أن حركتنا لم تكن تسير بخير، ولكننا مع ذلك لم نحاول يومًا أن نتناجى أو نتكاشف بما كان يخالجننا من الشعور بأن الحزب لا يحتاج إلى تطهير من الخارج، بل هو أحوج ما يكون إليه من الداخل.

وأنت قد تستطيع أن تستقيل من ناد أو من حزب عادي إذا لم تعد سياسته تروقك، ولكن الحزب الشيوعي كان شيئًا يختلف عن سائر الأحزاب كل الاختلاف؛ فقد كان بمثابة المقدمة أو الطليعة من الطبقة الكادحة أو إرادة التاريخ ذاته مجسمة ماثلة؛ فإن أنت خرجت عليه عددت طريدًا أو منبوذًا «خلف الأسوار»، ولن يكون لأي كلام تقوله أو عمل تحاوله أمل ما في تغيير مجراه أو إحداث أثر فيه، فمن الخير لك أن تبقى في حظيرته، مقفلًا فمك مخفيًا مضضك، مرتقبًا اليوم الذي تصبح فيه روسيا والكومنترن بعد دحر عدوهما وانتصار الثورة العالمية، على استعداد لأن يصبحا «ديموقراطيتين»؛ وعندئذ يصح أن يدعى الزعماء للمحاسبة على تصرفاتهم، من هزائم كان ممكنًا تجنبها، وتضحيات لم يكن شيء يستوجبها، وحملة دسائس ومكائد قضت على خيرة رفاقنا وذهبت بأرواح الصفوة من إخواننا.

أما قبل هذا اليوم المرتقب، فما عليك إلا أن تؤدي لهذه اللعبة حقها، فتؤكد

(١) أي عهد ستالين.

وتنفي وتقول وتردد، وتأكل كلامك أكلاً، وتلحق بصقتك لعقاً، فذلك هو الثمن الذي قُضي عليك أن تدفعه لكي تظل تشعر بأنك النافع المجدي، ولكي توفر على نفسك احترامها.

- ٧ -

وفي الثامن عشر من شهر يولية عام ١٩٣٦ كان الجنرال فرنكو قد أعد العدة لإحداث «انقلابه» فذهبت لزيارة «ويلي منزبرج» وطلبت إليه أن يساعدني على الانضمام إلى جيش الجمهورية الإسبانية، وكان ذلك قبل أن يتم تأليف «الفرقة الدولية» وكان معي جواز سفري، وهو جواز «مجري»، فنظر إليه ويلي نظرة شاردة، ولم يكن يرتضي -وهو الداعية البارع- فكرة ذهاب الكتاب وحملة الأقلام إلى الميدان وإضاعة وقتهم في حفر الخنادق، وكانت مع جوازي بطاقتي الصحفية كمراسل صحيفة «البيستر لويد» في باريس، ولم أكن كتبت لتلك الصحيفة كلمة واحدة قبل ذلك، ولكن كل صحفي مجري محترم يقيم في باريس يملك بطاقة صحفية من أي جريدة في المجر، حتى يستمتع بتذاكر المسارح والسينما دون مقابل.

ولم يلبث أن خطف ضياء غريب على عين صديقي، كأنما قد خطرت له فكرة جديدة.

قال: «لماذا لا تقوم برحلة إلى مقر رئاسة فرنكو كمندوب عن صحيفة «البيستر لويد»؟ فإن المجر تكاد تعد بلداً «فاشياً» وأكبر ظني أنهم مرحبون بك متقبلوك بالعناق والأحضان».

وراقنتي الفكرة أنا أيضاً، ولكن تنفيذها لم يكن يخلو من بعض الحوائل والعقبات؛ فأولاً إن الجريدة ذاتها لن تسمح مطلقاً بإيفادي، ولكن ماذا يمنع من أن أسافر دون علمها، وما حاجتي إلى إبلاغها النبأ ومكاشفتها بالنية؟ ولست أحسب أحداً سيحفل بي في غمرة حرب أهلية كهذه بمراجعة أوراق اعتمادني والتثبت منها.

وثانيًا أن بعض مراسلي الصحف الأجنبية الأخرى سيشكون في الأمر ولا يصدقون أن صحيفة مجرية فقيرة كهذه توفد مراسلًا خاصًا إلى إسبانيا، ولكن هذه العقبة أيضًا أمكن التغلب عليها، فقد كان لي صحاب وأصدقاء في جريدة «النيوز كرونكل» في لندن، وكانت الكرونكل شديدة الحملة على فرنكو عنيفة في نقده، فلا أمل في السماح لأحد مراسليها بدخول المناطق التي قامت فيها الثورة؛ ولشد ما اغتبط رئيس تحريرها الفكرة ووافق علي أن أعمل بوصفي مراسلًا خاصًا لها إذا قدر لي الوصول إلى إسبانيا الثائرة.

ولكنني عرفت كيف أدخل البلاد من طريق لشبونة إلى إشبيلية، وإن كانت سفرتي قد فشلت وشيكًا؛ فلم يكد ينقضي اليوم التالي لمقامي في إشبيلية، وهي مركز رئاسة فرنكو، حتى عرف أمرى، وانكشف للقوم أنني شيوعي، ولكنني استطعت وسط الفوضى الضاربة في البلاد الخروج منها في عجلة بالغة من طريق «جبل طارق»؛ وقد تمكنت على قصر المقام من رؤية الطيارين الألمان والطائرات الألمانية في جيش فرنكو وقواته ونشرت النبأ في جريدة «النيوز كرونكل» وضمن رسالة منفصلة، واستهدفت بذلك لنتمة فرنكو وحكومته، فلم ألبث حين اعتقلت بعد ستة أشهر من ذلك التاريخ كمراسل مرافق للجيش الجمهوري أن ألبث حين اعتقلت بعد ستة أشهر من ذلك التاريخ كمراسل مرافق للجيش الجمهوري أن أدركت أن خير ما يفعلونه بي هو الإعدام رميًا بالرصاص دون مقدمات سيئة أو تمهيدات مؤلمة.

وقضيت أربعة أشهر في السجون الإسبانية بملقا وإشبيلية، وكان أكثرها في السجن الانفرادي، وأنا طيلة الوقت موقن أنني سأعدم رميًا بالرصاص.

ولكنني في شهر يونية عام ١٩٣٧ بفضل تدخل الحكومة البريطانية وجدتني فجأة مطلق السراح لم يشتعل مني الرأس شيئًا، ولم تتغير ملامح وجهي، ولا أثرت المخاوف الملحة في نفسي؛ ولكنني عرفت شيئًا جديدًا من الحقائق لم يلبث أن غير نظرتي إلى الأمور، وأحدث انقلابًا في القيم عندي والموازن؛ وكان هذا الانقلاب

من العمق بحيث ظللت في الأيام الأولى من إطلاق سراحي مذهولاً لا أشعر بشيء. وكان هذا التغيير يرجع إلى ثلاثة عوامل: الخوف والشفقة والثالث يصعب وصفه. أما الخوف فلم يكن من الموت ولكن من التعذيب والإذلال والوسائل البشعة في تنفيذ الإعدام؛ وكان في السجن معي رفيق يُدعى «جارسيا أتادل» أُعدمَ شنفًا عقيب الإفراج عني. وأما الشفقة فعلى فلاح أندلسيٍّ وقروي من «كتلان» سمعتهما يبكيان ويعولان حين سيق بهما ليلاً إلى الإعدام بالرصاص. أما العامل الثالث فهو حالة نفسية أَلَفنا الحديث عنها في عبارات مستعارة من «الصوفية» وأمثالها من المذاهب، حالة تتاب المرء في لحظات غير منتظرة فتضفي على نفسه سكوناً بالغة، وهي حالة لم أكن شعرت بها من قبل، ولم أشعر بها منذ ذلك الحين.

ويقيني أن الدرس الذي يتعلمه المرء من هذه التجربة يختفي أبداً تحت ستار رث، وثوب مهلهل لا يحجب حقيقتها وهي أنها شيء بديهي، وأمر مفهوم، كقولك إن الإنسان حقيقة، ولكن البشرية «تجريد»، وإن الناس في السياسة لا يمكن اعتبارهم «وحدات» في عمليات حسابية لأنهم يقومون مقام «الرموز» كالصفر والرقم «الدائر»، وهو ما يحل بكل عملية حسابية، وقولهم إن الغاية إنما تبرر الوسيلة إلا في أضيق الحدود، وإن الأخلاق لا محل لها ولا أثر في «الصلاحية أو المنفعة» الاجتماعية، وإن إيتاء الخير والبر ليس عاطفة «برجوازية» صغيرة، ولكنه القوة الجاذبة التي تقيم الحضارة دائرة في فلکها.

ولكن ليس ثمة شيء أسخف ولا أبعد عن أصالة الرأي من هذه الأقوال والعبارات بسبيل أحاسيس لا يجدي فيها الكلام، ولا هي في نطاق القول والتعبير، وإن كل كلمة من هذه الكلمات التوافه كانت متعارضة مع الإيمان الذي كنت أحسه من ناحية الشيوعية.

* * *

ولو كانت هذه القصة من نسج الخيال لانتهد عند هذا الحد، ما دام الشخص الأول في القصة قد ترك بعد تحوله الروحي صفوف أصحابه ورفاقه بالأمس، وانطلق

في سبيله باسمًا بسمه هادئة مطمئنة. ولكنني حين نجوت من الهلكة، لم أدر أنني لم أعد شيوعيًا، فكان أول عمل عمدت إليه بعد أن جاوز بي الحرس حدود جبل طارق، أن بعثت إلى الحزب ببرقية استهللتها بيت من شعر شلر، يقول فيه: «أيتها الملايين إنني أعتنقك...!». بل أغرب من ذلك أنني أضفت قائلاً: «وقد شفيت من جميع أوجاع البطن وأدوائه». وكانت كلمة «أوجاع البطن» اصطلاحًا عامًّا يدور على ألسنة الشيوعيين. ومعناه «المخاوف» من خطة الحزب وسياسته.

وقضيت ثلاثة أشهر هادئة مع صحب لي وخطاء في بريطانيا، عاكفًا على وضع كتاب عن إسبانيا؛ وبعد رحلة قصيرة إلى الشرق الأوسط موفدًا من قبل جريدة «النيوز كرونكل» -وهي رحلة لا تدعو إلى قيام خلاف بيني وبين الحزب- بدأ الصراع بطوفة في أرجاء بريطانيا لإلقاء محاضرات عهد بها إليّ «نادي الكتاب اليساري» Left Book Club، فكان كل سائل ينبري بعد الفراغ من المحاضرة من بين المستمعين وأكثرهم من الشيوعيين فيطلب مني تفصيلًا لنشاط جماعة «البوم» ووجوه غدرها بالحزب وخيانتته، وهي شعبة منشقة من الشيوعية تتبع مبادئ تروتسكي في إسبانيا، وتعمل مستقلة طليقة من القيد، حتى استهدفت لاتهام الحزب لها بأنها من «صنائع فرنكو وغيونه» -يجد عندي الجواب حاضرًا، وهو قلبي إنني لا أنكر أن سياسة هذه الشعبة المنشقة قد تكون ضارة بالقضية، ولكنني على يقين بأنها ليست من الخونة إطلاقًا. ولشد ما دهشت أن يمضي الأمر بسلام عند هذا الحد، ولم يحدث لي أذى أو ضرر بسببه. ولعل ذلك راجع إلى فتور الحزب الشيوعي البريطاني في رفع أمر «المنحرفين» إلى الجهات الشيوعية العليا وكرهية كشف سترهم عندها.

وعلمت عندئذ أنه قد قبض في حركات التطهير العامة التي جرت في روسيا على زوج أختي وصديقين من أعز أصدقائي؛ وكان نسيبي هذا يدعى الدكتور «أرنست أشر» ويشغل في أحد مستشفيات الدولة في جمهورية الفولجا الألمانية، وكان عضوًا في الحزب الشيوعي الألماني، ولكنه لم يكن ذا نشاط سياسي ولا هو بالمعنى

بالشيوعية أو الحافل بأمرها، بل كان سليم النية غير مكترث؛ وقد انتهى إلى سمعي أن التهمة التي وجهت إليه هي أنه «مخرب» جعل يحقن مرضاه بميكروب «الزهري»^(١) وأنه قد أفسد أذهان العامة بادعائه أن الأمراض السرية عضال مستعصية العلاج، وأخيراً إنه بالطبع صنعة دولة أجنبية.

ولم يعرف أحد ماذا صنعوا به منذ اعتقاله من اثني عشر عاماً، ولم يهتدِ إنسان إلى أثره.

أما صديقاَي الحميمان فهما إليكس ويزبرج وزوجته «إيفا». وسأقص عليكم قصتهما في شيء من التفصيل؛ لأسباب ستبدو لكم فيما بعد.

فقد كان إليكس طبيباً يشتغل في المعهد الأوكراني للطب والمصطلحات الطبية، وكنت أعرف الرجل وزوجته من عدة سنين، وأقمت معهما رداً من الدهر في «خركوف»، وقد ودعني «إليكس» في المحطة عند مغادرتي روسيا عام ١٩٣٣، وكانت كلمات الوداع التي قالها لي: «مهما يحدث فلا معدى لك عن حمل العلم السوفيتي عالياً»، وكان اعتقاله في عام ١٩٣٧ كما علمت فيما بعد بتهمة استئجار عشرين شقيقاً ليكنموا لستالين وجانوفتش في رحلتها التالية للصيد في جبال القوقاز، وأنه رفض التوقيع على اعتراف بالفعلة ولبث يتنقل بين مختلف السجون ثلاثة أعوام سوياً، حتى سلم أخيراً عقب إبرام ميثاق التحالف بين ربتروب ومولوتوف إلى «الجستابو» في مدينة بوست لينوفسك مع مائة آخرين من الشيوعيين النمساويين والألمان والمجريين، ومن بينهم جريت نيومان زوجة الزعيم الشيوعي الألماني هانز نيومان، وأخت زوجة ويلي مونزنبرج، والطبيب فسل هوتزمانز أحد أعوان العلامة بلاكت السابقين.

وقد نجا صديقي «إليكس» من شر الجستابو واشترك في ثورة فرسوفيا، ووضع كتاباً سيكون قريباً في متناول القراء الإنجليز.

(١) وكانت التهمة التي وجهت إلى جاجودا، رئيس الأوجيو السابق وثلاثة أطباء معه، أنهم سمموا الروائي الكبير مكسيم جوركي ببخار الزئبق.

وكانت امرأته «أيضاً» من المشتغلات بصناعة الخزف والأواني الفخارية، وكان اعتقالها قبل القبض على زوجها بعام أو نحوه، وقد اتهمت أولاً بأنها رسمت الصليب المعقوف على أقذاح الشاي التي وضعت تصميمها للمصنع الذي يتولى الإنتاج بالجملة، ثم عادوا يتهمونها بأنها كانت تضع مسدسين تحت الوسادة، وأن هذين المسدسين كانا معدين لقتل ستالين عند انعقاد الجمعية العامة للحزب، وقد أمضت ثمانية عشر شهراً في «لوبيانكا» حيث حاول «الأوجبو» تقديمها كمذبذبة نادمة في محاكمات بوخارين «الصورية» فعمدت إلى قطع شريان من شرايينها، ولكنها أنقذت، وأطلق بعد قليل سراحها بفضل مساعي قنصل النمسا في موسكو، وكان بالمصادفة صديقاً لوالدتها.

وقد لقيتها عقب الإفراج عنها وإبعادها من روسيا في ربيع ١٩٣٨، وكانت مشاهداتها في السجون الروسية، والأساليب التي يتبعها «الأوجبو» في انتزاع الاعترافات من الذين استهدفوا لنقمتهم، مادة طيبة استعنت بها في كتاب «الظلام في الظهيرة».

ووعدها أن أبذل كل ما في وسعي لإنقاذ زوجها إليكس، وكان أينشتاين قد توسط من قبل في هذا الشأن فلم يسعني إلا أن أبعث ببرقية إلى ستالين توخيت فيها الألفاظ الدقيقة، والعبارة المحكمة، واستطعت الظفر عليها بتواقيع ثلاثة من أعلام الطب في فرنسا، وممن فازوا بجائزة نوبل، وهم بيران ولانجفان وجوليوت كوري؛ كما بعثنا بصورة منها إلى النائب العام في روسيا وهو فيشنسكي، طالبين إصدار بيان عن التهم الموجهة إلى ويزبرج إذا كانت ثمة تهم وجهت إليه، ومحاكمته عليها؛ ومما يجدر بي ذكره هنا أن لانجفان وكوري كانا يعطفان على السوفييت ولم يلبثا أن انضما إلى الحزب الشيوعي، ولكنهما لم يكونا راضيين عن القضاء في روسيا وأساليب المحاكمات وأداة العدالة لأنهما لم يسمعا يوماً عن إليكس، ولم تكن بيني وبينهما معرفة وثيقة، ولكنهما مع ذلك سلما في الحال بأن إليكس لا بد من أن يكون بريئاً.

وقد وقع البرقية أيضًا بولاني في مانشستر؛ وكان العلامة «بلاكت» هو الطبيب الوحيد الذي اتصلت به ورفض توقيعها.

وقد ذكرت هذه الواقعة لأن الأستاذ بلاكت حاول من قبل جاهداً إنقاذ مساعده السابق «هوترمان»، وهو صديق حميم لوزيرج. وأكبر ظني أنه خشي إذا هو وقع الاحتجاجين أن يضيع الفرصة لإنقاذ ولو إحدى الضحيتين على الأقل.

ومغزى هذه القصة العابرة هو أن جوليت كوري وبلاكت وبقية أصحابنا الماركسيين الغضاب لا يمكن أن يدعوا أنهم كانوا في جهل مطبق بسير الأحداث في روسيا، لأنهم يعرفون على أقل تقدير تفاصيل ما وقع لزميلين من زملائهم، ممن كانوا يدينون بالولاء الصادق للاتحاد السوفيتي وأنهما اعتقلا بتهم غريبة وظلا أعوامًا بلا محاكمة، ثم سلما في النهاية إلى الجستابو؛ كما يعرفون أن هذه الحالات لم تكن استثنائية بل تحفظ الدوائر العلمية في روسيا لديها تقارير موثوق بها عن مئات الحالات المماثلة لها، وهو ما ينطبق تمامًا على ما عند جميع الكتاب والعلماء الذين اعتنقوا المبادئ الشيوعية؛ فما من أحد منهم إلا يعلم عن مصرع صديق له في معسكرات السخرة القائمة في الأصقاع الشمالية أعدم رميًا بالرصاص بتهمة «التجسس»، أو توارى عن الأبصار فلم يعد أحد يعثر له على أثر. ولشد ما كانت أصواتنا تدوي غضبًا كلما كشفنا عن تصرفات معيبة في سير التحقيقات أو العدالة داخل بلادنا الديمقراطية، ولكنها في روسيا لا ترتفع، إذا ما تخلص الروس من أحد من رفاقنا دون محاكمة أو إدانة؛ فقد كان كل منا يحمل جثة صديق أو صاحب في «دولاب» ضميره، فلو جمعت تلك الجثث بجملتها لتألفت منها مقابر عظام، وهياكل وجماجم أشد تشعبًا من سراديب باريس وأقبيتها.

وما أحسب بلدًا فاق روسيا السوفيتية في عدد الثورين الذين طوّح بهم فيه، أو استذلوا وسيق بهم مساق الرق والعبيد. وكان مشهد هذه الفظائع والأعمال المنكرة التي يقتربها رجال من ذوي الذكاء والألمعية والنية الحسنة في عين رجل راح سبعة

أعوام كاملة يجد الشفائع والمعاذير لكل حماقة ترتكب تحت علم الماركسية، وكل جريمة تقترب تحت لواء الشيوعية -أدعى إلى الاشمئزاز والنفور من الأعمال الوحشية التي يأتيها البسطاء والجهال والحمقى.

وقد شاهدت بعيني مدى تلك «البهلوانية» الذهنية أو الرقص على الحبل الممدود حول ضمير الإنسان وشعوره.

فلم أكن أجهل مبلغ الجهد الذي يقضيه مد ذلك الحبل المرن المطاط إلى الحد الذي يجعله يَرْت أو ينقطع.

وفي ذلك الحين الذي عرفت فيه أنباء القبض على إليكس استطاع رفيق آخر الفرار إلى باريس من ألمانيا حيث قضى خمسة أعوام سجيناً مع الأشغال الشاقة، وكل قبل اعتقاله يشتغل في فرع من «شبكة شيوعية» عمده الحزب إلى التخلص من زعمائه بتهمة التجسس.

وهكذا بلا تحقيق، ولا أمل في الدفاع عن النفس، لم يلبث صديقي وامرأته أن اتهما بأنهما من صنائع الجستابو، وظهرت صورهما في صحف باريس مشفوعة بتحذير للناس من الاتصال بهما.

وكنت قد سمعت بأحداث كهذه، من قبل، فكنت أهز كتفي استخفافاً وأواصل «الرقص على الحبل» ومغالطة الضمير، ولكن هذين الزوجين قد أصبحا حقيقيين في عيني أكثر من القضية الشيوعية ذاتها، التي يراد التضحية بهما من أجلها، فاعتزمت أن أقف بجانبهما ذائداً مدافعاً^(١).

ولكن الحزب لم يفعل شيئاً حيالي؛ فقد استغلني، حين زج بي في السجن، كشهيد في سبيل الدعاية الشيوعية، فلا معدى عن انقضاء فترة أخرى من الزمن قبل أن يتهمني

(١) وقد دخلا الآن في حياة جديدة باسمين جديدين، وهما يقيمان اليوم في أحد الممتلكات البريطانية «الدومنيون». والشيء بالشيء يذكر أقول إن الزوجة هي بعينها الفتاة التي اعتقلها الجستابو لمجرد نفوها بكلمة «محسوس» كما ورد في الصفحات الماضية.

بأنني كنت صنيعة فرنكو أو جاسوسًا للميكادو!

وجاءت النهاية مفاجأة غريبة، فقد طلب مني في ربيع ١٩٣٨ أن أدلي بحديث عن إسبانيا أمام جمعية الكتاب الألمان المهاجرين في باريس، وجاءني قبل إلقاء الحديث مندوب من الحزب فطلب مني أن أضع فيه فقرة أعلن فيها أن «البوم» هم صنائع فرنكو وعملاؤه، فرفضت.

وانعقد الاجتماع يومئذ في دار جمعية الصناعات الفرنسية في ميدان سان جرمان دي بريه، وكان المستمعون قرابة مائتين أو ثلاثمائة من المهاجرين المستنيرين كان نصفهم من الشيوعيين.

وكنت أعلم في أعماق نفسي أن هذه هي المرة الأخيرة التي سوف أظهر فيها أمام الجمهور كعضو في الحزب الشيوعي.

وكان الموضوع يدور حول إسبانيا وموقفها، ولم يكن يحوي كلمة انتقاد ما للحزب أو لروسيا، ولكنه كان يتضمن ثلاث فقرات اخترتها عامدًا، وانتقيتها عن قصد، لأنها كانت في أعين العاديين من الناس كلامًا عامًا لا بأس منه، ولكنها في أعين الشيوعيين ستبدو بمثابة «إعلان الحرب» على الحزب.

وكانت الأولى منها قولي «لا يصح لحركة أو حزب أو شخص أن يدعي «العصمة من الزل».

وكانت الثانية «إن تهدة خواطر العدو حماقة لا تقل عن حماقة اضطهاد صديق يرمي إلى هدفك بالذات ولكن في طريق آخر».

وكانت الثالثة اقتباسًا من توماس مان، وهو قوله «حقيقة ضارة خير من أكذوبة نافعة...».

وكان هذا كافيًا للتعجيل بالنهاية.

ولم أكد أنتهي من حديثي حتى راح النصف غير الشيوعي من المستمعين يصفق

إعجابًا، بينما جلس الشيوعيون صامتين واجمين شابكي الأذرع على صدورهم؛ ولم يكن تصرفهم هذا إحياء أو إيعازًا، ولكنه كان تأثيرًا من تلك الكلمات البديهية التي قررت مصيري، وهو التأثير بعينه الذي كان مرتقبًا أن يحدث لو أنك قلت على أسماع جمهور من النازيين إن الناس ولدوا جميعًا متساويين، بغض النظر عن اختلافهم في العنصر أو العقيدة.

ولم تمض بضعة أيام على هذا الحادث حتى كتبت خطاب استقالتني وبعثت به إلى لجنة الحزب المركزية.

* * *

وهذا هو الموقف الثاني الذي كان أولى بهذه القصة أن تنتهي عنده، ولكن الواقع أن هناك مفاجأة ثانية دهممتني؛ فقد كان كتابي بمثابة وداع للحزب الشيوعي الألماني، وللكومنترن والعهد الجوجاشفيلي، وإن ضمنت آية الولاء للاتحاد السوفيتي.

فقد مضيت فيه أشرح معارضتي لهذا النظام، وانتقادي لهذا النمو السرطاني البادي على هذه الأداة «البير وقراطية»، وإهدار الحريات المدنية المقرر، وإن كنت قد أعلنت إيماني بأن الأسس التي قامت عليها هذه الدولة المؤلفة من العمال والفلاحين لا تزال «ثابتة وطيدة»، وأن تأمين وسائل الإنتاج ضمان كاف لعودتها إلى طريق «الاشتراكية» السليمة، وأن الاتحاد السوفيتي على الرغم من كل شيء لا يزال يمثل الأمل الأوحد الذي بقي لنا في هذا الكوكب الذي أخذ ينحل ويفسد ويختل وشيكًا.

وهكذا رثَّ الحبل الذي كان ملفوفًا حول ضميري وانقطع البهلوان أخيرًا عن الرقص عليه.

ولكن بقيت من تحته شبكة نجاة.

فلما هبطت وجدتني في جمع مختلط من بهلوانيين وحواة قدامى فقدوا توازنهم «المنطقي» وتروتسكيين ونقاد يشاركون الشيوعية بوجدانهم، وشيوعيين «مستهترين»

وساسة محدثين، وجمهوريين جدد، وأحرار وغيرهم ممن يزحفون وينتشرون في هدف الشبكة متخذين أوضاعاً مختلفة.

وكنا جميعاً في قلق بالغ، معلقين في الهواء، أو هائمين على الوجوه في «منطقة حرام»، ولكننا على كل حال لم نكن مضطرين إلى اعتبار أنفسنا «ملائكة ساقطين».

وقد لبثت معلقاً على هذا النحو حتى حل ذلك اليوم الذي رفع فيه علم الصليب المعقوف على الميناء الجوي في موسكو احتفالاً بقدوم ريبتروب، وراحت موسيقى الجيش الأحمر تعزف النشيد الألماني، فقد كان ذلك إيذاناً بالنهاية، ولم أعد منذ ذلك اليوم أحفل بأن يدعوني حلفاء هتلر خارجاً على الثورة، أو منشقاً، أو أيّاً ما يدعوني من الأسماء والصفات.

وقد حاولت في كتاب آخر لي أن أشرح تلك النظرية المنطوية على مغالطة ظاهرة، وهي قولهم عن روسيا إن الأسس القائمة عليها لا تزال «سليمة لم تتأثر»، وإن النظام الاقتصادي سيؤدي حتماً إلى حكم اشتراكي؛ ولست معيداً هنا ذلك الشرح، وليس غرضي من الإشارة إلى ذلك التعلّق الذي كان مني بآخر مزقة من ثوب الشيوعية الذي ارتديته، ثم رحت أنضوه عني، إلا التدليل على هذه الجبانة العقلية التي تأبى إلا ملازمة الإنسان المستنير، حتى بعد زوال الغشاوة عن عينيه، وانكشاف الخدعة لبصيرته، للفكرة التي انخدع قديماً بها. فإن إدمان معاطاة هذه الأسطورة السوفيتية تستمكن من المدمن استمكناً يجعل من الصعب الشفاء منه كإدمان المخدرات سواء بسواء. والمشاهد أن المدمن بعد إدراكه ما في هذا العقار من غش لا يفتأ يتلهف على رشفة أخيرة منه، حتى ولو شعشعت بشيء من الماء، أو قدمت إليه في برشامة مختلفة واسم جديد، ولا تزال سوق الكومنترن ملأى بأنواع متنوعة من «الماركات»، ولا تخلو مطلقاً من عشرات الجُرْع والبرشامات؛ فقد ألف الكومنترن الاتجار بالكلام المزخرف، والعبارات المنمقة، كما ألف باعة الخمور المهربة والمخدرات الاتجار بالأشربة المغشوشة والعقاقير المزيفة، وكلما كان «الزبون» ساذجاً وعلى نياته،

أصبح من السهل أن يقع فريسة لكل نوع من المخدر يقدم إليه باسم «السلام» والتقدم والديموقراطية وما إليها.

* * *

لقد خدمت الحزب الشيوعي سبعة أعوام، وهي الفترة ذاتها التي قضاها يعقوب عليه السلام في رعاية غنم لابان لكي يظفر بابتته «راحيل»، ولما حان الظفر بها، سيق بالعروس تحت جناح الليل إلى خيمة مظلمة، ولكنه لم يتبين إلا مع الصبح أنه لم يقض ليلته مع «راحيل» الحسناء، وإنما قضاها مع «لييّه» الدميمة الشوهاء.

وإنني لأعجب هل تراه أفاق من الصدمة، حين أدرك أنه كان ينام مع أكذوبة، ويضاجع وهمًا من الأوهام؛ بل عجبي اليوم له، هل تراه فيما بعد قد آمن بأنه كان يومًا بها مؤمنًا، وهل ستتكرر الخاتمة السعيدة التي انتهت إليها تلك الأسطورة القديمة، فإن يعقوب بعد جهاد سبعة أعوام أخرى ظفر براحيل ذاتها، وأصبح الوهم حقيقة ملموسة، فلم تلبث الأعوام السبعة أن بدت له قصارًا كأنها بضعة أيام من فرط الحب الذي كان لها في جوانحه.

* * *

إجنازيو سيلوني

-١-

استطاع عدة أشخاص منا النجاة من الاعتقال في مساء أحد الأيام في شهر نوفمبر، عقب صدور «القوانين الخاصة» فقد لجأنا إلى «فيللا» صغيرة في إحدى ضواحي «ميلانو» كان قد استأجرها أحد رفاقنا من عهد قريب، وكان رفيقنا هذا متنكرًا في صورة «نقاش».

وكانت أحياء العمال مهجورة، والشوارع فيها مقفرة، والحانات صامتة أو موصدة الأبواب، والظلام مخيمًا على الدور والأكواخ؛ وهو مشهد أضفى على ذلك الوقت من العام، كآبة غامرة، ووجومًا أليماً.

وكان رجال الشرطة مدججين بالسلاح، وقد راحوا يغيرون على الدور، و«يكبسون» البيوت التي تحوم حولها الشبهات، كأنها تحصينات للعدو ودور منيعة، وكان عدد المعتقلين قد بلغ يومئذ حدًا كبيرًا، وأخذ يزداد على الأيام، كلما عرفت أسماء جديدة، واكتشفت دور أخرى من نتائج هذا التفتيش المستمر، أو تقارير الجواسيس والأرصاد، أو اعترافات المستضعفين من المقبوض عليهم الذين لم يقووا على الوعيد بالتعذيب.

وكان كثير من هذا ونحوه يجري في المدائن والأقاليم الأخرى، وكانت الصحف المعارضة قد عطلت يومئذ، والصحف التي لا تزال موالية الصدور مضطرة إلى الامتناع عن نشر شيء من أنباء الاعتقالات، بل مضت بالعكس تنوه بمآثر الدكتاتورية

الإيطالية، وتنتشر مدائح كبار ممثلي الديموقراطية في البلاد الأخرى وحسن تقديرهم لفضلها وجهودها.

ولكن التقارير المبنية على المعلومات التي جمعها رسل الحزب الشيوعي من ممثلينا في أكبر المناطق، وبعثوا بها إلى مقر حركتنا السرية، لم تكن تدع مجالاً للشك في أن الدكتاتورية تنتوي القضاء على المعارضة ومحو كل أثر لها في البلاد.

وكان الشيوعيون هم وحدهم الذين أوتوا تنظيمًا سرّيًا بارعًا، وإن كان رجال الشرطة في عدة أقاليم يجهلون هذه الحقيقة أحيانًا، ولكنهم بهذه «الكبسات» المتوالية استطاعوا تدمير شبكة مخابراتنا وتقطيع خيوطها وأوصالها.

وجاء فريق كبير من «الرفاق» الذين نجوا من الاعتقال يطلبون منا مأوى ثابتًا في مدينة غير مدينتهم، وأوراقًا «مزورة» تمكنهم من الانتقال، وتعينهم على معاودة النضال.

وأمسى الذين كانوا يعيشون منا بأسماء مستعارة حينًا من الدهر، مخفين مظاهر نشاطنا غير المشروع تحت ستار ما، في مركز أفضل من غيرهم، وإن كنا جميعًا في خطر من أن يكتشف يومًا أمرنا، أو من أثر غفلة تندّ من أحد المعتقلين فيهددي بها رجال الشرطة إلى مكاننا، وتفتح لهم مغاليق أسرارنا.

فلا عجب إذا كنت في ذلك المساء الذي أسلفت ذكره قد تلقيت فجأة نذيرًا بآلا أعود فيه إلى البيت، لأن قرائن الأحوال توحى بأن الشرطة يحومون حوله.

وكنت مع آخرين في مثل ظروفنا قد وجدنا ملاذًا مؤقتًا في تلك «الفيللا» الريفية التي يملكها ذلك «النقاش»، فلم نلبث أن عمدنا بعد إقامة حرس حول الدار، والتفكير فيما نحن صانعوه إذا باغتنا البوليس، إلى قضاء الليل جلوسًا على المقاعد مستسلمين لمشية المقادير؛ فقد كانت الدار خالية من الأثاث ولا تحوي غير مرقد واحد، وكان معنا بجانب النقاش «المتنكر» وامراته رجل آخر متنكر في زي سائح

إسباني، وطبيب أسنان «مزيف»، وثالث يتحل شخصية مهندس، وفنّانة ألمانية، وطالب؛ وكنا قد تعارفنا من عامين، وإن ظلت علاقتنا طيلة هذه الفترة مقصورة على مجرد التعاون الفني في مختلف نواحي الحركة السرية وفروعها، إذ لم يتسع أماننا الزمن ولم تسنح الفرص لنكون أصحاباً وأهل مودة، بل كنا في الغالب نعرف أصولنا ونشأتنا وعشائرتنا، لما تقضيه ظروف حياتنا خارج دائرة القانون من الإحاطة بهذه ونحوها من المعلومات.

ولست أدري سر هذا الأثر الباقي من تلك الليلة وأحداثها في حاضري إلى الآن، ولكنني أذكر أن طبيب الأسنان اثنتي يقول: لقد كنت ماراً بصالة «إسكالا» أصيل اليوم فوجدت صفوفاً متراسة من الناس يرتقبون أدوارهم لشراء تذاكر لدخول الحفلة التالية، فوقفت لحظة لأنظر إليهم وبدا لي أنهم جمع من المجانين.

فانبرى السائح الإسباني يسأله قائلاً: ولماذا تعدهم مجانين، هل تعتقد أن سماع الموسيقى ضرب من الجنون؟

قال: ليس سماعها كذلك في الظروف العادية، ولكن في أوقات كهذه كيف يرتضى الناس لأنفسهم التسلية واللهو بسماع الموسيقى، لا بد من أن يكونوا مجانين. فعاد السائح الإسباني يقول: إن الموسيقى ليست في كل الأحوال مجرد تسلية ومحض لهو.

وأردف النقاش يقول: لو أن هؤلاء المجانين بالموسيقى شهدونا الساعة أو سمعوا بأمرنا أو علموا بعملنا، لعدونا بدورهم في الغالب مجانين، إذ ليس من السهل معرفة من هم المجانين حقاً، وهذا علم من أشد العلوم مشقة وأصعبها أمراً.

ولم يرق طبيب الأسنان هذا المجرى الذي اتخذه الحديث فأجاب بعنف قائلاً: إن المرء لا يمكن أن يجازف بحياته وحرية في الجهاد، كما نفعل نحن، ثم يحاجّ ويناقش كأنه شخص فوق الجهاد وفي مرتبة أعلى من النضال.

فقال النقاش: إنك تستطيع أن تلقي بنفسك في بهرة الجهاد، وساحة النضال، وتركل خصمك وتضربه كيف تشاء، ولكن لا حاجة مطلقاً بك إلى محاجته ومناقشته، أليس الأفضل أن يبقى المرء على رأسه لأشياء أخرى أنفع وأجدي.

وانبرى السائح الإسباني يقول: أليس جهادنا جهاد أفكار ومبادئ، أو ليس هذا يقتضي تشغيل رؤوسنا وعقولنا؟

وعندئذ ابتسم النقاش ومضى يقول: أي نعم، يقتضي رأسي بالطبع وتفكيري، ولكنه لا ينبغي أن يقتضي مني عيني أيضاً وبصري، أو بعبارة أخرى إنني لأفضل أن أبقى على عيني لأشهد ما يجري وأبصر الأشياء عياناً.

وهنا قال طبيب الأسنان: أنا لا أفهم هذا الذي تقوله، إن المخاطرة التي تتعرض لها بإقامتك معنا لا تبدو متناسبة مع العمل القليل الذي تؤديه...

وسادت فترة سكون محير، وكنا نشهد خلالها من النافذة ثلاث سيارات ضخمة مملأى بالجنود وهي تجتاز الطريق العام، فجاءت ربة الدار فأغلقتها وقدمت إلينا قهوة طيبة.

وعاد السائح الإسباني محاولاً إعادة روح «الانسجام» بين الرفاق فقال: إن جميع الطرق في عصرنا هذا مؤدية إلى الشيوعية، ولكن لا نستطيع جميعاً أن نكون شيوعيين بوسيلة واحدة، أو من طريق واحد.

ومضى النقاش يقول: لقد جازفت بحياتي في سبيل «الثورة العمالية»، وإذا لم أجازف بعيني أيضاً، فما ذلك إلا لكي أحتفظ لنفسني بحق رؤية ما يجري لحياتي ومشاهدة ما سيحدث لها، وإن كانت صاحبة لي من عهد المدرسة عمدت إلى التبتل فأصبحت «راهبة»، ووهبت حياتها «للجنة»، وأقصد اللجنة «السماوية»، حتى لا تلبس مع جنتنا نحن؛ وفي إيماني أن أؤكد لكم أنني لن أعدل عن هذه المجازفة بالحياة، إذ ليت شعري لماذا أعدل، ولست أحسب أحداً منكم متشككاً في شرفي وذمتي.

ولكن طبيب الأسنان راح يعلق بعنف على كلمات صاحبه بقوله: ولكن الثورة العمالية ليست لعبة يغلب عليها «الحظ».

وأجاب النقاش قائلًا: إنني أعرف حق المعرفة أن الكسب في اللعب ليس مرتعًا «بالحظ»، ولكنه أيضًا إنما يعتمد على قوة اللاعبين وبراعتهم، وعلى كل ما قرأنا عنه في كتب المناهج المقررة في مدارسنا ومعاهدنا الشيوعية، وهذا هو سر اشتراكي في اللعب لا كمقامر فحسب، بل كلاعب أيضًا، كلاعب متوفر بكليته، مجازف بحيلة نفسه وحياته، نعم بكليته، عدا العينين كما قلت...

وهنا قال طبيب الأسنان: لست فاهمًا.

ولكن النقاش مضى في حديثه يقول: إنني بالاختصار أرفض أن أسير معصوب العينين، ولست أتردد في القيام بأي عمل يعهد إليّ به، ولكن بعينين مفتحتين وبصر مكشوف.

وانثنى السائح الإسباني يقول له: حسنًا، ولكن لا أفهم المراد، ما دمت في الواقع جادًا فيما أنت مغامر من أجله مجازف في سبيله، واسمح لي أن أسألك: ألا يجوز في ظروف أخرى أن تجازف من أجل شيء آخر مختلف عن هذا كل الاختلاف، كالحرب مثلاً، أو ارتياد القطب الجنوبي، أو تمرير المبروصين والمجذومين، أو الإتجار بالرقيق الأبيض، أو تزيف العملة؟

فاستضحك الآخر وانثنى يجيب قائلًا: ولم لا؟ ولكن لعلني في كل هذه الأعمال ونحوها محاول أن أظل مفتوح العينين، مجتهد أن أفهم وأدرك.

وانثنت الفتاة الألمانية تقول: إن الإنسان يولد شيعيًا!

ولكن النقاش عقب عليها قائلًا: ولكن الإنسان يصبح «رجلاً».

واستدار إليه طبيب الأسنان فقال: هل تستطيع أن تقول لنا ما هي الظروف التي أدت بك إلى المجازفة بحياتك من أجل الشيوعية؟

قال بجذ: هذه قصة طويلة، واسمح لي أن أكون صريحاً فأقول لك إن فيها أشياء قد يدق فهمها عليك.

وعندئذ انبرت الفتاة الألمانية تقول له: نبني إذن بقصتك الطويلة غير المفهومة، وسنشرب القهوة ونظل أيقاظاً، لنصغي إلى قصتك.

فنظر النقاش إلينا مبتسماً، وراح يسألنا قائلاً: وهل تقصون أيضاً عليّ قصصكم؟

وانثنى طبيب الأسنان فقال: «موافقون»، فلنشرب القهوة ونسهر لنسمع.

ولكن صاحبنا النقاش أنشأ يحذرنا قائلاً: فكروا جيداً في هذا الأمر قبل أن أبدأ، لأنه قد يكون من الخطر عليكم أن تتراجعوا، بل من الخطر على كل واحد في حومة الجهاد، وأنا ضمناً، أن يبحث ويحلل الأسباب والدوافع، ثم ينكص ويتراجع، إذ متى بدأ اللعب فلا بد من انتهائه لأنك لا تستطيع أن تترك الرقص وأنت في وسطه.

وعاد السائح الإسباني يقول: ولكن أليس في إمكان المرء أن يفصل الجهاد عن الدوافع التي أدت به إليه، وهل من الخطر أن يذكر الإنسان نفسه بالدوافع التي أفضت به إلى الشيوعية؟

وهنا قالت الفتاة الألمانية: «الليل طويل»، فهلموا نقصّ قصصنا، ونشرب القهوة، ونظل أيقاظاً ساهرين.

وهكذا قضينا الليلة يحاول كل منا أن يشرح لأصحابه سر اعتناقه الشيوعية وكيف اعتنقها، ولم تكن شروحنا وافية شاملة، ولكن لم يكد يتنفس الصبح حتى أصبحنا جميعاً صحاباً وأصدقاء، ورحنا نقول حين تودعنا لنصرف: «حقاً إن جميع الطرق في أيامنا هذه مؤدية إلى الشيوعية».

وفي العام التالي قبض على طبيب الأسنان وعُذّب، ولكنه أبى أن يكشف عن أسماء أصحابه والمشاركين معه وقضى في السجن نحبه.

أما «النقاش» فقد ظل يؤدي واجباته السياسية إلى أن سقطت «الفاشية» وانتهت

الحرب، وأحسبه قد اعتزل بعدئذ الحياة العامة وأخلد إلى العيش في بيته.

أما الفتاة الألمانية فلم يسمع أحد بها.

وقد خطرت ببالي فيما بعد تلك المكاشفات التي تبادلناها في ذلك الاجتماع الذي حوانا؛ وكنت يومئذ قد شعرت بضرورة فهم تطورات الحركة التي اشتركت فيها وإدراك أسرارها والموازنة بينها وبين الدوافع التي دفعتني في الأصل إلى المساهمة فيها؛ وقد استبد بي هذا الإحساس وأقلق بالي أيما إقلاق.

وإذا كان لعملي الأدبي الضئيل معنى أو مراد فهو بالتحليل والدراسة لا يعدو القول بأن الكتابة أصبحت عندي في وقت من الأوقات ضرورة ملحة، وحاجة قصوى إلى تخليص نفسي من شعور مسيطر على خاطري، ولازمة مستمكنة من إحساسي، وإلى بيان حدود انفصالي من الحزب وتعيين مراميهِ وبواعثه، وإن ظل ولائي مقيماً، وارتباطي مستمرًا في أوسع نطاق؛ ولم تكن الكتابة عندي في يوم من الأيام، ولا يمكن أن تكون، متعة روحية هادئة، أو لذة خيالية بديعة، اللهم إلا في بعض اللحظات الموفقة والظروف القليلة المواتية، ولكنها أبداً جهاد أليم، ونضال مستمر وصراع موحش متواصل؛ وأما المتاعب والصعاب التي أعانيها أحياناً في محاولة التعبير عن خوالجي، وتصوير أحاسيسي فليست ناشئة من العوز إلى مراعاة قواعد الكتابة الحسنة، بل مرجعها إلى تشبث ضميري بأن تحترم نزاهته ولا يستخف بكرامته، وأن أمضي جاهداً في تضييد جروح خفية وعلاج آلام قد تكون مستعصية؛ إذ لا يخفى أن مجرد الإخلاص لا يكفي إذا أراد المرء أن يكون صادقاً.

-٢-

وفي حفلة التأسيس لإنشاء الحزب الشيوعي الإيطالي عام ١٩٢١ في مدينة لبغورن سقت معي إليه أكثر الشباب الاشتراكيين الذين كنت أنتمي إليهم منذ عام ١٩١٧،

فانضموا إليه، وأعلنوا ولاءهم له؛ وكان موقفنا نحن الشباب الاشتراكيين خلال أعوام الحرب موقف الناقدین المستنكرين للديموقراطية الاشتراكية «الإصلاحية»، فلم يثر انضمامنا إلى الشيوعية أي دهشة، ولم يقابل بعجب.

وقد وجدتني في تلك الليلة التي حدثكم عنها، ونحن في ميلانو خلال شهر نوفمبر نتكاشف بماضيها، مضطراً أن أصف لأولئك الصحاب كيف انضمت وأنا في التاسعة عشرة من العمر، ولا أزال يومئذ طالباً في المدرسة، إلى اشتراكية «رومر والد»، وكيف مضيت أرجع بالذاكرة خطوة فخطوة إلى عهد الشباب وأيام الحداثة والصبا، وكيف كان لزماً عليّ أيضاً أن أقص أشياء عن طفولتي، وأستكشف من جديد أول نشأة فكرة المجتمع في خاطري، تلك الفكرة التي اتخذت فيما بعد شكلاً سياسياً، وبدت لي، وأنا محاول استرجاعها في ذاكرتي، أصيلة «راديكالية» صادقة، إذ لم يكن يعقل أن ينضم فتى في السابعة عشرة، وإبان الحرب العالمية، إلى حركة ثورية، تستهدف لاضطهاد الحكومة ونقمتها، إلا إذا كانت دوافعه وبواعثه جدية مستمكة من نفسه.

وقد نشأت في إقليم جبلي بجنوب إيطاليا، وكانت الظاهرة التي تركت أثرها في خاطري حين شببت عن الطوق، هي تلك المفارقة البالغة، الغامضة، المنكرة، بين الأسرة والحياة الخاصة المنظمة في الغالب النقية من الشوائب، وبين الروابط الاجتماعية التي كانت في أكثر الأحيان «خامة» ملأى بالكراهية والغش والخديعة؛ وكان الناس يعرفون عدة روايات وقصص مروعة عن الشقاء الذي كان يومئذ عاماً في الولايات الجنوبية من إيطاليا، واليأس المستولي على أهلها مما هم فيه من بأساء ومتربة؛ وقد رويت أنا نفسي طائفة من تلك القصص في بعض ما كتبته، ولكني لا أريد هنا أن أعرض للأحداث التي أحدثت الاضطراب فيها وأدت إلى القلاقل، بل أود أن أقتصر على وصف بعض الحوادث الصغيرة التي كانت تقع في الحياة اليومية، فهي وحدها التي تبين الحياة المزدوجة التي كان يحياها القوم الذين نشأت بينهم، والتي

كان مشهدي لها أحد أسباب الآلام المبرحة والعذاب النفسي الشديد الذي غمر أيام حداثتي.

كنت في الحول الخامس، طفلاً صغيراً، حين مضيت في يوم أحد أخترق الميدان الصغير القائم في قريننا، مع أمي وهي تقتادني بجانبها، ممسكة بيدي، فشاهدت منظرًا قاسيًا أليماً، منظر سيد من سادات القرية يطلق كلبه الضخم على امرأة فقيرة تشتغل «خياطة» كانت في تلك اللحظة خارجة من الكنيسة فإذا بها تخر على الأرض، وتصاب بأذى بالغ، يتمزق ثوبها إرباً، وكان الاستياء في القرية عاماً، ولكنه مع ذلك بقي مكتوماً مكبوتاً؛ ولم أفهم إلى الساعة كيف خطرت للمسكينة تلك الفكرة المحزنة، وهي إقامة دعوى على السيد واستعاء القضاء عليه، فلم تكن النتيجة سوى سخرية العدالة منها، وهي سخرية تضاف إلى الأذى الذي أصابها، ولئن كان الناس كما قلت قد رثوا لها، وراح خلق كثير يعينونها سرّاً ويؤيدونها، فلم تجد ولا شاهداً واحداً يرضى أن يدلي بأقواله في مصلحتها أمام القاضي، ولا محامياً يتقبل المرافعة عنها، بينما مضى محامي السيد الغطريف، وأحسبه من المحامين اليساريين، يواظب على حضور الجلسات، ولا يتخلّف عن المجيء إليها، كما جاء شهود مرتشون عرضوا أنفسهم لسوء القالة بقصهم على أسماع القاضي رواية غريبة لما حدث، واتهامهم المرأة بأنها هي التي استفزت الكلب واستفترته، فلم يسع القاضي، وكان رجلاً فاضلاً نزيهاً في حياته الخاصة، إلا أن يبرئ السيد، ويحكم على المرأة بدفع المصاريف والأتعاب..!

وراح القاضي بعد بضعة أيام من صدور الحكم يعتذر عما حكم به، وهو يزورنا في دارنا، بقوله: «لقد كان ذلك والله ضد إرادتي، بل أؤكد لكم بشرفي أنني آسف كل الأسف، ولكن لو أنني كنت حاضراً الحادث كإنسان عادي لما استطعت أن أمسك عن لومه، واستنكار تصرفه، ولكنني كقاض ملزم أن أتقيد بأقوال الشهود في القضية، وكانت أقوالهم للأسف في مصلحة الكلب».

وجعل القاضي في زهو يقول: «إن القاضي الصحيح هو الذي يستطيع أن يخفي

إحساسه الشخصي ويبعد عن التحيز، ولا يميل مع الهوى». ومضت أُمي تقول: إنها صناعة شنيعة، ومهنة منكرة، فخير لنا أن نعيش في دارنا بنجوة من ذلك ومنأى، كما ألفت أن تقول لي: «يا بني، حين تكبر وتنمو، كن أي شيء تريد، إلا أن تصبح قاضيًا...». وأستطيع أن أذكر أحداثًا صغارا كهذه ونحوها، ولكن لا أحب أن يفهم أحد منها أننا كنا جهلاء لا ندري شيئًا عن فكرة العدالة المقدسة والحق الواجب الاحترام، أو أننا كنا ننظر إليها بعين الزرابة والاحتقار، بل بالعكس لقد كانت العدالة والحق في المدرسة والكنيسة والحفلات العامة، موضع تقدير وإجلال، بوجه عام، في غير تخصيص حادث بذاته، أو مثل بعينه؛ وأحسبني مضطرا لوصف أحوالنا بالدقة إلى القول بأنها كانت قائمة على خديعة كنا جميعا حتى الأطفال منا عليمين بها، ومع ذلك ظلت قائمة لأنها مبنية على شيء لا دخل له بجهل الأفراد وغبائهم.

وأذكر مناقشة حامية جرت ذات يوم في فرقتي بين الطلبة الذين أدركوا الحُلُم وأوشكوا أن يصبحوا «مكلفين»، وبين قسيس «الأبرشية»، وكان موضوع البحث معرض عرائس كنا قد حضرناه مع القسيس في اليوم السابق، وهو عبارة عن مخاطرات طفل كان الشيطان يتعقبه ويعذبه؛ وقد ظهر الطفل على المسرح في بعض المشاهد، وهو يرعش من الخوف ويحاول في سبيل الفرار من وجه إبليس الاختباء تحت سرير في ركن من المسرح، ولم يلبث إبليس أن أقبل يبحث عنه ولا يجد مكمته وإن ظل يردد قوله «ولكنه لا بد من أن يكون هنا، إنني أجدر ربحه، فلأسأل هؤلاء الأخيار عنه»؛ ودار نحونا نحن النظارة وهو يقول: «يا أولادي الأعزاء، هل رأيتم بالمصادفة هذا الولد الشقي الذي أبحث عنه مختفيا عني في مكان ما»، فانطلقت أصواتنا جملة واحدة، وهي تقول:

كلا.. كلا.. كلا!

قال: وأين هو إذن؟

فصحنا به قائلين: لقد انصرف... ذهب إلى لشبونة. وكانت لشبونة في هذا الجزء

الجنوبي من إيطاليا حيث نقيم لا تزال معدودة في أقصى أطراف الأرض.

ولم يكن أحد منا حين ذهبنا إلى الملهى يتوقع أن يسأله الشيطان، فلا عجب إذا كان سلوكنا على هذا النحو غريباً محضاً، واعتباطاً من كل نواحيه، وأعتقد أن غيرنا من الولدان في أي بقعة أخرى من بقاع العالم، كانوا فاعلين عين ما فعلنا.

ولكن قسيس قريتنا، وكان من أفضل الناس وخيرهم علماً وثقافة، لم يرتض عملنا مطلقاً ولم يسر له، لأننا كذبنا فيه ولم نقل صدقاً، حتى لقد ذهب يحذرنا، وهو قلق الخاطر مغموم، قائلاً إنه لا يشك في أننا قلنا كذباً ونحن نريد منه خيراً، ولكنه كذب على كل حال، ولا يصح للمرء أن يكذب.

فرحنا نسأله في دهشة: حتى ولو على الشيطان؟

قال: الكذب إثم على كل حال.

فسأله أحدنا: ولو على القاضي؟

فعنفه القسيس بجفوة بالغة، وقال: إنني هنا أعلمكم مبادئ الدين، لا الكلام الفارغ، وما يحدث خارج الكنيسة لا شأن لي به.

وانثنى يشرح لنا نهْي الدين عن الكذب عامة، والأمر بالصدق، في أبلغ منطق وأحسن تعبير.

ولكن مسألة النهي «عامة» لم تثر اهتمامنا نحن الأطفال، فقد كنا نريد أن نعرف: هل كان ينبغي لنا أن نقول للشيطان أين اختبأ الطفل أم لا.

وجعل القسيس يرد القول وهو قلق مرتبك: «ليست هذه هي النقطة، إن الكذب كذب على كل حال، وقد يكون إثماً كبيراً، أو متوسطاً أو عادياً أو صغيراً، ولكنه ذنب على السواء، ومن واجبتنا أن نحترم الصدق ونكبره.

قلنا: إن الصدق في هذه المسألة بالذات هو أن الشيطان كان في جانب، والطفل كان في الجانب الآخر، فأردنا أن نساعد الطفل. هذه هي الحقيقة الصادقة.

ولكن القسيس ظل يقول: ولكنكم قلم كذباً، وأعلم أنكم ما قلمتموه إلا للخير، ولكنه كان مع ذلك كذباً.

وأردت أن أنهي هذا النقاش، فأبدت اعتراضاً جريئاً بالنسبة لسني، إذ قلت: افرض أن قسيساً كان في مكان الطفل، أفكان من الواجب أن نقول الحقيقة للشيطان؟ وعندئذ احمرّ وجه القسيس وتحاشى الجواب، وعقاباً على قحتي عاقبني على البقاء إلى نهاية الحصّة راکعاً فوق ركبتيّ بجانبه.

ولما فرغ من الدرس انثنى يسألني قائلاً: هل أنت آسف؟

قلت: بالطبع... ولو سألني الشيطان عن عنوانك لأعطيته إياه في الحال! ولا ريب في أن حدوث نقاش كهذا في فصل مدرسيّ لم يكن مألوفاً، وإن كانت حرية المناقشات مكفولة في أفقنا «العائلي» وبين أصحابنا وخطائنا، ولكن هذه الحماسة الذهنية لم تثر حركة ولا أحدثت اضطراباً في أفق حياتنا الاجتماعية الراكدة البدائية المهيمنة...

- ٣ -

وكان هذا النظام الذي يدعونه «ديموقراطيّاً» قد أدخل من قبل ذلك العهد الذي أتحدث عنه تفاصيل ودقائق فنية جديدة على العلاقات بين المواطن والدولة، وهو «التصويت السري» في الانتخابات لأنه أحياناً، وعلى الرغم من أنه لم يكن في ذاته كافياً لإحداث تغيير أساسي، قد أدى إلى نتائج مذهشة، بل فاضحة، إذا نحن نظرنا إليها من ناحية النظام العام؛ ولئن كانت حوادث الانتخابات قليلة وفي ظروف وأوقات متباعدة، ولم تكن لها معقبات عاجلة، فلا تزال أليمة مزعجة.

فقد كنت في السابعة حين جرت في إقليمنا أول حملة انتخابية تعيها الذاكرة، ولم تكن لدينا في ذلك العهد أحزاب سياسية، فلا غرو إذا لم يحدث إعلان ابتدائها

اهتمامًا كبيرًا. ولكن لم يلبث الشعور العام أن ارتفع مده حين علم القوم أن «البرنس» سيكون من بين المرشحين. ولم تكن ثمة حاجة إلى إضافة الاسم أو اللقب لمعرفة من يكون هذا «البرنس» الذي سيتقدم إلى المعركة الانتخابية؛ فقد كان رب الضيعة الكبرى التي انحدرت إليه من وضع أجداده أيديهم على مساحات واسعة من الأراضي المستصلحة في القرن الماضي، والحقول المترامية على ضفاف بحيرة «فوكينو»، ولا تزال قرابة ثمانية آلاف أسرة أو على الأصح أغلبية السكان، في خدمة الأمير إلى اليوم وفلاحة أراضيه التي تبلغ مساحتها أربعة عشر ألف هكتار.

وهكذا تنزل الأمير من عليائه ليطلب إلى الفلاحين أصواتهم حتى يكون «نائبهم» في البرلمان!

ولم يلبث رجاله في المزرعة وصنائه أن انثنوا يقولون للناس في صراحة وسماحة: بالطبع، لن يرغم أحد على إعطاء صوته للأمير، وبالطبع أيضًا ليكن مفهومًا أن أحدًا لن يرغم الأمير على قبول الذين لا يعطونه أصواته في العمل بأراضيه. نحن اليوم نعيش في عهد الحرية الحقيقية المكفولة للجميع... أنتم أحرار. والأمير أيضًا حر... ولكن إذاعة هذه المبادئ «الحرّة» أحدثت ذهولًا عامًا بين معاشر الفلاحين وقلقًا بالغًا. فقد كان الأمير أبغض مخلوق إلى نفوسهم في البلد كله، كما هو طبيعي ومفهوم، وكان كرههم له ظاهرًا ما دام القائم على ربوة عليائه، وذروة إمارته، كبعض الملوك العظام وأرباب الضياع الدهاقين، وما دام أحد من أولئك الزراع لم يره إلى ذلك الحين، ولم يشهده في يوم من الأيام.

وكانت اللعنات تتوجه إليه في غيابه، وهي لعنات لا تجدي، ولكنها ترضي، وتشفي النفوس من الغل والحقد الدفين.

ولكن ها هو ذا يتنزل من سمائه، ويبدد السحب التي كانت تحجبه، وينحدر إلى الآدميين، ويهبط إلى مخلوقات الله، فلا معدى إذن لهم بعد الآن من قصر التعبير عن شعور البغض والكره له على مجالسهم الخاصة وأحاديثهم، والتأهب للترحيب

به واستقباله بمظاهر الحفاوة والتكريم في الشوارع والدروب إذا تقدم ليطوف بين
الناخبين!

وكان أبي يبدو متأبياً على هذا النوع من المنطق، كارهاً لهذا المظهر من السلوك،
وكان أصغر إخوته، وهم جميعاً من صغار المالكين والمستأجرين، ولكنه رفض
الخنوع، وأبى أن يتطامن إلى الإذعان والامتثال.

ففي ذات مساء جاء إخوته الكبار يلحون عليه في سبيل المصلحة المشتركة أن
يأخذ الأمر بالحكمة والسداد والأناة.

وكان ذلك المساء بالنسبة لي مليئاً بأكبر العبر والدروس والعظات وإن لم يبد
أحدهم اهتماماً بي، لأن الكبار يحسبون أن الصغار لا يفهمون هذه الأشياء، ولا
يدركون هذه المسائل والأمور.

وقد سمعت الأخ الأكبر يقول لأبي في معرض النصح والتحذير إن ترشيح الأمير
نفسه مهزلة بلا شك وكلام فارغ، لأن الانتخابات السياسية ينبغي أن تقتصر على
المحامين وغيرهم من الكبراء، ولكن ما دام الأمير قد رشح نفسه لها، فما علينا إلا أن
نؤيد هذا الترشيح.

وأجاب أبي قائلاً: إذا كان ترشيح الأمير مهزلة، فلست أفهم لماذا نؤيده.

فقال أخوه الأكبر: لأننا كما تعلم أجراؤه وتابعوه.

وأجاب أبي بقوله: نعم، ولكننا ليس كذلك في السياسة، نحن فيها أحرار.

فأجابه إخوته قائلين: نحن لا نزرع سياسة، بل نزرع الأرض، ونحن كزراع أو كـ
عليه.

قال: ليس في عقود الإيجار شيء ينص على السياسة، وإنما تنص العقود على
زراعة بطاطس وبنجر وغيرها، فنحن إذن أحرار كناخبين.

قالوا: وسيكون وكيل الدائرة هو الآخر حرًا في ألا يجدد هذه العقود، أي أننا مضطرون إلى الوقوف بجانبه.

قال: لا يمكنني أن أعطي صوتي لإنسان لمجرد أنني مكره على إعطائه له، بل أشعر بإذلال.

قالوا: لن يعلم أحد شيئًا عن تصويتك، فإن إعطاء الأصوات يجري بطريقة «سرية» في الصناديق، وفي استطاعتك أن تكون حرًا كما تشاء، ولكن في أثناء الحملات الانتخابية يتحتم علينا أن نكون جميعًا في صفوف مؤيديه.

قال: كان يسرني أن أفعل لولا أنني أستحي منه. صدقوني إنني من أمر كهذا شديد الحياء والاستنكاف.

وحاول أعمامي تسوية الخلاف مع أخيهام بشيء من التوفيق بين الرأيين فتم الاتفاق على ألا يقف أبي في صف الأمير، ولا في صفوف منافسيه.

واشترك في إعداد العدة لطواف الأمير بأرجاء دائرته الانتخابية كل من السلطات المدنية ورجال البوليس والشرطة المسلحين بالقرايبينات «الخفر» وعمال دائرة سموه وموظفيه.

وتفضّل الأمير في يوم واحد وتعطف بالمرور على القرى الكبيرة في دائرته، دون أن يقف لحظة بها أو يلقي خطابًا انتخابية.

وقد ظلت ذكرى هذه الزيارة ماثلة في أذهان أهل بلدنا فترة طويلة من الدهر، لأنه جاء في سيارة، وكانت تلك هي المرة الأولى التي شهد فيها القوم السيارات، بل إن كلمة «سيارة» ذاتها لم تكن قد وجدت بعد مكانًا لها في لغتهم اليومية ودارج كلامهم، حتى لقد راح الفلاحون يدعونها «مركبة بلا جواد» وشاعت في مجالسهم حكايات وحركات عن القوة المحركة «الخفيّة» التي حلت فيها محل الخيل، والسرعة الشيطانية التي تستطيع أن تصل إليها، والأثر المدمر الذي تحدثه بالرائحة المتخلفة

عنها في مزارع الكروم وعرائشه.

وقد خرج الناس عن بكرة أبيهم في ذلك اليوم للقاء الأمير على الطريق الذي سيمر منه موكبه، وظهرت بوادر عدة على إعجاب القرويين به، وحبهم له...

لقد ارتدوا أحسن ما عندهم من ثياب، وكانوا في حماسة ظاهرة لا يخفى أمرها على اللبيب، ووصلت «المركبة الخالية من الجواد» متأخرة، واخترقت صفوف الحشود المتراصة صافرة مدوية زائرة ولم تقف، بل لم تتد في مسيرها، تاركة في أثرها سحابة كثيفة بيضاء من الدخان.

وأقبل عمال الدائرة يشرحون لمن يريدون بياناً قائلين إن هذه المركبة بلا جواد إنما تسير بالبخار الذي يحدثه «البنزين» فلا تقف إلا حين ينفد هذا الزيت منها، فهي ليست كالخيل كل ما يحتاج المرء إليه لوقفها عن المسير لا يتجاوز شد اللجم، إذ ليست لها أعنة. فهل رأيتم لها بالله عليكم عناناً أو لجاماً...؟!

وبعد يومين وصل من روما شيخ قصير القامة يضع منظاراً على عينيه، ويمسك بعضا سوداء اللون وحقيبة ثياب صغيرة، ولم يكن أحد من القوم يعرفه، فقال إنه «طبيب عيون» وأنه مرشح نفسه للنيابة عن الدائرة إزاء الأمير، فالتف به جمع قليل من الناس فضولاً ولهفة على معرفة خبره، وكان أكثرهم من النساء والصبيان، الذين لا حق لهم في الانتخاب، وكنتُ بين الصبيان الذين أحاطوا به وقد بدت في «بنطلوني» القصير متأبطاً كتب المدرسة.

وطلبنا إلى الشيخ أن يخطب فينا.

قال: ذكروا آباءكم أن التصويت سيكون «سرياً» هذا هو كل ما أقوله لكم.

وانثنى بعد ذلك يقول: «إنني رجل فقير، أرزق من طب العيون فإن كان أحدكم يشكو أذى من عينيه عالجهت بلا مقابل».

فسقنا إله امرأة عجوزاً تباع الخضر وتشكو من ألم في عينيها فمسحهما وأعطاهما

«قارورة» صغيرة لتقطر قطرات منها فيهما وشرح لها طريقة الاستعمال، وأنشأ يقول
لنا، وكنا جمعاً من الغلمان: ذكروا أهلكم بأن إعطاء الصوت سيكون «سرياً».
وانصرف.

ولكن فوز الأمير في الانتخاب كان مؤكداً بدليل الحشود الحاشدة التي رحبت
به في طوفته الانتخابية، حتى لقد راح رجال الإدارة وموظفو الدائرة يعلنون مقدماً
البرامج الموضوعية للاحتفالات القادمة بفوزه المنتظر ونصره المؤكد.
أما أبي فقد نفذ الاتفاق الذي تم بينه وبين إخوته فلم يؤيد أحداً من المرشحين
المتنافسين، وإنما عمل على أن يتم تعيينه عضواً في لجنة فرز الصناديق.
وما كان أشد دهشة الناس، وأكبر ذهلتهم، حين تبين أن أغلبية كبيرة من الناخبين
أعطت أصواتها لذلك الطبيب الخامل المجهول ولم تعطها لصاحب السمو الأمير
الخطير، اعتماداً على سرية الانتخاب.

لقد كانت النتيجة فضيحة بالغة، وإن كانت «الإدارة» قد سمتها «خيانة منكرة».
ولكن هذه «الخيانة» كانت عامة فلم يستطع موظفو زراعات الأمير أن ينتقموا من
أحد بالذات.

وعادت الحياة في القرية بعد ذلك سيرتها الأولى، ولم يسأل أحد نفسه، لماذا
تبدو إرادة الشعب هكذا على فترات متقطعة؟ وما ضررها لو أنها بدت ثابتة مستقرة
حتى يتم تنظيم الحياة العامة ويتوانى تهذيبها وبناء كيائها من جديد؟

ولكن لا يحسبن أحد عند تعليل هذه الحادثة التي سردها أن العائق الأكبر في هذا
السبيل هو «الخوف»، فإن قوماً لم يعرفوا الخوف يوماً في حياتهم ولا كانوا الهيايين
المنزوين، بل بالعكس لقد أحالتهم قسوة المناخ، ووطأة الكدح، وشدة التنازع على
البقاء، والصراع على الرزق، من أكثر الناس جلدًا وأشدهم مراسًا، وأقواهم شكيمة

وبأسًا، في كل إيطاليا وربوعها المختلفة، حتى لتجدن في تاريخ إقليمنا أحداث الثورات العنيفة المدمرة الوحشية على قصر آجالها، أكثر ترددًا فيه من حوادث الانتخابات والمفاجآت السياسية في نتائجها النهائية، وقد يستطيع هؤلاء القوم الممتهنون الذين يُدَّاسُونَ بالأقدام أن يتحملوا أشد المحن والمساءات بلا ضَجَر ولا شكاة، ولكنهم قد ينفجرون يومًا ويثورون ثورة عَرِمة في أوقات غير مرتقبة وظروف فجائية لم يكن أحد يحسب لها أقل حساب.

وكان في قريننا على العهد الذي أتحدث اليوم عنه قرابة خمسة آلاف نفس، ويتولى أمر النظام فيها نحو عشرين جنديًا بقيادة «ملازم»، ويكفي هذا العدد الكبير من رجال الحفظ في قرية صغيرة للدلالة على المعنى المنطوي عليه، ولم يكن ثمة تعاطف بين جنود الجيش ورجال الحفظ خلال الحرب العالمية الأولى، لأن هؤلاء كانوا يعملون في المناطق الخلفية وراء الجيش والقوات المحاربة، ويقال إن بعضهم كان يتدخل كثيرًا في أمر زوجات الجنود المحاربين في الجبهة وشؤونهم المالية. والمألوف في القرى والديساكر أن تعطى الإشاعات التي من هذا القبيل أهمية بالغة، وتضرب عليها الأمثلة الخاصة، والقرائن الشخصية، فقد حدث في ذات مساء أن وقع شجار بين ثلاثة جنود من الجيش كانوا عائدین أخيرًا من الجبهة وبين بعض رجال الحفظ، فلم يكن من هؤلاء إلا أن قبضوا عليهم واستاقوهم إلى المخفر.

وكان هذا الإجراء سخيًّا من البداية وأنفى ما يكون للرجولة والكرامة، ولكنه لم يلبث أن انتهى بتصرف أسوأ وإجراء أسخف، إذ عمد الضابط قائد الدرك إلى إلغاء إجازات الجنود الثلاثة وإعادتهم إلى الجبهة.

وكنت صديقًا حميمًا لأحدهم، وقد استشهد فيما بعد في المعارك، فجاءني أمه تنتحب وأنباتني الخبر، فتوسلت إلى العمدة والقاضي، والقسيس، أن يتوسطوا في الأمر فكان جوابهم جميعًا أنه خارج عن دائرة اختصاصهم.

وعندئذ لم يسعني إلا أن أقول لهم: إذا كان الأمر كذلك فلا سبيل أمامنا غير «الثورة»!

وكنا قد ألفنا أن نفوه بهذه الكلمة البغيضة في أحاديثنا إذا أردنا أن نصف مظاهرة صاخبة لا أكثر ولا أقل؛ فقد حدثت «ثورتان» من هذا القبيل في قرينتنا خلال أعوام الحرب، فكانت الأولى منها ضد المجلس القروي بسبب جناية الخبز، وكانت الأخرى ضد الكنيسة لنقل مركز الأسقفية إلى بلد آخر.

أما الثالثة التي سأورد الآن قصتها، فقد انحدرت مع التاريخ باعتبارها «ثورة» من أجل أولئك الجنود الثلاث، فقد تقرر أن يتولى حرس مسلح مرافقتهم إلى القطار في الساعة الخامسة مساءً، ولهذا أعدت العدة للقيام «بالثورة» قبل هذا الموعد بنصف ساعة، وتم الاتفاق على أن تكون أمام «الثكنات»، ومن الأسف أنها اتخذت دوراً أكثر جدية مما كان في الحساب.

فقد بدأت مزاحاً، وكنا ثلاثة غلمان البادئين بها.

وفي اللحظة المتفق عليها ذهب أحدها إلى برج الناقوس وراح يدقه دقات متواصلة وهي الإشارة المعروفة في البلد بأنها إيذان بحريق كبير أو خطر داهم، وأما الآخران فقد انطلقا يستقبلان الفلاحين المقبلين لينبئاهم بجلية الخبر.

وكان القرويون قد سمعوا قرع الناقوس على هذا النحو ففزعوا من رنينه، ووقفوا عن العمل في الحقول وانطلقوا سراعاً إلى القرية مروّعين، ولم تمض لحظات حتى اجتمع حشد صاخب منهم أمام «الثكنة»، وراحوا يسبون ويشتمون ويرشقون الجنود بالأحجار، وما لبثت النيران أن أطلقت في الفضاء، وظل القوم محاصرين الثكنة إلى ساعة متأخرة من الليل، وقد اشتد هياج القرويين وتناهى بهم الحنق، فأقبلوا يهجمون على المعسكر ويحطمون منه النوافذ والأبواب، ويقتحمون المكان اقتحاماً، وإذا بالجنود يلتمسون الفرار إلى الحقول تحت جنح الظلام.

وأما الجنود الثلاثة فقد نسي القوم أمرهم كل النسيان فلم يلبثوا أن تسللوا إلى بيوتهم دون أن يشعر بهم أحد.

وهكذا وجدنا نحن الغلمان أنفسنا سادة الموقف ليلة كاملة.

وانثنى الغلامان الآخران يسألانني قائلين: «والآن ماذا نحن فاعلون؟».

وكان نفوذي فيهما يرجع إلى معرفتي «اللاتينية» دونهما.

قلت: إن القرية ستحتل في الصباح بمئات من الجنود المسلحين ورجال الشرطة والدرك القادمين من «أفيزانو» وسلمونا وأكويلا، وربما من «درنة» أيضًا.

فعادا يسألان قائلين: وماذا سنفعل نحن الليلة قبل قدومهم؟

قلت وأنا أحزر ما في خاطرهما: إن ليلة واحدة بالطبع لا تكفي لإقامة نظام جديد في القرية.

قالا: ألا نستطيع أن نستغل الموقف، وننتفع بذهاب القوم إلى المراقد، فننادي بالاشترابية ونقيمها فعلاً.

ولعلمهما كانا لا يزالان متحمسين هائجين من الصخب الذي حدث في المساء، أو لعلمهما كانا فعلاً يعتقدان أن في الإمكان إحداث حدث ما في تلك الليلة بالذات، وإن لم يصارح أحدهما بذلك ولا اقترحه.

وقال أحدهما أخيراً: لا أظن في استطاعة أحد أن يفعل شيئاً كهذا في ليلة واحدة، حتى وإن كانت القرية في النوم غارقة، ولكن الشيء الوحيد الميسور هو أن ننام في فراشنا الليلة قبل أن نذهب إلى السجن.

وكنا مكدودين متعبين، فرأينا هذه النصيحة معقولة ومقبولة فعملنا بها.

وكان تكرار حوادث العنف المماثلة لهذا الحادث وما يعقبها حتمًا من اعتقالات ومحاكمات وأنعاب قانونية وأحكام بالسجن - من شأنه أن يزيد الفلاحين رية

وتشككًا واستهزاء بالسلطات، وكرامية للإدارة ورجالها فلم تلبث «الدولة» أن أصبحت في نظرهم شرًّا مستطيرًا، وداء لا دواء له، وجعل كل فرد طيب يريد النجاة بجلده يتجنب ما استطاع الاتصال بالدولة، أو الاحتكاك بها؛ بل أصبحت الدولة علمًا على الغش والنصب والظلم والاحتساب، فلا سبيل إلى تغييرها، لا بالقوة ولا بالقانون، فإذا نالها يومًا شيء من القصاص أو الانتقام؛ فما ذلك إلا تدبير من الله ورحمة من لدنه.

-٤-

وحدث في عام ١٩١٥ زلزال عنيف لا مثيل له في عنفه فدمر شطرًا كبيرًا من إقليمنا وقتل في ثلاثين ثانية قرابة خمسين ألفًا.

وقد عجبت لقومي كيف تقبلوا هذه الكارثة المروعة بهدوء كأنها حادث مألوف ومضوا ينظرون إلى تعليقات علماء طبقات الأرض له، وتفسيراتهم المعقدة في الصحف السيارة بعين الاستخفاف والاحتقار، فقد ألف الناس في إقليم كإقليمنا حيث تبقى المظالم المتعددة بغير عقاب، أن يعدو الزلازل المتكررة مجرد ظواهر طبيعية لا تحتاج إلى تعليل، بل لقد كان عجبهم ألا يقع منها الكبير، ولا تتوالى منها الكوارث، ففي الزلازل يهلك الأغنياء والفقراء والعلماء والجهلاء والحكام والمحكومون على السواء، وهنا أيضًا سر جلد الإيطاليين المعروف حين تواجههم نكبات الطبيعة ومحنها، وعلة قوة احتمالهم للمصائب والقوارع والخطوب.

ولا يخفى أن الزلزال يحقق ما يقول به القانون ولا ينفذه فعلاً، ونعني به «المساواة العامة بين الناس».

وحدث أن عجوزًا من جيراننا لبثت دفيئة تحت الأنقاض في دارها، وكانت ربة «مخبز» عدة أيام، ولم يكن قد أصابها من الزلزال سوء، وإن دمر الدار تدميرًا، لأنها لم تدرك أن المصاب عام، وإنما ظنت أن بيتها وحده هو الذي تداعى، إما من عيب في بنائه،

أو لعنة دعا بها داع عليها، فكان ذهولها بالغًا، حين جاء جماعة من المنقذين لإخراجها من بين الأنقاض، حتى لقد رفضت الخروج بتأناً وأصرّت على البقاء، ولكنها لم تلبث أن هدأت، وثابت إليها قوتها ورغبتها في الحياة وإصلاح البيت بعد تداعيه، عندما قيل لها إن زلزالاً قد وقع وإن عدة بيوت وأكواخ قد تداعت كما تداعى بيتها.

وقد بدا لقومنا الفقراء في هذه البقعة من العالم أن مصاب الزلزال كان أهون من المصاب الذي وقع بعده، فإن البرنامج الذي وضعته الحكومة لإعادة القرية اقترن من بداية التنفيذ بدسائس لا تحصي وسرقات واختلاسات واحتيالات لا تعد، وصاحبه من الغش والنصب ما صاحبه.

وجاءني أحد معارفي وكانت إحدى المصالح الحكومية قد فصلته من العمل يشرح لي أموراً ومسائل كثيرة عن تصرفات جنائية كان كبار المهندسين في المصلحة يأتونها.

فلم أعجب مما سمعت، ولكنني تأثرت، فبادرت بنقلها إلى بعض أهل النفوذ ممن كنت أعرف عنهم النزاهة والاستقامة حتى يستطيعوا التشهير بأولئك الجناة.

ولكن أصحابي الموقرين أكدوا لي صحتها، ولم يحاولوا إنكارها، وإنما راحوا. ينصحون لي بألا «أحشر نفسي فيها، وألا أتدخل في هذه الأمور ونحوها» قائلين بلهجة الإشفاق إنك لا تزال شاباً في مقتبل العمر، ولا بد لك من إتمام دراستك، وأمامك مستقبلك تحرص عليه، فلا تشغل إذن نفسك بما لا يعنيك.

وقلت: من الخير بلا شك أن يأتي التشهير بهم من قوم كبار مثلكم أهل نفوذ، لا من شاب مثلي في السابعة عشرة.

فما كادوا يسمعون هذا القول حتى بهتوا وراحوا يقولون: «إننا لسنا مجانين، ما لنا ولهذا، نحن في حالنا، فلا ندخل فيما لا يعيننا».

فذهبت إلى بعض القساوسة المحترمين وحدثتهم بالخبر، كما أفضيت به إلى

بعض الأفراد الذين عرفت فيهم الشجاعة والإقدام.

فكانوا جميعًا يعترفون بأنهم بتلك التصرفات المعيبة عارفون، ولكنهم يرجون مني ألا أضع إصبعي في الشق، بل ينبغي أن ألتفت إلى دراستي وأنتبه إلى نفسي وأحرص على مستقبلي.

قلت: بكل سرور، ولكن أليس فيكم رجل يرتضي فضح أولئك اللصوص؟ فكان جوابهم في سخرية: «لسنا مجانين، إن هذه المسائل وأشكالها ليس لنا شأن بها». وعندئذ مضيت من عجب أسائل نفسي: أليس من الخير حقًا أن أتولى بمعاونة فريق من الغلمان والشباب تنظيم ثورة جديدة تنتهي بحريق رهيب يأتي على مكاتب أولئك المهندسين الفاسدين المرتشين، لولا أن ذلك الصديق الذي نبأني بتفاصيل تصرفاتهم ذهب يقول لي إن إشعال حريق في مكاتبهم من شأنه أن يذهب بالأدلة عليها والبيانات.

وكان الرجل أكبر سنًا وأكثر تجربة، فاقترح عليّ أن أسعى في نشر فضائهم في بعض الصحف السيارة.

قلت: وأي صحف تحسبها ترضي النشر؟

قال: إن هناك صحيفة واحدة قد يهملها نشر هذه الفضيحة، وأعني بها الصحيفة «الاشتراكية».

وعندئذ عكفت على كتابة ثلاثة مقالات، هي أول ما كتبت في حياتي، وقد ضممتها تفاصيل تصرفات مهندسي الدولة في إقليمنا وبعثت بها إلى جريدة «أفانتي».

وإذا بها تنشر المقالين الأولين منها في الحال، ولم يكد القراء يطالعونها حتى بدا الاهتمام بالأمر بالغًا. ولكن لم يحدثنا أثرًا ما في الأوساط الحكومية.

ولم يظهر المقال الثالث، وعلمت فيما بعد أن اشتراكًا كبيرًا توسط لدى هيئة التحرير.

وتبين لي أن شبكة الغش والخداع والاحتيال أوسع مدى مما بدت لي أول مرة، وأن الفساد المتصل بها قد امتد إلى «الاشتراكية» ذاتها، وإن كانت الفضيحة الجزئية التي ظهرت فجأة في الصحف كافية لرفع عدد من القضايا أو تأليف «لجنة تحقيق». ولكن شيئاً من هذا أو نحوه لم يحدث.

ولم يحاول المهندسون الذين قلت عنهم إنهم لصوص ومختلسون، وقذفتهم بتهم معينة، أن يبرئوا أنفسهم مما اتهموا به علانية، أو يصدروا تكذيباً عاماً. ومضت فترة ارتقاب لما عسى أن يفعلوه، وإذا بالقوم يعاودون أعمالهم كأن لم يحدث شيء.

وقد عد الأبرار والراغبون في الخير، هذا الطالب الذي أقدم على هذا التحدي الجريء فتى قوياً شجاعاً.

ولا يصح أن ننسى أن الفاقة الضاربة أطنابها في الأقاليم الجنوبية من إيطاليا لا تدع مجالاً فسيحاً للعمل أمام الشباب الذين تخرجهم المدارس ألوفاً كل عام، فلا عجب إذا كان كل همّ الشباب الظفر بعمل في الحكومة، ولا يخفى أن وظائفها لا تحتاج إلى قسط غير مألوف من الذكاء، وإنما كل ما تطلبه الخنوع والاستخذاء ومجاراة السياسة القائمة؛ فلا عجب إذا رأينا فتیان الجنوب الذين نشأوا في الجو الذي وصفته لكم ينزعون بطبيعة الحال، إذا هم أوتوا ولو نصيباً يسيراً من الشعور بآلام البشرية ومظالمها، إلى التمرد والثورة والفوضى. وأما الذين لا يزالون على أبواب الشباب فهم يعدون الانخراط في سلك الوظائف الحكومية استسلاماً وخضوعاً وامتهاناً لعقولهم وإزراء بأرواحهم. وهذا هو الذي جعل الناس يقولون «فوضيون في العشرين ومحافظون في الثلاثين».

ولا تنس أيضاً أن التعليم الذي يلقن في المعاهد العامة والخاصة منها على السواء لا يتوخى تقوية الأخلاق وغرس مكارمها في النفوس.

وقد قضيت الأعوام الأخيرة من عهد الدراسة والطلب في معاهد كاثوليكية خاصة، وكان تعليم اليونانية واللاتينية فيها على أحسنه، ورياضة الشباب على حسن الأخلاق وكريم العادات والخلال سهلة صريحة واضحة، ولكن تعليم الحقوق الوطنية والتدريب على ممارستها كان مزيّياً إلى حد يؤسف له، وكان معلمو التاريخ لدينا ينقدون صراحة الآراء والنظريات الرسمية، وكان تاريخ النهضة وأبطالها أمثال مازيني وجاريبالدي وفكتور عمانويل الثاني وكافور موضع سخرية وانتقاص، كما كان أدباء العصر من نحو كاردوتشي ودانونزيو محل امتهان وإزراء.

ولم تكن هذه الطريقة في التعليم تخلو من فوائد، لأنها تروض أذهان الشباب على روح النقد وصناعته ودقائقه، ولكن معلمينا الدينيين كانوا يريدون أن يعدونا للامتحانات الحكومية، وكانت شهرة مدارسهم ونجاحها قائمين على حسن نتائجها، فلا عجب إذا هم راحوا يعلموننا أيضاً ويوصوننا بأن نكتب في الامتحانات عكس ما كانوا يلقنونه لنا، ونقيض ما كانوا بالأمس يحاولون إقناعنا به.

ولكن الممتحنين الموفدين من قبل وزارة المعارف لاختبارنا شفوياً، والعارفين بأننا قادمون من هذه المعاهد الخاصة، كان يروقهم أن يوجهوا إلينا أسئلة في الموضوعات الجدلية ثم يمتدحون بتهكم الطريقة الحرة التي تتبع في تعليمنا؛ فكان الكذب والنفاق والرياء في هذا كله ونحوه من الوضوح بحيث يؤثر أسوأ الأثر في نفس كل فتى أوتي بالسليقة والفترة أقل نصيب من احترام الثقافة وتقديرها؛ ولكن لم يكن ثمة مفر مع ذلك من أن ينتهي الطالب في الأغلب الأعم إلى اعتبار الشهادات والوظائف التي سيظفر بها بعد التخرج، أسمى حقائق الحياة وأعلاها ذروة.

وقد ألف الدكتور ف. ج، وهو طبيب في قرية مجاورة لقريتنا، أن يقول إن الذين ولدوا في هذا الإقليم تعساء حقاً وعاثرو الحظوظ، فليس أمامهم شيء وسط، فإما أن يتمرّدوا ويثوروا، وإما أن يصبحوا في الجريمة شركاء.

وقد تمرّد هو وأعلن أنه يدين بالمبادئ الفوضوية، ومضى يلقي خطباً «تولستويّة»

على الفلاحين، ولكنه لم يلبث أن أصبح ضحكة الإقليم كله، فقد تبرم به الأغنياء، واحتقره الفقراء، ولم يكن يشفق عليه سرًّا إلا قليل.

وانتهى الأمر بفصله، وقضى نحبه... جائعًا ساغبًا!

-٥-

وإنني لأشعر بأن هذا الذي مضيت أقصه على الناس في هذه الصفحات يبدو من الإيجاز بحيث يدنو من حدود الاختصار، ويلوح تكلفًا شاقًا، ومجرد إجهاد، فإن عرضت له اليوم فلست أريد أن أنفيه، ولا أبغي أن أقسم على صدق ما جاء فيه، لأن كل ما يمكنني أن أقوله هو أنني أضمن إخلاصي في سرده، ولا أضمن نزاهته وموضوعيته، وإنني أحيانًا لأعجب وأدهش كلما عدت بالذاكرة إلى ذلك العهد البعيد حتى ليكاد يلوح قبل التاريخ، عهد العيش الذي تقاسمته ومعاصريّ وأهل بلدي، كيف أصبحوا لا يذكرون منه شيئًا، أو إذا ذكروا منه فلا يتجاوز ذكرهم إلا النزر اليسير، من خلال سحب النسيان وغمائم الغموض، بينما أراهم يذكرون ظروفًا لا أهمية لها، ولا تنطوي على أي دلالة أو خطر، فهل كان هؤلاء المقامرون إذن «شركاء» في الجريمة، وهم لا يشعرون؟

وكثيرًا ما أسأل نفسي بأي قدر أو فضيلة يأتي على المرء حين من الدهر يختار فيه بين أن يكون مشتركًا في الجريمة أو يكون متمردًا ثائرًا؟ ومن أين لبعض الناس هذا الذي أوتوه من الأنفة وإباء الضيم والسخط على المظالم، حتى وإن وقعت للغير وأصابت الآخرين، بل من أين لهم ذلك الإحساس الفجائي بالإنثم إذا هم يومًا جلسوا إلى مائدة حافلة بأطيب الطعام بينما غيرهم يكادون يهلكون جوعًا، وأين لهم ذلك الرضى بالفقر وإيثار السجن على المهانة والخنوع؟

لست أدري، ولا أحسب أحدًا يدري، فإن أكمل الاعترافات وأبلغها قد تصبح عند نقطة معينة مجرد إيراد للوقائع، ولا تكون جوابًا، وكل من فكر يومًا في أمر نفسه

أو أمور سواه، لا بد قد أدرك كيف تروح بعض القرارات سرّداً عميقاً، وكيف تصبح بعض الأقوال غريبة كل الغرابة، مجهولة الأسباب والعلل والمؤثرات.

وكانت في ثورتي النفسية وتمردني نقطة يتلاقى عندها الكره والحب، أو نشأة الوقائع التي بررت غضبي وسخطي، والدوافع التي أثارتها، والبواعث التي حفزتها، من ظروف الإقليم ذاته الذي ولدت فيه. ولعل هذا هو أيضاً السر في أن كل ما اتفق لي من قبل أن أكتبه -ومن يدري لعل كل ما سأكتبه- متصل مباشرة بذلك الإقليم، أو على الأصح بذلك الجزء منه الذي يمكن أن يشاهد من مسقط رأسي. وهي مسافة لا تتجاوز ثلاثين أو أربعين كيلو مترًا عن كلا الجانبين، رغم كثرة أسفاري، وطول مقامي في الخارج. فهو إقليم كبقية ولاية «إبروزي» بجمليتها، فقير في تاريخه، ويكاد يكون بأسره مسيحيًا في تكوينه، ومتخلفًا من عهد القرون الوسطى في نشأته. فليس فيه من أبنية تستحق الذكر غير الكنائس والأديرة. ولم ينبغ من أهله عبّر عديد القرون والأجيال إلا القديسون والمثالون والنحاتون في الصخر. وما برحت ظروف العيش فيه على الدهر قاسية شاقة، وكان الألم طيلة الزمان مقبولا عند أهله كأول ناموس من نواميس الطبيعة، فلا غرو إذا هم رحبوا «بالصليب» وأجلوه وأكبروه، لأنه رمزه وإشارته؛ وأصبحت «الفرنسيسكانية» والمذهب الفوضوي على مر السنين المظهرين الغالبين على غيرهما من مظاهر التمرد والثورة من جانب النفوس الحية المتحمسة الشفافة في هذه البقعة من الدنيا. ولم يستطع الدخان المتصاعد من رماد «التشكك» أن يخنق يومًا في قلوب المعذبين، والكادحين، والناقمين، الأمل القديم في ملكوت الرب على الأرض وقيام الخير مقام القانون، ذلك الحلم القديم الذي كان يتراءى لجُيواكيمو دافوري، والأمنية التي كانت تجول في نفس البابا سيلستينو^(١)، وإنها لحقيقة على أكبر جانب من الأهمية والخطر لأنها في بلد قاحل مكدود مستئس

(١) بعض رجال الدين الذين كانوا يحملون بهذه الأمنية الخيالية، كما هو مدون في تاريخ القديسين المسيحيين القدامى.

منهوك القوى كبلدنا، يبلغ في الواقع مبلغ الغنى، ويقع موقع الثراء، بل هو في الحق مدّخر عجيب بالغ العجب، واحتياط صبر لا ينفد، وإن كان معاشر الساسة جهلاء بوجوده، ورجال الكنيسة والإكليروس هيايين منه وجلين؛ وقد لا يعرف أين يجده غير الأبرار والقديسين. ولكن الأمر الأوحـد الذي ظل دائماً أشق شيء علينا، بل يكاد يكون ضرباً من المستحيل في تقديرنا، هو البحث عن الوسائل المعينة على الثورة السياسية لقيام مجتمع حر منظم.

ولكنني ظننت أنني وحدي الذي اهدت إليه حين انتقلت إلى المدينة ووقع لي أول اتصال بالحركة العمالية؛ وكان انتقالي نوعاً من الهرب، وخروجاً من عزلة لا تطاق، ونجاة من وحدة لا تحتمل، والتماساً «للأرض الثابتة»، أو اكتشافاً لقارة جديدة؛ ولكن لم يكن من السهل التوفيق بين نفس متمردة على الواقع الأليم في البيئة الاجتماعية، والمظالم القديمة المتأصلة فيها، وبين المطالب «العلمية» التي تقتضيها عقيدة سياسية مقررة الخطوط مبينة المعالم والأصول؛ ولم يكن انضمامي إلى الثورة العمالية في نظري مجرد تعهد أوقعه، و«استمارة» أذيلها بإمضائي، فأصبح عضواً في حزبها، وفرداً منتبهاً إلى هيئة سياسية قائمة، بل كان اعتناقاً، واندماجاً كلياً، وتفانياً تاماً. وكان إعلان المرء أنه أصبح «اشتراكياً» أو أمسى «شيوعياً» يعدل في تلك الأيام الأولى الإلقاء بنفسه في مهاب الريح، والقطيعة بينه وبين الأهل، والتشرد في الحياة، والخلاء من الرزق. وإذا كانت النتائج المادية قاسية أليمة، فلا تزال رياضة الروح عليها أشق وأقسى؛ فقد كان عالمي الذي أعيش فيه، عالم «القرون الوسطى» الذي ورثته وتأصلت جذوره في أعماق نفسي، ومنه استوحيت في الواقع الحوافز إلى التمرد، والانبعاث إلى الثورة - قد بدأ يهتز من القواعد، كأن زلزالاً قد أصابه وهزة أرضية قد مسته، فلم يلبث كل شيء أن أصبح في «البوتقة»، وأمسى مشكلة من المشاكل ومعضلة معقدة، فالحياة والموت، والحب والبغض، والخير والشر، والصدق والكذب، قد تغيرت معانيها أو فقدتها بتأتاً؛ وقد يسهل على المرء أن

يستهدف للخطر أو يلقي بنفسه إليه، إذا هو لم يعد وحده، ولم يبق منقطعاً عن سائر الناس؛ ولكن من ذا الذي يستطيع أن يصف الأثر النفسي الأليم الذي يحدثه إلغاء الإيمان بخلود الروح البشرية وبقائها إلى أبد الآبدين. وكان من أشق الأمور على خاطري أن أبحث في هذه المسألة مع أحد من الناس، ولو أنني ناقشت فيها رفاقي في الحزب لجعلوها موضع سخرية مني ومثار استهزاء، ولم يعد لي يومئذ أصدقاء آخرون، فلا غرو إذا اتخذ العالم كله في عيني شكلاً آخر، وإن جهل الذين حولي ما عراني، ولم يفتن الناس لما كان يعتمل في خاطري.

حقاً ما أحوج الناس إلى الإشفاق والرثاء!

وكانت ظروف الحياة التي يضطر الشيوعيون إلى النزول على حكمها بسبب غزوة «الفاشية» للدولة، واستئثارهم بالحكم والسلطان، شاقة كل المشقة، وفيها كل العنت والحرَج، وإن ساعدت مع ذلك على صحة النظريات التي كان الشيوعيون ينادون بها، ومن شأنها أن تهَيء الفرصة لخلق نوع من النظام لا يتمشى مع العقلية الشيوعية بحال من الأحوال.

وقد اضطررت أنا أيضاً إلى رياضة نفسي عدة سنين على العيش غرباً في بلادي، ولا مفر للمرء من انتحال اسم غير اسمه، وفصم كل علاقة قديمة بأسرته وأصحابه، واتخاذ حياة كاذبة لإزالة كل ريبة تحوم حوله، أو ظن بأنه مشترك في نظام هدام. وأصبح الحزب هو الأسرة والمدرسة والكنيسة والثكنة. أما العالم المترامي خلف ذلك كله، فلا معدى عن تدميره وإنشائه من جديد؛ وكان النضال النفسي الذي يجعل كل مجاهد متصلاً بالجماعة، أشبه بذلك النضال الذي يشاهد في بعض الملل والنحل والمذاهب الدينية أو الكليات الحربية، مع تشابه النتائج، وتمائل المعقبات؛ فكانت كل تضحية مقبولة مرتضاة كمساهمة شخصية من الفرد في ثمن «خلاص الجماعة». ولا تنسَ أيضاً أن الروابط التي كانت تربطنا بالحزب جعلت تنمو على الأيام وتزداد توثقاً، لا على الرغم من المخاطر والتضحيات التي تقتضيها، بل بسببها؛ وهذا هو سر

فتنة الشيوعية لعقول فريق معين من الشباب، والمستنيرين، وسريعي التأثر، وكرام النفوس الذين يؤلمهم أشد الإيلام ما يرونه من معائب الحياة البرجوازية وعبثها وفسادها: فكل من يحسب أنه قادر على انتزاع أحد من خيرة الشباب وأكثرهم رزانة وجداً، من مخالف الشيوعية، واجتذابه إلى «الصالونات» الدافئة، والقيعان البديعة، للعب «البليارد»، إنما يطاوع فكرة خاطئة عن نفسية البشر.

- ٦ -

فلا عجب إذا لم تؤثر في خاطري الأزمات الداخلية الأولى التي أصابت الشيوعية الدولية، ولم أتحرك لها، أو أعبأ بها؛ وكانت تلك الأزمات قد نشأت من أن الأحزاب التي استمسكت بالدولية الجديدة، عقب قبول الشروط الواحد والعشرين التي وضعها لينين للدخول في حظيرتها، لم تكن في الواقع متجانسة، وإنما كل ما كانت مشتركة فيه لا يعدو كراهية الحروب الاستعمارية ونتائجها، وإجماعها على اعتناق الأفكار الإصلاحية التي كانت الدولية الثانية ترددها؛ أما ما عدا ذلك فقد كان كل حزب منها صورة صادقة لمدى تطور بلاده وتفاوته في التقدم والرقى. ومن هنا ظهر التباين البالغ في وجهات النظر بين البلشفية الروسية التي أنشئت في أفق كانت الحرية السياسية والفارق في الكيان الاجتماعي غريبين عليه، وبين الجماعات الاشتراكية اليسارية في الدول الغربية؛ فلا غرو إذا كان تاريخ الدولية الشيوعية هو تاريخ الانشقاقات والدسائس، وصلف الهيئات الروسية المترعمة الموجهة وكبريائها على سائر الأحزاب الأخرى المتمتية إليها، التي تريد أن تستقل بالرأي، وتعبر عن حرية التفكير، مما اضطرها واحداً بعد واحد إلى مقاطعة الدولية الشيوعية وتحطيم صلاتها بها، سواء منها الجماعات العاطفة على التقاليد والصور والأوضاع الديموقراطية والبرلمانية، كفريق «فروسار»، وفريق «بول ليفي» الذي كان يُؤثر الأخذ بالقانون

ويعارض أشد المعارضة في محاولات إحداث الانقلابات، والعناصر الحرة التي فتنتها الديمقراطية السوفيتية والتي يتزعمها «رولاند هولست»، والنقابات الثورية التي لا تقرر الخضوع «لبيروقراطية» الحزب الشيوعي ولا ترضاه والتي يتولى قيادتها أمثال بيير مونات، وأندريه نين، والفريق الذي يأبى قطع التعاون مع الديمقراطية الاشتراكية والذي كان الأعضاء البارزون فيه براندييه وبرنجولف وتاسكا، والفريق اليساري المتطرف الذي لم يكن يرتضي القيام بأي حركة وصولية أو استغلالية، والذي كان يوجهه أمثال بورديجا، وروث فيشر وبوريس سوفارين.

وهكذا وقعت تلك الأزمات الداخلية في أفق بعيد كل البعد عن أفقي فلم أشارك فيها ولم يكن لي بها اتصال؛ ولست أقول ذلك متفاخرًا، بل بالعكس أقوله محاولاً شرح الموقف لا أكثر ولا أقل.

وقد أحسست يومئذ بنفور بالغ، واشمئزاز شديد، من تحول الدولية الشيوعية على ذلك النحو السريع إلى بيروقراطية مستبدة وطغيان، وإن كانت هناك أسباب ملحة جعلتني أتردد في الخروج، كتضامني مع الرفاق الذين غُيِّبوا في السجون والصحب الذين استشهدوا، وانتفاء وجود حزب آخر في إيطاليا يناهض الفاشية، والانحطاط السياسي بل التدهور الأدبي العاجل الذي عرا فريقًا كبيرًا من الذين غادروا قبلي صفوف الشيوعية وحظيرتها، وأخيرًا التعلل بأن الطبقات الكادحة في الغرب قد تستطيع إصلاح «الدولية» وتردها سيرتها الأولى، إذا ما حدثت أزمة داخلية يومًا في داخل النظام السوفييتي وصميم نطاقه.

وقد سنحت لي في الفترة بين عامي ١٩٢١ و ١٩٢٧ فرص كثيرة للسفر إلى موسكو والاشتراك كأحد أعضاء وفد الحزب الشيوعي الإيطالي، في المؤتمرات التي كانت اللجنة التنفيذية تعقدها، فكان أشد ما يرهمني من أمر الشيوعيين الروس، من أمثال لينين وتروتسكي وغيرهما من ذوي الشخصيات البارزة، تجردهم التام من السماح في قبول الآراء والأفكار التي تتعارض مع آرائهم وأفكارهم، فلا يكاد أحد يجروء على

معارضتهم حتى يعد في نظرهم «خائناً» و«وصولياً» ومأجوراً، إذ لا يستطيع هؤلاء الروس أن يتصوروا وجود خصم حسن النية، أو مجادل صادق الطوية، لأن تغليب الاعتبارات الأدبية أو الأخلاقية في الجدل والنقاش على الذكاء يعد في أعين هؤلاء الذين يوصفون بأنهم «ماديون» «عقليون»، شذوذاً في الشعور واختلالاً في موازين الإحساس والوجدان؛ ولا أحسب شيئاً يمكن أن يقارن بهذه الخواص التي عُرف بها الروس، إلا محاكم التفتيش في القرون الوسطى.

وقد حدث لي وأنا أعد العدة للعودة من موسكو عام ١٩٢٢ أن ألتقيت باليكسندرة كولونتاچ، فاثنت تقول لي: إذا قرأت يوماً في الصحف أن ستالين اعتقلني بتهمة سرقة الملاعق الفضية من الكرملين، فاعلم أن هذا معناه أنني قد اختلفت معه في شيء يتصل بسياسته الزراعية، أو خططه المتعلقة بالنهضة الصناعية.

وكانت كولونتاچ قد اكتسبت نزعة التهكم من الغرب فلم تكن تستخدمها إلا في حديثها مع بعض أهله، ولكن في تلك السنين المليئة بالحماسة ذاتها، تلك السنين التي انقضت في بناء كيان النظام الجديد، ولم يكن هذا النظام يومئذ قد استولى على الحياة الفكرية في البلاد، كان من أشق الأشياء التفاهم مع شيوعي روسي على أبسط المسائل وأوضحها في أعيننا؛ ولم يكن وجه المشقة في الاتفاق، ولكنه كان من ناحية التفاهم على الأقل والمطارحة وتجادب الآراء، إذا عرض النقاش لمعاني الحرية في نظر الغربي أو في عين العامل، حتى لقد قضيتُ يوماً عدة ساعات أحاول أن أشرح لإحدى المشرفات على دار الطباعة الحكومية كيف أنه من العار عليها أن ترتضي تشبيط هم الكتاب الروس وتسمح بأن يعيشوا في جو من الترهيب والتخويف، ولكنها لم تستطع أن تفهم مرادي، فاضطرت إلى ضرب بعض الأمثلة، قائلاً إن الحرية تقتضي السماح بالشك، والوقوع في الخطأ، والإذن للناس بالبحث والفحص والتجربة وقول نعم أو لا لأي سلطة كائنة من تكون أدبية، أو فنية، أو فلسفية، أو دينية، أو اجتماعية، أو سياسية أيضاً.

ولكنها لم تكذب تسمع هذا القول مني حتى غمغمت فزعة مروعة تقول: ولكن هذا معناه «مناهضة الثورة».

وكأنما أرادت أن تسند ظهرها قليلاً وتستدرك فانشنت تضيف قائلة: إنا لنحمد الظروف على أننا لا نملك الحرية التي تملكونها، ولكن لدينا بدلاً منها «المصحات». ولما لاحظت عليها أن التعبير بلفظة «بدلاً» ليس له معنى فإن الحرية ليست سلعة تتبادل، أو متاعاً للمقايضة، وأنني شاهدت مصحات في بلاد أخرى، استضحكت قائلة: إنك تريد المزاح معي اليوم.

وعندئذ تراجعْتُ أمام صراحتها فلم أجروُ على معارضتها، وكان مشهد الحماسة التي يبديها الشاب الروسي في السنوات الخمس الأولى لبداية إنشاء عالم جديد، كنا جميعاً نرجو أن يكون أكثر إنسانيةً من العالم القديم، يبعث الخاطر على الاقتناع التام بصدقه، واليقين الكلي بقوة أثره، ولكن ما كان أشد ألم الخيبة، وأبلغ المرارة، حين مرت السنون، وانقضت الأعوام، وعزز النظام الجديد كيانه، واتخذ بنيانه الاقتصادي، وانقطع الهجوم المسلح عليه من الخارج - فقد رأينا أن ذلك الأمل الموعود لم يتحقق، وأن الرجاء في قيام «ديموقراطية» صحيحة شاملة لم يتم، وإنما شهدنا في مكانه «دكتاتورية» تلح في العسف، وتشتد في الكبح، وتسرف في الكبت والاضطهاد.

وفي ذات مساء مضى صديق من خيرة أصدقائي، وهو «لازار شاتزكي» رئيس جماعة الشبان الروس الشيوعيين يكاشفني بأنه في الحق حزين لأنه ولد متأخراً، وكان يتمنى لو أنه جاء إلى الحياة أبكر مولداً، ليشهد ثورة ١٩٠٥، أو يحضر ثورة ١٩١٧.

قلت مواسياً: ولكن لا تزال ثمة ثورات منتظرة، وستظل الحاجة إلى الثورات قائمة، حتى في روسيا ذاتها.

وكنا في الميدان الأحمر غير بعيدين من ضريح لينين.

قال في لهفة: ومن أي نوع، وكم يطول بالمرء ارتقابها؟

فأشرت إلى الضريح، وكان لا يزال مصنوعاً من الخشب، وكنا في كل يوم نشهد أمامه حشوداً لا تنقطع مع الفلاحين الفقراء المهلهلين يمرون به صفوفاً مترابطة.

وانشيت أقول: أكبر ظني أنك تحب لينين، وأنا أيضاً قد عرفته، ولا تزال صورته ماثلة في خاطري، وأعتقد أنك لا بد معترف معي بأن هذا الاعتقاد الخرافي الذي يأبى إلا أن يظل جثمانه قائماً تحت هذا الضريح الخشبي هو إهانة لسيرته، وانتقاص من ذكره، وعار يلحق مدينة ثورية كموسكو هذه؟

وقصارى القول أنني رحت أقترح عليه أن تأتي بصفيحة أو اثنتين من البنزين، فنحدث «ثورة صغيرة» على ذمتنا، بأن نشعل النار في هذا الضريح المهين. والحق أقول أنني لم أكن أتوقع منه قبول اقتراحي، وإنما كنت أنتظر أن نضحك قليلاً بسبيله.

ولكنني رأيت صديقي بصفراً ويرعش رعشة شديدة ويتوسل إليّ ألا أقول كلاماً مروغاً كهذا له ولا لسواه.

وقد انقطعت عشرة أعوام على هذا الحادث وإذا بهم يبحثون عنه بتهمة اشتراكه مع «زينوفيف»، ولكنه عمد إلى الانتحار بإلقاء نفسه من الطبقة الخامسة في المسكن الذي كان يقيم فيه.

ولطالما شهدت حشوداً من الناس، ورأيت جنوداً تسير في شكل عرض مخترقة ذلك «الميدان الأحمر»، ولكن منظر الانفعال الذي بدا على صديقي الشاب، وسماع صوته الراحش، وقوله الراجف من فرط الرعب، لا يزال في ذاكرتي أقوى من كل تلك الصور والمشاهدات، ولكن لعل السر في ذلك أن هذه الذكرى، من ناحية «موضوعيتها» أكبر شأنًا وأشد خطرًا، وأبلغ دلالة.

وليس من السهل متابعة تاريخ الدولية الشيوعية من البداية إلى النهاية، لأن محاولة متابعته غير مجدية، إذ كيف يستطيع المرء أن يفصل بين الغث والسمين، أو يفرق

بين القيم والتافه، في المناقشات غير المنطقية التي كانت دائرة الرحى في مؤتمراتها واجتماعاتها، وأي الخطب أولى بأن تترك للفئران تقرضها، وأيها أحق بالنقد، وتوصية العقلاء والأذكياء والمستنيرين بقراءتها ودراستها.

لست أدري، وقد يكون اختياري عند بعض الناس منفراً، وقد لا تروقهم آرائي في شأنها.

فقد حدث يوماً في اجتماع شعبة خاصة متفرعة من اللجنة التنفيذية أن دار النقاش حول الإنذار النهائي الذي أصدرته اللجنة المركزية لنقابات العمال البريطانيين محذرة فيه فروعها المحلية من تأييد الحركة التي تقوم بها الأقلية، وبتزعمها الشيوعيون، وإلا كان عقابها الإقصاء؛ فقد انبرى مندوب الحزب الشيوعي البريطاني يشرح الأضرار الخطيرة التي ستنتج من كلا التحذيرين، فإن أحدهما سوف يؤدي إلى القضاء على حركة الأقلية، والآخر سيجلب عليه إخراجها من النقابات؛ وإذا بالمندوب الروسي «بياتنسكي» يتقدم باقتراح خيل إليه أنه في مثل وضوح «بيضة كولومبوس» وبداهته، إذ انثنى يقول: إنه من المتعين على الفروع أن تعلن أنها ممثلة للأمر الصادر، ثم تفعل بالعكس تماماً.

وهنا قاطعه المندوب البريطاني بقوله: «ولكن هذا غش ومين....!».

وإذا بهذا الاعتراض الوجيه يقابل بعاصفة من الضحك، بل بضحك صريح مستطيل لا أحسب المكاتب القائمة التي تضم الدولية الشيوعية قد سمعت من قبل له نظيراً أو تردد مثله يوماً في أرجائها.

وما لبثت «النكتة» أن شاعت في جميع نواحي موسكو؛ لأن هذا الرد «المضحك» الغريب الذي لا يتصوره أحد من الروس نقل بالتليفون حالاً إلى ستالين، وأثار موجات جديدة من المجون والضحك في كل مكان.

ولكن الواقع أن هذا التهكم العام أو الضحك المدوّي الذي أثاره ذلك الاعتراض

البارع من المندوب البريطاني قد أضفى عليه كل معانيه الصحيحة؛ فلا عجب إذا ظلت عاصفة الضحك التي قوبلت بها تلك الكلمات القصيرة الصريحة الساذجة غالبية في خاطري على سائر الخطب الطوال الثقيلة الظل الخانقة التي سمعتها في مؤتمرات الدولية الشيوعية واجتماعاتها، ولا غرو إذا هي بقيت في ذاكرتي نوعاً من الرمز، ومثلاً سائراً.

وكانت زوراتي لموسكو كما أسلفت قليلة، مقتصرة على مهمتي كعضو في الوفد الإيطالي الشيوعي، فلم أكن يوماً في صميم نطاق الدولية ولا «لَبَنَة» من لبناتها، ولكن في وسعي أن أتابع الفساد السريع الذي تطرق إليها من ملاحظة ما جرى لبعض معارفي الذين كانوا متممين إليها. ولعل «جاك دوريو» أبرزهم جميعاً، فقد كان أول عهدي بلقائه في موسكو عام ١٩٢١، وكان يومئذ شاباً متواضعاً حياً، أخا رغبة صادقة وعاطفة رقيقة؛ ولعل لين عريكته، وسلامة فطرته ساعداً على اختياره للدولية الشيوعية وإيثاره على سواه من الشيوعيين الفرنسيين الشباب ممن كانوا أذكى منه وأكثر علماً.

وكان يقضي الأعوام مترقباً الفرص، متلهفاً على التقدم والتبريز، وإذا به على مر الأيام يزداد شأنًا، ويرتفع مكانة في حظيرة الدولية الشيوعية، وكنت كلما التقيت به على السنين أراه قد تغير، فأصبح متشككاً مستهتراً مستخفاً متحولاً بسرعة إلى «الفاشية» في نظراته السياسية إلى الناس والدولة.

ولو استطعت يوماً أن أتغلب على نفوري الطبيعي واشمئززي لوضعت ترجمة لحياة «جاك دوريو» وجعلت مدارها الحديث عنه «كشيوعي مجاهد ينقلب فاشياً».

وقد التقيت ذات مرة به في موسكو عقب عودته من مهمة سياسية في الصين، فراح يقص علينا أنا وبعض الأصدقاء حديثاً مقلقاً عن أغلاط الدولية الشيوعية ومساوئها في الشرق الأقصى، ولكنه في غداة اليوم التالي مضى في الخطاب الذي كان يلقيه أمام اللجنة التنفيذية في جلستها العامة يؤكد العكس على خط مستقيم.

وقد أسر إليّ بعد الاجتماع وهو يبتسم ابتسامة مترفعة قائلاً: لقد كان ذلك مني حكمة سياسية.

وقد أوردت هذا المثل لأنه لم يكن حادثاً فردياً، بل كانت له نظائر وأشباه.

وقد حملته التغييرات الداخلية التي حدثت بعدئذ في الحزب الشيوعي الفرنسي على ترك الدولية الشيوعية، وهيات له الفرصة ليظهر نفسه علناً على حقيقتها، ويبدد صراحته بلونه الصحيح.

ولكن كثيرين سواه ممن لا يختلفون في الجوهر عنه وبقوا على رأس الأحزاب الشيوعية في مختلف البلاد كبالميرو تولياني الإيطالي، تناولوا هذا الضرب من الرياء، وتحذثوا عن هذا الانحطاط الخلقي الذي شاع بين رجال الدولية الشيوعية، حتى لقد رأينا تولياني يصف ذلك كله في الخطاب الذي ألقاه أمام المؤتمر السادس ويطلب أن يؤذن له في ترديد كلمة «جوته» عندما حضره الموت وهي قوله: «عليّ بالنور... مزيداً من النور!».

وكانت تلك الخطبة في بعض معانيها أشبه بصيحات «الإوز»، فقد لبث عاماً بعدها أو عامين يحاول جهده استملاء ضميره والسير على أصداء وجدانه، والتوفيق بين عضويته كشيوعي، وبين المصارحة بآرائه؛ ولكنه في النهاية اضطر إلى الإذعان والامثال.

وقد شعرت الدولية الشيوعية إلى جانب خلافاتها الداخلية بسبب تنافر تكوينها وعوزها إلى التجانس، بوطأة المتاعب التي تحدثها لها الدولة السوفييتية أيضاً، إذ تبين عقب وفاة لينين أنها لا يمكن أن تتجنب القدر الملازم لكل ديكتاتورية، والمصير المحتوم لكل طغيان، وأعني به الضيق التدريجي في هرمها السياسي؛ إذ تبدأ تضيق شيئاً فشيئاً حتى تبلغ الذروة، كما هو شكل الهرم، ولم يلبث الحزب الشيوعي الروسي الذي عرف كيف يكتم أنفاس الأحزاب الأخرى، ويسد السبيل على كل بحث أو نقاش في الأندية والاجتماعات السوفييتية، أن لقي المصير ذاته وإذا بآراء

أعضائه تتوارى وتلاشى وشيكاً أمام سياسة الحزب وخططه، فأصبح كل خلاف في الرأي داخل الهيئة أو الجماعة ينتهي حتماً إلى القضاء على الأقلية ومحوها بالفعل من الوجود.

وهكذا رأينا الثورة التي أطفأت أعداءها تنتهي بالتهام أبنائها المحبين.
ولم يعد «الآلهة العطاش» يرتضون هدنة ولا يقبلون هوادة ولا سلاماً.

- ٧ -

وفي شهر مايو عام ١٩٢٧ اشتركت مع تولياني كممثلين للحزب الشيوعي الإيطالي في الدورة غير العادية التي عقدتها اللجنة التنفيذية التي اتسع يومئذ نطاقها، وجاء تولياني من باريس حيث كان يتولى سكرتيرية الحزب السياسية، وجئت أنا من إيطاليا حيث كنت مشرفاً على حركة المقاومة السرية.

والتقينا في برلين وسافرنا معاً إلى موسكو.

وكانت الدعوة في الظاهر قد وجهت للمناقشة على وجه الاستعجال في التوجهات التي ينبغي تقريرها لإرشاد الأحزاب الشيوعية في نضالها حيال الحرب الاستعمارية المرتقبة، ولكن الاجتماع كان في الحقيقة للشروع في «التخلص» من تروتسكي وزينوفيف اللذين كانا لا يزالان عضوين في اللجنة التنفيذية للدولية الشيوعية.

وكانت الدورة العامة قد سبقت هذا الاجتماع وتولت اللجنة الرئيسية التي تضم رؤساء الوفود والهيئات الكبرى إعداد التفاصيل، كما هي العادة، اجتناباً للمفاجآت.

وقد أصر تولياني على مرافقتي له في هذه الجلسات رغم القيود الموضوعية لتحديد الذين يحق لهم حضورها، والتي تعطيه وحده الحق فيه بالنيابة عن الوفد الإيطالي.

ولكنه كان يتوقع مقدماً أن تظهر بعض «المضاعفات» في هذه الدورة، فأثر أن

يستعين بممثل الحركة السرية، وشعرت في الجلسة الأولى التي حضرناها أننا جئنا متأخرين كثيرًا.

وكان الاجتماع منعقدًا في مكتب صغير بمركز رئاسة الدولية الشيوعية، برئاسة الألماني «تالمان»، فلم يكذب يفتح الجلسة حتى شرع في قراءة مشروع قرار ضد تروتسكي يراد عرضه على الجمعية العامة.

وكان هذا المشروع يحوي استنكارًا شديدًا لبعض تصرفات تروتسكي، ومن بينها خطاب بعث به إلى المكتب السياسي للحزب الشيوعي في روسيا؛ وكان الوفد الروسي في ذلك الاجتماع الخاص مؤلفًا على غير العادة، فقد ضم ستالين وريكوف وبوخارين ومانيلسكي.

وعلى أثر الانتهاء من تلاوة مشروع القرار انثنى تالمان يسأل الحاضرين هل هم موافقون عليه.

وهنا لاحظ «أوتومار كوزينين» الفنلندي أن صيغته لم تكن قوية إلى الحد الكافي، ومضى يقول: ينبغي أن يقال فيه صراحة إن هذا الخطاب الذي أرسله تروتسكي إلى المكتب السياسي يتنافى كل التنافي مع روح الثورة وأسايلها، ويقوم دليلًا ساطعًا على أن الشخص الذي كتبه لم يعد مشتركًا في شيء مع الطبقة العاملة.

ولم أرَ أحدًا آخر يطلب الكلمة، فنهضت بعد استشارة تولياني فاعتذرت بأني قد وصلت متأخرًا ولهذا لم يتح لي الاطلاع على الكتاب الذي يراد استنكاره.

وعندئذ انثنى تالمان يقول بصراحة: إذا أردت الحق فلا أخفي عنك أننا أيضًا لم نطلع عليه.

وآثرت ألا أصدق سمعي، وعدت أكرر اعتذاري بعبارات أخرى، فقلت: قد يكون كتاب تروتسكي فعلاً مستحقًا للائمة والاستنكار، ولكن لا خفاء في أنني لا أستطيع أن أستنكره قبل أن أطلع عليه.

فعاد تالمان يكرر قائلاً: ونحن هنا، وأغلبية الوفود الممثلة في هذا الاجتماع، لم نطلع على الكتاب، اللهم إلا أعضاء الوفد الروسي.

وكان تالمان يتكلم بالألمانية، فنقلت كلماته إلى ستالين، وترجمت إلى الفرنسية ليفهمها اثنان أو ثلاثة منا.

وكان الرد الذي نقل لي غريباً لا يكاد يصدق، فلم يسعني إلا أن أدور بعيني إلى المترجم فأقول له: مستحيل أن يكون تالمان قد قال هذا، فأرجوك أن تردد عبارته كلمة كلمة.

وعندئذ تدخل ستالين.

وكان واقفاً في ركن من الحجرة، وهو يلوح الوحيد الذي ظل محتفظاً بهدوئه التام.

وأنشأ يقول: إن المكتب السياسي للحزب رأى أنه ليس من المناسب ترجمة كتاب تروتسكي، وتوزيعه على أعضاء الوفود، لما فيه من مزاعم عن سياسة السوفييت^(١).

وعندئذ سألني تالمان: هل اقتنعت بهذا التفسير؟

قلت: إنني لا أنازع في حق المكتب السياسي في الاحتفاظ بأي وثيقة أو مستند طي الكتمان، ولكنني لا أفهم كيف يطلب من الآخرين استنكار وثيقة لا يعرفون عنها شيئاً.

(١) وقد نشر تروتسكي نفسه نص ذلك الكتاب فيما بعد ضمن كتاب موجز أسماه «مشاكل الثورة الصينية». وقد تبين منه أنه لا يحوي أي إشارة إلى سياسة السوفييت، ولكنه كان هجوماً منطقياً معقولاً على السياسة التي انتهجها ستالين والدولية الشيوعية في الصين.

وقد رأيت ستالين في خطاب ألقاه يوم ١٥ أبريل سنة ١٩٢٧ أمام مجلس السوفييت في موسكو يحرق البخور في مديح شيانج كاي تشك ويؤكد ثقته الشخصية بالكومنتانج، وكان ذلك قبل أسبوع من تنكره هو وحزبه للكومنتانج وطرده الشيوعيين منه بين عشية وضحاها وتذبيح عشرة آلاف من العمال في شنغهاي وألوف آخرين بعد شهر آخر في «ووهان»، فلا عجب إذا كان ستالين يريد تجنب النقاش في مسائل كهذه ويحاول حماية نفسه خلف ستار من الظن.

فلم أكد أقول هذا حتى اشتد الاستياء، وتناهى الغضب عليّ وعلى تولياني الذي كان يبدو موافقاً على ما قلت.

وكان أشد الحاضرين غضباً العضو الفنلندي الذي أسلفت ذكره، وآخر من البلغار ومجرباً أو اثنين.

فقد راح كوزنين يصيح وهو محمر الوجه: «لم نر من قبل ولم نسمع بأنه لا يزال في حصن الثورة العالمية صغار بورجوازي من هذا الطراز».

وقد فاه بعبارة «صغار بوجوازي» بلهجة التحقير والاشمئزاز.

وكان ستالين الرجل الوحيد الذي ظل ملازماً السكينة والهدوء.

فقد أنشأ يقول: إذا انفرد مندوب واحد بمعارضة مشروع القرار فلا ينبغي عرضه.

وسكت لحظة ثم أردف قائلاً: لعل رفيقنا الإيطاليين لا يعرفان شيئاً عن موقفنا الداخلي، ولهذا أقترح تأجيل الاجتماع إلى الغد وتكليف أحدنا بالاجتماع في المساء مع رفيقنا الإيطاليين لشرح لهما الحالة.

وقد عهدت اللجنة إلى المندوب البلغاري «فاسيل كولاروف» بهذه المهمة الثقيلة.

ولكنه أنفذها بلباقة وروح طيبة إذ دعانا إلى تناول الشاي في غرفته بفندق «لوكس»، ولم يلبث عقب اجتماعنا أن دخل في هذا الموضوع الشائك رأساً، بلا مقدمات، فقال وهو يبتسم: لنكن صرحاء.. فهل تظنان أنني قرأت ذلك الكتاب؟ كلا... لم أقرأه... وفي وسعي أن أصارحكما الحقيقة، فأزيد على ما قلت أن الكتاب نفسه لا يهمني. أتريدان أيضاً أن أزيد، إذن فلاصارحكما القول إنني لن أقبل قراءته حتى وإن وافاني تروتسكي ذاته سرّاً بنسخة منه؛ فيا خليلي إن المسألة ليست مسألة وثائق ومستندات، ولست أجهل أن إيطاليا هي من قديم العهد بلد المجامع العلمية، ولكننا لسنا هنا في مجمع علمي، إننا هنا في غمرة «صراع» على النفوذ والسلطان بين فريقين متنافسين من الزعماء الروس، فأَي الفريقين ينبغي أن نناصر؟ هذه هي المسألة، فلا دخل إذن للوثائق والمستندات.

«وليست المسألة مسألة البحث عن حقيقة تاريخية بشأن فشل ثورة قامت في الصين وأسباب إخفاقها وعوامل حيويتها، ولكنها مسألة نزاع محتدم بين جماعتين متعاديتين عدا لا هوادة فيه، وما على المرء إلا أن يختار بينهما، وأنا قد اخترت، وأجمعت النية على أن أقف بجانب الفريق الأغلب، وأكرر أمامكما القول بأنني مع الغالبية، مهما تقل الأقلية أو تفعل، وأي أسانيد أو وثائق قد تتقدم بها ضد الأغلبية، فإن الوثائق لا تهمني، لأننا لسنا هنا في مجمع».

وراح يصب الشاي في الأقداح ويتفحصنا فحصر المعلم لتلميذين صغيرين من تلاميذه العصاة المتعتنين، وانثنى يسألنا وهو يوجه الكلام إليّ خاصة: «هل هذا الكلام واضح أم لا...؟».

قلت: كل الوضوح، من غير شك.

قال: وهل أقنعكما؟

قلت: كلا.

قال: ولماذا؟

قلت: إن الرد على هذا السؤال يقتضي أن أشرح لك أسباب وقوفي موقف المعارض من «الفاشية».

وعندئذ تظاهر كولاروف بالغضب، فبادر تولياني إلى شرح ما قلته في لهجة أكثر اعتدالاً وإن لم تكن أقل صراحة.

قال: إن المرء لا يستطيع أن يحكم هل يقف بجانب الأغلبية أم بجانب الأقلية مقدماً، إذ لا بد من معرفة الأساس السياسي للمسألة قبل القطع بشيء.

وكان كولاروف يستمع لنا وهو يبتسم ابتسامة الشفقة والثناء.

قال وهو يصحبنا إلى الباب: «أنتم لا تزالان حديثين ولم تدركا بعد ما هي السياسة وما خطبها ومطالبها...».

وتكرر في غداة اليوم التالي المشهد ذاته في الاجتماع عند استئنافه، فقد شاع في المجلس جو غير مألوف من الحدة والاضطراب العصبي.

وانثنى ستالين يسأل كولاروف: هل شرحت الموقف لرفيقنا الإيطاليين؟ قال بلهجة التوكيد: «أوفى الشرح».

فعاد ستالين يقول: «إذا انفرد مندوب بمعارضة مشروع القرار المطروح فلا يمكن إحالته على الجمعية العامة، إذ لا ينبغي اتخاذ قرار ضد تروتسكي ما لم يتوافر فيه الإجماع».

وهنا دار بعينه نحونا وراح يسأل قائلاً: فهل رفيقنا الإيطاليان موافقان على المشروع؟

قلت بعد استئذان صاحبي تولياني: «قبل أن نبحث فيه يجب أن نطلع على الوثيقة». وانبرى ألبير ترانت العضو الفرنسي، وجول هامبرت دروز السويسري، فأعلنا هذا الرأي كذلك^(١).

وعندئذ انثنى ستالين يقول: «ليسحب إذن المشروع».

ولم نلبث أن شهدنا المنظر العصبي ذاته الذي جرى في اليوم السابق، وما تخلله من غضب وهياج وانفعال من كوزينين وراكوزي وبير والآخرين.

وقال تالمان في التعقيب على موقفنا «الفاضح»: إن اتجاه نشاطنا في إيطاليا ضد الفاشية هو على الأرجح ضلال مبين، وإنه إذا كانت الفاشية لا تزال راسخة القدم فيها إلى الآن، فاللائمة علينا، والخطأ خطونا؛ ولهذا أرى أنه لا معدى من عرض سياسة الحزب الشيوعي الإيطالي لغربلتها وتنقيتها من الشوائب.

وقد تم فعلاً، وتبين لأولئك الرقباء المتعصبين أن سلوكنا «المتوقع» مرجعه إلى

(١) ومما يذكر هنا أنهما انتهيا بعد بضع سنين إلى الخروج من الدولية الشيوعية.

التوجيه الفاسد الذي كان يتجهه في السنين الماضية «أنطونيو جراموشي» والذي كانت تشوبه الروح البرجوازية الحقيرة وتلوته تلويثاً.

ورأى تولياني أنه من الحكمة أن يرسل كتاباً إلى المكتب السياسي للحزب الشيوعي الروسي يشرح فيه سبب موقفنا في اجتماعات اللجنة التنفيذية.

وقد مضينا في ذلك الكتاب نقول: إن أحداً من الشيوعيين لا ينازع في سابقة فضل رفاقنا الروس، ومكانهم الرفيع في زعامة الدولية الشيوعية، ولكن هذا الفضل يفرض عليهم واجبات معينة، فلا يصح لهم ممارسة حقوقهم بطريقة ميكانيكية أو تعسفاً واستبداداً.

وتلقى «بوخارين» الكتاب وبعث في طلبنا عاجلاً، وطلب إلينا سحبه حتى لا نزيد موقفنا السياسي سوءاً على سوءه.

وتلت هذا الحادث أيام أحسست فيها بخيبة الأمل، ومرارة الإخفاق، أيام أسف وكمد حتى لقد مضيت فيها أسائل نفسي: هل إلى هذا الحد سقطنا، وهل أولئك الذين قضوا نحبهم، والذين يموتون اليوم في غيابات المحابس، قد ضحوا بأنفسهم من أجل هذا ونحوه...؟ ونحن معاشر المتشردين الهائمين على وجوههم، الذين يعيشون مستهدين للمخاطر معرضين للبلاء والأذى، إنما فعلنا ذلك بأنفسنا من أجله؟

ولم يلبث حزني أن بلغ ذلك الحد البعيد الذي يشل الإرادة وتنهار عنده المقاومة. وقبل أن أغادر موسكو جاءني عامل إيطالي ليتحدث معي، وكان الرجل قد لجأ إلى روسيا منذ سنين هرباً من حكم بالسجن مدة طويلة أصدرته إحدى المحاكم الفاشية، وأعتقد أنه لا يزال إلى اليوم شيعياً.

جاءني هذا الرجل يشكو من الأحوال المهينة التي تحيط بحياة العمال في المصنع الذي يشتغل فيه بموسكو، وقال إنه لا يرى بأساً من تحمل النقص في الأغذية والمواد

الأخرى، لأن علاجها قد يتعاضد جهود الأفراد، ويشق على المداوين، ولكنه لا يفهم لماذا يبقى العمال تحت رحمة إدارة المصنع، وليس لهم أحد يحميهم أو يرفع مصالحهم، ولا يدري أيضًا لماذا تكون حالهم أسوأ من حال إخوانهم في البلاد الرأسمالية... أفحَقًا أن أكثر حقوق العمال التي طالما سمع بها، وطالما وصفت في أزهى الصور وأعجب الألوان، مجرد أقوال وكلمات نظرية.

وفي برلين وأنا عائد من مهمتي في روسيا قرأت في الصحف أن اللجنة التنفيذية للدولية الشيوعية قررت تعنيف تروتسكي على كتاب كان قد أعده بسبيل الأحداث الأخيرة في الصين.

فقصدت إلى مكاتب الحزب الشيوعي الألماني وسألت تالمان عن سر هذا الذي جاء في الصحف السيارة قائلًا بكل بساطة: «وأنت تعلم أن هذا كذب محض».

ولكنه مضى يشرح الأمر قائلًا: إن اللائحة الداخلية تعطي الرئاسة في المسائل المستعجلة حق اتخاذ أي قرار باسم اللجنة.

وكنت قد قرأت في الصحف خلال الأيام القليلة التي أقمتها في برلين منتظرًا الفراغ من إعداد أوراقي المنتحلة وجوازاتي المصنوعة، أن الأحزاب الشيوعية في أمريكا والمجر وتشيكوسلوفاكيا استنكرت كتاب تروتسكي أشد الاستنكار.

فقلت لتالمان: هل معنى هذا أن الكتاب المحجوب قد ظهر أخيرًا؟

قال: كلا، ولكنني أرجو أن يكون المثل الذي ضربته هذه الأحزاب قد أبان حقيقة النظام الشيوعي وخافية أمره.

وكان في عبارته هذه جاذبًا، فلم يخالطها التهكم ولا مازجتها سخرية، بل اقترنت بجد محزن يناسب كابوس الحقيقة التي انطوى عليها، ويلائم مراتها البالغة.

وكنـت مضطـراً لأسباب صحـية إلي أن أقصـد رأساً إلى مصـحة سويسـرية وأنقـطع عن كل عمل سياسـي.

ففي ذات يوم التقيت بتولياني في قرية لا تبعد عن الموضع الذي كنت أستشفى فيه، وراح يشرح لي بصراحة وجلاء الأسباب التي حملته على التصرف الذي آثره قائلاً في إيجاز إن حالة الدولة الشيوعية لم تعد في الحق مرضية ولا مقبولة: وإن جهودنا ونياتنا الصادقة عاجزة عن تحسينها أو تغييرها لأن هناك ظروفًا تاريخية تعترض السبيل ولا معدى عن مراعاتها. إن أنظمة الثورة العمالية ليست عرفية ولا تحكـمية، ولكن إذا هي لم تتفق مع أمانينا فالويل ولنا، والسوء واقع علينا، إذ أين لنا أن نذهب، وأي بديل منها نختار، وماذا بقي لنا؟ ألا تنظر إلى النهاية التي انتهى إليها الشيوعيون الآخرون الذين خرجوا على أحزابهم، وهلا تدبرت حال الديموقراطية الاشتراكية وما هي فيه من بلاء وسوء؟

ولم تكن اعتراضاتي على هذه الحجج متماسكة ولا مقنعة، لأنها كانت حجباً سياسية بحثاً، بينما كان الانفعال البالغ الذي ثار في أعماق نفسي من التجارب والمشاهدات الأخيرة شيئاً آخر لا يمت إلى السياسة بسبب.

إن هذه الأوضاع التاريخية الصلبة الجامدة التي ينبغي لنا أن ننحني لها، ليست إلا صورة جديدة من الحقيقة الأليمة التي ثرنا عليها وأعلنا أننا اشتراكيون استنكاراً لها، وألماً منها.

فلا عجب إذا أنا أحسست كمن أصيب بضربة موجعة هوت فوق رأسه، فظل قائماً على ساقيه وراح يمشي ويتكلم ويشير، وهو لا يشعر، ولا يدري مما حدث شيئاً...

ولكنني على الأيام أفقت، وكانت الإفاقة بطيئة رحية أليمة شاقة، وإلى اليوم لا أزال أفكر ملياً فيها محاولاً أن أفهم ما لم أكن قد فهمته، وأن أدرك ما لم أدركه.

وإذا كنت قد ألفت كتباً، فما كان ذلك إلا محاولة مني حتى أفهم وأدع الآخرين يفهمون.

ولست على يقين مطلقاً أنني وصلت إلى نهاية جهدي. وفي الحق لقد كان يوم خروجي من الشيوعية يوماً حزيناً أليماً لنفسي، كانه يوم حداد بالغ على شبابي الضائع، وأنا كما تعلمون منحدر من بلد يطول فيه الحداد أكثر من أي بلد سواه. وليس من السهل على المرء أن يتخلص من عمل رهيب باهظ كالاشتغال بأمر الحركة السرية في الحزب الشيوعي، فإن شيئاً منه لا بد عالق بنفسه مهما يحاول الخلاص، تارك أثره في خلقه وكيانه طيلة الحياة.

وفي وسع المرء أن يتدبر حال الشيوعيين الذين خرجوا من الحظيرة، فهم يؤلفون طائفة بذاتها كما يؤلف القساوسة السابقون أو الضباط القدامى.

وقد أصبح عددهم كبيراً، حتى ليلغ اليوم مبلغ الفرقة أو اللواء.

وقد قلت من عهد غير بعيد لتولياني مازحاً: «إن الصراع الأخير سيكون بين الشيوعيين، والخارجين على الشيوعية».

ولكنني عقب تركي الحزب رأيت أن أجتنب الانحدار إلى طائفة من تلك الطوائف المتعددة التي أصبحت تنتظم الذين خرجوا على الشيوعية وغادروا صفوفها، ولم أشعر بندامة قط على ما كان مني لأنني أعلم المصير الذي سيجري على تلك الطوائف والأشتات، ويجعل منهم جماعات صغيرة تتمثل فيها جميع عيوب الشيوعية الرسمية ومساوئها وتعصبها وانحصار السلطة في أيديها، دون أن تتوافر لها ما توافر لهذه الشيوعية من صفات ومزايا تستمدّها من كثرة أشياعها وأنصارها بين العمال الكادحين.

وقد رأينا منطق المعارضة بأي ثمن يقود فريقاً كبيراً من الشيوعيين المنفصلين بعيداً عن نقطة ابتدائهم، ويؤدي بهم أحياناً إلى «الفاشية».

وقد أدى بي التفكير فيما خضته من الخطوب، إلى تعميق الدوافع التي دفعتني إلى الانفصال، حتى تكون أبعد كثيراً من دوافع الظروف التي حملتني بادي الرأي عليه. ولكن إيماني بالاشتراكية الذي لا أتردد في القول بأن حياتي كلها شاهد عليه، باق إلى اليوم، بل هو الآن أقوى وأبلغ حياة في نفسي منه في أي يوم مضى.

وقد عاد من ناحية جوهره إلى ما كان حين ثرت أول مرة على النظام الاجتماعي القديم ورفضت التسليم بالقدرية، وآمنت بوجود امتداد الدوافع الأدبية والخلقية من الجو الذي تنحصر فيه، وهو جو الفرد والأسرة، إلى أفق البشرية عامة، ووجوب قيام أخوة فعالة في العالم، للتدليل على سمو الإنسان فوق النظم الاقتصادية والاجتماعية التي ترهقه.

وعلى مر السنين رحت أضيف إلى هذه كلها الإيمان بكرامة الإنسان واحترامه بما يحاوله دائماً لكي يجتاز المسافة القائمة دونه، ويحقق ما هو كامن في أعماق قلقه الدائم، ولهفته الأبدية.

ولكني لا أعتقد أن هذا النوع من الاشتراكية، مقصور على تفكيري وحدي، خاص بي دون سواي؛ فإن الحقائق التي أسلفت عليكم ذكرها، أقدم عهداً من الماركسية العمالية التي أولدتها الرأسمالية الصناعية، ولا تزال من موارد وحياها، وينابيع إلهامها، وأشد حوافزها سلطاناً؛ وقد سبق لي أن أبديت مراراً رأيي في العلاقات بين الحركة الاشتراكية، ونظريات المذهب الاشتراكي ذاتها؛ وقلت إن هذه العلاقات ليست صلبة ولا جامدة مطلقاً، فإن النظريات قد تصبح بفضل تطور الدراسات الجديدة «موضوعة بالية» أو تطرح ظهرياً فلا يعنى أحد بها، ولكن الحركة تظل قائمة وتبقى مستمرة ماضية في وجهها، وإن كان من الخطأ ومجافاة الصواب فيما يتصل بالنزاع القديم بين معاصر النظرين، وبين الذين يتولون علاج الحركة العمالية وتوجيهها، أن أوضع في

صف الأخيرة، وضمن أفرادها، لأنني لا أؤمن بالاشتراكية في ارتباطها بنظرية خاصة، ولكنني أنظر إليها كمذهب وعقيدة وإيمان؛ وكلما ادعت النظريات الاشتراكية أنها قائمة على أسس «علمية» كانت أضعف شأنًا، وأهون خطرًا، وأدنى إلى الزوال؛ ولكن «القيم» الاشتراكية هي الثابتة الباقية، وإن كنت للأسف أرى الفارق بين النظريات والقيم لا يزال غير معترف به إلى الحد الكافي، مع أنه فارق أساسي بالغ الخطر، إذ يستطيع المرء على مجموعة من «النظريات» أن يؤسس مدرسة أو يقيم مذهبًا، ولكن على مجموعة من «القيم» يستطيع أن يؤسس ثقافة، وحضارة، وأسلوبًا جديدًا من الحياة يجمع بين الناس ويؤلف بين صفوفهم.



ريتشارد رايت

-١-

في يوم ثلاثاء تلقيت دعوة من جماعة من الشبان البيض عرفتهم فيما مضى حين كنت أشتغل في إدارة البريد، إلى لقائهم في أحد الفنادق القائمة في الجانب الجنوبي من مدينة شيكاغو للبحث في أحوال العالم وشؤونه.

وقد اجتمعنا في الموعد المضروب وكنا عشرة فتيان، ورحنا نأكل ساندوتش، ونشرب الجعة، ونتجاذب أطراف الأحاديث.

وقد أدهشني أن أعرف أن كثيرًا منهم انضموا فعلاً إلى الحزب الشيوعي، فمضيت أتحداهم سافراً، وأورد على أسماعهم حكايات ونوادر عن الشيوعيين الزنوج الذين شاهدتهم في المتنزهات العامة، وما كان يقال لي عن تهريجاتهم، وهي أنها ليست تهريجات، بل «مناورات» وأن لا بأس منها ولا ضير، ولكنني كنت من هذا القول في شك مبين.

وفي ليلة خميس بعد ذلك الاجتماع لم يلبث شاب يهودي يُدعى «صول» أن فاجأنا بقوله إن مجلة صغيرة تدعى «السُّندان» ويتولى تحريرها «جاك كونروي» قبلت منه قصة قصيرة، وأنه قد انضم إلى جماعة ثورية من الفنانين سمت نفسها «نادي جون ريد».

وألح صول عليّ في حضور اجتماعات هذا النادي.

قال: إنني على يقين من أنك ستحبها.

قلت: لست أريد أن أندمج في هيئة ما.

قال: إنهم يستطيعون أن يعاونوك على الكتابة.

قلت: لا أحد يستطيع أن يعلمني كيف أكتب، أو ماذا أكتب.

قال ملحفاً: تعال وشاهد، لأنك لن تخسر شيئاً.

وكنت أشعر يومئذ أن معاشر الشيوعيين لن يحفلوا بنا نحن الزوج، فقد كنت متشككاً، حتى لأوثر أن أسمع رجلاً أبيض يقول إنه يكره الزوج، لأنه قول أعتقده صحيحاً دون تردد، على أن أسمعه يقول إنه يحبهم، لأنني لا أستطيع أن أصدق.

ففي ذات مساء أحسست مللاً من القراءة فاعتزمت الذهاب إلى نادي «جون ريد» كمشاهد ليس أكثر، فقصدت إلى حي «لوب» وعثرت على رقم النادي، وصعدت سلماً مظلماً إليه، ولم تكن الظواهر مغرية، حتى لقد سألت نفسي أي شيء في الأرض يمكن أن يحدث في مثل هذا الموضع المظلم ويكون له خطر وشأن؟

ورأيت من خلال النوافذ القائمة فوق رأسي حيطاناً وجدراناً قائمة، حتى وقفت بباب كتب عليه «نادي جون ريد»، ففتحته وإذا بي في أغرب حجرة شهدتها في حياتي. فقد انتشرت الأوراق وأعقاب اللفائف على أديمها، وصفت في جوانبها المقاعد لصق الجدران ومن فوقها تبدو ألوان براقّة تلوح منها صور حشود من العمال يحملون أعلاماً خفاقاً، وقد فغروا أفواههم متصايحين هاتفين، وامتدت منهم السيقان فوق مختلف المدائن والبلاد.

وسمعت صوتاً مرحباً يقول «هالو!».

فدرت بعيني لأتبين من المرحّب، فأبصرت رجلاً أبيض يتسم لي.

قلت: لي صديق من أعضاء هذا النادي طلب مني أن أزوره هنا واسمه «صول».

قال: أهلاً وسهلاً، وإن كنا الليلة هادئين، ليس لدينا شيء غير جلسة صحفية، فهل

ترسم.

وكان الرجل أشيب قليلاً وله شارب.

قلت: كلا، ولكنني أعالج الكتابة.

قال مقترحاً: فلتحضر إذن الاجتماع الذي تعقده الليلة هيئة تحرير مجلتنا «الجبهة اليسارية».

قلت: لا أعرف شيئاً عن «التحرير».

قال: فلتتعلم إذن.

فحملت البصر فيه متشككاً.

قلت: لست أريد أن أثقل عليكم.

قال: إنني أدعى «جريم».

فنبأته باسمي وتصافحنا.

وذهب إلى حجرة صغيرة وعاد يحمل رزمة من المجلات وهو يقول: «إليك بعض الأعداد الماضية من مجلة «الجماهير» فهل اطلعت يوماً على شيء منها؟».

قلت: كلا.

قال: إنها تنشر لطائفة من خيرة الكتاب في أمريكا.

وقدم لي أيضاً مجموعة من مجلة تدعى «الأدب الدولي» وهو يقول: وفي هذه المجلة بحوث لأندرية جيد، ومكسيم جوركي.

فأكدت له أنني سأقرأها.

وأخذني إلى مكتب وقدمني إلى شاب يهودي قائلاً: إنه ينتظر أن يصبح من أكبر الرسامين في البلاد، وإلى آخر سوف يصبح من أكبر المعاصرين في الموسيقى، وإلى كاتب سوف يخرج للناس أحسن القصص في هذا الجيل، وإلى فتى من اليهود سيضع فيلماً يصور فيه احتلال النازي لتشكيوسلوفاكيا، وقال إنني أتعرف الساعة إلى رجال

ونساء سأعرف لهم خطرهم على السنين، وستوثق بيني وبينهم أحسن الصلات وأقوى الروابط والوشائج في حياتي.

وجلس في ركن أستمع لهم وهم يتباحثون في شؤون مجلتهم «الجهة اليسارية».

ومضيت أسائل نفسي: أتراهم يتأدبون معي لأنني زنجي..؟

ورأيت أن أدع الهدوء والمنطق لي مرشدًا حيال هؤلاء القوم.

واقترحوا عليّ أن أكتب شيئًا لمجلتهم، فقلت إنني سأفكر في الأمر.

ولقد لقيت بعد هذا الاجتماع فتاة إيرلندية تشتغل في وكالة لنشر الإعلانات، وأخرى تعمل في الإصلاح الاجتماعي، وثالثة تتوفر على التدريس، واجتمعت أيضًا بـزوجة أستاذ كبير في الجامعة، وكنت في سالف أيامي قد اشتغلت خادمةً لأمثال هؤلاء، فلا عجب إذا شعرت بشيء من التشكك، وحاولت أن أتعمق في البحث عن الدوافع التي حملتهم على لقائي، والترحيب بي، ولكني لم أهتد من بحثي إلى أي عارض من أعراض «التنزل» في هذه المعاملة التي رأيتها منهم.

-٢-

وأويت إلى داري كثير التفكير، والتأمل، أحاول معرفة مدى الصدق والإخلاص في هؤلاء الغرباء الذين التقيت بهم، مسائلًا نفسي هل هم حقًا يحترمون الزنوج ويرتضونهم؟

والتمست فراشي واستلقيت وعكفت على قراءة تلك الأعداد، ولشد ما دهشت أن وجدت أن في هذا العالم فعلاً بحثًا منظمًا عن حقيقة حياة المظلومين والمضطهدين والمنبوذين؛ ولطالما عجبت من قبل حين كنت أستاذي الخبز من الموظفين، وتساءلت هل سيأتي حقًا يوم يتحد فيه طريدو القانون عملاً وتفكيرًا وشعورًا

فيصبحون قوة يعتد بها، ويتوافر لهم سلطان لا يغض أحد منه.

واليوم قد أدركت أن ذلك فعلاً حادث في سدس الأرض، إذا أبصرت الكلمات والعبارات الثورية تقفز من صفحات هذه المجالات وتصدمني بقوة بالغة.

ولم يستأثر بمشاعري منها النواحي الاقتصادية من الشيوعية، ولا قوة النقابات ونفوذها العظيم، ولا أعمال الحركات السرية وأساليبها؛ ولكن كل ما أخذ عيني منها، واستولى على خاطري ذلك الشابه الملموس بين أحوال العمال في مختلف الأمصار، واحتمال توحيد صفوف الأقوام المتمثلين في الحياة والألم والعذاب، وإن افترقوا أقطاراً، وتباينوا شعوباً وقبائل، فتكون منهم قوة واحدة؛ وقيل لي إن محنة الزنوج واجدة في هذا الأفق الثوري وحده ملجأً وملاذاً وقيمة فعلية ودوراً تضطلع به، وأحسست من جانب هذه المجالات والصحائف نداء حاراً قوياً يدعو المعذبين في الأرض ويتصل بالأمهم، ويلمس أحاسيسهم الخفية ويساعدهم؛ ولم أجد خلالها أثراً لشنشة المبشرين، وثرثرة الدعاة والمروجين، فلم تقل واحدة منها: «اقتدوا بنا ونحن نحبكم أو قد نحبكم»، ولكنها جميعاً راحت تقول: «إذا أوتيتم من الشجاعة ما يكفي لكي تصارحوا الدنيا بحقيقة أمركم، فلن تجدوا حينئذ أنكم وحدكم، ولن تشعروا بأنكم في معزل أبداً».

لقد رأيته جميعاً تدعو الحياة إلى الإيمان بالحياة..

وأوغلت في القراءة إلى موهن من الليل.

وطلع الفجر عليّ وأنا لا أزال ممعناً في القراءة، ولكنني لم ألبث أن قفزت من مرقي، ووضعت الورق في مكانه من الأداة الكاتبة شاعراً لأول مرة في حياتي أنني مستطيع أن أوجه القول إلى آذان واعية، فأكبت على نظم قصيدة نائرة، متمردة غير مقيدة بالأوزان والبحور، راسماً صوراً سوداً لأيد وأذرع تعمل وتجاهد وترفع الحراب وتمشق السلاح، ثم تنشخب أخيراً حتى يغلبها الموت؛ وأحسست أن هذا الكلام الذي صغته يربط بين البيض والسود. ويدمج محناً وخطوباً بمحن مثلها وخطوب.

وإذا بي أسمع حركة إنسان في المطبخ، وصوت أُمي تنادي: «ريتشارد» ماذا بك،
أأنت مريض؟

قلت: كلا، بل أطلع.

وفتحت أُمي الباب ووقفت تحملق البصر في كومة المجلات الملقاة فوق الوسادة،
ثم انثنت تقول: ما أحسبك تبدد النقود في شراء هذه المجلات كلها؟
قلت: كلا، لقد أعطيت لي...

فراحت تطلع بساقيها الكسيتين إلى الفراش وتناولت عددًا من مجلة «الجماهير»
وكانت على غلافه صورة كاريكاتورية بمناسبة «يوم أول مايو».
ووضعت منظارها على عينيها وراحت تطيل النظر في تلك الصورة، ثم صاحت
فرعة: «يا إلهي ما هذا؟».

قلت: ماذا يا أماه؟

قالت وهي تدفع بالمجلة إلى يدي وتشير إلى صورة الغلاف، ما هذا الذي أراه..
وما خطب هذا الرجل المصور في هذا الرسم المخيف؟

فوقفت أتأمل الصورة، وهي بجانبني، وكانت تلك الصورة من ريشة رسام
شيوعي، رسم فيها صورة عامل مشتمل ببذلة الشغل المهلهلة، وممسك بقلم أحمر،
وقد جحظت منه العينان، وفغر فمه حتى أصبح يعرض وجهه كاشراً عن أسنانه، متوتر
الرقبة كأن عروقها الحبال، ومن خلفه جمع من الرجال والنساء والأطفال بشعي
السحنة، وهم ممسكون بالهراوات والأحجار والمجاريف.

وانثنت أُمي تسألني قائلة: «ماذا يهْم هؤلاء الناس بأن يفعلوا؟».

قلت متغابياً: لا أدري.

قالت: أهذه مجلات شيوعية؟

قلت: نعم.

قالت: وهل يريدون أن يفعل الناس هذا؟

قلت: والله... وترددت فلم أستكمل.

فبدا الاشمئزاز والاستنكار على وجه أمي، فقد كانت امرأة رقيقة المشاعر، كل مثلها الأعلى في المسيحية والمسيح، فكيف أستطيع أن أقول لها أن الحزب الشيوعي يريد لها على أن تسير في الشوارع هاتفة صاحبة منشدة؟

ومضت تسأل: ماذا يظن الشيوعيون إذن بالناس؟

قلت متلعثمًا: إنهم لا يعنون هذا الذي تريه في الصورة.

قالت: وماذا يعنون إذن؟

قلت: إن هذا الرسم «رمزي».

قالت: ولماذا لا يصارحون الناس بما يريدون؟

قلت: لعلهم لا يعرفون الوسيلة.

قالت: وعلامَ إذن ينشرون هذا؟

قلت معترفًا، وأنا في عجب لا أدري، من ذا الذي أستطيع أن أقنعه إذا لم أستطع إقناع أمي: إنهم لا يعرفون إلى الآن كيف يخاطبون قلوب الناس ويتحدثون إلى أرواحهم.

قالت: وهي تضع المجلة، وتتولى منصرفة: «إن هذه الصورة كافية لأن تذهب بعقول الناس وتردهم مجانين».

ووقفت لدى الباب وأردفت تقول: «لا أحسبك مختلطًا بهؤلاء الناس، أليس كذلك؟».

قلت متهربًا: «إنني أطلع فقط يا أماء...».

ولم تكذب أمني تنصرف حتى انشئت أفكر في عجز الظاهر عن مواجهة تحديها البسيط، وعدت ألقى نظرة أخرى على غلاف مجلة «الجماهير» فتبين لي أن هذه الصورة الرمزية لا تصور مشاعر العامة، فتصفحت موضوعاتها مرة أخرى فلم ألبث أن اقتنعت بأن كثيراً مما حوته لم يكن سوى ما حسب «الرسامون» أنه مؤثر في نفوس الناس، وما ظنوه كفيلاً بأن يكسب الأنصار، ويأتي بالأشباع والمريدين، وأدركت أن معاصر الشيوعيين قد وضعوا خطاً، ورسموا تصميمات، ولكن لا تزال تعوزهم اللغة، ولا يزالون يفتقرون إلى التعبير.

ها هنا إذن شيء أستطيع أن أكشف عنه، وأصارع به، وأسد المفارقة إليه.

فقد بدا لي أن الشيوعيين أسرفوا في تبسيط المحن والآلام التي يعانيها الذين يريدون أن يتموا صفوفهم ويقبوا جموعهم، وأنهم في محاولة كسب الجماهير؛ نسوا التعبير عن معنى حياة الجماهير، وتصوروا الناس تصوراً خيالياً محضاً لا يمت إلى الحقيقة، فلأحاول أنا أن أصحح هذا المعنى، أو أرده إلى حقيقته، فأحدث الناس عامة عن تضحية الشيوعيين الذين يجاهدون في سبيل تحقيق الوحدة البشرية في هذا العالم.

وقبل رئيس تحرير مجلة «الجبهة اليسارية» قصيدتين ساذجتين لي لنشرهما، وبعث باثنتين إلى جاك كونروي رئيس تحرير «السندان» وأخرى إلى مجلة «الجماهير الجديدة»، التي حلت محل «الجماهير».

ولكن الشكوك كانت لا تزال تخامر خاطري.

قلت: لا ترسلها إذا رأيت أنها ليست جيدة.

قال: إنها جيدة فعلاً.

قلت: هل تفعل ذلك لتحملني على الانضمام؟

قال: كلا. إن قصائدك لا تزال «خاماً» ولكنها نافعة لنا، ألا ترى أننا جديدون جميعاً في هذا الأمر الذي نضطلع به، إننا نكتب مقالات عن الزواج. ولكننا لا نرى زواجاً

مطلقاً، إننا بحاجة إلى مادتك.

وحضرت عدة اجتماعات في النادي فراقنتني من نشاطه سعة نطاقه وجديته. وكان النادي يطالب الحكومة بتهيئة أعمال للرسميين والفنانين والمتعطلين، ويتولى كذلك تنظيم المعارض والمتاحف، وجمع الأموال لنشر مجلة «الجبهة اليسارية»: وإيفاد عشرات من الخطباء لحضور اجتماعات النقابات.

وكان أعضاؤه متحمسين ديموقراطيين لا يفترون عن الحركة والتفاني والإيثار، فكانت استجابتي لهم أنني عولت علي أن أعرف معاشر الزنوج بحقيقة الشيوعيين، وخطر لي أن أكتب سلسلة صور قلمية للزنوج الشيوعيين، ولكني لم أكشف أحداً بنيتي، ولم أكن أدري أن مطمحي هذا كان ساذجاً غريباً في ذاته.

- ٣ -

ولم أكد أحضر بضعة اجتماعات حتى أدركت أن هناك حرباً انقسامية مريرة بين جماعتين من الأعضاء؛ وكان كل اجتماع مقترناً بصخب بالغ، ونقاش عنيف.

ولاحظت أن فئة قليلة من «الرسميين» هي التي تتزعم النادي وتسيطر على سياسته، وأن جماعة الكتاب الذين يحيطون بمجلة «الجبهة اليسارية» متأففون من زعامة الرسميين، منكروها عليهم.

وكانت مصلحتي من البداية مع المجلة، فلم يسعني إلا أن أقف في صف الكتاب. وما لبث تطور عجيب، فقد راحت جماعة «الجبهة اليسارية» تعلن أن الزعامة الحاضرة لا تمثل رغبات النادي واتجاهاته، فتقرر عقد جلسة خاصة، وتقدم مشروع قرار بإعادة انتخاب سكرتير ينوب عن اللجنة التنفيذية، وعندما رشحت أسماء لهذا المركز كان اسمي من بينها، ولكنني رفضت معلناً الأعضاء أنني أجهل أغراضهم إلى حد لا يصح معه ترشيحي.

واستمرت المناقشات طيلة الليل، وأخذت الأصوات في ساعة مبكرة من الصباح بطريقة رفع الأيدي، وإذا بي الفائز في الانتخاب.

وقد عرفت فيما بعد حقيقة ما جرى، فقد أجمع فريق الكتاب في النادي على الانتفاع بي في سبيل إخراج الرسامين الأعضاء في الحزب الشيوعي من زعامة النادي، ومضوا بغير علمي ولا موافقتي يواجهون الحزب بزنجي مثلي، وهم يعلمون أنه من الصعب على الشيوعيين أن يرفضوا التصويت في مصلحة رجل يمثل الأقلية العنصرية الكبرى في الشعب ما دامت المساواة بين البيض والسود أحد مبادئ الشيوعية وتعاليمها الأساسية.

ولم ألبث بوصفي زعيمًا للنادي أن علمت بطبيعة هذا النزاع القائم فيه وخافيته؛ فقد ذهب الشيوعيون خفية ينظمون في النادي حزبًا صغيرًا من أعضائه المنتمين إلى الحزب الشيوعي، واتفقوا على الاجتماع خارج النادي للبحث في الخطة السياسية التي ينبغي له اتباعها.

وكان المؤلف في اجتماعات النادي أن قوة الحجة هي وحدها التي تحمل الأعضاء غير الحزبيين على تأييدهم في الانتخابات؛ وكان جوهر النزاع تدمير الأعضاء الذين لا يمتون إلى الحزب الشيوعي من المطالب المسرفة التي يطلب الحزب من النادي تنفيذها من طريق هذه «الفئة» أو ذلك الحزب الضئيل.

فقد كانت مطالبتهم النادي بالأموال والخطباء ورسامي اللافتات والإعلانات كثيرة إلى حد يهدد مجلة الجبهة اليسارية بالاحتجاب؛ وكان فريق كبير من الكتاب والأدباء الشباب قد انضموا إلى النادي أملًا في نشر ما يكتبونه في هذه المجلة؛ وعندما أبلغ الحزب النادي من طريق هذه الفئة أن المجلة ستقف عن الصدور لم يلبث الكتاب أن رفضوا الأخذ بهذا القرار، فعد تصرفهم على هذا النحو إجراء عدائيًا نحو الحزب وسلطته.

وقد حاولت إقناع أعضاء الحزب بوجوب ترك مدى واسع من حرية العمل للنادي،

ولكن محاولتي لم تزد النزاع إلا احتدامًا، والخصومة إلا مرارة واشتدادًا؛ وجاءني عندئذ من يبلغني بأنني إذا أردت الاستمرار في العمل كسكرتير للنادي فمن المتعين عليّ أن أنضم إلى الحزب الشيوعي، فقلت إنني أؤيد كل سياسة من شأنها تعزيز مكانة الكتاب والفنانين فقبلوا هذا الرأي مني ووقعت طلب الانضمام إلى العضوية.

وفي ذات ليلة حضر اجتماعنا شاب يهودي وعرفنا بنفسه فقال إنه يدعى «الرفيق يونج» من أهل «ديترويت»، وإنه عضو في الحزب الشيوعي، ونادي جون ريد فيها، وإنه اعتزم المقام في شيكاغو.

وكان الفتى قصير القامة متلطفاً فاحم الشعر، كثير الاطلاع، متدلي الشفتين، جاحظ العينين، فلم يسعنا غير الترحيب به، لقلة حيلتنا في تنفيذ مطالب الحزب الشيوعي؛ ولكنني لم أستطع أن أفهم حقيقة شخصية هذا الشاب وخافية شأنه. إذ جعل كلما وجهت إليه سؤالاً يتولى بوجهه ويغمغم بكلام غامض مضطرب، فرأيت أن أحيل أوراقه إلى الحزب لمراجعتها وعينته عضوًا في النادي، واعتقدت أن لا بأس منه، ولا غبار عليه إلا أنه فنان غريب الأطوار.

ولكنه عقب ارفضاض الاجتماع واجهني بمشكلة، فقد ذهب يقول إنه لا يملك مالاً ويطلب أن يؤذن له في المبيت في النادي حتى حين، فأذنت له لاعتقادي صدقه وإخلاصه؛ وإذا به بعد قليل يصبح من أشد أعضاء النادي حماسة، وأكسبهم للإعجاب العام، وكان رسمه في أعين خيرة الفنانين بديعًا، وإن كنت لا أدري وجه الإبداع فيه.

ولم ألتق عنه تقريرًا من الحزب الشيوعي، ولكنني رأيته عاملاً نزيهًا مجددًا، فلم ألق بالاً إلى شيء من ذلك، ولم أعتقد أن إغفال الحزب إرسال تقرير عنه ينطوي على أمر خطير بأي حال من الأحوال.

ففي أحد الاجتماعات الليلية طلب يونج أن يعطى الكلمة، ولما حل دوره نهض للكلام وراح يحمل أشد حملة عرفها النادي في كل تاريخه على رسام من خيرة رسامينا وهو فنان يدعى «سوان»، فبهتتا مما سمعنا، إذا ذهب يتهمه بالخيانة والغدر

والوصولية والتعاون مع البوليس، والتشيع التروتسكي؛ ولكن أكثر أعضاء النادي اعتقدوا بطبيعة الحال أن يونج لعضويته في الحزب الشيوعي إنما كان يجاهر برأي الحزب واعتقاده.

ومن فرط الدهشة والحيرة اقترحت على المجلس إحالة أقوال يونج على اللجنة التنفيذية للبت فيها، فاحتج سوان على اقتراحي، وكان احتجاجه في محله، إذ قال إنه قد هوجم علناً، ومن حقه أن يدافع عن نفسه علناً كذلك.

وأخذت الأصوات فوافق الأعضاء على السماح له بالكلام، وانبرى يفند تهمة يونج الصارخة، ولكن الأغلبية ظلت حائرة لا تدري هل تؤمن بقوله أم لا، فقد كنا جميعاً نحبه، ولا نعتقد أنه موضع اتهام، ولكننا لا نريد أيضاً أن نغضب الحزب.

ولم تلبث أن نشبت معركة كلامية، وأخيراً نهض الأعضاء الذين لازموا الصمت طيلة الأخذ والرد، احتراماً للحزب، وطلبوا مني سحب التهم الخرقاء التي وجهت إلى سوان.

ولكنني عدت فاقترحت وجوب إحالة الأمر إلى اللجنة التنفيذية، وعادوا فخذلوا هذا الاقتراح؛ فقد بدأوا يستريبون بدوافع الحزب وأغراضه ويخشون أن يحال الأمر على اللجنة وأكثرها من أعضائه فتقرر التهم التي وجهها «يونغ» وهو عضو فيه.

وسألني بعد ذلك وفد منهم: هل لي يد في هذه التهم التي كالحا الشاب اليهودي لذلك الفنان؛ فشعرت من هذا السؤال بحرج أليم، وأقسمت أن لا علاقة لي بتأتا به؛ ورأيت أن أنهي هذه المهزلة فما زلت به أسأله عمن أذن له في هذا الطعن الذي وجهه إلى سوان حتى أجاب قائلاً: «لقد طلب مني أن أظهر الحزب من الخونة».

قلت: ولكن «سوان» ليس خائناً.

قال وقد جحظت عيناه، وارتعشت معالم وجهه من الانفعال: لا بد من التطهير.

ولم أجد بأساً من حماسه الثورية، ولكنني اعتقدت أنها متطرفة أكثر مما يجب.

وازداد الموقف حرجًا.

فقد أبلغني وفد من الأعضاء أنهم سيستقبلون إذا لم تسحب الاتهامات التي وجهت إلى سوان.

فكتبت إلى الحزب الشيوعي أسأله لماذا صدرت الأوامر بمعاقبة سوان، فجاءني الرد منه يقول إن الأوامر لم تصدر بذلك إطلاقًا.

فعجبت للشباب اليهودي: ماذا تراه يقصد، ومن الذي حرضه؟

وأخيرًا طلبت إلى الأعضاء أن يسمحوا لي بأن أضع الأمر أمام زعماء الحزب. وقبلوا اقتراحي بعد نقاش عنيف.

وفي ذات مساء اجتمع عشرة منا في مكتب أحد زعماء الحزب لنسمع يونج وهو يكرر الاتهامات التي وجهها إلى سوان، وكان هذا الزعيم يلوح مترفعًا لاهيًا متفكهاً بالحادث؛ وقبل أن يبدأ يونج الكلام، أشار إليه الزعيم أن يفعل، فإذا به ينشر بين يديه أوراقًا وصفحات، ويعدد منها تهمةً سياسية جديدة تفوق في بشاعتها التهم التي سمعناها في النادي منه.

فحدجته بنظري، وقد شعرت بأنه قد اقترف خطأً عظيمًا، ولكنني كنت أخشاه لأنه مستمتع بنفوذ جهة سياسية يخاف بأسها ويخشى شرها.

ولما فرغ الفتى من اتهاماته، انبرى الزعيم يسأله: هل تسمح لي بالاطلاع على هذه الأوراق؟

قال: بلا شك، ومد يده بنسخة منها قائلاً: ولك أن تحفظ هذه النسخة لديك، فإن لدي عشرًا منها «بالكربون».

قال: ولماذا نسخت هذه الصور العشر؟

قال: خيفة أن تسرق مني.

وانثنى سوان يقول: إذا أخذت تهم هذا الرجل مأخذ الجد فسأستقيل وأفصح النادي علناً.

وهنا صرخ يونج قائلاً: هل رأيتم، إنه يشتغل مع البوليس! وعندئذ غلبني الاشمئزاز، واستولى الضجر على نفسي، ولكن لم ينته الاجتماع إلا بعد أن تعهد الزعيم الشيوعي بأن يدرس الأوراق دراسة دقيقة، ويقرر هل يصح أن يحاكم سوان عليها أم لا.

وكنت على يقين أن هناك خطأ ما، ولكني لا أستطيع إدراك كنهه أو اكتشافه. وفي ذات أصيل ذهبت إلى النادي لأتحدث طويلاً إلى يونج ولكني لم أجده فيه، فانتظرت إلى اليوم التالي، ولكنه لم يظهر، وظللت أسبوعاً أترقبه فلا أهتدي إليه؛ وجعل الأعضاء يتساءلون أين ذهب، ولا يصدقونني حين قلت لهم إنني لا أدري أين مكانه، ولا أعلم هل تراه مريضاً أو قبض البوليس عليه.

وفي ذات يوم تسللنا أنا والرفيق «جريم» إلى النادي وفتحنا حقائبه؛ ولشد ما بهتنا مما رأينا، فقد وجدنا أولاً رقاً طويلاً يبلغ طوله عشرين ياردة، وهو مؤلف من صفحات بعضها لصق بعض، وتحوي رسوماً تبين تاريخ البشرية من وجهة نظر الماركسيين، وقد كتب على الصفحة الأولى منها «سجل مصور لتاريخ التقدم الاقتصادي».

قلت: هذا بحث عظيم، ومطمح دراسة عالية.

فأجابني جريم قائلاً: يظهر أنه بحاثة.

ووجدنا أخيراً كتاباً عليه عنوانه في «ديترويت» وفيه يسأل كاتبه عن أنباء العضو المحترم وأحواله.

وبعد بضعة أيام جاء كتاب يقول:

«سيدي العزيز»

«ردًا على كتابكم نحيطكم علمًا بأن المستر يونج كان مريضًا في هذه المصحة وهرب منذ بضعة شهور وقد عثرنا عليه وأعدناه لمعالجته من المرض العقلي الذي يعانيه...».

فكأنما دهممتني صاعقة، أحقًا ما قرأت.

ولكن الواقع واضح صريح.

فيا للعجب! أي ناد هذا الذي نديره إذا كان مجنون قد دخل حظيرته وساعد على إدارته، كنا إذن مجانين مثله فلم نستطع أن نكتشف مجنونًا بيننا على هذا النحو...؟
وعندئذ تقدمت باقتراح يرمي إلى سحب جميع التهم التي وجهت إلى سوان، وأقر الأعضاء اقتراحي، واعتذرنا للرجل؛ ولكنني ظللت شيوعيًا معذبًا محترق الخاطر، وإن مضيت أدير النادي وأشرف عليه.

- ٤ -

وطلب الأعضاء المنتمون إلى الحزب الشيوعي في النادي أن أشير على «الخلية» التي أنتمي إليها بأن تسمح لي بتأدية العمل في النادي وقضاء كل الوقت في مباشرته، كما طلبوا مني أن أقدم إليها تقريرًا عن وجوه نشاطي من تأليف وتنظيم وخطابة. وقد فعلت.

وكانت الخلية هي الوحدة الأساسية للحزب الشيوعي والعضوية فيها إلزامية لا مفر لعضو منها.

وكانت اجتماعاتها تعقد في بعض الليالي سرًا، خوفًا من كبسة البوليس. والمألوف ألا يقع غدر أو تحدث خيانة في هذه الاجتماعات، ولكن لا يصح للمرء ما دام قد أصبح شيوعيًا أن يستهدف لأنظار الشرطة.

وذهبت إلى أول اجتماع لخليتي في حي الضفة الجنوبية وقدمت نفسي إلى المنظم
الزنجي.

فقال وهو يتسّم: «أهلاً وسهلاً أيها الرفيق، يسرنا أن يكون كاتب بيننا».

فقلت «لست كاتباً ولا بد...»

وبدأ الاجتماع.

وكان الحاضرون قرابة عشرين زنجياً.

وجاء دوري للكلام، فأخرجت مذكراتي، ومضيت أشرح لهم كيف كان انضمامي
إلى الحزب والقصائد التي نشرتها والرسائل التي كتبتها، والعمل الذي أؤديه في النادي.

ولما انتهيت من تقريرتي انتظرت أن يكون ثمة تعليق عليه، فإذا السكون مخيم؛
فدرت بعيني في القوم، فإذا هم مطرقو الرؤوس، ولكنني لمحت ظل ابتسامة على فم
امرأة زنجية.

ومضت دقائق.

وإذا بتلك المرأة ترفع رأسها وتنظر إلى «المنظم» وإذا به يخفق ضحكة تغالبه؛
وعندئذ ضجت المرأة ضاحكة حتى كادت تستلقي من فرط الضحك لولا أن راحت
تدفن وجهها بين راحتيها.

فوقفت محملاً مبهوراً.

أتراني قلت شيئاً مضحكاً؟

قلت: ما الخبر؟

فشاع الضحك في المجلس، ولكن المنظم - وكان يلعب بقلمه الرصاص طيلة
الوقت - لم يلبث أن رفع رأسه وراح يقول: لا شيء أيها الرفيق، إنه ليسرنا أن يكون
بيننا كاتب.

فعاد القوم يضحكون.

قلت لنفسي من فرط العجب: أي قوم هؤلاء، لقد قدمت تقريرًا جديدًا معقولاً فإذا بهم يقابلونه بالضحك والتهانف والابتسام.

وانثيت أقول مرتبكاً قلقاً: لقد فعلت كل ما في وسعي أن أفعل... وقد أدركت أن الكتابة ليست عملاً أساسياً أو ذا بال، ولكنني أستطيع أن أساعد وأعاون إذا هياثم لي الوقت، وأفسحتم لي المجال.

قال: إننا نعرف أنك تستطيع أيها الرفيق.

وكانت لهجته أشد ترفعاً من لهجة البيض، فغضبت واشتد بي الحنق.

لقد كنت أظن أنني بهؤلاء القوم عليم، ولكن تبين لي عندئذ أنني كنت مخطئاً. وأردت أن أدخل معهم في نزاع، وشجار على هذا المسلك المعيب نحوي، ولكنني رأيت من الحذر والحيلة أن أتحدث عنه أولاً مع بعض الناس.

وقد علمت في الأيام التالية من التحري والاستقصاء أنني قد بدوت عنصراً غريباً في أعين أولئك الشيوعيين السود، بل لشد ما ذهلت وعجبت أن سمعت أنهم دعوني أنا الذي لم أتلق من التعليم أكثر من «الابتدائي» في مصاف «المستيرين».

ولم أكن من قبل قد سمعت شيئاً عن معنى «المستير» الذي أرادوه، ولا علمت بهذا التعريف الذي به عرفوه؛ وقد كنت أظن أنهم سيرفضون انضمامي إليهم بدعوى أنني لا أدري كثيراً في «السياسة»، أو لعلهم قائلون إن مسألتني تحتاج إلى بحث وحالتي تقتضي التحقيق.

ولكنهم اكتفوا بالقهقهة ساخرين.

وما كان أشد كميدي حين علمت أن الشيوعيين السود في خليتي استدركوا على حذائي اللامع، وقميصي النظيف، وربطة العنق التي ارتديتها، بل إن لهجتي في الكلام بدت لهم شيئاً غريباً عنهم وأمرًا مستنكراً.

وقال أحدهم: «إنه يتكلم بلغة الكتب».

وكان هذا وحده كافياً للحكم عليّ إلى الأبد بأنني «بورجوازي» لا أكثر ولا أقل.

- ٥ -

وفي عملي المتصل بالشيوعية عرفت رفيقاً زنجياً يدعى «روس» كان متهمًا «بالتحريض على الشغب».

وكان «روس» هذا مثال المهيّج الشديد النفوذ في الجماهير، وكان مولده في الولايات الجنوبية ثم هاجر إلى الشمال، وكانت حياته صورة الآمال الساذجة، والخيبة المريرة التي تغلب نفس القروي المنحدر إلى الحضر؛ فكان المتشكك المستريب وإن لم يكن المتهمّ النازع إلى العدوان، فهو مجموعة من رذائل وفضائل اختلطت في نفس إنسان يجاهد مكفوف البصر أو معصوب العين بين جماعتين، ويناضل أعمى بين بيئتين مختلفتين، رجل يعيش على هامش ثقافة؛ حتى لقد بدا لي أنني مستطيع إذا عرفت دقائق قصته، وماضي حياته، أن أصور بعض المتاعب والمشاق التي تلازم التوفيق بين أهل القرى وبين الحياة في المدن، والعيش في بيئة متحضرة، وأني مستطيع أن أعرف الناس بحياته أكثر من معرفته هو بنفسه.

ورحت أفاتح «روس» في أمري وأشرح له الخطة التي انتويتها، فكان المتلطف المتودد، ودعاني إلى بيته، وعرفني بامرأته اليهودية وابنه الصغير وأصحابه.

ولبت ساعات أتحدث إليه شارحاً مرادي طالباً إليه ألا ييوح لي بشيء يريد كتمانها.

وقلت له: إنني أريد أن أعرف النوازع التي نزعت بك إلى الشيوعية.

ولم تلبث الإشاعة أن سرت في الحزب بأنني أخذت أدون مذكرات عن حياة «روس» وإذا بأحداث غريبة تقع، فقد جاءني مثلاً شيوعي من الزوج ذات ليلة وأنا

في داري وطلب مني أن أخرج معه إلى الشارع ليتحدث معي على انفراد. ولمح لي تلميحا عن مصيري أثار به مخاوفي.

قال بلهجة جدية: اسمع يا رايت، إن المستنيرين لا يجدون محلا في الحزب ولا يصلحون له.

قلت محتجا: ولكني لست منهم. إنني أكنس الشوارع لأصيب قوتي. وكانت إدارة الترفيه قد كلفتني أخيرا كنس الشوارع لقاء ثلاثة عشر دولارا في الأسبوع.

قال: ولو... فإن لدينا مذكرات عن مختلف المتاعب التي عاينها في الماضي من معاشر «المستنيرين». ويقدر عدد الذين يبقون منهم في الحزب بثلاثة عشر فقط في المائة.

قلت: ولماذا يتركون الحزب ما دمت تصر على تسميتي «بالمستنير»؟

قال: أكثرهم يذهبون من حيث أتوا مختارين.

قلت: ولكني لن أذهب.

قال بلهجة رهيبة وتلميح له معانيه: ولكن بعضهم يطرد طردا.

قلت: بأي تهمة؟

قال: معارضة سياسة الحزب.

فعدت أقول: ولكني لست معارضا في شيء.

قال: سيطالبونك بالتدليل على ولائك له.

قلت: وكيف؟

قال: إن للحزب وسائله الخاصة في اختبار الناس.

قلت: هذا كلام لا أسيغه.

قال: كيف تفعل إزاء مراقبة البوليس؟

قلت: لا أفعل شيئاً، لأنهم لم يحتكوا يوماً بي، ولم أجد منهم عتاً.

قال وهو يشير إلى زنجي شيوعي معروف «بالشغب»: هل تعرف إيفانز؟

قلت: نعم، لقد اجتمعت به.

قال: هل لاحظت أنه مصاب بأذى؟

قلت: نعم، كان رأسه مضموداً.

قال: إنه أصيب بذلك الجرح في مظاهرة، وكان البوليس هو الذي اعتدى عليه، هذا هو الدليل على الولاء للحزب.

قلت: هل تعني بهذا أن أعرض لضرب البوليس وإصابة رأسي لمجرد التدليل على ولائي؟

قال: لست أعني شيئاً. إنني إنما أشرح لك وأفسر.

قلت: وماذا يحدث إذا أنا تلقيت ضربة من يد البوليس فأحدثت لي ارتجاجاً في المخ، وافرض أنني لم أعالج منها بعد ذلك، فهل أستطيع أن أكتب، وماذا أقمت الدليل عليه في هذه الحال؟

فهز رأسه واثني يقول: لقد اضطر الاتحاد السوفييتي إلى التخلص من كثير من المستنيرين بقتلهم رمياً بالرصاص.

فصحت أقول: يا لله.. هل تعرف ماذا أنت قائل؟ إنك لست في روسيا، إنك واقف الآن في أحد شوارع شيكاغو، ومع ذلك تتكلم كمن هو تائه ضال في موكب.

قال: هل علمت بما جرى لتروتسكي؟

قلت: نعم، لقد أبعدوه عن روسيا.

قال: وهل تعرف لماذا؟

قلت: والله.. وأمسكت محاولاً ألا أكشف عن جهلي بالسياسة لأنني في الواقع لم أكن متبعاً تفاصيل النزاع بين تروتسكي والحزب الشيوعي في روسيا، ولكني مضيت أقول: الظاهر أن الحزب اتخذ قراراً فعمد هو إلى مخالفته.

ولكن محدثي صاح بي متضجراً برماً: إنه أبعد لنشاطه المناهض للثورة. وقد علمت فيما بعد أن جوابي ذلك لم يكن مرضياً، ولم يُصَغَ في قالب مقبول، ولا عبارة من العبارات الجارية على الشفاه المليئة بالحقق على تروتسكي واستنكار فعلته.

قلت: أعرف ذلك، ولكني لم أقرأه في حياتي، فما هو موقفه من الأقليات؟ قال: لماذا تسألني.. أنا لا أقرأ تروتسكي.

قلت: أصغ لي، إذا وجدني أقرأه فما معنى ذلك عندك؟

قال بلهجة المستاء المتضايق: أيها الرفيق، أنت لا تفهم.

وهكذا انتهى بيننا الحديث.

ولكن تلك العبارة الأخيرة «أيها الرفيق أنت لا تفهم»، لم تكن آخر مرة أسمعها وإن كنت خالي الذهن لا أعرف أنهم يعتقدون أنني ضال مخطئ، والواقع أنني لم أقرأ شيئاً مما كتبه تروتسكي، بل العكس هو الصحيح، فقد شاقني كتاب «ستالين»، «والمسألة القومية والمسألة الاستعمارية».

وفي الحق لم يستأثر بخاطري من كل التطورات التي حدثت في الاتحاد السوفيتي غير الوسيلة التي اتخذها للسير بعشرات من الشعوب المتخلفة إلى الوحدة الوطنية، والتضامن القومي، كما قرأت من قبل كيف كان الشيوعيون يوفدون خبراء لغويين إلى أقصى أرجاء روسيا ليستمعوا إلى شكوى الشعوب التي ظلت قروناً تعاني طغيان القياصرة وعسفهم، ويحاولوا فهم رطاناتهم، مما حذقوه من علم الأصوات؛ واللهجات؛ وكان أول ما هز يومئذ عاطفتي اطلاعي على جهد أولئك الخبراء في تدريب أولئك الأقوام على الكلام، وتنظيم لغة لهم، وإدخال الصحافة على حياتهم،

وإنشاء معاهد في ربوعهم النائية؛ وقرأت كيف كانوا يشجعون تلك الشعوب المنسية المهملة على الاحتفاظ بثقافتهم القديمة، واستخلاص معان ومشاعر لا تقل عمقاً عن المعاني والمشاعر التي تسود الأمم الراقية ذاتها من عاداتهم العتيقة وتقاليدهم، وكنت أعجب في نفسي للفارق الظاهر بين هذا كله وبين سخرية الأمريكيين بالزواج وترفعهم عنهم.

وإذا كان هذا هو شأني، فما معنى هذا النذير الذي تلقيته من ذلك الشيوعي الأسود؟ ولماذا يستراب بي، وتحوم الشبهات حولي، لمجرد أنني أردت أن أكشف عن مناقص حياة الزوج وسوء ما هم فيه، لكي أبين العمق الكامن في تلك الأقوام المهملة، والمآسي التي ترجع إلى أبعد العصور وأقدم الأزمنة، ولكي أصور الشمس والجبال والبحار القائمة في فاقة أمريكا الزنجية، المتخللة عيشهم الضنك، وحياتهم الشقية.

أي خطر لعمرى في تصوير مدى التشابه والتماثل بين آلام الزوج، ومأساة الشعوب الأخرى.

- ٦ -

وفي ذات صباح كنت جالساً مع «روس» في بيته، وقد جاءت زوجته، وابنه، فاشتركا في المجلس، وأنشأت أدون مذكرات ونقطة في حماسة على أوراق صفراء أمامي، وإذا بجرس الباب يدق، ودخل زنجي شيوعي يدعى «أوجرين» وهو طويل القامة، عبوس الوجه، أشبه بالجندي في خشونته وعريض منكبيه.

فقدمني رب الدار إليه وإذا به يهز رأسه بجفوة ويقول بغير تمهيد ولا مقدمات: ماذا يجري هنا؟

وعندئذ مضى «روس» يشرح له خطتي. وكلما أوغل في الشرح، راح وجهه
«أوجرين» يزداد عبوسًا وتجهمًا.

ولم يجلس حين قدمت إليه زوجة روس مقعدًا ولم يستمع إليها، بل انثنى يسألني
قائلًا: ماذا أنت ناو أن تصنع بهذه المذكرات؟
قلت: أرجو أن أنسج منها قصصًا.

- وماذا تسأل أعضاء الحزب عنه، وأي شيء منهم تستفسر؟

- عن ماضيهم بوجه عام.

- ومن الذي أشار بهذا عليك؟

- لا أحد... لقد جاء من وحي خاطري.

- هل كنت يومًا عضوًا في أي جماعة سياسية أخرى؟

- اشتغلت مرة مع الحزب الجمهوري.

- أقصد أي هيئات ثورية؟

- كلا... ولماذا تسأل؟

- وأي عمل تؤدي؟

- أكنس الشوارع للظفر بالقوت.

- إلى أي مرحلة من التعليم وصلت؟

- الابتدائية.

- ولكنك تتكلم كمن تجاوزها.

- قرأت كتبًا، وعلمت نفسي بنفسي.

- لا أعرف.

قال ذلك وتولى عني معرضاً.

قلت: ما هي الحكاية؟

قال: لمن أريت هذه المذكرات؟

قلت: لم أرها لأحد.

ورحت أعجب في نفسي لهذه الأسئلة، ومن سذجاتي، ظننت أنه يصلح أيضاً كنموذج لهذه الصور القلمية التي انتويت رسمها.

قلت: أحب أن يكون لي حديث معك.

قال بجفوة: لا أرى داعياً.

وأمام جفوته لم أَلَح.

ورأيتَه يدعو روس إلى غرفة مجاورة... فظللت في مكاني مستشعراً ذنباً لا أدريه، ولكن لم تكد تمضي لحظات، حتى عاد فحدجني ببصره في صمت، وانصرف.

وانشيت أسأل روس: ماذا يظن هذا الرجل أنه أوتي؟

قال: إنه عضو في اللجنة المركزية.

- ولكن لماذا يفعل هكذا؟

- هذا طبعه أبداً.

وسادنا سكون طويل.

وأخيراً انثنى روس يقول: إنه يعجب لك ما الذي تريد أن تصنعه بهذه المذكرات.

فنظرت إليه، وبدا لي أنه هو أيضاً قد أخذ يرتاب، ويحاول إخفاء الخوف البادي

على محياه.

قلت: إنني معفيك من أن تقول لي شيئاً لا تريد أن يُعرف عنك.

والظاهر أن قولي هذا خفف من ريبته في تلك اللحظة، وإن كانت بذور الشك قد نبتت في أعماق نفسه.

وأحسست أن الأرض تميد بي... أتراني مجنوناً؟ أم ترى أولئك القوم مجانين...؟
وانبرت زوجته تقول: اسمع يا ريتشارد، إن «روس» يخشى التهم، فإن هذا الرجل يمثل الدفاع العمالي الدولي عن هذه المنطقة من المدينة، فمن واجبه أن يكون على بينة من الذين يحاول الدفاع عنهم، فلا غرو إذا هو أراد أن يعرف هل أعطاك روس شيئاً قد يستخدم ضده في المحكمة.
فلم أحر قولاً.

قلت: ما الذي يظنه بي؟

فلم تجب... ولم يفه زوجها بينت شفة.

فصحت من الغضب، يا لكم من قوم ضالين! وضربت المنضدة بجُمع كفى، فاستحيا روس وتأثر وقال متلعثماً: إن «أوجرين» ليس إلا رجلاً مفرطاً في الحذر والحيطة.

قلت: وهل تثق أنت بي يا روس؟

قال مرتبكاً: نعم.

لقد جلسنا نحن الزنجيين متقابلين ينظر كل إلى صاحبه خوفاً ووجلًا. وكان كل منا جائعاً، يعتمد على الصدقات لكي يأكل ويصيب مضجعاً، ولكن كان كلُّ في نفسه أشد ريبة بالآخر منه بالذين تولوا صب حياتنا في قالبها، وأرادوا أن نكون جياًعاً شُرّداً هائمين.

ولم أكف عن تدوين مذكرات عن حياة «روس»، ولكنه ما لبث على مر الأيام أن ازداد تكتماً وتحفظاً في ردوده، حتى أشفقت عليه ورثيت له، ولم أحاول محادثته إذ كنت أعلم أن التشجيع والحث والحض لن تزيل المخاوف من نفسه، وإنما قنعت

بالجلوس والإصغاء إليه والاستماع لأصحابه وهم يتحدثون عن محن الزنوج في الجنوب، وتدوين مذكرات في خاطري، غير مجترئ على أن أوجه سؤالاً مخافة أن أقذف به الرعب في قلوبهم.

وما لبثت أن زحمت خاطري برواياتهم وأحاديثهم عن ماضي حياتهم، رغم مخاوفهم، وعدلت عن كتابة التراجم التي كنت أنتويها، واكتفيت بكتابة سلسلة من القصص الصغيرة مستخدماً المادة التي ظفرت بها من روس وأصحابه، بانيًا عليها من عندي، ناسجًا من خيالي، متحدثًا خلالها عن اقتحام جماعة من الغلمان السود أملاك رجل أبيض والمحكمة العرفية التي تلتها.

وقد نشرت القصة بعنوان «غلام كبير يغادر مسقط رأسه» في قصيدة من الشعر؛ ولكن ظهورها جاء متأخرًا كثيرًا عما ينبغي، فلم تحدث أثرًا في نفوس الشيوعيين الذين كانوا يتساءلون عن سر هذا النزوع في التصوير.

وانتهى العمل الذي كلفتنى تأديته إدارة الترفيه، فأصبحت متعطلاً أبحث عن عمل ولا أهتمي إليه؛ فجعلت أقترض نقودًا لكي أغدو إلى عملي في النادي وأعود منه، ووجدت غرفة في السطوح لتقيم فيها أُمِّي وخالتي وأخي خلف سياج للسكك الحديد في زقاق معزول حتى عاد رجال إدارة الترفيه فعينوني في نادي الشبان «بساوث سايد» لقاء أجر زهيد لا يكاد يكفي لقوت أسرتي، أو يسد مفاقر أهلي.

وأثيرت يومئذ مشاكل سياسية فأحيط بي، وأقضت مضجعي؛ فقد اتهم الحزب الشيوعي صديقي «روس» الذي كنت أحاول أن أصور حياته بأن له «ميولاً ضد الزعامة» وجنوحًا نحو «التعاون الطبقي» و«اتجاهات انشقاقية»؛ وهي عبارات وهمية غريبة لم يسعني إلا أن فغرت فمي حين سمعتها من فرط الدهشة والروع؛ وأشيع أيضًا أنني سأتهم بأمثال هذه التهم وأشباهها، لأن المعتقد أنني قد تأثرت سياسيًا به.

وفي ذات ليلة جاء جمع من الرفاق الزنوج إلى بيتي وأمروني بالألا أتصل بروس.

قلت: لماذا؟

قالوا: إنه عنصر غير سليم، ألا تقبل هذا القرار؟

قلت: أهذا قرار من الحزب؟

قالوا: نعم.

فعدت أسأل: إذا كنت متهمًا بأمر فلا يسعني إلا النزول على هذا القرار، ولكن لم أت أمرًا.

قالوا: أيها الرفيق إنك لا تفهم، ألا تعلم أن أعضاء الحزب لا يتتهكون قراراته.

قلت: ولكن قراركم لا ينطبق عليّ، ولن أسكن إليه.

قالوا: إن موقفك غير جدير بثقتنا.

فتولاني الغضب.

قلت منفجرًا وأنا أنهض من مجلسي وأشير بذراعي إلى «الطقيسة» الحقيبة التي أعيش فيها: انظروا، أي شيء هنا يخيفكم، وأنتم لا تجهلون أين أشتغل، وتعلمون ما هو أجري، ولا يخفي عليكم أحد من صحابي، فما هو وجه الخطأ بالله عليكم وماذا أعاب به؟

فانصرفوا باسمين بسمة لا مرح فيها ولا مجانة، وهو ما يوحي بأنني لن ألبث أن أعرف أين وجه الخطأ الذي أسأل عنه.

ولكنني وجدت شيئًا من الترفيه يخفف عني هذه المنغصات وهو انشغالي بعملتي في نادي الشبان؛ فقد كان الغلمان السود ممن تتراوح أعمارهم بين الثامنة والخامسة والعشرين يأتون في كل يوم إلى النادي للسباحة والرسم والمطالعة، وهم جميعًا متشردون هيمٌ أشقياء، أخلياء من كل ثقافة، أو علم، أو تربية روحية، ممن يتهياون للأمراض أو السجن أو الإصلاحية أو الكرسي الكهربائي المعد لتنفيذ الأحكام

بالإعدام، فكنت أقضي الساعات مصغيًا لأحاديثهم عن الطائرات، والنساء، والمدافع، والسياسة والجرائم والمجرمين؛ وكانت تعبيراتهم واستعاراتهم وتشبيهاتهم قوية زاهية الألوان فكنت أحفظ في جيبى قلمًا رصاصًا ودفتراً صغيراً لأدون فيه ما أسمعه منها؛ ولم يكن أحد منهم يخشى الناس على هذا النحو الذي يشعر به الكبار حتى ليخيل إليهم أن كل إنسان جاسوس؛ فليت معاشر الشيوعيين الذين استرابوا بدوافعي وأوجسوا خيفة من نوازعي، عرفوا أولئك الأحداث، أو فطنوا إلى ما يخطر ببالهم من أحلام، أو دروا المصائر التي ترتقبهم على الأيام.

لقد خطر ذلك ونحوه لي، فخيل لي أنني لن أستطيع أن أصور للشيوعيين هذه المآسي التي أشاهدها في نادي الشبان.

- ٧ -

ولم تلبث واجباتي الحزبية أن تدخلت في جهودي، وحالت دون مواصلة التعبير عن خواطري، وتصوير جوانحي وأفكاري، فقد قرر النادي عقد مؤتمر يضم جميع الكتاب اليساريين في الولايات الغربية الوسطى، وقد ناصرت الفكرة وناديت بوجوب ترك المؤتمر يدرس مشاكل المهنة ومسائلها، ولكن رأيي لم يقابل بالرضى، وقال القوم إن المؤتمر سيعالج المسائل السياسية دون سواها.

وعندئذ طلبت إليهم أن يعرفوني ماذا ينتظر إذن من معاشر الكتاب والمؤلفين: هل يراد منهم أن يضعوا كتباً؟ أو يبدوا نشاطاً سياسياً؟ فكان الجواب «كليهما»؛ يكتب الكاتب بضع ساعات في اليوم، ويقضي البقية في الشوارع مع الرقباء والعسس.

وانعقد المؤتمر.

وحضره أحد الزعماء في الحزب كمستشار.

وكان السؤال الذي طُرح للمناقشة: ماذا ينتظر الحزب من النادي؟

وكان الرد الذي أدلى به الزعيم يتراوح بين أعمال التنظيم وتأليف القصص والروايات.

وكان حجتي أنه إما أن يشتغل المرء بالتنظيم، وإما أن يضع قصصًا. ولكنه قال: إن عليه أن يؤدي كلا الأمرين، وكان رأيه في المؤتمر هو الغالب. وأخذت الأصوات على مصير مجلة «الجبهة اليسارية» التي طالما اشتغلت لها، وكتبت فيها فتقرر العدول عن إصدارها، وتركها تختفي من الوجود. وتبين لي عندئذ أن النادي موشك على النهاية، فنهضت لأشرح وجهة نظري المحزنة، وطلبت «حل النادي»، فلم تلبث دعوتي أن سميت «دعوة إلى التردد والهزيمة» وجلبت عليّ غضب ذلك الزعيم وحنقه البالغ. وانتهى الأمر باتخاذ عدة قرارات بشأن الصين والهند وألمانيا واليابان، والأحوال المتعلقة بعدة أقطار وبلدان أخرى.

ولكنه لم يقرر شيئاً على الإطلاق بشأن الكتاب وما يكتبون. وما لبثت الآراء التي أعلنتها في المؤتمر أن رُبِطَتْ بالشبهات التي أثارها في أوساط الشيوعيين الزوج؛ وتحقق الحزب يومئذ أن هناك عدوًّا له خطر بين ظهرانيه وخصمًا مبيتًا بين صفوفه، وأخذ القوم يتهامون بأنني أسعى في تأليف هيئة سرية لمعارضة الحزب ومناوآته؛ وكنت على يقين أن نفي الاتهام لا يجدي، وأصبح من المؤلم أن ألاقى شيوعيًا في الطريق، أو يحتويني مكان ما معه، لأنني لا أعرف ماذا سيكون موقفه مني.

وعلى أثر ظهور قرارات المؤتمر، دعي نادي جون ريد إلى عقد جمعية عامة، وتم اجتماعها في صيف عام ١٩٣٤ وحضرها الكتاب اليساريون جميعًا في مختلف الولايات المتحدة، ولكن لم تكد جلساته تتوالى حتى شعر الكتاب بحيرة وارتباك واستياء، فقد كان أكثرهم شبابًا متحمسين يحاولون الإحسان ويقبلون التجديد،

ولكن لم يبق منهم أحد في طمأنينة من أمره، أو يدري ماذا يرتقب الحزب منه.

وجاء هذا المؤتمر الثاني فلم يخرجوا منه برأي، ولا رأوا فيه توحيداً أو تضامناً.

وقبل أن ينفض الاجتماع، وتختتم جلساته، حضرت اجتماعات تمهيدياً للبحث في مصير الأندية، واجتمع عشرة منها في غرفة واحدة بأحد الفنادق؛ ولشد ما عجبت أن رأيت زعماء مجلس إدارة النوادي يؤيدونني في انتقاداتي للطريقة التي اتبعت في إدارتها وتنظيمها، فتولتني الحماسة، وظننت أن الأندية موشكة أن تدخل طوراً جديداً، وتواجه حياة أفضل من هذه الحياة التي كانت تحياها.

ولكنني ما عثمت أن ذهلت حين سمعت شيوعياً في المجلس يعلن حل الأندية.

فقلت: لماذا نحلها؟

وقيل لي لأنها لا تخدم سياسة «الجبهة الشعبية» الجديدة.

فقلت: إن في الإمكان علاج هذا ومداواته، بجعل الأندية أصح أفقاً، وأوسع نطاقاً، وأصلح حالاً.

قال صاحبنا: كلا، بل يجب تنظيم هيئة أكبر وأفضل، هيئة يصح أن يندمج فيها جميع كتاب الأمة وأرباب الأقلام فيها.

وقيل لي أيضاً إن السياسة التي رسمتها «الجبهة الشعبية» هي الآن أسلم نظرة إلى الحياة وأصح تفكيراً بسبيلها، فلا ينبغي أن تبقى الأندية بعد اليوم.

قلت: وما مصير الكتاب الشباب الذين دعاهم الحزب إلى الانضمام لتلك الأندية، ولا يصح ترشيحهم لعضوية الجبهة طبقاً لشروط إنشائها.

فلم أتلّق ردّاً.

وقلت لنفسي: إن هذا كله خطأ وتخبط، فقد عمل الحزب في سبيل إحداث تغيير في سياسته وخطته إلى إلقاء هيئاته في اليم، وتنظيم هيئة جديدة تجمع أناساً جديدين.

ووجدتني أناقش وحدي، والكل ضدي، والأغلبية لي خصم ميين.

وانكشف لي أمر آخر لم أكن قد تبينته من قبل، وهو أن الذين وافقوني لم يؤيدوني؛ وعلمت في ذلك الاجتماع أنه من المحتمل على المرء، إذا قيل له إن هذه هي سياسة الحزب، أن يمثل فلا يعارض حتى وإن حدثه العقل، وأوحى المنطق إليه، أن رغبة الحزب ليست من الحكمة في شيء، بل بالعكس ستضر في النهاية بمصالح الحزب ومستقبله.

ولم تكن الشجاعة هي التي حملتني على معارضته، ولكن الواقع أنني لم أكن أعلم وسيلة غير تلك الوسيلة، ولم أكن أتصور رغم مولدي في أحضان الكراهية الشائعة في الجنوب، ألا يباح للمرء المصارحة برأيه، والمجاهرة بقوله؛ ولقد قضيت ثلث الحياة متنقلاً من مكان مولدي إلى الشمال، جواباً أخا سفر وترحال، لأتحدث حرّاً، وأتكلم بما أريد، وأهرب من وطأة الخوف.

وهأنذا أواجه الخوف مرة أخرى.

وتقرر قبيل إرفضاض الاجتماع عقد مؤتمر آخر من الكتاب الأمريكيين في مدينة نيويورك خلال الصيف التالي عام ١٩٣٥؛ ولكنني قابلت هذا القرار بفتور وأجمعت النية على أن أقف وحدي وأكتب في معزل، وأجاهد بمفردي.

وخشيت يومئذ أن تكون القصص التي وضعتها من قبل غير متسقة مع التيار الجديد.

فهل يتحتم عليّ أن أعدل عن أفكاري وألتمس خواطر أخرى وتفكيراً جديداً.

ولكن لا أستطيع.

إن ما كتبته هو ما أراه وأؤمن به، وأعيش عليه، وأحسه، فمن ذا الذي يستطيع أن يغير نظره وإيمانه، واتجاهه وحواسه ومشاعره؟

وحل ربيع ١٩٣٥، وتقدمت الخطط التي وضعت لعقد مؤتمر من الكتاب «أشواطاً». ولسبب مجهول -من حسن حظي- طلب مني الشيوعيون المحليون حضوره، وتقرر إيفادي إليه «كمندوب» فأخذت إجازة من «نادي الشبان»، وانطلقت إلى نيويورك مع المندوبين الآخرين.

ووصلنا في المساء وقيدنا أسماءنا في قوائم الوفود التي ستحضر المؤتمر. وانعقدت الجلسة الافتتاحية في كارنجي وطلبت مكاناً للنزول فيه، فإذا بأعضاء نادي جون ريد في نيويورك، وكلهم من البيض، يقفون حيالي مرتبكين لا يدرون كيف يجيبون.

وانتظرت حتى انتحى أحدهم بآخر وجعلا يتباحثان في الوسيلة التي يتسنى بها إعطائي أنا الشيوعي الأسود القادم من شيكاغو مكاناً أبيت فيه؛ وكنت خلال الرحلة قد نسيت أنني زنجي، وانشغل خاطري بمحاولة حل مشاكل الكتاب اليساريين والتفكير في مصيرهم.

ولكن في موقعي هذا حيال أولئك الشيوعيين البيض، وهم يتناقشون ويتحدثون عن لون بشرتي وسواد أديمي، لم ألبث أن شعرت باشمئزاز شديد. وعاد الرجل الذي انتحى بصاحبه ليحدثه؛ فقال لحظة: أيها الرفيق فسأجد لك مكاناً.

قلت: أو ليست لديكم أمكنة أعددتموها لنا قبل قدومنا، فإن هذه المسائل ونحوها بطبيعة الحال تنظم مقدماً.

قال بإخلاص وصراحة: أي نعم، ولدينا بضعة عناوين هنا، ولكننا لا نعرف

أصحابها. أظنك فاهمًا.

قلت وأنا أصرف بأسناني: نعم، فاهم.

قال وهو يربت على ذراعي لتهدئة خاطري: أرجو أن تنتظر لحظة واحدة، سأوجد لك شيئًا.

قلت وأنا أحاول إخفاء غضبي حتى لا يبدو في صوتي ولهجتي: اسمع، إنني لا أريد أن تتعب نفسك.

قلت وهو يهز رأسه متشبثًا: كلا، إنها مشكلة، ولكنني سأحلها.

قلت نافذ الصبر: لم يكن يصح أن تكون مشكلة.

فاستدرك قائلاً: لم أكن أقصد ذلك.

فلعنت وسببت في سري.

وما لبث الجمع الواقفون عن كذب منا أن لاحظوا شيوعًا أبيض يحاول إيجاد مكان لينام فيه شيوعي أسود، فكدت أحترق استحياء وخجلًا.

وما هي إلا لحظات حتى عاد الشيوعي الأبيض مضطربًا يتصبب عرقًا.

قلت: هل وجدت شيئًا.

قال وهو لاهث: كلا... لم أجد بعد، ولكن انتظرنى لحظة، فإنني سأدعو بعض الذين أعرفهم لمحادثتي في التليفون.

قلت وقد شعرت بساقي تتخاذلان: أرجوك أن تنسى هذه المسألة فإنني سأجد محلًا، ولكنني أريد أن أضع حقيقتي في مكان ما ريثما ينتهي الاجتماع الليلة.

قال وهو يحاول إخفاء يأسه: هل تظن حقًا أنك واجد مكانًا؟

قلت: طبعًا.

ولكنه ظل غير واثق، وكان يريد فعلاً أن يساعدني ولا يدري كيف، وتناول حقيقتي

فوضعها في غرفته وأوصد عليها، وانطلقت أذرع الطريق حائراً لا أدري أين أبيت.
لقد وقفت عند الناصية، في مدينة عظيمة كنيويورك هذه، أسود البشرة، فقيراً، لا
أكاد أملك مالا، مهموماً ذاهلاً، مشغول الفكر، لا بمشاكل الحركة الأدبية في أمريكا،
بل بمشكلة الاهتداء إلى منام وحمام.

وقدمت أوراق اعتمادتي في قاعة كارنجي، وكانت غاصة بالناس، ولم أكد أستمع
للخطب النارية، والكلمات الهجومية التي دارت في الجلسة الأولى حتى سألت
نفسي من الدهشة والألم: لماذا تراني جئت؛ وخرجت من المجلس إلى الشارع أتأمل
الوجوه. فلم ألبث أن التقيت بعضو في نادي شيكاغو فابتدرني بالسؤال قائلاً: ألم
تهتدِ إلى مكانٍ إلى الآن؟

قلت: كلا، ويبدو لي أنه يحسن بي أن أجرب النزول في أحد الفنادق، ولكنني لست
في حال نفسية تسمح لي بأن أناقش كاتب فندق في مسألة العنصر واللون.
قال: شيء ثقيل حقاً... ولكن انتظر لحظة.

وانصرف مارقاً، وعاد بعد دقائق بامرأة شحيمة بيضاء وتولى تعريفنا، وانثنت هي
تقول: تعال بت عندنا الليلة.

فمشيت معها إلى مسكنها وعرفتنني بزوجها، فشكرت لها ضيافتهما، ومضيت
لأنام في «عشة» بالمطبخ.

واستيقظت في السادسة، وارتديت ثيابي، وطرقت الباب لأشكرهما وأودعهما؛
وخرجت إلى الطريق فجلست على متكأ وأخرجت ورقاً وقلماً، وحاولت أن أدون
نقطاً ومذكرات بما سأتولى الدفاع به عن الأنديّة، ولكن مسألتهما لم تبد لي خطيرة،
وإنما الأمر الخطير هو: هل يقدر للزنجي يوماً أن يعيش ولو نصف عيش الآدمي في
هذا البلد اللعين؟

وجلست في المؤتمر طيلة الاجتماع في ذلك اليوم، ولكنني لم أتأثر بما سمعته فيه؛

والتمست حين جن الليل سبيلي إلى حي «هارلم» المخصص للزواج، ورحت أقطع أفاريز وطرقاً ملأى بصور الحياة الزنجية ومشاهدها.

وأدهشني كلما سألت المارة عن فنادق الزواج في الحي أن أسمع أن ليس فيها فنادق لهم.

وظللت أسير على غير هدى، حتى انتهى بي المطاف إلى فندق شاهق نظيف يخرج منه زواج، ولا يرى فيه بيض، فدخلته مطمئناً، ولكنني تهيت حين رأيت الكاتب الجالس إلى منضدته رجلاً أبيض، فترددت، ولكنني تقدمت فقلت: أريد غرفة.
قال: ليس هنا.

قلت: أليس هذا هو حي «هارلم»؟

قال: ولكن هذا الفندق للبيض فقط.

قلت: أليس في الحي فندق للسود؟

قال: جرب «جمعية الشبان» لعلك واجد فيها مكاناً.

ولم ألبث أن اهتديت إلى جمعية الشبان الزواج المسيحيين أو ذلك الحصن الذي أقيم لإيواء السود، فظفرت فيها بغرفة وتناولت حماماً ونمت اثنتي عشرة ساعة، ولما استيقظت لم أجد روحاً للذهاب إلى المؤتمر، فاستلقيت في فراشي مفكراً، وإذا بخاطري يهتف بي قائلاً: «ينبغي أن تذهب وحدك... ينبغي أن تعرف مرة أخرى كيف...».

وارتديت ثيابي وحضرت الجلسة التي كان مقرراً فيها البحث في حل الأندية.

وبدأت الجلسة ناشطة متحمسة، وانبرى كاتب شيوعي من أهل نيويورك يلخص تاريخ الأندية ويتقدم باقتراح لحلها؛ وبدأت المناقشة، فنهضت فشرحت الأهداف التي كان الكتاب الشباب والناشئون يمثلونها في قيام هذه الأندية والمعاني السامية التي كانت تنطوي عليها في تقديرهم، وطلبت الإبقاء عليها، ثم جلست وسط سكون تام.

وانتهت المناقشات، وبدأ أخذ الرأي.

وارتفعت الأيدي مؤيدة لمشروع الحل.

ونودي على الذين يعارضون فيه، رفعت يدي، وأنا عليم أن موقفى هذا سيعمل
بأنه معارضة للحزب، ولكنى قلت ليذهب الحزب إلى الشيطان!

- ٩ -

ووجدتني بعد حل الأندية طليقاً من كل قيود الحزب وصلاته، فتحاميت الذهاب
إلى «الخلية» خشية تقديمي إلى المحاكمة والتأديب، ولكنى كنت على بينة من التهم
التي كانت الشيوعيون يتراشقون بها، من بعض الزنوج الذين جعلوا أحياناً يزورني
في البيت غير مكترئين بالتعليمات التي كانت تستوجب منهم الابتعاد عن العناصر
المريبة والأفراد الذين تحوم الشبهات حولهم.

وما كان أشد دهشتي حين علمت من أحدهم أن «بودي نيلسون» اتهمني بأنني
أحاول إعادة «الرجعية».

وكان نيلسون هذا هو الزنجي الذي حدد مركز الزنوج في النظام الشيوعي، وخطب
في الكرملين، وتكلم أمام ستالين نفسه.

قلت: ولماذا يدعوني نيلسون هكذا، ويصفني بهذا الوصف؟

قال صاحبي: إنه يقول إنك «برجوازي» منحط صغير الشأن.

قلت: وما معنى هذا الذي يقوله عني؟

قال: إنه يزعم أنك تحاول إفساد الحزب بأفكارك.

قلت: كيف؟

فلم يجب.

ونويت يومئذ أن أقطع ما بيني وبين الحزب، ورأيتني مضطراً إلى تركه؛ فقد اشتدت الحملات عليّ، وكثرت المطاعن في حقي؛ وكلما وجدني نيلسون صامتاً لا أعير تهمة اهتماماً أسرف وأوغل في سبابي واتهامي، فقال عني إنني «مستنير ابن زنا»، ووصفني مرة أخرى بأنني «تروتسكي أثيم»، وزعم أنني من خصوم الزعامة، وأنني أنادي باتجاهات مضادة، وأن لي نزعات «صاروفيمية» أو «ملائكية»، وهي عبارة يراد بها أنني قد انسحبت من نضال الحياة لأنني أعد نفسي ملكاً طاهراً معصوماً من الزلل. وكنت يومئذ أشتغل طيلة النهار وأكتب إلى نصف الليل، فأصبت بعلقة صدرية شديدة.

وفيما كنت معتكفاً في فراشي دق الباب في صباح يوم من الأيام وفتحته أُمي، فإذا بالطارق «أوجرين» جاء يسألني ماذا أنا فاعل بالمعلومات التي كنت أجمعها من الرفاق، فحملت فيه البصر وأنا راقد في فراشي، إذ أدركت أنه كان يعدني خصماً بارعاً، وعدواً مبيناً للحزب، فلم تلبث نفسي أن امتلأت مرارة وكمدًا.

قلت بحفوة: ماذا تريد، ألا ترى أنني مريض؟

قال: لدي رسالة من الحزب حملنيها إليك.

ولم أكن من غيظي الكظيم قد حييته عند دخوله، وهو كذلك لم يبادئني بها. ولم يتسم أحدنا بل مضى يجيل البصر في غرفتي الحقيبة فبادرته قائلاً بسخرية: هذا هو مسكن المستنير ابن الزنا!

فوقف يرمقني بعينه، وهما لا تطرفان، فلم أطق وقفته حيالي كالحجر، فاضطرت أدباً إلى مجاملته بقولي «اجلس»، فتخشبت كتفاه.

ومضى يكلمني بلهجة الضابط الخشنة: إنني في عجلة.

قلت: وما هذا الذي تريد أن تنبئني؟

قال: هل تعرف «بودي نيسلون»؟

فتولتني ريبة... أتراني أمام شرك سياسي؟

قلت محاذراً: وما دخله في الأمر؟

قال: إنه يريد لقاءك.

فازددت تخوفاً وريباً، قلت: لماذا؟

قال: إنه يريد أن يتحدث إليك عن عملك في الحزب.

قلت: أنا مريض ولن أستطيع لقاءه، حتى أتماثل.

فوقف هنيهة ثم تولى عني منصرفاً.

ولما صح صدري وزالت علتي التمسست موعداً مع بودي نيلسون.

وكان قصير القامة، زنجياً، لا يفتر فمه عن الابتسام، كثيف الشفتين، ماكر الحركات، خبيث النظرات، يبدو عصبياً، واعياً مخفياً تأثيره وانفعالاته؛ وكان يتكلم بعبارات قصار مهزوزة قافراً في حديثه من فكرة إلى أخرى، كأنما يشتغل عقله بحركة آلية، لا تنم عن أي إجهاد، وكان يشكو ربواً حتى ليشخر على فترات متقطعة، وإن استطاع تنظيم نطقه بتناول رشفة من زجاجة ويسكي بجواره من لحظة إلى أخرى؛ وكان كثير الأسفار حتى لقد جاب نصف الأرض متنقلاً، وكان حديثه مختلطاً ببعض رطانات المدن الغربية ولهجاتها المختلفة.

وكان لقاؤنا في شقته، ومضيت أصغى إليه باهتمام، وألاحظ حركاته وسكناته بدقة، لأنني كنت أعلم أنني أواجه علماً من أعلام الشيوعية الدولية.

قال وهو يشخر: هالو.. رايت، لقد سمعت عنك!

وأرسل وهو يشد يدي مصافحاً ضحكة مدوية بغير سبب ظاهر، فلم أدر وهو يقهقه على هذا النحو هل تراه موجهاً ضحكته نحوي أو أراد بها أن يخفي اضطرابه.

قلت: أرجو أن يكون ما سمعته عني خيرًا.

فعاد يضحك ويشير إلى مقعد قائلاً: اجلس... نعم. لقد قالوا لي إنك تكتب.

قلت: بل أحاول.

قال وهو ينفخ بمنخره: إنك تكتب، فقد قرأت لك ما كتبته في مجلة «الجماهير» الجديدة عن «جو لويس».. مادة طيبة، أول مقال سياسي عن الرياضة في مجلاتنا... ها.. ها!

وجعل يضحك، وانتظرت، وكنت أتوقع أن ألقى رجلاً من أصحاب الأفكار فإذا هو غير ذلك.

قلت لعله رجل أفعال، لا رجل أقوال، ولكنه لم يدلل على أنه كذلك أيضاً.

قال مهاجماً: لقد نبئت أنك صديق «لروس».

فتمهلت قبل الجواب، فقد كان توجيه السؤال تلميحاً، وكنت أعلم أن «روس»، موشك أن يقضي عليه الحزب بتهمة «مناهضة الزعامة»، وإذا جاء سؤال كهذا عن رجل مهتد بالإقصاء من عضو بارز في الهيئة الدولية الشيوعية فلا معنى له إلا أنه يريد أن يسألني بطريق غير مباشر هل أنا مخلص للحزب أم لا.

قلت بصراحة: إن روس ليس بصديقي خاصة.

قال وهو يضحك ليخفف من النذير القاسي الذي يبدو على سؤاله: إذا لم يكن روس صديقك، فكيف عرفته كل هذه المعرفة الوثيقة؟

قلت: لقد كنت أكتب عن حياته، فعرفته كما يعرفه سواي.

قال: سمعت بهذا أيضاً. واستضحك مرة أخرى، وقال دعني أدعك اختصاراً وبلا كلفة «دك»؟ ها.. ها!

قلت: امض في حديثك كما تشاء.

قال: يا دك.. إن روس من «القوميين».

وسكت لحظة حتى تخف وطأة الاتهام؛ فقد أراد بهذه العبارات أن يقول إن روس «متطرف» في حملاته وهجومه، ثم أردف يقول ضاحكاً متهمًا ساخرًا: ونحن معاشر الشيوعيين لا تروقنا هذه «القومية» الزنجية، ولا نريد التهويل في شأنها.

قلت: ما مرادك بهذا؟

قال مصارعًا: لسنا نريد الإعلان عن روس.

قلت: إننا نتكلم عن شيئين مختلفين. يلوح لي أنكم في قلق من تنويهي بروس والكتابة عنه لأنه خصمكم السياسي، ولكني لا أنظر مطلقاً إلى السياسة فيما أتناول من حياته، وأقصه على الناس من ماضيه، وإنما كل ما في الأمر أن الرجل بدا لي مثلاً للزنجي المهاجر في عدة جهات من أخلاقه ونفسيته، وقد بعثُ فعلاً قصة تقوم على حادث وقع له في الحياة.

فهاج هائج، ومضى يسألني قائلاً: أي حادث؟

قلت: محنة أصابته وهو في الثامنة عشر.

قال وهو يهز كتفيه: أوه.. لقد كنت أظنه حادثاً سياسياً.

قلت: إنني أصارحكم أنكم مخطئون، إنني لا أقصد محاربتكم بما أكتبه، إذ ليست لي مطامع سياسية، هذا هو ما ينبغي أن تكونوا على يقين منه، كل ما أريده هو تصوير الحياة الزنجية.

قال: وهل انتهيت من الكتابة عن روس؟

قلت: كلا، ولكني تركت الفكرة، حين رأيت أعضاء الحزب مستريين بي ويخشون أن يتحدثوا لي عن ريبتهم.

فضحك وانثنى يقول: اسمع «يا دك» إننا في عَوَز إلى القوى ونواجه أزمة خطيرة.

قلت: ليس هذا غريبًا، فإن الحزب لا يفتأ يواجه أزمات.

فتلاشى ابتسامه وحدجني بنظرة وهو يقول: هل أنت بنا مستخف؟

قلت: كلا، ولكن هذه هي الحقيقة، ففي كل أسبوع، وكل شهر لكم أزمة.

قال وهو يعود إلى الضحك والقهقهة والنخير: إنك لمخلوق ماجن، ولكن أماننا عملاً لا بد من قضائه، إننا شارعون في تغيير الخطط، إن الفاشية هي الخطر الذي يهددنا الآن بل يهدد الناس جميعًا.

قلت: أنا فاهم.

قال وهو ينخر من الربو: ومن المتعين علينا أن نهزم الفاشية وقد تباحثنا في أمرك ونحن عارفون مقدرتك، ونريد منك أن تعمل من أجلنا لأننا مصممون على أن نخرج من المدى الضيق الذي نعمل فيه إلى السعي في إبلاغ رسالتنا إلى الكنيسة والطلبة والأندية وأصحاب المهن العليا والمتوسطين.

قلت برفق: لقد سموني أسماء كثيرة، وnectوني بعدة نعوت، لقد سبوني وشتموني كما شاءوا، فهل هذا هو الخروج من المدى الضيق؟

قال: انس ذلك.

وكان ذلك منه اعترافًا، بل تلميحًا أيضًا بأن الشتم والسب سيستمر إذا أنا لم أطفه.

قلت بصراحة: لست أدري هل أصلح لما تبغون أم لا.

قال: إننا نريد أن نعهد إليك بمهمة خطيرة.

قلت: ماذا تريدون مني أن أفعل؟

قال: نريد منك أن تنظم لجنة تحارب الغلاء.

فقلت: الغلاء! وماذا أعرف أنا عنه؟

قال: شيء سهل.. تستطيع أن تتعلم وتعرف.

وكنت يومئذ أشتغل بتأليف قصة وقد بلغت نصفها، وها هو ذا يريدني على أن أحارب ارتفاع أسعار المواد الغذائية، فلا عجب إذا رحت أقول لنفسي إنه لا يحترم ما أنا ماض فيه.

قلت: اسمع أيها الرفيق نيلسون، إن الكاتب الذي لم يضع إلى الآن شيئاً حسناً خليقاً بالقراءة هو بالطبع كاتب مشكوك في مقدرته، وأنا اليوم من هذه الطبقة، ولكنني أعتقد أنني على الكتابة قدير، ولست أطلب حظوة خاصة، ولكنني شارع في كتاب أرجو أن أفرغ منه في ستة أشهر أو نحوها، فدعني أقنع نفسي بأنني مخطئ في محاولتي أن أكون كاتباً مجيداً وعندئذ سأكون معكم قلباً وقلباً.

قال: وهو يتحرك في مقعده ويلوح بيده كأنما يزود عنه حشرة تطن في أذنه: اسمع يا دك.. يجب أن تتعلم كيف تخاطب الجماهير وتلمس نفوسهم. قلت: لقد اطلعت على شيء مما نشرته، ألا تراه كافياً للتدليل على أنني إنما تنقصني الفرصة.

قال: إن الحزب لا يدخل شعورك الخاص في اعتباره. قلت بصريح العبارة: لعل الحزب لا يعتقد أنني منه. قال شاخراً ناخراً وهو يرمقني بعينه: كلا. لا تقل هذا... إنك صريح أكثر مما ينبغي.

قلت: عيبي أنني أضع الأشياء كما أشعر بها، وأريد أن يكون تصرفي معكم مستقيماً، فقد أصابني من الحرب ما أصابني. وضحك نيلسون وأشعل لفافة.

وقال وهو يهز رأسه: إن عيبك هو أنك اختلطت كثيراً بمعاشر الفنانين البيض في الجانب الشمالي، حتى لتكلم كلامهم، وتتحدث حديثهم، ولكن المتعين عليك أن تفهم قومك وتسائرهم.

قلت وأنا مدرك أنني لن أستطيع في الحقيقة الحديث معه: أظن أنني قد عرفتهم وفهمتهم. وأحسبني قد تنقلت في ثلاثة أرباع ديارهم في الحي الجنوبي.
قال: ولكن ينقصك أن تشتغل معهم.

قلت: لقد كنت أشتغل مع روس فاتهمت بأنني جاسوس...
قال وقد غير لهجته إلى الجد والحزم: اسمع يا دك.. إن الحزب قرر أن تقبل هذه المهمة.

وعند هذا الكلام سكت.. فقد عرفت المراد، فإن القرار هو أسمى تكليف يتلقاه عضو في الحزب، والتمرد على تنفيذه هو بمثابة التذليل على عجزه عن العمل، والتوهين من قدرته وسلطته.

وكنت في أعماقي مُقرّاً هذا الأمر من حيث المبدأ؛ إذ كنت أعرف أنه من المستحيل على العمال أن يبلغوا حدّاً من القوة والسلطان السياسي ما لم تتوافر لهم وحدة؛ فقد جعلهم الظلم الذي حاق بهم من قديم الزمان، والانقسام الذي ظلوا قروناً يعانون ويلاته، والخيبة والضلال والفساد والفوضى التي تناهبتهم عدة السنين، قوماً مستخفين مستهترين كما كنت أنا نفسي من قبل، وتبين أخيراً أن وسيلة «الوحدة» التي توسلت الشيوعية بها هي الوسيلة الوحيدة لتحقيق النظام، وروح الضبط والربط بين صفوفهم.

ومعنى هذا كله بإيجاز أن نيلسون سألني: هل أنت شيوعي حقاً أم لا؟
وكنت أريد أن أكون شيوعيّاً، ولكن على طريقتي، بل كنت أريد أن أكيف إحساس الناس وأوقف نفوسهم.

ولكنني لم أستطع أن أقول ذلك لنيلسون، لأنني لو قلته لشخر في وجهي ونخر، فاكثفت بأن أقول: سأتولى تنظيم اللجنة المطلوبة ثم أعهد بها إلى رجل سواي.

قال بحزم: ألا تريد أن تؤدي هذه المهمة؟

قلت بثبات: كلا.

قال: أي عمل تريد أن تعمله إذن في الحي الجنوبي؟

قلت: أريد أن أنظم شؤون الفنانين الزنوج.

قال: ولكن الحزب لا يريد هذا الآن.

فنهضت من مجلسي وأنا أعلم أنه لا ينوي تركي أنصرف إلا بعد أن أنظم اللجنة التي يريدونها.

وقد هممت بأن أقول له إنني قد انتهيت من علاقتي بالحزب، ولكنني لم أكن على استعداد لمواجهة هذه الخاتمة.

وخرجت من لدنه غاضباً من نفسي، وغاضباً من الحزب، على السواء. وإذا كنت قد كسرت قرار الحزب، فإنني أيضاً لم أقبله كلية، فقد تهربت وأفلت محاولاً أن أوفر وقتاً للكتابة، ووقتاً للتفكير.

- ١٠ -

وكانت مهمتي تتطلب مني حضور الاجتماعات إلى ساعة متأخرة من الليل، والاشتراك في المناقشات؛ والتوفر مع غيري من الشيوعيين على إرشاد أهل الحي الجنوبي وقيادتهم إلى الطريق السوي؛ وقد بحثنا في مشكلة المساكن، والوسائل المثلى لحمل البلدية على السماح بجلوسات علنية لسماع شكوى الزنوج من أحوالهم المعيشية.

وقد جلست أقرض بأسناني من المضض والكمد ونحن جلوس نبحت في تحديد تسعيرة للحم الخنزير، متمنياً لو أنني كنت عندئذ في مسكني مخلصاً للكتابة والتفكير. وكان نيلسون أبرع مني وأكثر ذكاء، فقد راح يواجهني قبل أن يتهيأ لي المجال

لمواجهته، فدعاني ذات ليلة إلى لقائه مع «صديق».

ولما وصلت إلى الفندق الذي عينه لي في الحي الجنوبي بادر إلى تعريفني برجل قصير أصفر اللون، يقلد في مظهره نابوليون، ويضع منظاراً فوق عينيه، ويزم شفثيه كمن هو مشغول بالتأمل والتفكير؛ وكان يختال في مشيته، ويتكلم ببطء وتدقيق محاولاً أن يحمل كلماته وألفاظه من المعاني أكثر مما تحمله، حتى ليتحدث عن أنفه الأشياء بأرفع العبارات وأضحكها؛ وعلمت منه أنه يدعى «سميث»، وأنه من واشنطن وأنه يعتزم القيام بتنظيم «قومي» لتوحيد جميع الهيئات الرزنجية حتى تتوحد الخطط والأعمال.

وكنا جلوساً إلى مائدة متقابلين، وأحسست أنهما سيعرضان عليّ اقتراحاً كآخر حيلة فإذا لم أقبله قام العداء صريحاً بيني وبين الشيوعيين.

وأنشأ «سميث» يقول فجأة بلهجة «درامية»: اسمع يا رايت، ما رأيك في السفر إلى سويسرا؟

قلت: أحبه، ولكني مرتبط هنا بعملتي في الوقت الحاضر.

وانبرى نيلسون يقول: يمكنك أن تتركه، فإن هذا السفر أهم وأخطر شأنًا.

قلت: وماذا أفعل في سويسرا؟

فقال «سميث»: ستذهب كرسول موفد عن هيئة الشباب ومنها تستطيع أن تسافر إلى الاتحاد السوفيتي.

قلت، بصراحة: هذا هو أحب شيء إلى نفسي، ولكنني أخشى ألا أستطيع إذ لا يمكن أن أترك العمل الذي أؤديه الآن.

وجلسنا نتبادل النظرات وندخن صامتين.

ورحت أسأل «سميث» قائلاً: هل حدثك نيلسون عن رأيي؟ ولكنه لم يجب بل حملق البصر في وجهي طويلاً، ثم بصق وهو يقول: «رايت.. أنت مجنون!».

فنهضت، وأعرض هو بوجهه عني، ولو أن انفعلاً يسيراً آخر انتابني في تلك اللحظة على فرط غضبي لما ترددت في استعمال قبضة يدي في وجهه.
وضحك نيلسون وشخر.

قلت وأنا أرفع من الغضب: هل يحق لك أن تشتمني هكذا...؟
ووقفت أتذكر كيف كنت في أيام حدثي أقاتل حتى تنزف الدماء... إذا وجه إنسان لي كلاماً من هذا القبيل، ولكني لم أعد اليوم صبيّاً، بل رجلاً ينبغي أن يملك أعصابه، ويتغلب على انفعالاته.
ورفعت قبعتي إلى رأسي ومشيت إلى الباب، وأنا قائل لنفسي: هدى روعك، ولا تترك الغضب يستحوذ عليك...!

وقلت مخاطباً الرجلين: وداعاً...!
وحضرت الاجتماع التالي الذي عقده «الخلية»، وطلبت الكلمة فأعطيت لي على الأثر، وكان نيلسون حاضراً، وكذلك كان إيفانز وأوجرين.
ولما حان دوري للكلام نهضت فقلت:

«أيها الرفاق...»

«لقد ظللت خلال العامين الماضيين أشتغل مع أكثركم، ولكنني وجدتني في فترة ما أواجه حرجاً في علاقتي بالحزب ورابطتي، ولهذا الحرج قصة طويلة لا يهمني أن أتلوها الآن عليكم لأنها لا تحقق هدفاً، ولا تجدي نفعاً، ولكنني أصرحكم أنني وجدت حلاً لهذا الموقف وإني لمقترح الليلة أن يحذف اسمي من قوائم الحزب ورجاله، ولا تضطرنني خلافات نظرية إلى هذا القول الذي قلته اللحظة على أسماعكم، ولكن الواقع أنني إنما أريد ألا أرتبط بعد اليوم بقرارات الحزب وأوامره، وأحب أن أحتفظ بعضويتي في تلك الهيئات التي تعمل تحت نفوذ الحزب وإشرافه، ممثلاً لبرامجه المتعلقة بها، ومذعناً لخططه. وأرجو أن تقبل كلماتي هذه بالروح ذاتها التي

قلت بها؛ ومن يدري لعلني في يوم من الأيام مستطيع أن أجتمع بالزعماء وأتحدث إليهم عن المهمات التي أقوى على تأديتها وتنفيذها على الوجه الأكمل».

وجلست وسط صمت عميق.

وأرسل سكرتير الاجتماع نظرات مروعة نحو نيلسون وإيفانز وأوجرين.

وسأل السكرتير الجمع: هل يريد أحد مناقشة هذا البيان الذي أدلى به رايت؟

وهنا انبرى نيلسون يقول: أقترح تأجيل مناقشته إلى وقت آخر.

وأخذت الأصوات في الحال على اقتراحه وتقررت الموافقة عليه.

ودرت بعيني في أرجاء القاعة التي خيم عليها السكون، ومددت يدي لأتناول

قبعتي، واثنت أقول: أحب أن أنصرف الآن.

فلم يقل أحد شيئاً.

ومشيت إلى الباب، وخرجت إلى جوف الليل، وأحسست أن حملاً ثقيلاً انزاح

عن كتفي.

لقد أصبحت حرّاً.

وقد تصرفت تصرفاً لبقاً مستقيماً لا غبار عليه، فلم أغضب، ولم أثر، ولم أفه

بكلمات نابية، ولا هاجمت أحداً، ولا حنثت بعهدي أو يميني.

وفي الليلة التالية جاءني في البيت زنجيان شيوعيان وادعيا أنهما يجهلان ما حدث

في الاجتماع، فمضيت في هدوء تام أشرح لهما ما جرى.

فقالا وهما يكشfan عن سر زيارتهما: إن قصتك للحادث لا تتفق مع رواية نيلسون.

قلت: وماذا يقول في روايته؟

قال: إنه يقول إنك مؤتمر مع جماعة من أتباع تروتسكي، وإنك دعوت فريقاً من

الأعضاء في الحزب الشيوعي إلى الاقتداء بك والخروج من الحزب.

فصحت مبهوراً: هذا ليس بصحيح... فإن كل ما قلته هو أنني طلبت إسقاط عضويتي ولم أثر حولها مسائل سياسية.

وجلست أفكر ملياً، وأنا أسائل نفسي: ما معنى هذا كله؟
ودرت نحوهما قائلاً: أريد أن يكون انفصالي من الحزب جلياً واضحاً، فإذا أبى نيلسون إلا المضي في خطته هذه استقلت.
قالا: إنك لن تستطيع أن تستقيل.

قلت: ماذا تعنيان؟

قالا: لا يملك أحد الاستقالة من الحزب الشيوعي!
فنظرت إليهما وضحكت.

قلت: هذا كلام مخرفين.

قالا: إن في إمكان نيلسون أن يقصيك علناً ويقطع الأرض من تحت قدميك إذا أنت استقلت، وسيظن الناس أن في إخراجك من الحي الجنوبي شيئاً ارتكبه أو خطأ اقترفه.

فعراني الغضب.

هل بلغ الحزب من الضعف والشك في ذاته بحيث لا يقبل ما قلته في اجتماع «الخلية»، ومن هذا الذي يضع هذه «التكتيكات»، ويرسم هذه الخطط والتصميمات...؟

ولكنني فجأة هدأت، إذ أدركت ما هنالك.

لقد أدركت أن هذه هي التكتيكات السرية الخفية التي كان يلجأ إليها الشيوعيون في حركتهم السياسية على عهد القياصرة في روسيا القديمة.

فقد رأى الحزب أنه مضطر إلى القضاء أدبياً عليّ لمجرد أنني لا أريد الارتباط بقراراته.

وتبين لي عندئذ أن زملائي إنما يمثلون رواية غريبة لا علاقة لها مطلقاً بحقيقة ظروفهم ومحيطهم.

قلت: نبأ نيلسون أنني والله لمحاربه إذا هو أراد حربي؛ أما إذا هو ترك هذا الأمر يقف عند هذا الحد، فلا ضير، وسيكون مجنوناً إذا ظن أنني لن أحاربه علناً ولن أناصبه العداء.

ولم أنحقق مما إذا كان كلامي هذا قد وصل إلى نيلسون أم لم يصل، ولكني لم أر ضجة تثار حولي في المجمع، وإن ثارت بين صفوف الحزب ذاته عاصفة هوجاء ضدي، ففيل عني «خائن» وشخصية متحولة متقلبة، وإنسان فقد إيمانه.

ويعلم الله أن رفاقي عرفوني من قبل على حقيقتي، وعرفوا أسرتي، وعرفوا صحابتي، وإملاقي الأليم وفاقتي، ولكنهم لم يستطيعوا يوماً التغلب على خوفهم من الطريقة الاستقلالية التي كنت أعمل بها وأعيش، وهي نزعة تأصلت في نفسي، واختلطت بروحي ودمي.

- ١١ -

ونقلتني إدارة الترفيه من نادي الأحداث إلى المسرح الاتحادي للزنج لأتولى قسم النشر فيه والإعلان.

وكانت تمر بي أيام يعضني فيها الجوع بأنياب حداد، من أثر المطاعن والمثالب المستمرة التي دأب عليها الرفاق كلما ورد ذكرى في المجمع، ولاكتني السنة الناس، ولكنني كنت أتعزى حول التهم المتبادلة، والحملات المتكررة، والثارات، والانتقامات وأشباهها.

وكان المسرح الاتحادي الزنجي الذي عينت للدعاية والنشر له قد أخرج طائفة من الروايات العادية بعد صياغتها في الأسلوب الزنجي وحشوها بمشاهد تمثل الغابات

والخزعبلات وما إليها، فكانت المرأة البيضاء التي تتولى إدارته، وهي عجوز من طراز المبشرين والمبشرات، تتناول رواية من الروايات التي تحوي أشخاصاً من البيض، وتدور حوادثها في القرون الوسطى فتعيد إفراغها في شكل يتفق مع حياة الزوج في الجنوب مع زيادة تتصل بالحياة الأفريقية ومشاهدها. وأما الروايات العصرية التي تتناول الحياة الزوجية من النواحي الواقعية، فكانت ترفضها بحجة أنها مثار جدل، ومحل مناقشات وخلاف في الرأي.

وكان المسرح يحوي قرابة أربعين ممثلاً وممثلة من الزوج، وكلهم متلهف على دور يؤديه، متشوق إلى شخصية يندمج فيها، وكلهم متدمر ساخط.

وقد فكرت في الأمر ملياً، فأحزنني أن أرى هذه المواهب المضيعة، وأدركت أن هناك مجالاً فسيحاً لإنتاج رواية زوجية جديدة بالتمثيل، ولكن أحداً لا يحفل بذلك ولا يهمه، ومضيت أدرس الموقف، وأعرض الأمر على أصدقاء لي من البيض يتولون مراكز كبيرة في الإدارة المشرفة على سير التقدم الاجتماعي، وطلبت إليهم تغيير هذه المرأة البيضاء، وأفكارها الغريبة بإنسان آخر يعرف الزوج حق المعرفة، وله بالمسرح خبرة حسنة فوعدوني أنهم فاعلون.

ولم ينقض شهر حتى نقلت المديرية البيضاء، وانتقلنا بالمسرح من الحي الجنوبي إلى حي «اللوب» في المدينة، ووقع اختيارنا على مسرح من الدرجة الأولى.

ونجحت في تزكية يهودي من أهل المواهب يدعى شارلز ديشيم للتعين في مركز «المدير».

وعقدت معه عدة محادثات وضعت خلالها النقاط الرئيسية لما ينبغي أن نفعله، وألححت في أن يكون أول ما نخرجه حفلة من ثلاث روايات قصيرة، كل منها فصل واحد، ومن بينها رواية «أنشودة إلى الشمس المشرقة» التي وضعها «بول جرين» وهي فصل واحد شعري قوي رهيب يعالج أحوال الزوج في الجنوب وكيف يعيشون جماعات مصفدة في السلاسل، مقرنين في الأغلال.

وأسعدني ما جرى وطبت نفسًا بما تم، فقد رأيتني أخيرًا في مركز يسمح لي بالتوجيه والاقتراح والإرشاد، ورؤية ما أشير به منفذًا كما أريد؛ وكنت مقتنعًا بأن أمامنا فرصة نادرة لبناء مسرح زنجي صحيح لا زيف فيه، فمضيت أنظم الدعوة إلى اجتماع عام ودعوت ديشيم إليه، وعرفته بالفرقة الزنجية وقلت لهم في تعريفه إنه رجل يعرف المسرح وسيتقدم بهم إلى إخراج روايات ودرامات جدية بديعة.

وألقي ديشيم كلمة في الاجتماع قال فيها: إنه لم يأت إلى المسرح ليدبر دفته، بل ليعاون الزنوج على إدارته بأنفسهم؛ وكان كلامه سهلًا بليغًا فتأثروا به ونهضوا مصنفين له هاتفين.

وعندئذ وزعت نسخًا من «أنشودة إلى الشمس المشرقة» على أفراد الفرقة جميعًا، ووزع ديشيم الأدوار، وعين موعدًا لقراءتها معهم، وجلست أستمع بسماع ما هم قارئوه، ولكنني لم ألبث أن فوجئت بأمر أليم، فقد مضى الزنوج يتلعثمون ويتعثرون في قراءة أدوارهم، وأخيرًا كفوا عن القراءة جملة واحدة، وبدا الرعب على وجه ديشيم؛ ونهض زنجي منهم فقال: «اسمع يا مستر ديشيم، إننا نعتقد أن هذه الرواية ليست لائقة، ولا نريد أن نمثل مسرحية كهذه أمام الجمهور الأمريكي؛ ولست أعتقد أن شيئًا من هذه الأحوال التي وصفت فيها قائم فعلاً في الجنوب، قد عشت فيه دهرًا فلم أر العمال مصنفدين في الأغلال.. يا مستر ديشيم، إننا نريد رواية تحببنا إلى الجمهور وتكسبنا مرضاته.

فسأله ديشيم قائلاً: أي نوع من الروايات تريدون؟

وظهر أنهم لا يعرفون، فذهبت إلى المكتب لأرجع إلى ملفاتهم، فتبين لي أن أكثرهم قضوا حياتهم في تمثيل روايات هزلية رخيصة، لأنهم ممنوعون من تمثيل الروايات الجدية؛ فلا عجب إذا هم اليوم برموا بهذا النوع خاصة، وكرهوا أن يظهروا في مسرحيات قد لا يرضون بها الناس، وهم لهذا حائرون لا يعرفون أي نوع يؤثره على سواه.

وشعرت -ولو إلى حين- أن البيض قد يكونون على حق في اعتقادهم أن الزنوج أطفال لا ينمون ولا يكبرون.

وأبلغ ديشيم الفرقة أنه على استعداد لإخراج أي روايات تريد الظهور بها، ولكن القوم ظلوا جلوسًا كالفئران المروعة، لا يملكون قولاً يعبرون به عن رغباتهم المبهمة ومطالبهم الغامضة.

ولما ذهبت إلى المسرح بعد أيام، بهت أن وجدت الفرقة قد أعدت «عريضة» تطلب فيها إخراج ديشيم، وتطلب مني توقيعها. ولكنني رفضت التوقيع.

قلت: ألا تعرفون يا قوم صديقكم من عدوكم؟ فحملقوا الأبصار صامتين.

ودعوت ديشيم وعقدنا اجتماعًا.

قال: وماذا تراني أفعل؟

قلت: تترضاهم وتستشيرهم، دعهم يشعروا أنه من حقهم أن يتظلموا من الأمر الذي لا يروقهم.

ورأى ديشيم النصيحة في محلها، فجمع أفراد الفرقة وقال لهم: إنه يحق لهم إذا شاءوا أن يقدموا أي عرائض ضده، ولكنه يرى أنه في الإمكان تسوية أي خلاف بينه وبينهم بكل سهولة ورفق.

وعندئذ انبرى أحدهم يسأله قائلاً: من الذي أنباك أننا سنقدم عريضة؟

فنظر ديشيم إليّ وتلثم فلم يحر جوابًا.

وصاحت فتاة سوداء في الجمع قائلة: «إن في المسرح جاسوسًا!».

وعقب انتهاء الاجتماع جاءني وفد منهم إلى مكثبي فأخرجوا مديهم من جيوبهم

وأشهروها في وجهي قائلين: اخرج من هذه الشغلة بسلام، وإلا فتحنا لك بطنك بهذه السكاكين!

فتحدثت في التليفون إلى أصدقائي البيض في إدارة التقدم الاجتماعي فقلت لهم: انقلوني في الحال إلى عمل آخر وإلا مت قتيلاً!

ولم تنقض أربع وعشرون ساعة حتى أخذنا أنا وديشيم أوراقنا وتصافحنا ومضى كل منا في سبيله.

وقد نقلت إلى فرقة تمثيل نموذجية للإشراف على الدعاية لها، واعتزمت أن أحفظ بخواطري وآرائي لنفسي، أو أن أدونها عندي فلا أحاول نقلها إلى حيز التنفيذ.

- ١٢ -

وفي ذات مساء زارني في البيت جمع من الزوج الشيوعيين، وطلبوا أن يتحدثوا سرّاً معي، فأخذتهم إلى غرفتي وأغلقت الباب.

قالوا: اسمع يا دك... إن الحزب يريد منك الحضور إلى الاجتماع في يوم الأحد. قلت: لماذا، وأنا لم أعد عضواً؟

قالوا: لا بأس من هذا، ولكنهم يريدون منك أن تحضر.

قلت: إن الشيوعيين لا يكلمونني إذا لقيتهم في الطريق، والآن يطلبون مني حضور اجتماع لهم، فما السر في ذلك؟

فحاولوا التهرب مني.

قلت: إذا لم تقولوا لي فلن أحضر.

فتشاوروا بينهم متهامسين وأخيراً قرروا أن يفصحوا.

قالوا: إن روس سيحاكم هذه الجلسة.

قلت: وعلام المحاكمة؟

فعددوا لي جملة اتهامات سياسية زعموا أنه مدان فيها.

قلت: وما شأني أنا في هذا كله؟

قالوا: ستعرف إذا حضرت.

فهجمت الريبة في خاطري، أتراهم يحاولون جر قدمي إلى محاكمة لإبعادي.

قلت: لست بالساذج إلى هذا الحد، إن هذه المحاكمة قد تكون لي.

فأقسموا أن لا نية لديهم في محاكمتي، وإنما كل ما يريده الحزب هو أن أشاهد محاكمة «روس» حتى أعرف «ماذا يكون مصير خصوم الطبقة الكادحة وأعدائها».

وتولاني، وهم يتحدثون معي، ذلك الحب القديم لمشاهدة شيء جديد، وقامت في نفسي اللفتة على مشاهدة تلك المحاكمة، ولكنني لم أشأ أن أجازف مخافة أن أقع في الفخ، وأكون أن الشخص الذي تراد محاكمته.

قلت: استمعوا لي.. إنني بريء من التهم التي وجهها إليّ نيلسون، فإن ظهرت في هذه المحاكمة فقد أبدو غير بريء.

قالوا: كلا.. لن يحدث شيء من هذا.. فهلا جئت؟

قلت: ليكن.. ولكن.. اسمعوا.. إذا أنا خدعت فلن أسكت.. بل سأقاوم وأناضل...
إنني لا أثق بنيلسون، ولست سياسيًا، ولا أعرف كيف يقضي المرء الساعات في حيك الدسائس ونسج المؤامرات.

وجرت محاكمة روس في أصيل الأحد التالي.

ووقف رفاق من الشيوعيين حول قاعة الاجتماع في خفية حراسًا ورقباء، وعين آخرون منهم على الأبواب وفي الدهاليز والشوارع المجاورة.

ولما وصلت أفسح لي الطريق.

وكانت أعصابي مرهفة متوترة.

وكانت القاعدة المتبعة أنك إذا حواك اجتماع من هذا النوع فلن تستطيع الانصراف منه حتى ينفض، خشية أن تذهب إلى البوليس فتتم عنه.

وكان روس المتهم جالساً وحده إلى منضدة في صدر القاعة، وهو شاحب متجهم الوجه؛ فلم ألبث أن شعرت برثاء له، ولكني لم أتمالك نفسي من الشعور بأنه يلوح راضياً عن مجلسه هذا مستريحاً إليه، فلعل ذلك في عينيه خروج إلى النور، وأن الخروج إليه خير من البقاء في ظلام دامس وحياة معتمة.

ولم يلبث خاطري في محاولة معرفة كراهية الشيوعيين للطبقة المستنيرة أن عاد بي إلى القصص والروايات والكتب التي قرأتها عن الثورة الروسية؛ فقد كان فريق قليل من السادات على عهد روسيا القديمة، وجمع محدود من المتعلمين والمتكبرين وأهل الصلف والخيلاء يشغلون ملايين من الفقراء والجُهَّال، في خدمة ضياعهم، وطاعة أمرهم، والنزول على حكمهم صاغرين، فلا عجب إذا علق بأذهان الشيوعيين حين جاء أوانهم، وأقبل عهدهم، أن الخيانة قرينة العلم، وأحسوا أن لا أمان «للمستنيرين» والمتعلمين.

ولكن لم يلبث الشيوعيون أن تبينوا أن في العالم الغربي عنصراً آخر يخيفهم ويزعج بالهم وأعني به عنصر «العصاميين» من الكتاب وأهل الأدب، وأن الزنجي ذاته الذي يحيط به الجهل والاستغلال، كما كان شأني، يستطيع إذا أوتي الإرادة والعزم والرغبة الصادقة أن يتعلم القراءة ويفهم العالم الذي يعيش فيه.

وهذا هو العنصر الذي لم يستطع الشيوعيون أن يفهموه.

وبدأت المحاكمة في جو هادئ، وبطريقة غير رسمية، حتى بدا القوم وكأنهم جماعة من الجيران جلسوا للحكم على جار لهم سرق دجاجة أو فرخاً، وكان

مسموحًا لكل إنسان أن يطلب الكلمة، فإذا طلبها أعطيت له، وتركت الحرية مطلقة لمن يشاء كلامًا، وإن كان للاجتماع كيان خاص يبعث على الدهشة، كيان يماثل في عمقه الرغبة ذاتها التي تحدد الناس إلى العيش معًا، والحياة في ظل الوحدة والوئام، والجنوح إلى السكينة والسلام.

ونهض أحد أعضاء اللجنة المركزية فوصف الموقف الدولي في منطق رصين، بغير انفعال وقول معزز بالوقائع، ورسم صورة بشعة، ولكن بارعة، لعدوان «الفاشية» في ألمانيا وإيطاليا واليابان.

وقد أقنعني الباعث الذي حمل القوم على ابتداء المحاكمة على هذا النحو، فقد تبين لي أنه كان من المتعين عليهم أن يبينوا الأثر المترتب على الجنابات التي اقترفها روس في نظرهم، ومدى صلتها بالبشرية وأثرها العام، واقتضى هذا تصوير الإنسانية المعذبة في صورة حية بارزة المعالم، وكانت الصورة فعلاً حقيقية. ولست أظن في العالم كله هيئة أقدر من الحزب الشيوعي على معرفة دقائق العمال ومعايشهم، ولا أكثر خبرة بتفاصيلها وجزئياتها، لأن مصادرها مستقاة رأسًا من العمال أنفسهم.

وعمد الخطيب الثاني إلى شرح الدور الذي يضطلع به الاتحاد السوفيتي، فقال إنه الدولة العمالية الوحيدة في هذا العالم، ومضى يصف كيف يحيط الأعداء بها من كل جانب، وكيف تحاول «تصنيع» كيانها، ويعدد التضحيات التي تبذلها لمعاونة العمال في العالم على شق طريق إلى السلام من ناحية السلامة الجماعية.

وكانت الوقائع المبسوطة في المجلس صحيحة إلى حد ما، ولم يقل أحد شيئاً خلال ذلك كله عن المتهم الذي جلس يستمع كبقية المجتمعين، لأن الوقت لم يحن لإدماجه هو وجرائمه في هذه الصورة البارزة لنواحي الصراع العالمي ومعالمه.

فقد اقتضى المقام أولاً التعميم وبسط الحقائق المجردة أمام المستمعين حتى يستطيعوا أن يقيسوا على أساسه، حكمة تصرفهم أو خطأ عملهم على السواء.

وأخيرًا نهض خطيب فتكلم عن الحي الجنوبي في مدينة شيكاغو وسكانه الزوج، وما يعانونه من آلام، وما يقاسونه من حرمان، رابطًا ذلك كله بالصراع العالمي وأحداثه. وتبعه خطيب آخر فشرح المهمة التي يتولاها الحزب الشيوعي في ذلك الحي، وانتهى من ذلك ونحوه إلى إدماج الصور الثلاث. الصورة العالمية العامة، والصورة القومية الخاصة، والصورة المحلية بالذات، في «مأساة» شاملة لصراع معنويّ يشترك فيه كل فرد من المجتمعين، ويحمل كل مستمع منه نصيبًا.

وقد استغرق هذا التصوير الدقيق الشامل أكثر من ثلاث ساعات، ولكنه على كل حال بث في قلوب الحاضرين معنى جديدًا للحقيقة والواقع، معنى يتصل بحياة البشرية ودنيا الأرض والناس. ولست أعرف هيئة في العالم كله أقدر من الحزب الشيوعي على إشعار الناس معاني الأرض والبشرية والحياة الدنيا، اللهم إلا إذا استثنينا الكنيسة وأساطيرها الأولى وخرافاتها المتعددة.

وقبل المساء بدأت التهم تكال لروس، لا من جانب الزعماء أنفسهم، بل على ألسنة أصحابه وأهل مودته بالذات، الذين يعرفونه أكثر مما يعرفه الآخرون!

لقد كان اتهامهم إياه تدميرًا له، بل صواعق هوت عليه.

وبدا الرجل ذابلًا ذائبيًا من فرط ما أصابه.

ولم تعد مشاعره تقوى على مغالبة وطأة هذا الموقف وحرجه.

فقد رأى الذين تولوا اتهامه إنما تكلموا عن طوعية، واتهموه عن اختيار، فلم يبعثهم عليه تخويف، ولا حملهم عليه إرهاب.

لقد مضوا بكل ما أوتوا من حرية يعينون وقائع، ويذكرون تواريخ، ويشرحون مشاهد، حتى راحت أغلاطه وآثامه تنكشف في رفق، وكومة مساويه وأخطائه وضلّاته تتحلل وتتناثر بقوة لا تدحض، ومنطق ليس لمثله من تفنيد.

وجاءت اللحظة التي يتولى روس فيها الدفاع عن نفسه، وكنت قد نبئت أنه اتفق

مع صحاب له على الشهادة في مصلحته، ولكني في تلك اللحظة لم أراه يستنصر أحدًا أو يدعو شهيدًا له، يزود عنه، وإنما نهض راعشًا، وحاول أن يتكلم فخانه الكلام؛ وكان السكون يسود المكان، سكون كصمت القبور وسكينة الأجداث.

وبدا الذنب مسطورًا على كل قطعة من أديمه، وراحت يده ترتجفان، فأمسك بحافة المنضدة ليتوازن على ساقيه فلا تخذه ركبتاه.

وانمحت شخصيته من الوجود، وفقد شعوره بالذات، ولولا أنه ارتضى هذا المشهد الذي حطمه، واشترك في هذه الرؤية التي دمرته، لما بلغت به الذلة هذا الحد، ولما تضائل وخنع كل هذا التضائل والخنوع.

قال بصوت خفيض عميق النبرات: «أيها الرفاق! إنني مدان بهذه التهم كلها...» وأجهش بالبكاء.

لقد انتحب، ولم يكرهه أحد على القول، ولم يسمه أحد عذابًا حتى يعترف هذا الاعتراف.

ولم يوعده أحد، ولم يهدده، بل كان طليقًا حرًا، يستطيع الخروج من القاعة فلا يحضر بعد اليوم اجتماعًا شيعيًا آخر مدى الحياة.

ولكنه لزم مكانه، ولم يشأ منصرفًا، ولم يرد خروجًا.

إن هذه الرؤية التي طالعه، رؤية عالم متحد، استقرت في أعماق نفسه فلن تفارقه إلا إذا فارقت الحياة.

ومضى يتكلم، فوصف كيف أخطأ، وشرح كيف ضل، ووعد أن يصلح ما أفسد، وينيب بعد ضلال.

وقد بدا لي وأنا في مجلسي ذاك أن خلقًا كثيرًا من الناس يظنون أنهم خبروا الحياة، ولا يريدون أن يصدقوا ما قيل لهم عن محاكمات «موسكو» ولكن ليتهم كانوا حاضري محاكمة «روس»، هذه المحاكمة العجيبة المدهشة، إذن لصدقوا ما

كان يساورهم الشك فيه، وأمنوا بما كانوا له من قبل مكذبين.

إن روس لم يخدع لكي يحمل على الاعتراف.

ولكنه إنما أوقف!

ولم يدفعه الخوف من الحزب، وإنما دفعه الخوف من العقاب الذي كان سيتقاضاه من نفسه إلى الحديث عن خطاياها.

لقد تكلم من قبله الخطباء، فما زالوا به حتى أبدلوه من عينيه عينيْن آخرين لينظر بهما إلى جرائمه، ويشهد بهما ذنوبه، ثم جلسوا ليستمعوا إليه وهو يقص عليهم ما فعل، ويروي لهم ما كان منه.

لقد تلاشى فيهم جميعاً واتحد واندمج، بغض النظر عن العنصر واللون؛ فقد كان قلبه قلوبهم، وكانت قلوبهم قلبه؛ وحين يصل امرؤ إلى هذا الحد من القربة من الناس، والتلاشي في الغير، أو حين يبلغ المرحلة من هذه «الوحدة» أو «الوحدانية» أو عندما تجعله المحاكمة كذلك، بعد أن ينفصل عنهم بأخطائه، وينحرف عنهم بآثامه وأغلاطه... عندئذ يحس أن لا معدى له عن النهوض بدافع من أعماق الدوافع المعنوية في هذا العالم، ليقول على رؤوس الأشهاد: إنني مذنب، فاغفروا لي ما فرط مني... إنني التائب المنيب.

لقد بدا لي هذا المشهد، رائعاً مجيداً؛ ولكن لأن الحزب أنكرني، وكان أعمى جاهلاً لحقي، لم ألث أن أحسست أنه مشهد منكر، ومنظر بشع!

إن عماهتهم عن معيشتهم المحدودة، وحياتهم التعسة المقبورة، للظلم البالغ الذي عانوه زماناً طويلاً قبل أن تأتي الشيوعية أو قبل أن يستمعوا لوعودها، حملتهم على الظن بأنني مع أعدائهم عليهم، وأني خصم من خصومهم؛ فإن الحياة الأمريكية أفست إحساسهم إفساداً أعجزهم عن التمييز بين الصديق والعدو، والتفريق بين الحليف والخصم المبين.

ولو أنهم أوتوا سلطاناً في الدولة لاتهموني علناً بالخيانة العظمى وحكموا بإعدامي.

وكنت على يقين أنهم كانوا يشعرون بسبب هذا العمى الأسود الذي منوا به، أنهم في ذلك على صواب، وأنهم لم يخطئهم فيه السداد.

وأحسست عندئذ أنني لا أستطيع البقاء إلى النهاية، وشعرت برغبة ملحّة في الخروج إلى الشارع، والإفلات من هذا التوتر البالغ الذي استولى على أعصابي واستمكن مني.

فنهضت ومشيت إلى الباب.

واعترضني أحدهم فهز رأسه منذراً بألا أنصرف حتى تنتهي المحاكمة.

قال: لا يمكن أن تنصرف الآن.

قلت غاضباً، وقد علا صوتي من فرط الحنق أكثر مما كنت أريد: إنني خارج!

ولكنه وقف يحملق في وجهي ملياً.

وجاء رفيق آخر يهرع نحونا.

وتقدمت خطوة إلى الأمام، فلم يكن من هذا الأخير إلا أن أشار لصاحبه أن يخلي بيني لأنهم لا يريدون إحداث ضجة، ولم أكن أنا أيضاً أريد إحداثها، فتنحيا لكي أمرّ.

ورحت أهيّم في شوارع شيكاغو المظلمة، ومضيت إلى مسكني حزيناً مهموماً، وجعلت أقول لنفسي مرة أخرى، إنه ينبغي أن أروض خاطري على العيش بمعزل والحياة بمنأى.

ولم أستشعر أي غضاظة أو مضض من تنكرهم لي، وإقصائي عنهم، ولا قامت بنفسي رغبة في قضاء أيامي مردداً ما فعلوا بي شارحاً للناس ما أتوه.

ولعل ما تعلمته في أيام حدثاتي هو الذي أنقذني من اتخاذ هذا المسلك الذي لا

جدوى منه ولا نفع فيه.

ورقدت في فراشي تلك الليلة وأنا أقول لنفسي: «سأكون لهم، وإن لم يكون لي»!

- ١٣ -

ومن المسرح النموذجي الاتحادي نقلت إلى المشروع الاتحادي للكتاب وحملة الأقلام، فمضيت أحاول كسب قوتي من وضع التقاويم وكتب «الدليل»، وكان كثير من الكتاب المعينين في هذا المشروع أعضاء في الحزب الشيوعي، وقد بروا بما تعاهدوا عليه من الامتناع عن الكلام مع «الخونة الناكثين بعهد الطبقة العاملة» فكنت أجلس في المكتب بجوارهم، ويتفق موضعي في المطاعم بجانبهم، وتحتويني المصاعد معهم، هابطين أو مرتفعين، فكانوا يشيخون عني بوجههم، ولا يوجهون إليّ كلمة واحدة.

وقد رقيت بعد بضعة أشهر مشرفاً على المقالات، وإذا بي أصطدم بمتاعب سياسية، ففي ذات صبح دعاني المدير إليه في مكتبه.

قال: اسمع يا رايت، من هم أصدقاؤك هنا في معشر الكتاب والمحربين؟

قلت: لا أدري، ولكن لماذا تسألني؟

قال: يجب أن تعرف من هم ولا تبطئ.

قلت: ماذا تعني؟

قال: إن بعضهم يطلب فصلك بدعوى العجز وقلة الكفاية.

قلت: ومن هم أولاء؟

فراح يذكر لي عدداً من رفاقي القدامى.

أي والله، لقد وصل بهم الحقد إلى هذا الحد، لقد حاولوا انتزاع اللقمة من فمي انتزاعاً.

قلت: وماذا تنوي أن تفعل بشكواهم؟

قال ضاحكاً: لا شيء، وأظنني فاهماً ما يجري هنا، ولن أدعهم يفلحون في طردك من هذه «الشغلة».

فشكرته ونهضت لأمشي إلى الباب، ولكنني وقفت لأواجهه، إذ بدا لي في لهجته ما يريب.

قلت: في هذه «الشغلة»، ماذا تعني بهذا القول؟

قال: هل تريد أن تفهمني أنك لا تعرف؟

قلت: أعرف ماذا؟ إنني لا أدرك من هذا الكلام شيئاً.

قال: لماذا خرجت من المسرح الزنجي؟

قلت: لقيت فيه متاعب، لقد طردني الزوج منه.

قال بتهكم: ألا ترى أنهم كانوا في ذلك مدفوعين؟

فعدت إلى مجلسي، وقد تولاني الفرع، ونظرت إليه مبهوراً.

قال: لا تخف من شيء هنا، وامض في عملك.

فغمغمت أقول: لا أكاد أصدق ما تقول.

قال: انس ما جرى بيننا.

ولكن جرى ما هو أدهى.

ففي ظهيرة يوم من الأيام أغلقت منضدتي وهبطت في المصعد، ولما وصلت إلى الطبقة الأولى من المبنى، شاهدت صفّاً من المعينين للتجوال والمراقبة يروحون في الشارع ويغدون، وكان كثيرون منهم يحملون لافتات، وفيهم صحب لي قدماء، وهم

يهتفون مطالبين برفع أجور الفنانين والكتاب.

وفيما كنت أجتاز الباب سمعت صوتاً ينادي باسمي قائلاً: ها هو ذا رايت التروتسكي اللعين.

نحن نعرفك يا.

أرايتم الخائن... ها هو ذا!

وخيل لي لحظة أنني لم أعد حياً... فقد وصل الأمر بي إلى سماع اسمي مقترناً باللعنات في شوارع المدينة الثانية بين كبرى المدائن الأمريكية.

لقد هزني هذا الحدث هزة لم أشعر بمثلها في يوم ما.

ومرت الأيام.

ومضيت أؤدي عملي كعضو مجلس الإدارة المنتدب من النقابة التي ساعدت على تنظيمها، وكان الحزب قد حاول جاهداً المعارضة في انتخابي لتولي الإدارة، بل لقد راح رفاقي القدامى في محاولتهم القضاء على نفوذي في النقابة، يحاولون القضاء على النقابة ذاتها.

وقبيل حلول أول مايو عام ١٩٣٦ قرر أعضاء النقابة الاشتراك في الموكب العام. وفي صباح ذلك اليوم تلقيت تعليمات مطبوعة عن الموعد والمكان اللذين سنجتمع فيهما للانضمام إلى العرض العام.

وفي الموعد المضروب بادرت إلى الموضع فتبين لي أن الموكب ابتداءً فعلاً، وحاولت الاهتمام إلى أعلام نقابتي فلم أعثر عليها وجعلت أذرع الشارع ذهاباً وجيئة سائلاً عن قومي فلا أجد هادياً.

وأخيراً رأيت زنجياً يقول لي: آه... إن نقابتكم مرت منذ خمس عشرة دقيقة فإن كنت تبغي المسير، فادخل الصف في أي موضع تشاء.

فشكرته ورحت أخترق الجماهير المتظاهرة، وإذا بي فجأة أسمع منادياً يناديني،
فدرت بعيني لأرى من المنادي فوجدت عن يساري قسم الحي الجنوبي مصطفىاً يهم
بالمسير.

ودعاني صديق قديم قائلاً: هلم إلينا.
فدنوت منه.

قال إذ دانيته: ألسـت سائرًا في الموكب؟
قلت: لقد فاتني اللحاق بنقابتي.
قال: يا أخي وماله... الحق بنا.

قلت، وقد تذكرت زيارتي الأخيرة لمركز الحزب وموقفه مني: لا أدري هل أفعل
أم لا.

قال: هذا يوم أول مايو... ادخل في الصف!
قلت: أنت عارف ما جرى.

قال: هذا لا يهم، كل إنسان اليوم في الموكب مشترك، فهزرت رأسي قائلاً: خير
لي ألا أفعل.

قال: أخائف أنت، هذا يوم أول مايو!
واجتذبني من ذراعي فأدخلني في الصف بجانبه، فوقفت أتحدث إليه، وأسأله عن
عمله وعن أصدقائنا.

وإذا بصوت يصيح: اخرج من صفوفنا!
فدرت بعيني، وإذا بي أرى شيوعياً من البيض يرأس قسمًا من الحزب، ويدعى
«ساي بيري» وهو فتى نحيف حليق الرأس.
قلت: إن هذا يوم أول مايو، وأريد أن أسير في الموكب.

فعاد يصيح بي: اخرج!

قلت: لقد دعيت إلى الانخراط في الصف.

والتفتُ إلى الشيوعي الزنجي الذي دعاني، ولم أشأ أن ألجأ إلى العنف، ونظرت إلى صديقي فإذا به يشيح عني لأن الخوف تملكه، فلم أدر ماذا أنا فاعل.

قلت: إنك طلبت مني أن أنضم.

فلم يحر جوابًا.

قلت، وأنا أجذبه من ردن ثوبه: قل له إنك أنت الذي دعوتني، ولكن «ساي بيرى» عاد يصيح بي قائلاً: «إنني أطلب منك للمرة الأخيرة أن تخرج من صفوفنا».

فلم أتحرك... وإن كنت قد أردت، ولكنني كنت في تلك اللحظة نهبًا مقسمًا لدوافع جياشة منعني من الحركة، وثلت قواي.

وجاء شيوعي آخر من البيض لمساعدة «بيرى» ودنا هذا مني فأمسك برقبتي وراح يجرنى جرًّا، ولكنني قاومت وإذا بهما يمسكان بي، فحاولت التملص منهما وأنا أصيح بهما «اتركاني!».

ولكن الأيدي تكاثرت عليّ، فاحتملني من الموضع الذي جمدت فيه، وشعرت بأنني معلق في الفضاء، ولكنني أنقذت نفسي من الارتطام بالتشبث بطرف الإفريز حين سقطت على يديّ.

ونهضت متراخياً واستويت على ساقِي، بينما وقف بيرى وصاحبه يحملقان البصر في وجهي؛ وتبين لي أن الصفوف الشيوعية من البيض والسود راحت تنظر نحوي بأعين باردة مستنكرة متجاهلة شأني.

ولم أكد أصدق ما جرى، وإن ظلت يداي تدميان وينبعث منهما ألم موجع. لقد اعتدى عليّ في الطريق العام شيوعيان من البيض، ووقف الزوج عن كُتب ينظرون.

ولم أستطع الانصراف من ذلك الموضع، وخلا ذهني من كل فكرة أو خاطر.

ولكنني لم أشعر بنزوع إلى العدوان.

فقد كبرت، وفارقت عهد الطفولة من زمان بعيد.

وبدأت صفوف الحزب الشيوعي الضخمة تتحرك فجأة، رافعة أعلامها الحمر التي تحمل شارة المطرقة والسندان، رمز الثورة، مرفوعة خفاقة فوق الرؤوس، ومضى دويّ الطبول يتردد في الفضاء، والعقائر ترتفع متعالية بالأغاني والأناشيد، والأرض تهتز من وطأة الأقدام اهتزازاً.

ومرت قبالي مواكب من رجال متجهمي السحنات ونساء عابسات مكفهرات، بين بيض وزنجيات، مستفيضين في الطريق على أعين الجماهير.

وتابعت المواكب إلى سرة المدينة -حي «اللوب»- ثم انعطفت إلى المنتزه العام -جراند بارك بلازا- فجلست فوق مقعد خشبيّ.

جلست لا أفكر، جلست عاجزاً عن أي تفكير.

ولكنني أحسست إلهاماً خفياً يولد في أعماقي، وينبعث في أغوار نفسي.

فقد توالى عليها موجات من أخيلة، تعاقبت وتدافعت لتؤلف اتجاهًا واحدًا، ويجتمع منها إحساس واحد.

لقد انشئت أقول لنفسي، إنهم عُميُّ الأبصار، لقد أعماهم أعداؤهم بكثرة ما ألحوا عليهم به من الظلم، وفرط ما احتملوه على أيديهم من البغي والطغيان.

وأشعلت لفافة من التبغ، وسمعت أغنية يتماوج بها الفضاء:

«انهضوا يا فريسات المجاعة!».

وعندئذ تذكرت الروايات التي وضعتها، تلك الروايات التي خصصت فيها للحزب الشيوعي أدوار مجد وبطولة وشرف؛ وقد سرني أنني فرغت منها، ولم تعد بحاجة إلى

مراجعة أو تهذيب؛ نعم، لقد سرني أنها انتهت، لأنني أحسست في أعماق قلبي أنني لن أستطيع بعد اليوم أن أكتب بذلك الأسلوب الذي كنت أكتب به، ولن أشعر بذلك الشعور الحاد المرهف الذي كنت أستشعره، ولن أعبر بعد الآن عن الأمل الوثاب الغلاب في النفس، ذلك التعبير الحماسيِّ البليغ الذي كنت أعبر به من قبل، ولن أعود أسلم بالإيمان تسليماً^(١).

وطرقت سمعي نغمات نشيد تقول:

«إن عالماً أفضل...

... يوشك أن يولد!»

وكانت المواكب لا تزال سائرة، والأعلام لا تزال خفّاقة، والعقائر لا تكف عن إنشاد. واتخذت سَمْتِي إلى البيت وحيداً، أي واللّه، وحيداً منفرداً، أحدث النفس قائلاً لها إن القلب الإنساني هو في كل هذه القارة الأمريكية العظيمة المترامية، العامل الوحيد الذي قلما يفهمه الناس، وإن الوسيلة التي تذلل للمرء أن يعيش عيشة إنسانية، هي الهدف الذي قلما يلتمسونه، والمرمى الذي قلما يتوخونه.

ولكن لعلّي مستطيع أن ألقى شرارة في وسط هذا الظلام البهيم.

وسأحاول لا لأنّي أريد، بل لأنّي مضطر أن أفعل إذا أردت أن أحيأ، وأبئت إلا أن أعيش.

سألقي كلاماً في وسط هذا الظلام، وأبعث بألفاظ في فحمته، ثم أنتظر الصدى. فإن تردد، بل إن بدا خافتاً، ألقيت بكلام آخر، أقصّ به، وأسير وأناضل، في سبيل إشعار الناس بمعنى اللهفة والحرص على الحياة، اللهفة التي تعض جوانحنا بأنيابها الحداد، وإبقاء العنصر الإنساني الذي لا سبيل للتعبير عنه، حيّاً ماثلاً في القلوب والأرواح.

(١) انظر المقدمة. فقد اقتبس كروسمان هذه الفقرة من حديث «رايت».

القسم الثاني
العابدون من بعيد

أندريه جيد

مقدمة بقلم «اينيد ستاركي»

في عام ١٩٢٠ استولى على أندريه جيد تطور بالغ المدى؛ فقد انتقل من دور المفكر المنطوي على نفسه الذي عرفناه في مؤلفاته الباكرة، إلى دور الفيلسوف الهادئ الذي عرفناه في كتبه الأخيرة؛ فقد انصرف عن تعذيب نفسه، وعدل عن إلحاحه القديم على تقصي الدوافع إلى الجريمة والإثم، وأصبح الرجل الذي ظن أنه قد اكتشفه أخيراً في أعماقه، وهو القائل: «إنني أدع للمتناقضات جميعاً مداها في نفسي تفعل بها ما تشاء». وقد تخلص بالانطلاق من الصراع النفسي الذي كان متشبثاً به، ومن إدمان التحليل الشخصي، إلى البحث الموضوعي، لا من ناحية مشكلة الجريمة والإثم والحرية الشخصية وحدها، بل من مختلف النواحي والجهات.

وفي شهر يولييه عام ١٩٢٥، بعد فراغه من كتابه «الماليون الضالون»، نزح إلى أفريقيا، ولم يعد منها إلا بعد عام من سفره، وقد استبشع ما رآه في المستعمرات الفرنسية الاستوائية من استغلال السادات البيض لأهلها الزوج؛ وحين رجع إلى وطنه كتب يقول: «إن حزناً شديداً لن يفارقني بعد اليوم»؛ وكتب بعدئذ إلى صديقه «شارل دي بو» يقول: «لست أود الظفر بالسعادة لنفسي فحسب، بل أريد أن يصل إليها الغير كذلك، وهذا هو السر في أن شعورك بالسعادة ليس شيئاً مذكوراً، فإن السعادة هي إسعاد الآخرين».

وهكذا أصبح أندريه جيد نصير الضحايا والمستذلين ومعاشر المجرمين والجناة.. فهو يطالب الناس لهم بمعاملة أكثر عطفًا مما هم في المجتمع واجدوه، ونصير النساء، فهو يطلب لهن المساواة بالرجال، وبخاصة المساواة الروحية، وأهل المستعمرات، فهو يدافع عن قضيتهم في كتابين وصفها فيهما عقب عودته من إفريقيا، وهما «رحلة إلى الكونغو»، و «العودة من بحيرة تشاد»، وأخيرًا «معاشر المحرومين في الجماعة الإنسانية من كل امتياز». وقد اعتنق عندئذ المبادئ الشيوعية وقصد إلى روسيا.

وقد رأيناه يعلن أنه كان شيوعيًا في أعماق قلبه طيلة الحياة، وهو لا يدري، حتى في الفترة التي كان فيها أشد ما يكون مسيحية.

وقال في «يومياته»: إن ما أعجبه في روسيا هو إلغاؤها تلك الكلمة التي حكمت على آدم بالشقاء، وهي «بَعَرَقَ جبينك تأكل خُبْزك...».

وكان هذا التحول لوناً جديداً في فكرة «الحرية الشخصية» لديه، فقد كتب في عام ١٩٣١ خلال المقدمة التي وضعها لكتاب «أنطوان دي سان اكسيري»، وهو «سرقة ليلية» يقول: وإني لشاكر للمؤلف إلقاء ضوءاً على حقيقة متناقضة في ظاهرها، وإن كانت لها أهمية نفسية كبيرة عندي، وأعني بها أن سعادة الإنسان ليست في حريته، بل في قبول «الواجب».

فقد كان هذا التحول الملحوظ عدولاً عن المعنى الشخصي الفردي للحرية، ذلك المعنى الذي شرحه ثلاثين عاماً مضت في كتابه «الأغذية الأرضية»، إلى ما راح أخيراً يتحدث عنه بقوله عنها «الحرية الممتحنة لا الحرية المهينة»^(١) أو «حرية السيد لا حرية العبد».

وقد رأيناه في مسرحية «أوديب» التي وضعها عام ١٩٣١ يبين في شخصية «البطل» ذلك الدمار الكلي الذي يصيب المرء حين لا يقر شيئاً غير نفسه، ولا يرتضي سوى

(١) الممتحنة: أي التي يمتحنها المرء ويستخدمها. وأما المهينة بفتح الميم، فمن المهانة، أي الذلة والإذلال.

ذاته، ويجعل الحرية الشخصية غالبية على كل شيء عداها.

فقد بدأ «أوديب» في تلك الرواية مزودًا بكل المزايا التي يعتقد «جيد» أن لا غناء للفرد الحر عنها، وظهر في البداية مختلًا فخورًا سعيدًا لا تعوقه علاقات الأسرة ولا تحول دونه التقاليد والعادات المرعية، وحيدًا بنفسه منفردًا بذاته، ولكنه في النهاية ينقلب مهزومًا مدحورًا، لأنه إنما يحاول الاستغناء.

وقد اضطر «جيد» بعد هذه الهزيمة، أو هذا الإفلاس، إلى الاعتراف بأن الإنسان إذا غَنِيَ بنفسه عن الله مهزوم عن محالة، مقدور عليه الفشل والانتحار، إلا إذا هو استعاض عن الله بفكرة أخرى، أو عقيدة غير عقيدته.

لقد رأينا أوديب في النهاية يرفض الله ليؤمن بالإنسان، كما شهدنا «جيد» ذاته يتطلع إلى الشيوعية، ويعتقد أن الحرية ليست كافية في ذاتها، بل إنها لتدمر نفسها، إذا هي لم ترتبط بمثل أعلى لا يَمُتُّ إلى «الأنانية» ولا صلة له بحب الذات، أو إذا هي على الأقل لم ترتبط بواجب ما.

لقد دار جيد يومئذ بعينه ملتمسًا شيئًا من الالتزام، وناحية من نواحي المسؤولية وظن أنه واجدهما في الشيوعية.

لقد ظن أنه سوف يجد فيها، مع الخدمة المثالية التي توافرت لها، والنظام المتين الذي يلازمها، أوفى تعبير للإنسان، وأصح صورة للحرية، وهو في ذلك القائل: «إن أكبر انتصار للفرد هو تخليه عن فرديته» كما قال فيما بعد في كتابه «الأغذية الأرضية الجديدة» عام ١٩٣٥: «إن كل مخلوق بشري لا هدف له إلا نفسه يعيش في فراغ أليم...».

ولم يكن اهتمامه بروسيا تطورًا جديدًا عراه، فقد كان يشتغل في وضع كتاب عن «دوستوفسكي»، قبل نشوب الحرب الأولى، وألقى في سنة ١٩٢٢ سلسلة محاضرات عنه بمناسبة ذكره المئوية، وقد تخيل يومئذ أنه قد بدأ يشهد من خلال الظلمة الدامسة التي غزت روسيا منذ قيام الثورة بريقًا من أمل وشعاعًا من رجاء، فقد بدت روسيا له

مضحكية بذاتها لخلاص العالم وإنقاذ البشرية، وإن كان بعد عشر سنين من ذلك التاريخ عاد يرى أنه من الجائز أن يكون هذا الخلاص قد تحقق بالفعل، وكان إلى ذلك العهد قد عرف بين الناس بأنه الكاتب الذي لا يريد أن يتورط، ولا أن يتحيز، فإذا به المتورط بغير حرص ولا هوادة في الإيمان بحلّ الشيوعية لمشاكل العالم ومتاعبه، فكان ذلك منه نوعاً من التحول الديني، أو هو تحول عاطفي أكثر منه ذهنيًا، حتى لقد كتب في يومياته يقول: أشعر بأنني لست أخًا إلا لمن دخلوا الشيوعية من طريق الحب... وعاد في عام ١٩٣١ فكتب قائلاً: أود أن أرفع صوتي في العالم عاليًا بعطفي على الاتحاد السوفييتي، وأرجو أن تسمع صرختي وأن يكون لها أثرها وأتمنى أن يطول بي العمر حتى أرى هذا المجهود الجبار منتصرًا، هذا المجهود الذي أرجو من أعماق قلبي أن يكمل بالنجاح، بل هذا المجهود الذي أود أن أعمل له وأساهم فيه.

وكان على استعداد للتضحية ببعض قداسة فرديته، ولكنه لم يكن يرى لذلك ضرورة ملحة.

ومضى في سنة ١٩٣٢ يقول: إنني لا أرى ثمة سببًا يدعو إلى وقوع اصطدام بين الفردية والشيوعية، فسأظل مقتنعًا بالفردية، ولكن من الخطأ أن يحاول بعض الناس إقامة فارق بين الشيوعية والفردية أو يظن أنهما على طرفي نقيض، وأن الاعتقاد الثابت بأنه في الإمكان أن يكون الإنسان بل في الواقع يتحتم أن يكون «شيوعيًا» وفرديًا في آن واحد، لا يمنعه من التنديد «بالامتيازات» وحظوات «الوراثة» وجملة الأغلاط المقترنة «بالرأسمالية» التي لا يزال عالما الغربي متعلقًا بها والتي تسوق به قُدماً إلى الدمار، وعساك تسأل لماذا أنا متلهف على الشيوعية مستشعر الحنين إليها؟ والجواب أنني مؤمن بعدلتها، ولأنني متألم من المظالم القائمة التي يزداد ألمي منها اشتدادًا حين أراني أنا نفسي المحظوظ الممتاز، ولأن النظام الذي نعيش تحته يلوح لي أنه لا يحمي الناس من شر ضروب الاستغلال وأسوئها، ولأنني لا أرى بين معاصر «المحافظين» إلا أشياء ميتة أو في طريق الموت، ولأنه يلوح لي من الخطل البالغ

التعلق بأمور أخذت أيامها، ونعمت بالحظوة في زمانها، ولأنني مؤمن بالتقدم وأفضل ما سيكون، على ما قد كان، أفتسألونني لماذا أحن إلى الشيوعية؟

وأقول لكم إنني أحن إليها لأنني مؤمن بأننا سنتمكن بها من بلوغ أسمى حدود الثقافة، ولأن الشيوعية هي التي تستطيع، بل في الواقع يجب، أن تجلب إلينا نوعاً جديداً، بل نوعاً أفضل من الحضارة.

وكان «جيد» يعتقد أن الشيوعية المفهومة على وجهها الصحيح توجب تشجيع «القيم» الفردية حتى يتسنى لها الظفر من كل فرد بأحسن ما لديه.

وقد بعث في عام ١٩٣٥ برسالة إلى الشيوعيين في مؤتمر الكتاب السوفيت يقول فيها: «على الطريق السلطاني» للتاريخ، ذلك الطريق الذي يتحتم على كل بلد، وينبغي لكل أمة، أن تستقيم إن عاجلاً أو آجلاً، قد تولى الاتحاد السوفيتي الزعامة، وسار في الطليعة، وسط مظهر رائع، وفي مشهد مجيد، فهو اليوم يضرب لنا المثل على المجتمع الجديد الذي كنا نحلم به، ولا نجرؤ على الأمل فيه، ومن المهم في عالم العقل والذهن أن يعطي الاتحاد السوفيتي المثل الطيب، ويرسم القدوة الحسنة، وقد أصبح لزاماً عليه أن يدلل لنا على أن الفكرة الشيوعية العليا ليست كما يحب أعداؤها أن يرسموها، مجرد «طوبوية» كقرية من قرى النمل، بل من واجب اليوم أن تنشئ في عالم الفنون والآداب «فردية شيوعية»، إذا سمحتم لي أن أربط بين هاتين الكلمتين على هذا النحو، وإن كان الخطأ المألوف أن يظن أنهما على طرفي نقيض، وليس من شك في أنه لم يكن بد من انقضاء فترة من الزمن في حمل الجماهير على الإيمان، وحفز الكافة إلى الدخول أفواجا في الحظيرة، ولكن الاتحاد السوفيتي قد اجتاز الآن هذا الدور، فلا سبيل إلى انتشار الشيوعية اليوم إلا بمراعاة طبائع كل فرد وخواص فطرته. فإن المجتمع الذي يتشابه فيه الأفراد عامة غير مطلوب، بل أريد أن أقول إن تحقيقه ضرب من المستحيل، والأدب بالأحرى، فكل صاحب فن هو بالضرورة «فردية» مهما تكن آراؤه الشيوعية من القوة، ومهما يكن تعلقه بالحزب

مكينًا، لأن «فرديته» -أو استقلاله الذاتي- هي وحدها التي تمكنه من تأدية عمل نافع، وإسداء خدمة للمجتمع؛ وأعتقد أن ذلك الخوف الذي لا يعترى غير العجزة والأوكال، وأعني به الخوف من التلاشي في الجماهير، هو خوف أحمق، وإشفاق سخي، وفزع لا يخلو من خطر.

إن الشيوعية بحاجة إلى شخصيات قوية، كما أن هذه الشخصيات واجدة في الشيوعية حجتها وقوتها وبأسها...».

وقد طُلب إلى «جيد» في الاجتماع الذي عقده في باريس عام ١٩٣٥ «رابطة البحث عن الحقيقة» أن يدافع عن آرائه فقال: إنني أعتقد أن المسيحية بما أوتيت من توفيقات وضروب تسامح، وتيسيرات، قد أفلست، وقد سبق أن كتبت، بل أنا أعتقد اعتقادًا جازمًا، أن المسيحية لو أنها عمت الدنيا حقيقة، ونفذت حقًا تعاليم المسيح، لما احتجنا اليوم إلى «الشيوعية» ولما قامت في العالم مشكلة اجتماعية مطلقًا.

وقال بعدئذ بسبيل البحث في الشيوعية ومناقشة مبادئها: إذا كنت لم أجد تناقضًا بين مركز الجماعة ومركز الفرد، فما ذلك إلا لأن التناقض ليس إلا نظريًا ومنتحلًا مفتعلًا، وهذا ما أصبحت من أمره على يقين، فلم يكن «ماركس» هو الذي قادني إلى الشيوعية، فقد حاولت جهدي قراءته؛ ولكن جهدي ذهب سدى، وإن ظلمت على المحاولة مثابرًا، ولكن لم يبق في نفسي خالجة من الشك في أن نظريته ليست هي التي أحالتني إلى صف الشيوعية، وإنما الذي قربني منها، وناداني إليها من أعماق قلبي هو المركز «الممتاز» الذي أستمع شخصيًا به، فقد بدا لي هذا أمرًا لا يرتضيه العقل، ولا يمكن التسامح فيه أو احتمال، واتفق لي يومًا أن أتحدث مع أحد الذين نجوا من نكبة الباخرة «لابورجوني» فقال لي إنه كان موقفًا في الظفر بمكان له في زورق من زوارق النجاة كان يحوي عددًا من الركاب المتنقلين، ولو أن الزورق احتل ركبًا آخر فوق هذا العدد لانقلب وهوى في اليم مغرقًا، وأن الذين وقفوا نجيا على ظهر الزورق مسلحين بالمدى والبلطات راحوا يقطعون بها أيدي الذين كانوا

يحاولون التعلق بجوانبه، والوثوب من اليم إليه.

وقد أصبح الشعور بأنني واحد من أولئك الذين احتواهم الزورق وتهيأت لهم النجاة، بينما راح الذين من حولي غرقى في البحر هالكين، إحساسًا لا أحتمل تصوره، وصورة لا أستطيع قبولها، والناس يجادلونني، ولكني لست من الخبرة بحيث أجيب الجواب المقنع، وأرد الرد الذكي البديع، ولكني لا أزال متشبثًا بأمر واحد، وهو أنني لا أستطيع أن أرتضي مكانًا في زورق لا نجاة به إلا لعدد محدود من الناس، ولو أنني ضمنت على الأقل أن الذين أنقذوا هم الخيرة والأحسن، لهان الخطب، ولكن الذي يغضبني أشد الغضب أن يقول لي أحد الناس: ما الذي يدعوك إلى الشكوى والتذمر، يجب أن نسلم بأن الركوب في زورق النجاة مريح!

وهكذا أصبح «جيد» يستحي أن يكون إنسان مكفول الموارد، خجلان من أنه لم يحتج يومًا إلى العمل بيديه، أو لم يضطر إلى الحصول على قوته بعرق جبينه، بل لقد أمسى ذلك كله في نفسه شعورًا بالذلة والمنقصه.

وقد ذهب إلى روسيا على أمل أن يستطيع الاتحاد السوفيتي أن ينتج أبدع أزاهر الحضارة دون حاجة إلى استرقاق العقول، واستعباد الأذهان، ودون الانحدار بأي طبقة إلى درك العبودية والرق، أو حرمان أحد من منافع الحضارة وخيراتها.

ذهب إلى روسيا وهو يدرك أن العالم الجديد المنشود قد يتطلب التضحية بكثير مما هو في ذاته طيب، وأن القيم الأخلاقية والأقيسة الفنية قد تتوارى، ولو إلى حين، في سبيل الظفر بكسب اجتماعي موقوت أو ربح مادي، ولم يكن يمانع في أن الإنسان لا يمكن أن تتحسن أحواله أدبيًا وذهنيًا، إلا إذا أزلنا المساوىء الاجتماعية، وقضينا على الأغلاط والعيوب، والاستغلال، وغيّرنا النظام الاجتماعي كل التغيير، وأصبح الرجل الذي كان إلى ذلك العهد يتحاشى أن يدين بمعتقد من المعتقدات أو يعتنق مذهبًا من المذاهب، على استعداد لقبول «الماركسية» حتى حين، وإن كان مدرّكًا حق الإدراك أنها قد تكون خطرة كأى عقيدة سواها، إذا أمعن المرء في اعتناقها، وأفرط

في أخذها مأخذ الجد، بل لم يكن «جيد» ليعارض في قول القائلين إن الماركسية إذا تيسر التدليل على صلاحيتها وجدواها وتسنى إثبات أن لا غناء عنها، في سبيل قيام النظام الاجتماعي الجديد، فلا بأس عندئذ من قبولها، ولا ضير مطلقاً في ارتضاءها. وهو في ذلك القائل قد يكون من الحكمة والصواب التضحية ببعض روائع الفنون إذا كان في التضحية بها تحقيق هذا الهدف، وإن كان على مر الأيام قد عاد يرى أن الثمن كان فادحاً، وقد تبين له في عام ١٩٣٧ أن ليس ثمة فارق بين ما رآه مكتوباً على الجدران بأحرف غلاظ في إيطاليا، وما كان قد سبق له أن شاهده في روسيا، بل كانت الشعائر والكلمات السائرة واحدة فيهما، وهي «آمنوا، وأطيعوا، وناضلوا...» حتى لقد كتب يومئذ في «يومياته» يقول: إن هذه العبارات المكتوبة على الجدران في إيطاليا كان ممكناً أن تكون منقوشة سواء بسواء على الجدران في موسكو، فإن الروح الشيوعية لم تعد متعارضة مع الروح «الفاشية» أو مختلفة في شيء عنها.

وقد اعتقد جيد فيما بعد أن حلم السوفييت وأمله المنشود، ونعني به قيام دولة «دكتاتورية» كان مثلاً أعلى قاهرًا باغيًا، لا يسمع فيه عن وجود أقلية مسترقة مستعبدة، بل يفكر فيه الجميع تفكيراً واحداً، وهو أدهى وأنكى، وهو في ذلك يقول: وعندما يغني التخت كله غناء موحداً، لا يبقى ثمة معنى للكلام في «الانسجام» وتتفتي مسألة «التوافق النغمي»!

وظهر بعد الحرب تطور آخر في فكرة الفردية والحرية عند «أندريه جيد»، وهذا المظهر هو الانحراف عن فكرة الحرية الكلية الطليقة غير المقيدة بتبعة أو مسؤولية، تلك الفكرة التي كان ينادي بها في شبابه، والعدول أيضاً عن فكرته الأخرى، الحرية الممتهنة، أو الحرية الخادمة - لا الحرية المهينة أو الذليلة، التي كان يقول بها في كهولته، فقد مضى أخيراً يقول إن الحرية المطلقة تدمر الفرد والمجتمع إذا لم ترتبط أوثق الارتباط بالتقاليد والنظام، ولم يعد يومئذ يطالب بإحداث تغييرات أساسية، وإنما كتب خلال الحرب في كتابه «محادثات وهمية» يقول إنه إذا كانت الحضارة لا

تعتمد إلا على الذين يضعون نظريات انقلابية أو ثورية فسوف تنقرض وتفنئ لأن بقاء الثقافة حية يقتضي قيام تقاليد مستمرة متطورة على الأيام.

وقد رأيناه في أحدث كتبه، وهو «تيزيه» عام ١٩٤٦ يصف كيف يستطيع الفرد القوي الواسع الحيلة الشجاع أن يعود سالمًا من «التيه» إذا هو تعلق بالخيط الذي كان يربطه بالماضي؛ وليس يخلو من الفائدة أن نلاحظ التطور الذي طرأ على فكرة هذا الكتاب منذ بدأ يفكر فيه قبل إخراجه بثلاثين عامًا؛ فقد كان يومئذ يرى أن الخيط الذي كان يربط «ثيسوس» «بأريادن» جعل يسحبه عائداً به إلى ماضيه، إلى الموضع الذي جاء منه وإلى النساء اللاتي سيظللن إلى الأبد بمثابة «الفرملة» للدافع الذي يدفع الرجل منا إلى التقدم والمضي في طريقه؛ ولكنه عاد فيما بعد يتخيل «ثيسوس» وهو يدخل «التيه» غير مطمئن إلا لشيء واحد، وهو خيط إخلاصه المستمكن من أعماق نفسه؛ وأخيراً رأيناه يصوره مستطيحاً الإياب لسبب واحد، وهو تشبته بالخيط الذي كان يربطه بماضيه، خيط العادات والتقاليد. وقد راح «يادلوس» يقول له وهو منطلق إلى «التيه»: عد إليها -ومراده بذلك أريادن رمز «التقاليد»- وإلا ضاع الباقي كله، وضاع معه كل ما هو خير... إن هذا الخيط هو الحلقة التي ستربطك بالماضي، عد إليه، وثب إلى نفسك، إذ لا شيء يمكن أن ينبت من لا شيء، فمن ماضيك ومن حاضرك ينشأ مستقبلك، ويتجسم مصيرك...»^(١).

وقد رجع «جيد» إلى الفكرة ذاتها في المحاضرات التي ألقاها بسبيل ذكرى «برائيس» في أكسفورد خلال شهر يونيه عام ١٩٤٧، فقد اقتبس من شعر «فرجيل» الأبيات التي يصف فيها «إينياس» وهو هارب من «طروادة» وهي تحترق مع أبيه الشيخ وهو محتمله فوق كتفه، قائلاً في تفسيرها إنها ينبغي أن تحمل على محمل الرمز والاستعارة، فإن إينياس لم يحمل أباه على كتفيه فحسب، وإنما كان يحمل الماضي

(١) يشير هنا إلى أسطورة يونانية عن الملك «ثيسوس» وكيف أحبته «أريادن» ابنة الملك مينوس، وبخيط عرفت كيف تخرجه من «التيه».

بجملته؛ ونحن بالمثل هاربون من الحضارة المحترقة حاملين ماضيها المسيحي، لأن حضارتنا المسيحية قائمة على قدسية روح الفرد ونفسه البشرية، وكان من المتعين علينا أن نحرص عليها من الفناء.

وقال جيد في محاضراته إنه قد تبين له أن الحضارات التي جاءت من قبل إنما قامت ثم على الدهر انقرضت، ولكنه لا يعتقد أن حضارتنا مقضي عليها بالفناء إذا نحن ارتضينا التبعية الملقاة علينا من جانب تقاليدنا وماضيها؛ وقد تكون مدنية الثقافة الغربية محترقة، ولكن في إمكاننا مع ذلك أن نحافظ على أغلى ما فيها من جوهر، ونحرص على أعز ما فيها من صميم.

وقال إنه لا يزال يناوي «بالفردية» غير نادم، ولا يفتأ يستنكر بكل ما فيه من قوة تلاشي المسؤولية الفردية في الحكومة أو السلطة المنظمة، أو تواربها في عملية التخلص من الحرية، الذي أصبح عصرنا يوسم بطابعه؛ وقد مضى ينكر أيضاً المذاهب الحديثة، ونظرية الأدب المرتبط بالعقائد والمثل العليا المختلفة، ولا يؤمن بالنظريات العديدة التي سيأتي عليها زمن تتوارى فيه، فلا يبقى لها من أثر، كما اختفى من قبل أمثالها على مر السنين، وإنما ظل الفرد وحده هو القائم لا فناء له ولا انقراض.

كان هذا هو اتجاه تفكيره في عام ١٩٤٧، ولكن قبل هذا العهد بخمسة عشر عاماً، حين كان يناصر الشيوعية، جعل يقول في «يومياته» إن تحولي إلى الشيوعية يشبه الإيمان بدين أو اعتناق ملة، فإن كياني كله قد اتجه نحو هدف واحد لا ثاني له، وكل خاطري أصبحت تعود بي حتى على كره مني إليه؛ ويلوح لي في هذه الحال السيئة التي وصل إليها العالم الحديث أن خطة الاتحاد السوفيتي هي البشير بالنجاة. إن كل شيء حولي يقنعني بصحة هذا الرأي، ويغريني بقبوله؛ أما حجج خصومي فلا تقنعني، ولكنها تغضبني، ولو اقتضى نجاح الاتحاد السوفيتي مني بذل حياتي لبدلتها في سبيله غير متردد. وأنا أكتب هذا في سكينة نفس، وهدوء عقل، وإخلاص تام، لحاجتي الشديدة إلى ترك هذه الشهادة من بعدي على الأقل إذا عاجلني الموت قبل

أن أزيد الأمر بياناً، والتعبير شرخاً وجلاء!

وقد سافر إلى روسيا في شهر يونيه عام ١٩٣٦ وهو مفعم الخاطر آمالاً، ولكن تلك الآمال لم تلبث أن خابت، فعاد من روسيا يقول: «لقد كانت رحلتي إلى روسيا السوفيتية أليمة، فقد أتيتها نصيراً متحمساً، ومتشيعاً مقتنعاً مؤمناً، لكي أعجب بمشهد عالم طريف، ودنيا جديدة. وقد عرضوا عليّ لإغرائي وكسب رضاي، كل الامتيازات التي أمقت قيامها في العالم القديم وأجتويها أشد الاجتواء».

ولم يصل جيد إلى «الشيوعية» من طريق «ماركس» ولكنه وصل إليها من طريق «الإنجيل»، فإذا به عند مقامه في روسيا لا يجد فيها من هذا الإنجيل شيئاً؛ وقد احتفل به في كل موضع نزل به، وأحيط بترحيب بالغ في كل مكان احتواه، لأنه كان كسباً عظيماً للقضية الشيوعية، بوصفه أكبر كاتب أوروبي في عصره، ولما عرف عنه من أنه رجل نزيه ومفكر أمين صادق النزعة؛ وقد أغدق الروس عليه جميع المناعم والامتيازات التي تشاهد في الحضارة الحالية المتدهورة، ولكنه لم يكن بحاجة إلى إحراق البخور له والتسبيح بحمده والتناهي في تكريمه لأنه لم يذهب إلى الاتحاد السوفيتي ابتغاء مغنم مادي؛ ولشد ما ريع حين رأى في كل مكان تلك الهوة السحيقة القائمة بين المنعمين والمحرومين، ورأى ذلك الاسترقاق الفكري ذاته الذي كان ينفر منه في أوروبا ويستنكره؛ وتبين الكتب التي وضعها بعد رجوعه ككتاب «عودة من روسيا السوفيتية»، وكتاب «على هامش رحلتي إلى روسيا»^(١) مدى خيبة الأمل التي أحس بها وانقشاع الغشاوة التي كانت على عينيه؛ وقد رأيناه في هذين الكتابين يبدي إعجابه بالشعب الروسي ذاته، ويظهر المودة والعطف، فقد فتنه مشهد الوجوه الباسمة، ومرأى الولدان الناعمين السعداء، ومراكز الرياضة واللهو، والإقبال البالغ على التعليم، وجو الأمل الذي يعيش الشعب فيه؛ ولكنه بهت لمشهد ضروب الظلم التي بدت لعينه، والنصيب الضئيل الذي تتلقاه الجماهير من أهل الفاقة لقاء صبرها

(١) نشر في بريطانيا بعنوان «أبتي من روسيا» و«خواطر أخرى - عن رحلتي».

وقوة احتمالها وجلدها، وساءه منظر أفراد الشعب في ثيابهم البالية وأطمارهم البادية، ورداءة السلع المعروضة في الحوانيت ووقوف الناس ساعات طويلة صفوفًا حتى تحين أدوارهم في سبيل شرائها، كما نفرت نفسه كل النفور من انمحاء كل أثر في البلاد لحرية النقد والرأي.

ومن هذين الكتابين، وبموافقة جيد نفسه، استطعت أن أضع القصة التالية.



أندريه جيد

قصته كما يرويها بنفسه

روى «هوميروس» في شعره كيف جاءت «ديميتر» Demeter الإلهة العظيمة في سبيل هيامها وضلتها في المداخن للبحث عن ابنتها، إلى بلاط الملك «سيلوز» متكرة في زي مريض، فلم يعرفها أحد، ولم يدرك القوم خافية أمرها، وعهدوا إليها بوليد جديد لكي تكفله وهو الوليد «ديموفون» Demophoon فكانت عاداتها إذا الليل جن، وغلقت الأبواب، وهجع كل من في القصر وتولاهم السبات، أن ترفع الطفل من مهده الدافئ الوثير، فتضعه عارياً في فراش من جذوات فحم متأججة، بقسوة ظاهرة، وإن كان مبعثها في الواقع حب عظيم، ورغبة ملحة في تحويل الوليد إلى إله معبود.

وكان إذا ألقته به على ذلك الفراش المستعر، تحنو بحب عليه، كأنما تحنو على صورة مجسمة للبشرية المرتقة؛ وكان الوليد يحتمل حرارة النار، ووقدة الجذوات صابراً، حتى أصبح قوياً شديداً البأس باهراً مجيداً، إلى حد يفوق كل أمل، ويجاوز كل حلم.

ولكن «ديميتر» لم يقيض لها استكمال تلك التجربة الجريئة، فقد دخلت «ميتانيرا» أمه ذات ليلة عليها في غرفة الوليد لتطمئن عليه، فلما شهدته على تلك الحال، دفعت المربية جانباً وألقت بالجذوات بعيداً، طارحة معها تلك الفضائل الخارقة التي كانت تطويه على هذا الضرب من التأديب، وأنقذت الطفل مضحية بالإله!

ومنذ بضع سنين كتبت عن حبي للاتحاد السوفيتي وإعجابي، لما يجري فيه من تجربة منقطعة النظير، ألهب التفكير فيها مشاعري وأثار في صدري أكبر الآمال، إذ رجوت أن تسفر عن تقدم عظيم وخير كثير، ودوافع تغمر العالم كله، وتسري في الدنيا بأسرها؛ وكان بديعاً أن يحيا المرء في هذه الآونة من الزمن ليشهد هذا الميلاد الجديد ويهب حياته كلها له، فلا عجب إذا أنا مضيت في أعماق جوانحي أربط مصيري باسم الثقافة والأدب والفن بمصير ذلك الاتجاه.

وقد أعلنت بعد أربعة أيام من وصولي إلى روسيا في جنازة جوركي في الميدان الأحمر بموسكو أن مصير الثقافة مرتبط في تقديري بمصير الاتحاد السوفيتي، وقلت إن الثقافة قد ظلت زمناً طويلاً وقفاً على الطبقة الممتازة، وكان تطورها يقتضي أوقات فراغ، فكانت فئة من المجتمع تكد وتكدح، لكي يتيسر لعدد يسير من البشر الاستمتاع بالحياة، بينما كانت حداثق الثقافة، ورياض الفنون والآداب ملكاً خاصاً مسوراً محتجزاً لا أمل في دخوله إلا لأذكي الأذكاء، وأشد المستنيرين الذين وجدوا في الطفولة ما يقيهم شر الفاقة، وتيسر لهم من الحداثة ما يحميهم ألم الحاجة والحرمان. ولست أنكر طبعاً أن الثقافة لا تقترب حتماً بالشراء، وأن أمثال مولير وديدرو وروسو في الأدب الفرنسي قد نهضوا من عرض الأمة، وارتفعوا من صفوف الشعب، ولكن قراءهم كانوا أهل نعمة، وإخوان لهو وفراغ. وحين هزت «ثورة أكتوبر» جماهير الشعب الروسي وأيقظتهم من رقدتهم قال القائلون في الغرب، واعتقد الناس في كل مكان، أن هذه الموجة الدفاقة ستكتسح الفنون جميعاً، وذهبوا يتساءلون قائلين: ألا يصبح الأدب خطراً بالغاً إذا هو لم يعد بعد اليوم مزية تختص بها طبقة دون سائر الطبقات؟ وكان الجواب عن هذا الاتهام هو أن الكتاب في مختلف ربوع العالم ودوله إنما اتحدوا وتضامنوا بدافع الاعتقاد الجازم بأنهم يؤدون واجباً لا بد منه. ولسنا ننكر أن الثقافة مهددة بخطر، ولكن هذا الخطر ليس آتياً من هذه القوى الثائرة المتمردة، بل هو بالعكس آت من جانب الذين يحاولون إخضاع تلك القوى، وتحطيم بأسها،

وخضد شوكتها، فإن الحرب هي أشد خطر يهدد الثقافة، تلك الحرب التي تدفعنا إليها العوامل القومية التي توحى بها الكراهية، ويبعثها الحقد والحسد؛ وقد أصبح من واجب تلك القوى الثورية الدولية العامة أن تحمي الثقافة من الأذى، وترفع من شأنها، وتعزز مكانتها في هذا العالم؛ فلا غرو إذا أنا اعتقدت أن مصير الثقافة مرتبط بمصير الاتحاد السوفييتي، وأن هذا المصير سيجد الذائدين عنه والمدافعين.

كان هذا الخطاب الذي ألقته يومئذ في بداية زيارتي لروسيا، بل في الوقت الذي كنت لا أزال أعتقد، أو بالحري كنت لا أزال من «السذاجة» بحيث أعتقد، أنه في إمكان المرء أن يتباحث بجد في مسائل الثقافة مع الروس؛ وليتني أستطيع البقاء على اعتقادي ذاك؛ فإذا كنت في بداية الأمر قد أخطأت فمن السداد أن أعترف بخطئي وشيكاً؛ لأنني مسؤول عن أولئك الذين قد يضلهم رأيي في بلادي ويصور لهم الباطل في صورة الحق فلا يصح أن يمنعني من الاعتراف بالخطأ زهو، أو تحول بيني وبينه كبرياء، وإن كنت منهما المقل على كل حال، فإن هناك مسائل أهم كثيراً من شخصي، ومن كبريائي، ومن الاتحاد السوفييتي ذاته، ما دام مستقبل البشرية ومصير الثقافة في خطر.

وبدا لي كل شيء عجباً في طوفتي بروسيا وتنقلي في أرجائها، فقد استطعت من اتصالي المباشر بالعمال في مصانعهم ومعاملهم ومراكزهم الرياضية أن أنعم بلحظات سرور بالغ؛ ولست أعرف بلداً يسهل فيه توثيق العلاقات بين الناس قدر سهولته في الاتحاد السوفييتي، ولا يروح أعرق ولا أشد حرارة منها فيه؛ فإن الصداقة سريعة التكوين، حتى لتكفي النظرة الواحدة أحياناً لإيجاد أسبابها، وتمهيد مطالبها، ولا تلبث أواصر العطف والمودة أن تنمو وتتعزيز؛ وأعتقد حقاً أن المرء لا يستمتع في أي بلد آخر بمثل ما يستمتع به في الاتحاد السوفييتي من الشعور بالروابط البشرية، والحب الأخوي، والانبعاث السريع إلى المودة والألفة؛ حتى لقد أحسست جوارحي تستفيض، والدموع تطف من عيني من فرط السرور -دموع المودة والحب. وكان

الأطفال الذين شاهدتهم في المعسكرات حَسَنِي التغذية والتعهد، وبدوا لعيني معززين مكرمين سعداء، تفيض أعينهم ثقة وطمأنينة وأملًا؛ وتجلت لي هذه السعادة المشرقة ذاتها على وجوه العمال في المراكز الرياضية حيث يجتمعون في المساء بعد الفراغ من عملهم، وقد أصبح لكل مدينة في روسيا اليوم مركز رياضي وروضة أطفال؛ وشاهدت، كما شاهد خلق كثير غيري من الزائرين، معامل وأندية وميادين ألعاب نموذجية، حتى لقد عجبت لها العجب كله، وسرني أن أجد الإعجاب بكل ما حولي مستوليًا على نفسي، وأن أبعث سواي على مشاركتي فيه وإقناع الآخرين به، فإذا أنا استنكرت اليوم كل ما كنت بالأمس مأخوذًا به، فلا بد من أن تكون هناك أسباب قوية حملتني على هذا الاستنكار.

ولم أبدأ أرى الأشياء على وضوحها إلا حين تنحيت عن الاستعانة بوسائل النقل الحكومية ومضيت أتقل وحدي في البلاد لكي أتمكن من الاتصال رأسًا بالشعب، وكنت قد قرأت من الكتب الماركسية ما يمكنني من معرفة دخائل روسيا وخوافيها، ولكنني كنت قد اطلعت أيضًا على عدة روايات عن رحلات ملأى بالمدائح ومعاذير كثيرة مفعمة حماسة وشفاعة لما فيها من نقص، وكان وجه الخطأ في مسلكي وتصرفي من أول الأمر أنني كنت أصدق كل ما أسمعه من المديح، وأن كل ما كان من الجائز أن يفتح عيني ويبصرني بالواقع كان يقال لي بلهجة الحقد أو في صيغة النقمة والاستياء، فكثيرًا ما يأبى أصدقاء الاتحاد السوفيتي أن يروا فيه ما يسوء، أو على الأقل يابون الاعتراف به؛ ولكن الحقائق كثيرًا ما تقال أيضًا بحقد، والأكاذيب بحب ولطف. وأنا رجل رُضْتُ خواطري على أن أتشدد وأدقق ما أمكن حيال الذين أحب دائمًا أن أَرْضَى عنهم، ومن رأيي أن الاكتفاء بسماع المديح وحده ليس بالوسيلة المثلى للتعبير عن الرضى، والتدليل على الارتياح؛ وأعتقد أنه من الخير للقضية التي يمثلها الاتحاد السوفيتي أن أتحدث عنه بغير تكلف ولا ادعاء ولا تحفظ واعتبار، وليس في نفسي شخصيًا ما أشكو منه خلال رحلتي في بلاده، رغم

كل تلك التعليقات الناقمة الساخطة التي انتحلت فيما بعد لتنفيد ما قلته وتسفيه ما نشرته، من وجوه النقص ومواضع الانتقاد، ورغم قولهم إن انتقادي إنما جاء نتيجة استياء شخصي وتذمر خاص، وهو قول جد سخيّف وأبعد ما يكون من الواقع، فلم أتنقل يومًا في حياتي بذلك الترف الذي أحاط في روسيا بي، ولا كنت يومًا أوفر متعة، وأكثر تكريمًا؛ ففي كل مكان وجدت أفخم السيارات لمركبي، وإذا سافرت في القطار خصصت مركبة لمنزلي، وأفردت لي الفنادق أبدع الحجرات، وقدمت لي أطيب المأكّل والوجبات، ولم يكن يقدم لي إلا ما هو أبدع وأفخم وأطيب، ولله أي استقبال كنت في كل موضع أجده! وأي حفاوة تلك التي لقيتها أينما نزلت؛ فقد كنت أبدًا موضع التكريم والترحاب، وكان القوم يرون كل هذا قليلًا في حقي، وبسيرًا لمثلي؛ حتى لقد عدت وأنا حافل الذاكرة بآيات الحفاوة التي شهدتها والحظوات التي ظفرت بها؛ ولكنها مع ذلك ظلت تذكرني أبدًا بالامتيازات والفوارق التي كنت أرجو أن أرى «المساواة» في مكانها، والمعدلة قد حلت في روسيا محلها؛ وحين هربت من كبار الموظفين ومضيت أختلط بالعمال تبين لي أن أكثرهم يعيشون في أبشع صنوف الفاقة في الوقت الذي كنت أجلس فيه إلى مائدة فاخرة كل ليلة، وأرى الخوان حافلًا بالأطياب، ومختلف «المشهيات» حتى لتكفي لإشباع النفس قبل أن يبدأ الطعام ذاته، وهو عشاء من ستة ألوان منوعة، يستغرق المرء في الجلوس إليها عدة ساعات، ولم أترك ولا مرة واحدة حرًا أدفع قائمة حساب، وليس في إمكاني أن أقدر نفقات هذه المآدب، ولكن صديقًا لي أوتي علم الأسعار في روسيا أنبأني أن الشخص الواحد في هذه الولايم يكلف مائتي روبل أو ثلاثمائة، بينما كان العامل الواحد من العمال الذين لقيتهم لا يتقاضى من الأجور أكثر من خمسة روبلات في اليوم، وهو القانع بالخبز الأسود والسمك المجفف، ولم تكن في مقامنا بها ضيوفًا على الحكومة في الواقع، وإنما كنا في ضيافة مؤسسة غنية تدعى جمعية المؤلفين السوفيتيين، وكلما فكرت فيما أنفقت علينا، وكنا ستة أضياف، يصحبنا الأدلاء والمشرفون، ويجالسنا مثل عددنا من كبار الموظفين، أدركت أنهم كانوا ينتظرون من لقاء المال الذي أنفقوه

علينا غير ما وجدوه، وأظن أن بعض هذا السخط الذي أبدته جريدة «البرافدا» مرجعه إلى هذا الكفران الذي كان مُني بصنيعهم.

ولا ريب في أنه كان من الطبيعي أن يحسنوا وفادة الضيف ما استطاعوا، وأن يشهدوه على أحسن ما في بلادهم، ولكني مع ذلك ذهلت وعجبت لما لمست من الفارق البعيد بين هذا الوجه من الخير الذي يستمتع به الأكابر، وبين نصيب الكافة وحظ العامة، أو هذا البون الشاسع بين المناعم والامتيازات، وبين الفاقة البالغة، والفقر المدقع؛ فلا غرو إذا كان إعجابي بالاتحاد السوفيتي والعظائم التي حققها هو الذي سيجعل انتقادي شديداً، ومؤاخذاً قاسية، لما كنا نرتقبه منه، وما حملنا على التعلل به، والأمل في بلوغه؛ فقد كنت مطمئناً إليه، معتمداً عليه، فلم يكن أشد ما فجعني أن أرى الهدف لم يستكمل، بل أن أشهد فيه كل ما كنت أجده في وطني وأحاول منه هرباً، تلك الامتيازات التي كنت أرجو أن أراها ملغاة إلى الأبد.

ومن ذا الذي يستطيع يوماً أن يقول أي بلد كان الاتحاد السوفيتي؟ في تقديري لقد كان عندي أكثر من مجرد بلد مختار، وقدوة مثلى، وباعث وحي، ومهبط إلهام... كان عندي الأمل الذي كنت أحلم به أبداً، والضالة التي كنت أنشدها، كان شيئاً تتجه إليه لهفتي، وتهفو إليه فكرتي، بلداً كنت أتصور أن المثل الأعلى يسير فيه قدماً نحو التحقيق.

ولكن كان لزاماً على الناس مع ذلك كله أن يذكروا دائماً أنه كان في دور البناء، ومرحلة التكوين، وأننا حاضرون مخاض المستقبل، ومولد الغد المرقوب، فلا يخلو الاتحاد السوفيتي من محاسن ومساوئ، أو قل من أحسن الحسن، وأسوأ السوء، حتى ليتنقل المرء فيه من الإشراق البالغ إلى الإظلام الشديد، والعتمة الدامسة، وهو في نقلته هذه الحزين القلق المروع، وقد تم له أن ينجز الشيء الكثير، فملاً به صدورنا اغتباطاً، وهذا هو بلا شك ما جعلني أتشدّد وأدقق، فقد بدا لي من أول الأمر، أنه قد تخطى أشد العوائق صعوبة فانبعثت نفسي بكل جوارحها إلى المساهمة معه والتفاني

في نصرته، كأنما قد ارتبطت به باسم البشرية المعذبة على بكرة أبيها، وأحسست أنني قد اندمجت بكليتي فيه، فلم أفكر مرة في أنه قد يمني بالإخفاق، أو يعاجله الفشل.

وكان إعجابي موجهًا بنوع خاص في روسيا إلى الانبعاث غير المألوف نحو التعليم والثقافة، ولكن المحزن أن التعليم الذي يتلقاه الشعب لا يتعدى تلقينه الزهو والتفاخر بالحاضر والإيمان المطلق بالاتحاد السوفييتي، وأن الثقافة إنما ترمي إلى هدف واحد، وهو تمجيد هذا الاتحاد والتسييح بمجده؛ فهي ليست ثقافة نزيهة مجردة من الهوى، ولا هي تثقيف للعقول، وتربية لملكة الحكم على الأشياء، فإن النقد لا وجود مطلقًا له في تلك البلاد. ولست أجهل أنهم يجعلون من انتقاد أنفسهم استعراضًا، ويتظاهرون به تظاهرًا، حتى لقد اعتقدت في بداية الأمر، ورجوت أن يؤدي هذا النزوع إلى نتائج طيبة إذا هو طبق التطبيق الصادق الصحيح؛ ولكني لم ألبث أن أدركت أن النقد في روسيا لا يتعدى البحث فيما إذا كان هذا الأمر أو ذاك متفقًا مع سياسة الحزب أو غير متفق لا أكثر ولا أقل، لأن هذه السياسة لا سبيل إلى مناقشتها أو انتقادها، وإنما كل ما في الأمر لا يتجاوز البحث في مدى اتفاق أي فكرة أو رأي أو تصرف مع تلك السياسة المقدسة أو مبلغ اختلافها معها، وهي حال ذهنية ليس ثمة أخطر منها على الثقافة الصحيحة، ولا أشد أذى لها؛ فلا غرو إذا ظل أفراد الشعب في جهل تام بكل ما يدور خارج بلادهم، بل أدهى من ذلك وأمر، أن يقال لهم إن كل ما في الخارج دون مثيله في الداخل بمراحل؛ والعجيب أيضًا أنهم شديداً الاهتمام برأي الأجانب فيهم، مع قلة اكتراثهم بما يجري وراء حدود بلادهم، وأكبر ما يعينهم معرفته هو هل ترى الناس في الخارج معجبون الإعجاب الكافي بهم؛ كما أن أخشى ما يخشونه ألا يعرف الأجانب الشيء الوافي عن مواهبهم وكفاياتهم لأنهم لا يطلبون منهم معلومات أو وقائع عن مشاهداتهم في ربوع بلادهم، بل يطلبون مديحًا، ويسألون ثناء، ويقتضون تنويهاً وتمجيذاً.

وقد اتفق لي أن زرت مركزًا جماعيًا نموذجيًا من أبداع المراكز التي من هذا القبيل في الاتحاد السوفيتي وأكثرها نجاحًا وتوفيقًا، ودخلت عدة بيوت فيه، وليتني أستطيع أن أصور لكم فكرة عن الأثر الأليم الذي أحدثه في نفسي مشهد كل بيت منها، ذلك الأثر المتشابه العام الذي قام في خاطري، وأعني به انتفاء الحرية الفردية كل الانتفاء، والخلو التام من مظاهر الاستقلال الذاتي، ففي كل بيت منها قطع الأثاث القبيح ذاته، وصورة ستالين بعينها ولا شيء غير ذلك؛ فلا حلية أخرى، ولا زينة من الزينات، ولا متاع خاص من الأمتعة، بل يصح تبادل بيت بآخر دون أن يشعر الساكن بأي تغيير، وكان للسكان بالطبع أيضًا مكانًا للتسلية المشتركة، أو ندوة واحدة للهو والرياضة، فكانوا ينفرون من بيوتهم لأنها أشبه شيء بالمغارات وأدنى إلى الكهوف، ملتصقين الترويح عن أنفسهم في «النادي»، وما من شك في أنه من السهل توفير السعادة لهم بتضحية فرديتهم، من طريق «التماثل والتوحيد» ولكن هل يمكن أن يسمى فقدان «الفردية» أو هذا «التماثل العام»، تقدمًا، وهو الآن في روسيا الاتجاه الكلي، والهدف المنشود.

لست أعتقد ذلك، وإن كان المسلم به في روسيا السوفيتية أنه ليس ثمة غير رأي واحد في أي موضوع مهما يكن شأنه، أو وجه الحكمة منه، وأن هذا الرأي هو الصحيح، حتى لقد دأبت جريدة «برافدا» على أن تبين للشعب في كل يوم ما هم بحاجة إلى معرفته، وما يتحتم عليهم تصديقه، أو التفكير فيه، وقد أدهشني ألا أرى في الصحف الروسية حين أقمت بتلك البلاد أي ذكر للحرب الأهلية في إسبانيا التي كانت يومئذ مثار قلق بالغ في الأوساط والأندية الديموقراطية، وقد شرحت دهشتي الأليمة للمترجم الذي كان يصحبني فلاحظت عليه بعض الارتباك لسؤالي، ولكنه شكر لي ملاحظتي وقال إنه سينقلها إلى الجهة المختصة. وفي مساء اليوم ذاته جرت على العشاء العامر الذي أقيم لنا خطب كثيرة، ولم نكد ننتهي من شرب نخب الأضياف والمضيفين جميعًا، حتى نهض أحد الذين جاءوا معي من الكتاب والأدباء،

وهو «جف لاست» واقترح بالروسية أن نشرب في صحة الفوز الذي أحرزه الحمر في الجبهة الإسبانية، فصفق الجمع وهم مرتبكون قليلاً تصفيقاً ضعيفاً، وهتفوا في جفوة وفتور، واقترحوا على الأثر أن نشرب نخب «ستالين». ولما جاء دوري رفعت رأسي مقترحاً نخب السجناء السياسيين في ألمانيا، فقبلت هذه الفكرة بهتاف متواصل وتصفيق عاصف، فكان الرد عليه شرب نخب «ستالين» مرة أخرى؛ فقد كان الجمع قد لقنوا من قبل الاتجاه الذي ينبغي أن يتخذه إزاء ضحايا «الفاشية» في ألمانيا فلم يترددوا في الهتاف عالياً حين ذكر الأمر لهم؛ أما عن المسألة الإسبانية فلم تكن جريدة «البرافدا» قد أعلنت بعد ماذا ينبغي أن يكون الموقف إزاءها، ولهذا لم يجرؤ القوم على إقرار شيء لم ينبهوا إلى الوجه الصحيح فيه ولم يعرفوا الاتجاه الذي ينبغي اتجاذه بسبيله.

ولم تمض بضعة أيام أخرى ونحن في «سباستبول» حتى شعرنا بموجة عطف مكتسحة تنبعث من الميدان الأحمر في موسكو، وتغمر من طريق «البرافدا» جميع أنحاء البلاد.

وهكذا ألفت عقول الناس في روسيا هذه الوحدة العامة حتى أصبح الامتثال لها طبيعياً مسهلاً لا عناء فيه، وأصبح المتحدث إلى روسي واحد كالمتحدث إلى أهل روسيا أجمعين، وهكذا ألفت النفوس هذه الحالة حتى لا أعتقد أنها أثر من الرياء أو نفاق المنافقين.

ولم يعد اختفاء «الرأسمالية» من روسيا على العمال فيها بخير أو نفع، ولم يسق إليهم الحرية التي كانوا لها ناشدين، فلتدرك الطبقات الكادحة في خارج الاتحاد السوفيتي هذه الحقيقة كل الإدراك. ولست أنكر أنهم لم يعودوا ألعوبة في أيدي أصحاب رؤوس الأموال وحملة الأسهم والسندات، يستغلونهم كيف يشاؤون، ولكن الواقع أن الاستغلال لا يزال قائماً، وإنما أصبح مقروناً بأعجب الوسائل وأمكرها وأشدّها التواء بحيث لم يعد القوم يعرفون من هم الملمومون فيه ومن هم

الذين يؤخذون عليه، فإن معظم أفراد الطبقة الكادحة يعيشون تحت مستوى الفاقة، بينما أتاحت أجورهم التي لا تسمن ولا تغني من جوع الفرصة لزيادة مكاسب العمال «الممتازين» أو معاشر الخانعين المسلمّين بكل ما يطلب منهم، القائلين «نعم» في كل شيء، ولا يسع المرء إلا الدهشة من فرط الاستخفاف الذي يبدیه أهل السلطان نحو الذين من دونهم والخنوع والذل للذين يظهرهما هؤلاء لأولئك، أو دعني أقل للذين يبدیهما الفقراء ومعاشر المكودين، وأنا أسلم جدلاً بأنه لم تعد في روسيا طبقات ولا فوارق، ولكن الواقع أن فيها فقراء، بل إنهم فيها الكثرة البالغة، وكنت أرجو ألا أجد منهم أحداً، أو بعبارة أصح، لقد ذهبت إلى روسيا لكيلا أجد للفاقة فيها أثراً... ولكن الفاقة هناك يعبس في وجهها، وتقابل بالإعراض والتجهّم والاشمئزاز، حتى ليخيل للمرء أنها الفاقة الأثيمة الناشئة في أحضان الإجرام، فلا تثير شفقة، ولا تبعث على العطف والإحسان، بل ينظر إليها بعين الإزراء والاحتقار، وما أولئك الذين يتراءون متكبرين مزهوين إلا الذين اشتروا كبرياءهم وتوفيقهم بثمن هذه الفاقة العامة، وعلى حساب هذا الفقر الشامل.

وليس معنى هذا أنني أعارض في تباين الأجور، بل بالعكس أنني مقر بوجوبه، معتقد أن لا مفر منه، ولكني أرى أنه من المتعين إيجاد وسيلة للتخفيف من حدته، والتقريب بين حدوده وفتاته، وأخشى أن يكون معنى ذلك كله الرجوع إلى نوع من «البرجوازية» العمالية المرفهة، أو بعبارة أخرى، الشبيهة بالبرجوازية «المحافظة» التي كانت بالأمس قائمة، والتي تمثل إلى حد بعيد «البرجوازية» الصغيرة، التي نشاهدها في بلادنا، لأنني أرى الأعراض والبوارد فعلاً ظاهرة؛ ولست أشك في أن جملة عيوب «البرجوازية» وشرورها ومساوئها لا تزال كامنة في نفوس فريق كبير من الروس، رغم الثورة الأخيرة، لأن الإنسان لا يمكن إصلاحه من الظاهر فحسب، بل ينبغي أن يكون الإصلاح أيضاً من القلب، فلا عجب إذا أحسست قلقاً شديداً كلما رأيت الغرائز البرجوازية تجد تمليقاً وتشجيعاً من الاتحاد السوفييتي، وشاهدت الأعشبة القديمة

تعاود الظهور، ولمحت بوادر نوع جديد من «الارستقراطية» أخذ يطفو على وجه الحياة، وإن لم يكن يمت كثيرًا إلى نظام «الطبقات» القديم، ولكنه أرستقراطية على كل حال، وليتها كانت أرستقراطية «التمائل» والتشابه والمحاكاة، ومن يدري فلعلها متحولة بعد جيل أو نحوه إلى أرستقراطية «المال».

فهل ترون مخاوفي مبالغًا فيها؟

أرجو مخلصًا أن تكون كذلك.

ولما زرت سوتشي **Sotchi** تولاني العجب البالغ من كثرة المصحات «والاستراحات» التي كانت يومئذ تشيد للعمال فيها، فقد بدت لي بهجة للغاية ذات حدائق فاخرة وحمامات خاصة متناثرة على الشواطئ الرملية. ولا ريب في أن تخصيص هذا المظهر من الترف لمعاشر العمال عمل جدير بالثناء. ولكن الواقع أن الذين يستمتعون به هم في الأغلب من أهل الطبقة الجديدة الممتازة.

ولست أنكر أن الذين يحتاجون إلى الراحة والعلاج مفضلون على سواهم ولكن على شرط أن يكونوا من المقربين إلى سياسة الحزب المؤمنين على خططه وبرامجه، وإنه لمحزن أن يتبين المرء في ذلك الموضع أن الذين يستخدمون في بناء تلك الدور لا يتقاضون غير أجور صغيرة ولا يسكنون غير معسكرات حقيرة مظلمة.

وإذا كنت معجبًا بالإعجاب كله بالاستراحات التي رأيتها بُنى في «سوتشي» فماذا عسي أن أقول عن الفندق الذي نزلت به في «سينوب» المجاورة لسوكوم.

فقد كان يفوق بمراحل كل بناء عداه حتى لا يصح أن يقارن إلا بأفخم الفنادق في الخارج وأوفرها راحة وترفًا ونعماء، فقد كان بكل غرفة فيه حمامها وشرقتها، وكان الأثاث من أبدع الرياش شأناً، والطعام لا يقل عن مثله في فنادق الدرجة الأولى في أي بلد كبير.

وكانت بجواره مزرعة نموذجية تتولى إمداده بإنتاجها وتحوي مرابط للخيل،

ومداود للبقر وزرائب للخنازير وتقافيص للدجاج مزودة بأحدث الأجهزة.

ولكنك لا تكاد تجتاز النهر الذي يقوم هناك بمثابة حدود المزرعة حتى يواجهك صف من الأكواخ الحقيبة يعيش في كل غرفة صغيرة منها أربعة أشخاص لقاء أجر يقدر بروبيتين في الشهر عن كل ساكن.

ولئن كانت دكتاتورية الطبقة الكادحة التي طلبوا لها كثيرًا وزمروا لم تتحقق بعد، فلا تزال ثمة دكتاتورية أخرى من نوع ما، دكتاتورية «البيروقراطية» السوفيتية، ومن المتعين على المرء أن يدرك هذه الحقيقة ولا يدع الظواهر تخدعه، فإن هذه النتيجة لم تكن الضالة المنشودة، والشيء المأموال، بل يصح لك أن تقول إن هذا هو آخر شيء كان منتظرًا، حتى لم يعد العمال يظفرون بحرية انتخاب ممثليهم للدفاع عن مصالحهم المهددة، فإن الانتخاب الحر سواء منه العلني والسري، سخرية وتزييف، إذ ليس للناخبين غير حق واحد، وهو انتخاب الذين انتخبوا مقدمًا لهم وعينوا لهم تعيينًا، وهم يخدعون وتكم أفواههم ويشد منهم الوثاق، حتى كادت المقاومة تستحيل. وقد أجاد ستالين «اللعبة» وأصبح الشيوعيون في جميع بقاع العالم يهتفون به معتقدين أنهم قد كسبوا بقيام الاتحاد السوفيتي على الأقل نصرًا مجيدًا، وأصبحوا يسمون الذين لا يوافقونهم خونة وأعداء الشعب، وإن كان هذا قد أدى في روسيا ذاتها إلى «خيانة» من نوع جديد. فإن الوسيلة المثلى للظفر فيها بالترقيات هي أن يصبح الفرد «مخبرًا» فإن كنت فيها كذلك، فقد أمنت شر البوليس، وظفرت بحمايته ما دمت في خدمته. ويوم تضع قدمك في هذا الطريق السهل المنحدر لن تنفع صداقة، ولن يجدي ولاء في منعك من الإسفاف أو إمساك قدميك من التردى، بل لن تلبث أن ترى نفسك منحدرًا إلى الدرك الأسفل، هابطًا الوهدة السحيقة بغير إرادة أو نضال. وكانت النتيجة أن أصبح كل امرئ مستريبًا بالآخر، حتى لتؤدي أبسط الملاحظات -ولو من أفواه الأطفال والصبية- إلى الدمار، وتعجل بالخراب، فلا غرو إذا رأيت كل إنسان في حذر متوجسًا لا يطمئن إلى أحد، ويخشى أن يذهب فريسة الشبهات.

وقد سبق لي خلال مطاقي في روسيا مشاهدة المدينة النموذجية «بولشيفو» الفريدة في نوعها، لأن جميع سكانها من قدامى المجرمين ونزلاء «الليمان» من سطاءين ونشالين وقتلة وسفاكين؛ وكانت قد بدأت كمستعمرة صغيرة يقضي فيها المحكوم عليهم مدد عقوباتهم اعتقاداً بأن المجرمين ليسوا إلا مرضى أو مصابين باختلال عصبي يصح علاجهم بالرفق والعطف والرياضة النفسية وإعادتهم إلى الحياة الطبيعية، حتى يصبحوا مواطنين صالحين راضين، ولكنها لم تلبث أن نمت وأصبحت مدينة زاهرة لا تحوي مصانع فحسب، بل تقوم فيها المكتبات العامة والمصحات والأندية.

وقد لاحظت لي عند زيارتها من أحسن التجارب التي قامت في الاتحاد السوفيتي ومن أنبل أفكاره ومشروعاته، ولكني تبينت فيما بعد ما لم أكن به من قبل عليماً، وهو أن جماعة «المخبرين» الذين سبق لهم أن خانوا زملاءهم المساجين وأبلغوا عنهم السلطات، هم وحدهم الذين يعطون «امتياز» المقام في هذه المستعمرة «النموذجية» فهي وقف عليهم لا يشاركون فيها أحد.

فهل يمكن أن تنحدر الأخلاق إلى هذا الدرك، وهل يمكن أن تصل الخسة الإنسانية إلى هذا الحد؟

وقد بدا لي أن العامل الروسي في المصنع مربوط بمصنعه، كما يربط العامل الزراعي بالمزرعة الجماعية سواء بسواء، فإن هو يوماً أراد أن يترك عمله لسبب خاص، كأمل في تحسين أحواله، أو تعلل على الأقل بتخفيف بلاء عيشه، أو من رغبة في النقلة والتغيير لا أكثر ولا أقل، فقد استهدف لخطر بالغ، وهو ألا يجد عملاً ما، في أي مكان آخر؛ لأنه إنما يشتغل في مصنعه كسجين، بل إن هو ترك المصنع وبقي في المدينة، حُرِم من المسكن الذي يعطيه عمله في المصنع الحق فيه، ومن أشد المشقة عليه أن يجد مسكناً سواه، مع أنه كان يدفع أجر المسكن الذي أُعطي إليه، وسيتبين له أيضاً أنه بخروجه من المصنع سيخسر جزءاً كبيراً من أجوره ومجموع الأرباح المتجمدة له في المزرعة الجماعية.

أما إذا رأت السلطات ذاتها أن لا مندوحة من نقله فلن يستطيع رفض النقل، فلا هو حر في الذهاب حين يشاء ولا في البقاء حيث تتركز علاقاته وصلاته ومصلحته. وإذا هو لم يكن من أعضاء الحزب، فسوف يتخطاه من هم أعضاء في الترقية، ولكن ليس كل من يريد الظفر بالعضوية يعطاها، فضلاً عن أن كل إنسان لم يؤت مطالبها من الملق والدهان والرياء والخنوع.

ولكن إذا حالفه الحظ وفاز بعضوية الحزب فلن يستطيع أن يستقيل منها إلا إذا رضي لنفسه فقدان جميع الامتيازات والمنافع والفوائد التي تعود عليه من عمله، وقد يتعرض أيضاً للانتقام منه والتشفي والمراقبة.

وهم يتساءلون قائلين: لماذا يفكر أحد في ترك الحزب ما دام الانتماء إليه يتيح له منافع مادية كبيرة لقاء مجرد الطاعة والإذعان؛ بل لعمر الله لماذا يريد أن يفكر لنفسه ويستقل برأيه ما دام الإجماع قائماً على أن كل شيء على أتم ما يرام، وخير ما يرجى...؟ إن تفكير المرء لنفسه استهداف للاتهام بأنه يشتغل ضد الثورة، فإن كان عضواً في الحزب تعرض للطرد، ومن يدري، فقد يُرسل إلى سيبيريا.

وأدهى من ذلك وأنكى أن هذا العصف بالبشرية، أو هذا التعقب لما فيها من خير وفضيلة يجري غير ملحوظ من أحد، وأن الذين يختفون أو يحملون على الاختفاء، هم من أروع الشجعان وأشد الناس حرصاً على استقلالهم، ومن بين الذين برزوا من عرض الجماهير وارتفع ذكرهم من صفوف الكافة، وأبوا الامتثال وأنفوا من التفاهة والصغار، وأصروا على أن يعيشوا كرماء على أنفسهم، وأن هؤلاء المبعدين وهم أئوف، ممن يشق عليهم أن يحطموا ويمتهنوا الكرامة البشرية، وينحنوا ركعاً ساجدين للسلطان، يخيل لي أنني أسمعهم في الظلام المحيط بي؛ وإن صيحات أولئك الضحايا الذين لا عداد لهم لتوقظني من هجعتي في صميم الليل وهدأته، وإن الصمت الذي أرغموا على التزامه هو الذي يحفزني اليوم إلى الكلام، والتفكير فيهم هو الذي يدفعني إلى كتابة هذه السطور. ولشد ما يروح عرفانهم في خاطري قدراً لو

أن كلماتي هذه تبلغ أسماعهم، ولشد ما يكون عذوبة في نفسي وأثرًا، وأزكى ما يلوح في أنفي عطراً، من أي بخور تحرقه لي «البرافدا»، وأي ند ترسل لي أنفاسه الزكية؛ فلست أجد أحداً يتوسط لهم، ولا أرى لهم من ولي ولا نصير، فإن المسؤولين عن العدالة والحرية ملجمون لا يفوهون ببنت شفة، وجماهير الشعب عمي الأبصار لا ينظرون.

وإذا رفعت صوتي في سبيل الذود عنهم، قيل لي، باسم كارل ماركس أيضاً، إن إجراءات الإبعاد والنفي، وفاقا العمال، وإلغاء حرية الانتخاب، ليست سوى تدابير مؤقتة، وهي الثمن الذي لا مفر من دفعة لقاء الخير الذي أصبناه من ثورة ١٩١٧.

ولكن الواقع أنه من المؤلم كل الإيلام أن يرى المرء ذلك الخير بمختلف ضروبه، ذلك الخير الذي أشتري بأشد الآلام، وأقتني بأفجع المآسي، ذاهباً على هذا النحو مبدداً، لا يجد حريصين عليه؛ وقد آن للقوم أن يفتحوا أعينهم على هذه الخيبة المريرة التي انتهت إليها كل تلك الآمال الكبار التي كنا نرجوها مخلصين. وكان من الجائز أن يتسامح المرء في انتفاء كل أثر للحرية الشخصية، وحرية التفكير، في روسيا اليوم، لو أنه لمس فيها دليلاً على أن سير التقدم المادي مطرد تدريجياً، أو بخطوات بطيئة؛ ولكن العكس هو الواقع، بل الحقيقة أن القرائن قائمة على أن شر أنواع الرأسمالية وأسوأها أخذت تعود إليها، وتستقر في ربوعها، وأن تلك البرجوازية الصغيرة التي سبق لي التحدث عنها، والتي أخشى كثيراً من تفاقمها، هي في رأيي، مناهضة للثورة أشد المناهضة، وإن كان ما يسميه القوم كذلك ليس في الحق غير تلك الروح الثورية ذاتها، أو ذلك التيار المتدفق عينه، الذي اكتسح في البداية الجسور المتداعية التي كانت تقوم في عهد القيصرية البائدة؛ وليس شيء أحب إلى النفس من أن تعتقد حقاً أن الحب لا يزال يملأ منهم القلوب إلى حفايفها، والرغبة في استتباب العدالة لا تزال مكيئة منها؛ ولكن للأسف لم تكد الثورة تتحقق، حتى توارى ذلك كله وتلاشى، وأصبحت تلك الرغبة الكريمة التي كانت تلم نفوس الثائرين الأولين، مجرد آلات

صَدِئَة لم تعد نافعة ولا صالحة، بل الآن وقد استقرت الثورة، فقد بدأت تتنازع الأمر والعدالة، وتضطرع مع الحرية والمساواة؛ وأضحى الذين لا تزال الروح الثورية مشتعلة في جنوبهم، والذين يعدون هذه الامتيازات والترخيصات المتعاقبة المتوالية انحرافاً عن المبادئ، وتهاوناً بالأسس، لا يجدون من أحد توقيراً، ولا يصيبون احتراماً، بل قد يقضي عليهم، ويتخلص في النهاية منهم.

أفليس من الخير إذن الكف عن المغالطات، والمماحكات، والاعتراف بأن وحي الثورة قد انقطع، ولم يبق مطلوباً من الناس غير الطاعة والخضوع والإذعان؛ بل أصبح المطلوب هو مجرد التأمين على كل ما تفعله الحكومة أو تأتبه، وأمسى أقل اعتراض عليها أو انتقاد لها يجر صاحبه إلى أقسى العقاب، ولا يلبث أن يقضي عليه القضاء الأخير؛ وبات الناس من أكبر كبير فيهم إلى أصغر صغير في هذا البلد الذي تغيرت قواعد الاجتماع فيه يمتهنون أشد الامتهان، ويساق بهم مساق الأنعام، فإن أبدى أحد منهم استقلالاً برأي، أو انفراداً بعمل، أحيط به وأبعد إبعاداً، فلا ينقضي وقت طويل، حتى لا يبقى في ذلك الشعب الباسل الذي طالما استحق حبنا، واستولى على إعجابنا، غير معاشر التعصبين والاستغلايين والجلادين والضحايا.

لقد أصبح العامل الصغير المستقل طريدة تُتَعَقَّب، وقنيصة تُجَاع وتُعَذَّب، ثم تتحطم في النهاية وتستأصل استئصالاً. ولست أحسب بلداً، حتى ولا في ألمانيا الهتلرية ذاتها، بلغ الحد فيه من حرية العقل والروح، وإخضاع النفوس، واشتداد الإرهاب، مبلغه في الاتحاد السوفييتي؛ ولكن كبت المعارضة في بلد ما أو قمع حرية الرأي، أمر خطر كل الخطورة، بل هو دعوة إلى الإرهاب ونداء إلى الطغيان. ولست أنكر أن تشابه الناس في التفكير من شأنه أن يغني عن الحكومة كثيراً من المتاعب، ولكن هل في إمكان المرء إزاء حال كهذه أن يتحدث عن الثقافة؟

إن الحكمة الحقيقية هي في الاستماع لآراء المعارضة، بل في تشجيعها، حتى مع منعها من الإضرار بالصالح العام.

إن الإنسانية مركبة، وليست مقطوعة من قِـدّ واحد، فكل محاولة لتبسيطها وتجنيدھا وتسخيرھا، بل كل محاولة من الظاهر لإخضاع كل شيء، وكل إنسان، لمقياس واحد، ستظل أبداً محفوفة بالخطر، مخوفة العاقبة، شديدة الأذى.

أما حال أهل الفنون في روسيا فأسوأ وأُنكى من حال سائر المواطنين، وأعتقد أن قيمة الكاتب الحقيقية هي من ناحية قوته الثورية، أو بعبارة أدق، من ناحية معارضته وجوهرها وحقيقة مرادھا؛ إذ ليست من الحماقة بحيث أعتقد أن الذكاء والمواهب العقلية والفنية وقف على اليساريين دون سواھم، والفنان الكبير هو بالضرورة «المخالف» للغير، المتأبّي على التشابه والتحاكي، وأن من واجبه أن يسبح ضد تيار زمانه... ولكن ماذا عسى أن يحدث على الأيام في روسيا السوفيتية إذا تم للدولة الجديدة القضاء على كل نزعة إلى المعارضة عند معاشر أهل الفنون، وماذا ترى سيحدث للفنان حين لا يجد إلى المعارضة سبيلاً؟

ألا يبقى يومئذ أمامه غير مجارة التيار؟

إن الفنان سيتمكن بلا شك، ما دام النضال مستمرًا، والنصر لا يزال يقتضي الكفاح، من قيادة الثورة؛ بل إنه سيناضل ويساهم في الجهاد، ليؤكد النصر المرتقب، ويضمن الفوز المنشود؛ ولكن ماذا سيحدث عندئذ؟

هذا هو السؤال الذي يقلق بالي من جانب الاتحاد السوفيتي، بل هو السؤال ذاته الذي جعلت ألقيه على خاطري قبل ذهابي إلى روسيا ولم أجد عنه جواباً مقنعاً.

وماذا سيكون أيضاً من شأن الفنان الذكيّ اللبق المبتكر حقاً؟

لقد حدثني رسام لقيته في روسيا أن اللباقة والذكاء والابتكار لم تعد مطلوبة في البلاد، وقال إن «الأوبرا» لا تجدي العامل نفعاً، ولا قيمة لها عنده، إذا هو عند انصرافه من الملهى لا يجد منها في خاطره نغمة يستطيع ترديدها، أو لحناً يصفرّ به تصفيراً.

ومضى في حديثه يقول: إن المطلوب اليوم هو الشيء البسيط السهل المفهوم.

قلت معترضاً: ولكن روائع الفنون، مما أصبح فيما بعد محبوباً من الشعب، شائعاً بين الناس، لم يقدر حق قدره في بداية ظهوره أو لم يرض عندئذ غير فئة قليلة أو نخبة من الصفوة.

قال: إن بتهوفن نفسه لن يستطيع في بلد كالاتحاد السوفيتي مداركة الفشل إذا هو أخفق في البداية، فأولاً يتعين على الفنان هنا قبل كل شيء أن ينتهج سياسة الحزب وخططه، وإلا عدت أسمى منتجاته أمثلة من «الشكليّة» البحت، وهي الكلمة التي شاعت اليوم في روسيا للتعبير عن كل ما لا يُعَنُون مطلقاً بسماعه أو مشاهدته، لأننا نعتزم خلق فن جديد، خليق بالشعب الجديد الذي أصبحناه.

قلت: إن هذا يقتضى من جميع الفنانين أن يكونوا «محاكين» ولكن خيارهم وأكثرهم ابتكاراً لن يقبلوا الإسفاف بفنونهم إلى هذه الوهدة، ولن يرتضوا الانحناء لهذا الطغيان، فلا يسعهم غير التزام الصمت، والكف عن الإنتاج، فلا يكون نصيب القادة والزعماء الذين يرغبون في النهوض بالثقافة وتمجيدها، ورفع شأنها، إلا الاحتقار والسخرية والإزراء من هذه الثقافة بالذات.

فأجابني محدثي بقوله إنني إنما أتكلم على هذا النحو «كبرجوازي» وإنه من ناحيته مقتنع بأن الماركسية التي آتت في عدة ميادين وحقول أطيب الثمرات، قادرة أيضاً على إنتاج طيب في ميدان الفنون، وإن الحائل الوحيد دونه إلى الآن هو الأهمية البالغة التي لا يزال أهل الفنون أنفسهم ينسبون لها إلى الأشكال والقوالب البالية منها.

وكان محدثي هذا قد بدأ يرفع الصوت شيئاً فشيئاً، كأنما يلقي محاضرة، أو يتلو درساً محفوظاً، فلم أستطع على الإصغاء إليه صبراً، وتركته وانصرفت دون تعقيب.

ولكنني جاءني في غرفتي يوماً آخر فقال إنه في أعماق قلبه موافق على ما قلت، ولكنه كان يعرف في الردهة أن هناك آذاناً تسترق السمع عليه، وإنه متتو قريباً عرض ألواح ورسومه في متحف، فهو بحاجة إلى معونة السلطات ورضاها.

وكان الرأي العام في روسيا عند ذهابي إليها لم ينته بعد من حل لخلاف طويل، وجدل عنيف، حول نظرية «الشكلية» في الفنون؛ وحاولت جهدي أن أفهم مؤدى هذه الكلمة ومدلولها فتبين لي أن المنتجات الفنية التي اتهمت بها إنما هي موجهة إلى فنانين عمدوا إلى تغليب الشكل على المعنى، والصورة على الجوهر، والمظهر على المدلول؛ بل يصح لي أن أضيف أن هناك مدلولاً واحداً ظفر بالتقدير، وعد خليقاً بالناية والاهتمام، واعتبر الفن الصحيح المنشود، وما عداه داخل في باب «الشكلية» أو فن الصور الظاهرة، أو «الأشكال والتهاويل»، لأنه لا يتجه هذا الاتجاه بالذات؛ ويكفي أن يتمكن الفنان من حمل الناس على البكاء ليدرك الناس أن هذه هي الروح التي توحى النقد في الاتحاد السوفيتي. ولعل هذه «الطائفية» كانت يوماً مجدية من الناحية السياسية ولكن لا يمكن أن تسمى «ثقافة»، لأن الثقافة تتعرض للخطر في كل حين إذا انتفت حرية الانتقاد. وكل إنتاج فني في روسيا محكوم عليه بالفناء إذا لم يتبع سياسة الحزب وتعاليمه. وليس الجمال في نظرهم إلا شذوذاً «برجوازيّاً»، وإذا لم ينتهج الفنان هذا النهج، مهما تكن مواهبه، ومهما يرتفع بفنه، فسوف يظل خاملاً منكوراً مهماً، لا يعترف الناس به، إذا فرضنا أنه سيجد عملاً أو يسمح له بالإنتاج. أما إذا هو «امتثل» فالجزاء نصيبه والإغداق عليه مكفول، والمديح إليه مسوق. ومن السهل أن تدرك أي فائدة تعود على الحكومة من أفراد فنان بالعطاء والنوال، لأنه يسبح بحمد العهد الحاضر والثناء بالخير عليه. ومن السهل أيضاً أن تدرك مدى الفائدة التي تعود على الفنان ذاته إذا هو رضي التغني بمديح الحكومة التي تغدق عليه وتسخر في الجزاء.

ولعل الكاتب هو في روسيا أكثر المنتجين والصناع وأرباب المهن حظوة، وأوفرهم قسطاً من التدليل، حتى لقد أدهشتني المزايا التي عرضت عليّ ورّعت خاطري، وبت يومئذ أخشى أن أقع فريسة الإغراء، وأن أذل للرشوة والفساد. وما ذهبت إلى روسيا لأحظى بمزايا، أو أظفر بمنافع وفوائد، وكان ما شاهدته من مختلف صنوفها وعديد ألوانها فاتناً يسترق القلب، ولكن هذا لم يمنعني أن أنتقد، لأن أشد الحظوة

وأكبرها قدرًا إنما يستمتع في روسيا بها الكتاب أكثر من استمتاعهم بمثلها في أي بلد آخر من بلاد العالم، وإنما تعطى لقاء التفكير في الحدود التي ترضى السلطات عنها، والأفق الذي تجيزه؛ وكان هذا وحده كافيًا لتنبيهي إلى الخطر، وتبصرتي بالعاقبة، فأخذت يومئذ حذري، وناديت حكمتي وصبري، لأن الثمن المطلوب نظيرها هو التخلي الكلي عن كل نقد حر، أو معارضة صريحة.

وتبين لي أن عضوًا بارزًا من أعضاء المجمع العلمي أفرج عنه أخيرًا، وكان قد زج به في غيابة السجن، لا لذنب اقترفه سوى استقلال الرأي، وحرية الحكم على الأشياء، وكان العلماء الأجانب كلما حاولوا الاتصال به، قيل لهم إنه مريض معتكف مع أنه في السجن يومئذ مقيم.

وقيل أيضًا إن آخر فصل من «أستاذيته» وحرّم من كل تسهيلات كان من قبل يجدها في المعمل، لا لشيء سوى أنه أبدى آراء علمية لا تجاري تيار العقيدة السوفيتية، حتى لقد أرغم على أن يكتب خطابًا مفتوحًا إلى الرأي العام يتراجع فيه عنها اتقاء الإبعاد، وخشية من التشريد. وأنت تعلم أن من خواص الطغيان عجزه عن احتمال الاستقلال الفكري، ورضاه عن المهانة والاستضعاف والخنوع، والويل للمحامي الروسي الذي ينهض في ساحة القضاء للمرافعة عن متهم تريد الحكومة إدانته، مهما تكن مرافعته من العدالة بمكان.

إن ستالين لا يسمح بغير المديح والاستحسان والتحييد، ولن يلبث أن يجد نفسه محاطًا بقوم لا يملكون تبصرته بخطأ، أو تنبيهه إلى ضلّة، إذ ليست لهم آراء على الإطلاق.

إن صورة ستالين أصبحت تشاهد في كل مكان، واسمه أمسى على كل شفة، وإزجاء المديح إليه ظاهر في كل خطبة أو كلام.

أفذلكم كله نتيجة العبادة، أم ثمرة الحب، أم وليد الخوف العام؟

من يدري!

وأذكر وأنا في طريقي إلى «تفليس» مجتازاً بلدة «جوري» التي ولد فيها ستالين، أنني رأيت من المجاملة أن أبعث إليه برسالة شخصية عرفاناً وشكراً على الترحيب الصادق الذي لقيناه في بلاده وكرم الضيافة الذي وجدناه أينما حللنا، وبدا لي أن هذه فرصة لن نتاح مرة أخرى، فأوقفت المركبة أمام دار البريد، وسلمت مكتب التلغراف رسالة أقول فيها «يحدوني المرور «بجوري» في سير رحلتنا العجيبة أن أبعث إليك... وهنا أمسك عامل التلغراف عن القراءة وقال إنه لا يستطيع أن يبعث برسالة كهذه، لأن توجيه الخطاب بالضمير المفرد هكذا لا يكفي في حق ستالين، بل هو أسلوب لا يليق، فلا معدى من إضافة شيء آخر، واقترح أن يكون ذلك قولي مثلاً «إلى زعيم العمال» أو «مولى الشعب».

ولكن ذلك بدا لي سخيّاً فقلت له إن ستالين بلا شك يسمو على المدق، ولكن قولي هذا لم يُجد معه نفعاً، فقد أبى أن يرسل البرقية ما لم أوافق على تعديل نصها. وقد تبين لي مع الأسف أن هذه «الرسميات» بعض العوامل التي ستساعد على إقامة حاجز منيع بين ستالين ورعاياه.

وكثيراً ما اضطررت إلى إجراء حذف أو تعديل في نصوص الخطب التي ألقيتها خلال رحلتي، فقد قيل لي مثلاً إن كلمة «المصير» ينبغي أن تُشفع بنعت جميل كقولي «الباهر» كلما أشرت في خطبي إلى مصير الاتحاد السوفيتي، كما طلبوا مني يوماً أن أحذف صفة «العظيم» إذا جاءت نعتاً لأحد الملوك، قائلين إن الملوك لا يمكن أن يكونوا يوماً «عظماً»!

ودعيت وأنا في ليننجراد إلى إلقاء خطاب في جمعية للطلاب وحملة الأقلام فعرضت مسودة الخطبة على اللجنة التي تتولى تنظيم الاجتماع، ولكنها أبلغتني أن ما سوف أقوله لن يبدو مقبولاً ولا مستحسنًا لأنه يخالف تعاليم الحزب وسياسته.

وقد أدى ذلك إلى متاعب وصعاب كثيرة حملتني في النهاية على العدول عن إلقاء الخطاب، وكان نصه كما يلي:

«كثيراً ما دعيت إلى إبداء رأيي في الأدب السوفييتي المعاصر، ولهذا أحببت اليوم أن أشرح سر رفضي إلى الآن إبداءه حتى أجلو بعض العبارات التي أدليت بها في الميدان الأحمر بموسكو بمناسبة تشييع جنازة «جوركي»، فقد تحدثت عندئذ عن المشاكل التي أولدها نجاح الثورة ذاته، وأثارها انتصارها قائلاً: إنه من حسنات الاتحاد السوفييتي ومآثره الخالدة أنه هو الذي أوجد تلك المشاكل وهياً لها السبيل حتى ننظر فيها وندرسها، ولا يخفى أن مصير الحضارة متصل وثيق الاتصال بالحل الذي ستهتدي روسيا إليه؛ وهذا هو ما يجعلني أعتقد أنه من الخير والفائدة أن أثيرها في هذا المقام من جديد فأقول إن الجماهرة، حتى وإن شملت خير العناصر، مطبوعة على الاستخفاف بكل جديد أو دقيق من روائع الفن ومنتجاته، فلا تقدر إلا كل ما يسهل فهمه، أو بعبارة أخرى كل ما هو عاديٌّ مألوف، ولكن لا يصح لنا أن ننسى أن للثورة «كليشيات» ولوازم وشؤوناً عادية كما «للبرجوازية»، وأن ما يضيفي الخلود والجودة على أي عمل فني، لا يأتي بالضرورة من الثورة، ولا هو حتماً من آثارها، أو صورة من أفكارها، مهما تكن هذه الآثار والصور سامية الأهداف نبيلة الغايات، وإنما يحيا العمل الفني ويخلد بفضل ما فيه من ابتكار وقوة خلق وإنشاء، وبما يثير من مسائل أو يخلق من مشاكل، أو يرد به عليها، أو يستبق إليها بالجواب؛ وأخشى أن الكثير من المنتجات الفنية المشبعة بأنقى التعاليم الماركسية والتي لاقت النجاح اليوم لهذا السبب وحده، سيبذرو غداً للأجيال الخالفة «مطبوحاً» أو يحمل «رائحة» المعمل، فإن الآثار الأدبية التي تتغلب على أحداث الزمن، ولا يتطرق إليها النسيان على الدهر، هي التي تسمو على عقول المعاصرين والآراء الشائعة لديهم. واليوم وقد أصبحت «الثورة» هي المنتصرة المظفّرة، فقد بات الفن في خطر بالغ، لا يقل عن أي شيء عداه في أشد عهود الطغيان وأكثرها عصفاً واستبداداً، وأعني به خطر

«الأرثوذكسية». وما أحوج الفنان في عهد الثورة المظفرة إلى الحرية، لأن الفنون إذا لم تتوافر الحرية التامة لها فقدت معانيها وقيمتها، وما دام هتاف الجماهير واستحسانها معناه النجاح والفوز، فإن الشهرة والصيت البعيد سيذهبان إلى المنتجات الفنية التي يستطيع الجمهور فهمها بغير محاولة أو جهد؛ وكثيراً ما ساءلت نفسي ترى لو أن «كيتس»^(١) أو «بوديلير»^(٢) أو «ريمبو»^(٣) كانوا في روسيا اليوم، فهل نحسبهم سيروحوون فيها مجهولين منكورين، كما كانوا في عصورهم، بسبب قوة ابتكارهم، وفضل استحداثهم، وندرة مواهبهم. إنني لا أعطي أكثر اهتمامي إلا لمعاصر الفنانين الذين سخر الناس في أول الأمر منهم واحتقروهم وأهملوا شأنهم، أمثال كيتس وبوديلير وريمبو وأشباههم ممن ستوليهم الأجيال القادمة نعمة الخلود على الزمان. ولعلكم قائلون إننا لسنا اليوم بحاجة إلى هؤلاء ومن لف لفهم، لأن كل ما ينطوي عليه تاريخهم من دلالة لا يعدو القول بأنهم إنما صوروا المجتمع المنحط المنقرض الذي كانوا ثمراته المحزنة. وقد تقولون إنهم إذا لم يستطيعوا كسب الإعجاب العام، فإن الضرر عليهم، والخير في ذلك لنا، لأننا لن نجد لديهم شيئاً جديداً نتعلمه، ولن نصيب منهم طريفاً ننزكي به؛ وإنما الذين يستطيعون اليوم هدايتنا وإرشادنا وتثقيفنا هم معاصر الفنانين الذين يشعرون في العهد الجديد بأنهم من صميم أهله، ونفوسهم متماثلة مع روحه، أو بعبارة أخرى، الذين يقرون العهد ويتملقونه ويسترضونه، ولكنني شخصياً أعتقد أن المنتجات الفنية التي تقوم على المديح والاسترضاء والملق هي آثار لا قيمة لها إطلاقاً، من الناحية الثقافية، وأن من واجب الثقافة إذا أرادت التقدم والإطراد أن تتجاهلها وتنكر وجودها.

أما الأدب الذي ينحصر جهده في تصوير المجتمع، فقد سبق أن بسطت لكم رأبي فيه، فإن البقاء على إدامة التأمل الذاتي والإعجاب بالنفس قد يكون مرحلة من مراحل

(١) شاعر إنجليزي مبدع عاجله الموت في شبابه.

(٢) شاعر فرنسي معروف.

(٣) شاعر فرنسي ملهم عاش شريداً جوالاً لا يستقر على حال.

التطور بالنسبة لمجتمع ناشئ، وأمة فتية، ولكن من المحزن حقًا أن تظل هذه المرحلة هي الأولى والأخيرة فلا يتقدم المجتمع منها مطلقًا إلى مرحلة تالية...».

هذا هو ما كنت أنوي أن أقوله في خطبتي.

وما دام الإنسان مضطهدًا مديسًا مغلوبًا على أمره، وما دام الظلم الاجتماعي قائمًا لإخضاعه وإذلاله، فلا يسعنا غير عقد الأمل على البراعم التي لم تظهر بعد في الأرض الخصيب، أو الكامنة الخصب، أرض الطبقات الكادحة الحارثة المكدودة، مثلنا في ذلك كمثل الذين يعلقون كبار الآمال على الأطفال حين يشبون على الطوق، فلا يكون منهم عندئذ غير رجال عاديين مألوفين، أو كثيرًا ما يذهب بنا الظن إلى أن الجماهير إنما تتألف من أفراد نشأوا من طينة أرق وأفضل من طينة بقية أفراد البشرية المخيبين للآمال، وأعتقد أنهم لا يمتازون إلا بشيء واحد عنهم، وهو أنهم أقل فسادًا، وانحطاطًا من سواهم؛ وإني لأشهد اليوم في الاتحاد السوفييتي بواد «برجوازية» جديدة تنمو وتتطور من بين صفوف هذه الجماهير التي لم تجرب بعد، وأرى فيها العيوب والمساوئ ذاتها التي لدينا، إذا لم تكد ترتفع فوق مستوى الفاقة حتى أضحت تحتقر الفقراء ودبت عقارب الغيرة في نفوس أفرادها، واستولت على المتع والمناعم التي كانت محرومة منها أمدًا طويلًا، وأمست تعرف كيف تظفر بها، وكيف تحفظها وتصونها، فلا تفلت من أيديها، فهل هؤلاء القوم حقًا هم الذين صنعوا الثورة؟

كلا. وإيؤمن الحق... إنهم في الواقع معاشر الذين استغلوها لمنفعتهم، وأحالوها إلى مصلحتهم، بدوافع الأنانية وحب الذات، وقد يكونون إلى الآن أعضاء في الحزب الشيوعي، ولكنهم لم يعودوا شيوعيين في أطواء جوانحهم، وأعماق قلوبهم.

ولست ألوم الاتحاد السوفييتي على أنه قد أخفق في تحقيق أكثر مما قد حقق. لأنني أعتقد أنه لم يكن في الإمكان أحسن مما كان، لأن البلاد بدأت من درك سحيق، وكانت قبل الثورة في أعماق وهدة، ولكنني ألومه على مدى الخدعة التي استمرأها، والدعوى الضخمة بأن الحالة في روسيا مما يحسد عليه، وتطيب النفس له، فإن زعمًا

كهذا من البلد الذي كان مناط آمالي، ومعقد إيماني، أليم لنفسي محزن لخاطري.

وألوم الشيوعيين في فرنسا، وفي كل مكان كذلك؛ ولست بلائم أولئك الذين خُدعوا لحسن نيتهم، وسلامة طويتهم، وإنما أنا لائم الذين كانوا يعرفون أكثر من سواهم، أو الذين كان أولى بهم أن يعرفوا، ولكنهم أبوا إلا أن يكذبوا على العمال في الخارج ويغرروا بهم، وإن ظلوا طيلة الوقت يلتمسون تحقيق أهداف سياسية.

ألم يئنّ للعمال خارج روسيا السوفيتية أن يدركوا أن الحزب الشيوعي أضلهم وغرر بهم، كما أضل من قبلهم العمال في روسيا ذاتها؟

ولو أنني وجدت بارقة أمل في تحسن الأحوال وصلاح الأمور في الاتحاد السوفيتي، للزمت الصمت، رغم ما هو فيه من سوء يبعث على الأسف، ويورث الهم والحزن؛ ولكنني رأيت من الواجب أن أتكلم علانية، وأصارع بالحقيقة جهرة، لأنني وصلت إلى مرحلة الاعتقاد الجازم بأن الاتحاد السوفيتي هابط رويداً المنحدر الذي كنت أرجو أن أراه صاعداً فيه، راقياً إليه، ولأنه راح يتخلى لأسباب مموهة، ودوافع بارقة خادعة، عن الحريات واحدة في إثر واحدة، تلك الحريات التي اكتسبها بفضل الثورة العظيمة بعد متاعب جمّة وإراقة دماء، ولأنني أراه يجرر في أذياله إلى حافة الفوضى الأحزاب الشيوعية القائمة في الأقطار الأخرى.

ولن يحول بيني وبين الصراحة شيء، ولا الولاء الحزبيّ ذاته؛ لأنني أضع الحق فوق الأحزاب، وأعلم حق العلم أنه ليس في التعاليم الماركسية شيء يقال له «الحق» أو الحق المطلق على الأقل؛ وإنما الحق في تقديرها نسبي، ولكنني أعتقد مع ذلك أنه من الإجرام في أمر خطير كهذا تضليل الناس والتغريب بهم. ومن الأمور الواجبة بغير إبطاء أن ينظر الناس إلى الأمور كما هي، لا كما يودون أن تكون، وكما كانوا يرجون. إن الاتحاد السوفيتي قد خدعنا في أعز أمانينا، وبين لنا كيف يمكن أن نزل بالثورة

الصداقة البريئة القدم في الرمال الخادعة، والسَّبَّاسِب^(١) اللينة الكاذبة.

إن المجتمع «الرأسمالي» قد عاد فاستقر، وقام طغيان جديد مكانه، طغيان رهيب مَاحِقٌ مستغل توافرت فيه كل ما في العبودية من حقارة ومهانة وذل.

لقد فشلت روسيا، كما فشل «ديموفون»^(٢) في أن يكون ربًّا معبودًا، ولن تنهض الآن من نيران هذه المحنة السوفيتية.



(١) السَّبَّاسِبُ : المفازة.

(٢) ديموفون: هو الوليد الذي جعلت ديميتير في أساطير اليونان تربيته في المهد على الاكتواء بالنار، وتضع له في السرير جذوات متقدة؛ لكي تجعل من بشريته ألوهية، ولكن أمه اكتشفت الأمر، فألقذت به الإنسان، وضحت بالإله. انظر استهلال أندريه جيد لقصته.

لويس فيشر

كانت تقوم في خاطري وأنا شاب في فيلادلفيا قبل نشوب الحرب العالمية الأولى، صورة مرتبكة المعالم لروسيا «مehوزة» الأجزاء ولم أكن يومئذ قد رأيته، أو رأيت سواها، من البلاد الأجنبية، ولكنني قرأت طائفة كبيرة من روايات تولستوي، ودوستوفسكي وترجينيف وبعض القصص القصيرة التي كتبها جوجول وجوركي، كما هزت مشاعري «مذكرات ناثر» التي وضعها البرنس بيتر كرويوتكين الفوضوي الروسي الكبير، بما حوت من أخيلة، ومبادئ سامية؛ وسخط إنساني. وكان الأدب الذي ألفت في شبابي قراءته عن الرحلات والمخاطر، يشمل قصص الثوار البواسل الذين خادعوا الموت بالفرار من مناجم الملح في أصقاع سيبيريا، وكان أبواي قد ولدا في بلدة صغيرة تدعي «شبولاً» خارج حدود مدينة «كييف»، فكانا يحدثانني عن المذابح التي كان «الموزيق» -أو الفلاحون الروس- يقتربونها وهم ثملون ملحون على «الفودكا» نازفو الأبواب من صهبائها الباطشة، فكانت روسيا تلوح لي من ذلك كله «خاماً» وشرقية، وتبدو لخاطري متحضرة وغير متحضرة، متعلمة وأمية، وقد تناثرت في أرضها بارقات من ثقافة، ورواء قيصريّ، وثراء ضخّم، وسط ظلمة مترامية المدى، وفاقة ضاربة الأطناب.

وهكذا ظل العالم الممتد خلف حدود أمريكا في خاطري أشبه بصورة واهية الظلال، قاتمة المعالم، إلى بداية الصراع حيال إمبراطور ألمانيا، ونشوب الحرب واشتراكي فيها، فقد حجباً عني كل شيء حتى الأحداث الجسام ذاتها من اعتزال قيصر الروس العرش ونزوله عن الدست للحكومة الموقوتة في شهر مارس عام

١٩١٧ ومولد النظام السوفييتي في شهر نوفمبر منه، فإن هذين الانقلابين لم يتركا في ذاكراتي أثرًا ما عند وقوعهما، ولو أحدثاه لما استطعت يومئذ أن أفهم سر التجاء البلاشفة إلى إسقاط حكومة كرينسكي الموقوتة التي وصفها لينين بقوله إنها جعلت روسيا «أكثر بلد في العالم حرية» ولا أن أدرك الأسباب التي حملتهم على التخلي عن تأييدها لمصلحة «ديكتاتورية» مؤكدة.

ولما عدت إلى بلادي في عام ١٩٢٠ بعد انتهاء خدمتي العسكرية فيما وراء البحار اشتد بي الشغف بمعرفة سر نشأة الحرب العالمية الأولى وأسباب نشوبها فعكفت على دراسة عدة مؤلفات ومجلدات في هذا الشأن بأقلام كتاب من مختلف العناصر والجنسيات، وكانوا جميعًا مختلفين في النتائج، وإن اتفقوا جميعًا على توزيع جريرتها توزيعًا واسع النطاق يجعل روسيا القيصرية، والنمسا والمجر، في مقدمة الدول التي تحمل أكبر التبعات عن إثارة نارها، ثم تتلوها ألمانيا وفرنسا ثم بريطانيا. وتبين لي من دراستي أن هؤلاء الباحثين يعتقدون أن جميع الدول العظمى كانت متفقة بمعاهدات سرية على تقسيم الدول الصغيرة الضعيفة فيما بينها أشلاء موزعة، وأن دوافع التوسع الاستعماري أدى في النهاية بها إلى التنازع، فلم تلبث أن قامت الحرب كنتيجة لذلك الصراع المستمر.

وبدأت المجلات الأسبوعية الحرة في نيويورك تنادي عندئذ بأن مؤتمر الصلح في فرساي إنما أقام عمله على هذه المبادئ الاستعمارية الخبيثة ذاتها، وأن الساسة كانوا رغم نصائح الرئيس وودرو ويلسون ومشوراته السامية، أشد اهتمامًا بالكسب الإقليمي والمادي منهم بإيجاد حلول كفيلة بإقرار السلام.

فلا عجب إذا جعلني موقفي من الحرب والسلام على استعداد لقبول سخط البلشفية على الغرب وحملتها عليه، فقد ذهبت موسكو تندد بما كان في مؤتمر الصلح من عمليات الضم والتقسيم والإلحاق، وتستنكر مسألة «التعويضات»، وتنذر بأن ذلك كله بذور حرب عالمية أخرى.

وكنْتُ أعرف طالبًا يدرس العلوم الهندسية في جامعة بانسلفانيا ويتكلم الروسية. فراح يبين لي ما تضمنته المذكرات الشائكة الساخرة المرة التي وضعها شيشيرين وزير خارجية السوفييت من التنديد بالحكومات «البرجوازية» لتدخلها بغير موجب ولا مبرر في الحرب الروسية الأهلية لتأييد الرجعية وأنصار القيصرية حيال البلاشفة الثائرين، وكيف كان هؤلاء يكافحون قوات أكبر منهم بأسًا، وأشدَّ بطشًا، ويتحدون العالم القديم لأنه أبى أن يسمح بمولد عالم جديد، وكيف كانت روسيا تحارب قوات عرفت كيف تضرم نار الحرب، ولم تعرف كيف تقرر السلام!

وقد أحسست يومئذ دافعًا قويًا يحفزني إلى معرفة أوروبا هذه التي استطاعت أخيرًا النجاة من حرب عالمية، وثورة، فادخرت بعض مواردِي، وسافرت إلى الخارج في شهر ديسمبر عام ١٩٢١ كمراسل حر غير مقيد بجريدة معينة.

وكانت أوروبا يومئذ في حال سوْأى، وأمر مَرِيج؛ فقد استحال أبطال الحرب الأقوياء الجسوم إلى متسولين شُرَّد يهيمون في شوارع المدائن البريطانية يسألون الناس وهم طائفون بالمعازف والقيثارات «والأرمونيكات» أو يغنون وينشدون، أو يتجولون لبيع أقلام الرصاص؛ وكانت صفوف من المقاعد في مسارح لندن ملاءى بالنساء دون بعولهن، لمصرعهم في الخنادق، أو دون أحد من الرجال، لأنهن لن يرتضين منهم أحدًا، لأن الذين كانوا مصباحين لهن بعولًا، أمسوا رقودًا تحت أطباق الثرى في ساحات فرنسا والفلاندرز، وكان مكسيم جوركي يومئذ يناشد العالم أن يبادر بالأغذية لإطعام خمسة وعشرين مليونًا من الجياع الساغبين في روسيا.

وقد كتبت من بولونيا في شهر يناير عام ١٩٢٢ عن «الجوائح» التي لم تدع أحدًا ينجو من مخالبتها، كما وصفت التيار الجارف فيها من الوطنية المستعرة والنصرة القومية المتناهية؛ وكانت بولونيا رغم ما اصطَلح عليها من عدة المشاكل الداخلية لا تزال محتفظة بجيش يستنفد مواردها، ومصرة على ضم «فيلنا» Vilna إليها.

وقضيت شرطاً من الشهر التالي في النمسا، وكتبت إلى جريدة «نيويورك بوست» في أول مارس من العام ذاته أقول: «إن فيينا التي طالما تسامع الناس عن مرحها وبهجة الحياة الليلية فيها أمست تلوح قاتمة كلما أرخى الليل سدوله، وقد غمرتها بلادة غريبة وجمود عجيب، وتضاءلت الأضواء في شوارعها، وإن كانت الأنوار والحياة وأبواق السيارات وأصوات القصف والرقص والغناء في المشارب والثياب المهفهفة لا تزال بادية في أحيائها المليئة بالحانات والقريبة من دار «الأوبرا» والمسارح الكبيرة والفنادق الفخمة.

وقد تحطمت الواجهات الزجاجية الضخمة في عدة بنوك ومتاجر ومطاعم وفنادق خلال المظاهرات العدائية التي جرت أخيراً ضد المضاربين.

أما ألمانيا التي استطاعت بفضل ضخامة مساحتها وعديد نواحيها ومركزها في وسط أوروبا أن تخيف أو تفسد أو تغزو مناطق مترامية في أوروبا، كما تمكنت من تعزيز مناطق أخرى وتقويتها وبعث النهضة في ربوعها، فقد أمست تعاني «كابوساً مستمراً من التطاحن الحزبي بين الملكيين والجمهوريين، وتشكو من التضخم النقدي وآثاره السيئة».

وفي المؤتمر الدولي الذي انعقد في جنوه خلال شهر أبريل من العام ذاته لم يقو المنتصرون الغربيون على نسيان ما كان، أو أخذ المسيئين بالغفران، أو الدعوة إلى الوحدة بينهم والوئام، فراحوا يدفعون بروسيا، أو «المنبوذة» الثائرة، وألمانيا الطريفة بعد الحرب، إلى التحالف، وعقد حلف سياسي تجاري، بل لقد حملوا هؤلاء المطرودين المنبوذين إلى التسليح والتعاون عليه سرّاً بينهم.

لقد كانت أوروبا يومئذ لا تزال مبهوطة مذهولة تقطر دماء من أثر الحرب الأولى، وهي مع ذلك كله تسير متخبطة إلى حرب أخرى، بينما لبث المواطنون والساسة يقلبون أكفهم أسفاً ويأساً.

وكنت في ذلك الحين لا أزال أقرأ وأسمع الكثير عن روسيا السوفيتية، وأعلم أن البلاشفة يمجدون الإنسان ويعزرونه، ويرثون له، عارضين عليه الأرض والخبز

والسلام والعمل والمسكن والطمأنينة والتعليم والصحة والفنون والسعادة، ويناصرون مبادئ الإخاء الدولي الذي يجمع أشتات الكادحين والمكدودين، ويقولون إنهم سيقضون على التمييز العنصري والاستغلال والظلم وقوة الثراء وحقوق الملكية والجشع الإقليمي؛ وقد راحوا يفاخرون بأنهم حرروا بولونيا وفنلندا ودول البلطيق من حكم الروس، وتخلوا عن امتيازات القيصر في الصين ومناطق نفوذه وامتيازات الزيت الممنوحة له في إيران.

فلا غرو إذا مضى المظلومون في هذا العالم وأنصارهم يرون في السوفيت رسل عهد جديد في التاريخ.

لقد رأينا يومئذ دولة تشغل مساحتها سدس الكرة الأرضية تنضم إلى خطيب الشوارع في أصائل الأحاد وتتكلم كلامه، وتحدث بلغته ولسانه، وشهدنا لأول مرة في التاريخ حكومة تحقق أحلام المصلحين ومحطمي الأصنام والرواد الأولين في الأجيال الماضية.

لقد سرت في البشر هزة، واستولى الرعب على نفوس أصحاب الامتيازات، والتقاليد، ورجال العسكرية، والأباطرة، والمزهوين بلونهم على سائر بني البشر، والجامدين على الأوضاع القائمة، فلم تلبث مخاوفهم أن أثارت الآمال الكبار في نفوس الآخرين.

وكان أبدع ما في البلشفية «عموميتها»، فهي لم تقترح إدخال تغييرات معينة في روسيا فحسب، بل رمت أيضًا إلى ما هو أوسع نطاقًا، وأتم شمولًا. رمت إلى إلغاء الحروب، والقضاء على الفقر، والآلام؛ فلا عجب إذا رأينا صغار الناس في كل بلد من عامل أجير، وكاتب مفكر، وذكيّ مستنير، قد شعروا يومئذ بأن حدثًا خطيرًا جرى في حياتهم، حين بدأت جذور الثورة تتأصل في أرض روسيا وترتبتها. والواقع أن ذلك العطف العام الذي أحاط بالبلشفية في تلك الأيام كان مرجعه إلى السخط على سير الأحوال في البلاد الأخرى، أكثر من مرده إلى معرفة حقائق الحال في روسيا ذاتها؛

فإن أكثر الناس كانوا يومئذ يجهلون ما حدث فيها، ولا يعرفون شيئاً عما كان يجري تحت النظام البلشفي الجديد؛ وإن مضى كل إنسان يتحدث عنها بحرارة، ويتحمس في الحدث عنها كل الحماسة. ووقع ما كان منتظراً، إذ جعل المنتمون إليها، الداخلون في حظيرتها، يعتمدون في الغالب على وعودها، ويعتذرون عن «المتاعب» التي وجدتتها في طريقها؛ بينما ذهب الناقمون منها المتربصون بها ينتقدونها على أنها لم تحقق من تلك الوعود شيئاً.

ولم يلبث هذا الجدل القائم بين أنصارها وخصومها أن أثار في نفسي الرغبة في الظفر بالحقائق من مواردها، والعلم من مظانّه، فذهبت إلى موسكو من برلين في شهر سبتمبر عام ١٩٢٢ وأنا لا أعرف كلمة واحدة من الروسية، ولا أعلم إلا القليل من أمر النظام السوفيتي، وإن كنت أحنو على أمانيه، وأعرف مع ذلك أن الأحوال فيه سيئة، وأنني لست مسافراً إلى «المدينة الفاضلة» ولا أنا حاج إلى مكة المكرمة.

وكانت ثورات الفلاحين واشتداد المجاعة وموات الإنتاج قد أرغمت الحكومة السوفيتية في ربيع عام ١٩٢١ على وضع سياسة تدعي «السياسة الاقتصادية الجديدة» وهي خطة ترمي إلى إقرار الرأسمالية الأهلية، وتبيح منح امتيازات لرؤوس الأموال الأجنبية.

وهكذا وجدت البلشفية نفسها لضعف نظامها مجتذبة إلى الخلف، مردودة إلى الحافرة، محمولة على الرجوع إلى القهقري. وقد اعترف لينين نفسه بالردة، ولم يكن يخفي يوماً النكسات؛ فلم يلبث الباعة المتجولون الصغار أن انتشروا كالجراد في أحياء موسكو وليننجراد وكييف والمدائن الأخرى سارحين بثياب داخلية وأقمصة وجوارب ونعال مطاطية ومشدات للخصور وسلع فضية وكل ما يخطر بالبال من البضائع القديمة والمصنوعات البسيطة. وبدأ الريف يضج بطلاب الإثراء العاجل، وعمدت الحكومة ذاتها إلى تشغيل دور لهو وميسر ضخمة، ومطاعم فخمة، وحانات بديعة، وكباريات لمرتاد الصفوة، حيث تقدم المآكل الشهية التي لا سبيل للمواطنين

العاديين إلى الظفر بمثلها.

ولم يكن شيء من هذا يبدو لعيني ضرباً من الشيوعية، أو وسيلة جديدة من وسائل الحياة، أو أسلوباً يمت إلى هذه المبادئ ومعانيها. والظاهر أن الغريزة «الرأسمالية» قوية عرمة، فلم تلبث أن وثبت إلى العمل على نداء السياسة الاقتصادية الجديدة، حتى لقد رحت أسائل نفسي أترى الثورة قد خمدت جذوتها، وانطفأت وقديتها؟ ولكن معاشر الشيوعيين يجيبون بالسلب، وإن كان الواقع يدل على أن الماديات ليست برهاناً قوياً على وهن البلشفية، وإنما روح الشيوعيين هي الدليل والبرهان.

وكان الحزب الشيوعي هو أبرز هيئة في روسيا السوفيتية حتى ليشبه نظام «الأديرة» إذا ذكرنا التقشف ومطالبه، والتفاني المطلوب من أعضائه وعترته؛ فقد جعلته تقاليده، وهي الطاعة المطلقة، والسرية، والنظام المتين، والضبط والربط، أشبه ما يكون بهيئة «عسكرية»، وكان يبدو كأنه «الدينامو» المحرك، أو الكلب الراصد الحارس المترقب، أو هو وحي النظام الجديد وإلهامه، وكان مصدر كل سياسة توضع وكل خطة تنتهج، والمظهر الأوحى للسلطة السياسية وإن لم يباشرها في الظاهر، أو يمارسها بالفعل، تاركاً قيادها للحكومة البيروقراطية ذاتها، مكتفياً بالتوجيه والرقابة والإشراف؛ وذلك لأن توزيع المهام على هذا النحو من شأنه أن يمنع من إغراء المناصب الكبيرة، وفتنة السلطان؛ وكان أكثر الموظفين في الحكومة أعضاء في الحزب، ولكن عشرات المئات من الشيوعيين البارزين كستالين وزينوفيف وبوخارين لا يتقلدون مناصب فيها، واعتاد معاشر الشيوعيين أن يتنادوا فيما بينهم بكلمة «الرفيق» وأن يتقاضى السواد الأعظم منهم مرتبات قليلة جعلتهم يعيشون عيش الشظف والزهد والنقاء كما كان دأب أهل «أسبارطة» في الإغريق الغابرين، وكانت واجبات الشيوعي تفوق امتيازاته عدداً، إذ كان الحزب ينتظر منه أن يكون مثلاً للحمية ضد الدين والولاء الأسمى والخلق الكريم والتفاني السياسي، وكانت المخالفات تعاقب بشدة، وتجد صارم الجزاء.

وكانت روسيا يومئذ تنبض نشاطاً «دينامياً» وتمتلئ حركة ودأباً، وبدت المدائن مزدحمة بخلائق طائرين عليها من الغابات وحقول القمح، والشباب باد في كل ميدان، ظاهر في كل مشهد؛ وكان لينين قد بلغ في عام ١٩٢٢ الثانية والخمسين، وتروتسكي الثالثة والأربعين، وستالين مثله، وزينوفيف التاسعة والثلاثين، وكانيف في السن ذاتها، وبوخارين في الرابعة والثلاثين، و«رادك» في السابعة والثلاثين.

وكانت رحي الثورة لا تزال تطحن الطبقات الحاكمة القديمة وتسحقها سحقاً، وتدع المجال فسيحاً لبروز قوات جديدة، وعناصر فتية، وكان هؤلاء اعترافاً بالصنيع، وفرحاً بالسانحة، على استعداد لقبول النظام المكين، والعمل الشاق والتضحيات المطلوبة.

وكانت المجاعة لا تزال تعض بأنيابها الحداد خلائق كثيرة، في مناطق عدة، وأصقاع مترامية، وكانت الوجبة الواحدة تكلف ملايين من «الروبلات»، فقد تجاوز التضخم النقدي في روسيا أعراضه الرهيبة في ألمانيا ذاتها، وراح أسوأ وأبشع أثراً؛ فلم ألبث أن فزعت لمشهد الفاقة الموروثة التي زادت الحرب العالمية اشتداداً، وجاءت الحرب الأهلية والثورة فجعلتها تتفاقم شرّاً وويلًا، ولكن النظام ذاته وأنصاره لم يبدوا تشاؤماً من هذه الحال، ولا أظهرها مخافة وإشفاقاً، ولا عراهم منها يأس أو رهق.

وكانت الحماسة ذات عدوى عامة، والحمية تسري في كل مكان، فجعلت أسائل نفسي لماذا تحاول الحكومات الأجنبية، ويحاول الساسة والمراسلون الأجانب في موسكو، الوقوف في وجه أمة عظيمة كهذه تريد أن تخرج من الحمأة التي هوت من قبل إليها؛ وكنت قد ولدت ونشأت في بيئة الفاقة، فلا غرو إذا أنا بدافع الغريزة رحبت بكل سعي يراد منه استئصال الفاقة واجتثاثها من أصولها، ولم أنكر على البلاشفة مصادرتهم الممتلكات الخاصة ورؤوس أموال الأفراد وتأميم الأراضي، بعد أن جاءت الثورة فقطعت كل صلة بالماضي؛ وكان هذا هو أكبر فتنتها، وأبدع ما يجذب

الأرواح إليها، فقد كان الماضي مظلمًا، وراح السوفييتيون يتلمسون طريقهم وسط الظلمات، في أرض لم يَرْتَدُّها من قبل مرتاد، نحو هدف لم يشهده شاهد، وغرض لم يتخيله قبل اليوم متخيل.

فلا غرو إذا أنا أعجبت بشجاعتهم، ولم يكن في إمكان أحد أن يشك في نزاهتهم، أو يستريب بإخلاصهم.

وكانت النزعة «الدولية» بلا ريب في رأس قائمة المزايا والفضائل والمحاسن التي اجتمعت للشيوعية وأهلها، فكثيرًا ما رأينا الحدود الوطنية تنشأ نتيجة السرقة وثمره العدوان، بل لطالما كانت الوطنية نفسها مثيرة الحروب، والمنافسات الاقتصادية، وموقدة نار العدوان والبغضاء بين الشعوب، وهي في الحق ضرب من «العنصرية» ونعرة الأجناس؛ ولكن معاشر البلاشفة كانوا يعدون جميع العناصر متساوية وإن تباينت، أندادًا وإن اختلفت، حتى ليعيش في روسيا مائة عنصر من هذه العناصر أو تزيد، ويُنْتَصَر فيها للذين ظلمتهم فرص التاريخ، والاعتبارات الجغرافية، على الذين أصابوا دونهم حظًا من الرقي، وأوتوا نصيبًا من الحضارة والعرفان، بينما راحت البلشفية في الخارج تعترف بالتقسيمات «القومية» وإن التمسَتْ إنشاء مجتمع شيوعي «دولي»، يستطيع الغلبة عليها، ويهيئ السبيل إلى سلام عالميٍّ مستقر مكين.

وتبين لي أن أغلب الأمم ظالمة لروسيا الجديدة معادية لها متحيزة ضدها، وبدالي أن مجموعة الديون «الميتة» وإعادة ملكية الأراضي والمؤسسات «المؤممة»، وصب جام العداوات الفكرية، والكراهيات النظرية، كانت أهم وأخطر في أعين الساسة الرأسماليين من العمل على قيام صلات أدبية، وأواصر سياسية، وروابط اقتصادية مع البلاشفة، من شأنها أن تعجل بإقرار السلام واستكمال دور النقاها والإبلال العام.

وإن المرء حين يتحدث إلى أصدقائه من السوفييت لا يلبث أن يستنكر حماقات البلشفية وبلاهااتها، ولكني في رحلاتي إلى أوروبا وأمريكا وجدت الناس منقسمين إلى معسكرين متعارضين: معسكر الأنصار المؤيدين، ومعسكر الخصوم المناهضين،

فلم أستطع الانضمام إلى هؤلاء على أولئك، لأن أمانى روسيا الجهورية بدت لي أكثر فتوناً، بعد رؤية «البلادة» العامة التي كانت يومئذ ضافية على عهد هاردنج - كولدج في الولايات المتحدة الأمريكية، ومشاهدة الشرود المستولي على أوروبا، وتخبطها على غير هدى في ذلك الحين، وخضوع الديمقراطية المترنحة المذبذبة في إيطاليا «لفاشية» موسوليني وسلطته، وتضييع الاشتراكيين الألمان الفرصة الفريدة التي سنحت لهم بعد الحرب للتخلص من ماضي ألمانيا وجماعة اليونكرز العسكريين ومثيري الحروب، ورجال الصناعات المحتكرين، حتى لقد بات خطري لا يرتضي الانتقادات الشديدة التي كان الديموقراطيون الاشتراكيون يوجهونها إلى البلاشفة الذين قضوا «فعلاً» على أنصار الملكيين من الساسة والاقتصاديين في روسيا، وجعل من العسير على تفكيري أن أعد «الديموقراطية الاشتراكية» تعويضاً عن الرأسمالية أو بديلاً منها.

ولم ينقض وقت طويل حتى أدركت أن اختياري قد وقع؛ فإن الاختيار، كما لا يخفى، إنما يكون بين أمرين، وإن الأمر الآخر هو البديل من الأول والمستعاض عنه إذا كان ميسوراً، وقد اخترت الرياح الجديدة الجارفة على الهواء الراكد الفاسد، وآثرت الرواد حسني النية على معاصر الفاشلين المخفقين الذين ثبت إخفاقهم.

لقد أحببت السوفييت لأنهم كانوا «تجربة» في سبيل مصلحة الجماهرة التعسة المنكودة الكادحة ومن أجل خيرها وإسعادها، ولأنهم قضوا على اختصاصات الأقوياء المعدودين، وامتيازات الصفوة القلال، ولأنهم كانوا ضعفاء البأس، مستهدفين لخصومة المحافظين في مختلف أنحاء العالم ومعارضة الرجعيين والجامدين.

وكانت هذه العوامل المحببة والاعتبارات الجاذبة وليدة استعداد في نفسي من البداية، جعلني، وأنا لا أكاد أشعر، نصيراً للاتحاد السوفيتي وأحد أشياعه الصادقين. ولا ريب في أن وقوف المرء بجانب قضية ما هو أشد تقييداً وسلطاناً على النفس

من أي شيء سواه، اللهم إلا العلم بوقائع مشينة تتصل بها، ومعاييب نشوب جلالها في خاطره؛ وكما يعجز المنطق في الإيمان الديني عن زحزحته، لأن التسليم بعقيدة دينية ليس وليد عملية منطقية ولا ثمرتها، بل كما يتحدى الإخلاص الوطني، والحب الشخصي، جملة من الحجج، وحشدًا حاشدًا من البينات والبراهين، لم تلبث الجاذبية التي اجتذبتني إلى السوفيت أن فصلت بيني وبين أحداث الزمن كل الانفصال، واستقلت بي كل الاستقلال، فجعلت أنظر إلى التطورات التي تبدو ضارة بروسيا، باعتبارها مجرد عوارض وقتية سريعة الزوال، أمام ما سيظهر قريبًا من أحداث أبلغ منها دلالة، وأصدق منها منقلبًا، وأحسن منها مردًا.

وقد ألفت يومئذ أن أدرس الأحوال متقصيًا متدبرًا وأروبها أمينًا مخلصًا، وكانت أحيانًا غير مشرفة للبلشفية، ولا حسنة في حقها، ولكن ذلك لم يكن ليوهن علاقتي بالنظام السوفيتي، أو يززع إيماني بمصيرها الباهر وغدها المأمول.

ونشرت لي جريدة «نيويورك نيشن» في ٤ مارس عام ١٩٢٥ مقالًا بسبيل «السجناء السياسيين في عهد البلشفية» تحدثت فيه عن «إما جولدمان»، و «أليكسندر بركمان»، وهما فوضويان دوليان معروفان زارا روسيا في عام ١٩٢٠ - ١٩٢١، وقلت إن السجنون في تلك الفترة كانت أملًا منها اليوم بالسجناء السياسيين، وكان هؤلاء خلالها يجدون معاملة أقسى مما هم الآن واجدوه، وإن إما وبركمان كانا يعرفان هذه الحقائق جد المعرفة لأنهما كانا يستمتعان بحرية الانتقال، ويصطحبان فريقًا كبيرًا من خصوم البلشفية، وكان هؤلاء يحيطونهما علمًا بما يجري، ويحملان إليهما أبناء ما يقع، ولكنهما مع ذلك كله لم يريا بأسًا من مناصرة الشيوعيين والسعي في ضم الفوضويين الجدد إلى البلشفية، أو بعبارة أخرى إن الاعتقالات السياسية إنما تبدو لك إن كنت للسوفيت نصيرًا شائبة تشوب الشعار الناصع الجميل الذي تحرص عليه، ولكنها لا تلبث كلما زالت الغشاوة عن عينيك، وانطفأ البريق الذي كان يفتنك، أن تصبح سلاحًا في يدك، تحارب به روسيا، وتشهره عليها كل الإشهار.

وقد انتقد أليكسندر بركمان ذلك المقال الذي كتبت.

فبعث من برلين يقول: «لقد كان استعدادي النفسي طيباً نحو البلاشفة، كما كان حالي في العام الأول من مقامي في روسيا، وقد نازعتني رغبة صادقة في المعاونة على عملهم، ومناصرتهم، فلم أدع فرصة سانحة إلا انتهزتها لإقناع زعماء الشيوعية بأن انتهاج سياسة التسامح، والأخذ بمكارم الأخلاق، حيال خصومهم السياسيين من حزب اليسار أنفع وأجدى على الثورة من التنكيل بهم والتعسف في حربهم، بل لقد ظلمت بعد قطع كل صلة بيني وبين البلاشفة، وانصرافي عنهم إلى غير رجعة، وعقب حركة التطهير التي جرت في كرونستاد، أحاول جاهداً أن أحملهم على تغيير سياستهم إزاء السجناء الثوريين...».

وهكذا أيد بركمان فكرتي، فقد كان نصيراً للسوفييت وإن كره منهم معاملتهم الوحشية للمعتقلين السياسيين، ثم جاءت الوسائل التي تذرعوا بها لإخماد فتنة البحارة في جزيرة كورنستاد القريبة من بطرغراد فأحنته على النظام السوفييتي كله، لأن «حمام الدم» الذي جرى في تلك الجزيرة نقل معاملة السجناء السياسيين من موضع احتجاج خاص إلى سبب يحمل على النقد والهجوم، وأكبر الظن أن قسوة موسكو على أولئك السجناء هي التي أضعفت من «مناعة» بركمان حيال صدمة أنباء الوحشية التي جرت في «كرونستاد»، فلم يصبح خصماً للبلاشفة إلا بعد «حمام الدم»، ولم ينقلب عدواً مبيناً إلا بعد حركة التطهير.

إن الفصل في الأمر إذن هو حادث «كرونستاد»، فقد كان من الجائز قبل وقوعه أن يتردد المرء بعاطفته، أو يتشكك من جهة خاطره وتفكيره، في فضل هذه القضية وحقيقة شأنها، بل من المحتمل أن يرفض الاقتناع بها جملة، ويأبى إقرارها كلية، ولكنه مع ذلك لا يرتضي مهاجمتها.

أما أنا فلم يقع في طريقي حادث من هذا النحو عدة سنين، وإنما جعلت خلالها أزن بفكري وعقلي الباطن النظام السوفييتي وزن المدقق الحكيم، وكانت قراءتي

للميزان بالطبع مرتهنة بما أضعه في الكفة المقابلة، وكان جلياً لي في عام ١٩٢٤ أن الدولة السوفيتية استخفت بالنوازع البشرية ولم تدخلها مطلقاً في حسابها، فلم تجعل الحرية أيقونة مقدسة كما هي في الغرب، وإنما جعلت إعطاء الجماهير حرية اقتصادية أسمى من ذلك هدفاً وأنبأ غرضاً؛ وراح الشيوعيون على هذا النحو يبررون انتفاء حرية الصحافة ويشرحون الدوافع التي اقتضت قيام إدارة للشرطة السياسية، وإن كنت أعتقد أن هذا لا يمكن أن يصلح مبرراً، لأنني أستنكر إهدار الحرية الشخصية لأنها كانت عندي أعظم شأناً وأكبر قدرًا من أي شيء سواها.

وقد قلت في مقالي الذي أسلفت الإشارة إليه إن هدف البلاشفة هو قيام «مجتمع جديد»، وإن قيامه نقيماً مطهراً من شوائب الاستغلال يرجح دون شك بانتفاء حرية الصحافة ووجود البوليس السري.

لقد كان الأمل في السوفييت يملأ خاطري، ويستثير خيالي؛ وكانت تعهدات الحكومة السوفيتية والشيكات المحررة منها للدفع في تواريخ مؤجلة، ولو إلى عشر سنين، قرائن أخطر شأناً من قلة الإنتاج الصناعي مثلاً واقتقاره إلى الكفاية والإتقان؛ فلا غرو إذا لم يلبث ماضيها السيئ وخططها للمستقبل البديع أن اجتمعا لتكييف الحكم على حاضرها، وكان المستقبل لرؤوس الأموال السوفيتية، فقد عرض البلاشفة أن يبيعوا لأي إنسان سندات وسهوماً فيها، وكانوا يصورون كل مشروع جديد من مشروعات السنوات الخمس كخطوة شاقة ولكن ضرورية في سبيل الصعدة نحو العالم الجديد؛ وكيف كان ممكناً أن تشكو من قلة البطاطس مثلاً وأنت تبني صرحاً ممرداً للاشتراكية؟ أفلا تستغنى عن الزبد مثلاً لكي تشيد القناطر الضخمة والمشروعات الهندسية الرهيبة التي ستوفر القوى الكهربائية وتزيد إنتاج الصلب نمواً، فلا تكون النتيجة بعد ذلك كله إلا وفرة في الزبد، بل الكوثر منه والفيض العميم؟ وقد عرف السوفييت الأثر البالغ الذي يحدثه الحلم العظيم، ونشوة الأمل الضخم، وكلما مر الزمان عليه فأصبح ماضياً، مضوا يحاولون إحياء الإيمان بأن النفع سوف

يأتي، وأن الخير على الدهر قادم، بل راحوا في أواسط عام ١٩٣٠ يأملون الكتاب جميعاً بأن يعتبروا الحاضر كأن لم يقم، والمستقبل كأن قد قام، حتى عرفت هذه النزعة بقولهم «الرياليزم الاشتراكي»!

وكان فيسيفولود إيفانوف، وهو قصاص سوفيتي معروف، يضع قصة عن الحياة في مصنع ضخمة جديد للسيارات في جوركي، ورأى أنه من الخير أن يقيم فيه حتى يلم بموضوع روايته كل الإلمام؛ وخطر له، وهو في المصنع مقيم، أن يقرأ شطراً من القصة على جمع كبير من العمال فيه، وكان الجزء الذي قرأه عليهم وصفاً للمتاعب التي يلاقيها العمال في الرواح والغدو مسافات طويلة في «الأتوبيسات» القديمة، عبر طرق وعرة ودروب يشق فيها المسير.

وبدأ القوم يسألونه.

قالوا: متى تنتهي من كتابة القصة؟

قال: ستة أشهر.

قالوا: ستستغرق مراجعتها ومراقبتها إذن بضعة شهور أخرى، كما سيقضي الطبع فترة مماثلة، أي أن كتابك لن يظهر قبل انقضاء عام، ولكن ستكون لنا قبل منصرمه طرق معبدة «وحافلات» جديدة وعمارات ذوات طبقات صغيرة لسكننا بجوار المصنع، فلماذا لا تصف هذه الطرق والمركبات والمساكن كأنها بالفعل قائمة؟

ومرضت ذات مرة في موسكو واستطالت بي العلة عدة أسابيع، فكانت «ماركويسكا» زوجتي تقول للأصدقاء الذين بدأوا بعد فترة من احتجاجي يسألون عني «إنه أحسن كثيراً وإن لم يعرف ذلك بعد» وهي عبارة مقصودة جرت على نحو من «الرياليزم» الاشتراكي الذي حدثتكم عنه، لتكون على سبيل «الدعاية» في باب «التعلل بالمستقبل».

فقد أصبح «التعلل» هو العامل النفسي الذي يمسك بقلوب الشباب ذوي الطموح

وإبائهم، ويربط على أفئدتهم، ويغريهم بالصبر والتجلد؛ بل لقد فعل ذلك وأكثر منه في نفوس الذين كانوا يتمنون أن يروا النظام الجديد ماضياً في سبيله نحو تحسين أحوال البشر والنهوض بالإنسان من وهدة الحاضرة، فكانوا يرون في التقدم قيد شبر أو متر، أميالا عدة، ونهضة طيبة مباركة.

وكنت أتحمس لأعمال الإنشاء ويهيج لها خاطري، وأكبر ظني أن حماسي لها ترجع إلى ما كان يعتمل في دخيلة نفسي من الإيمان بالنهضة والتقدم، فقد اشتد تحمسي لما رأيته من إقدام الروس على إنشاء المصانع الضخمة ومحطات توليد القوى الكهربائية وبناء المدن الجديدة، لأنني رحت أنظر إليها من خلال منظار الأمل «ومجهر» التعلل والرجاء، ومضيت أعتقد أنها بداية برنامج عظيم سوف يغير وجه هذا البلد التَّعَس ويرفع أقيسة المعيشة بين أهله، ويدل على أن حكومات الشعب تستطيع أن تعمل للشعب عامة، وتسدي إليه الخير شاملاً كاملاً.

وبدأت الإحصاءات والأرقام المدللة على نمو النهضة الصناعية في الاتحاد السوفييتي تملأ أعمدة الصحف، فكانت بمثابة اللحن البديع في موسيقى «الاشتراكية» والحفل الافتتاحي في «مباركة» الحياة الجديدة، وقد كنت في روسيا حين بدأ التفكير في إنشاء مصنع ضخّم لصنع الجرارات الزراعية في خاركوف، وأخذ العمال في تمهيد الأرض التي سينهض البناء عليها، وكنت أزور الموقع مرة في كل ستة أشهر، وعدت بعد إتمامه أتفقد أرجاء المصنع مرة في العام، وأحسست يومئذ أنني بعض أجزائه، وأن روحي متصلة به، وخاطري أبداً فيه.

وكذلك أُمسى الخزان القائم على نهر «الدينير» قطعة مني، حتى لقد مضيت مع كبير المهندسين السوفييتيين فيه أتسلق الصخور القوائم على مجراه عندما سحبت المياه منه، وعدت بعد خمسة أعوام أجوس خلال نواحيه في سيارة وأشهد جداره الضخم القائم فوق تلك الصخور الشَّم، وأنا أشعر يومئذ بأن السوفييت قد أنشأوا شلالاً ضخماً «كنياجرا» ليمدوا به ملايين من الخلائق بالضوء والدفء والسلع

الاستهلاكية التي لا غناء عنها لحياتهم.

وعندما نسف النازيون شطرًا من ذلك الخزان، أحسست جرحًا أليماً من فعلتهم في جوانحي.

وكانت محطات توليد القوى الكهربائية في الخارج، والمصانع المتعددة الأنواع، صامته لا يسمع لآلاتها أزيز، ولا لدولابها حركة، فقد ألقت الأزمة المالية في أمريكا وركود التجارة في عام ١٩٢٩ بملايين من الناس في وهدة اليأس، وهاوية الفاقة، فأعان ذلك على ترجيح كفة السوفييت، حتى لقد ذهب إليها الاقتصاديون والباحثون في الدول الرأسمالية لدراسة خططها ومناهجها والبحث في مدى إمكان تطبيقها والأخذ بها في بلادهم.

وبجانب برنامج «التصنيع» لم تلبث الحكومة السوفييتية أن أغذت المسير في سبيل تعميم «المزارع الجماعية»، وكانت مهمة واحدة من تلك المهام التي اضطلعت بها تكفي لاستنفاد طاقة أي حكم واستنزاف جهد أي عهد من العهود، ولكن البلاشفة استطاعوا الاضطلاع بها جميعًا في وقت واحد، وبدأوا في عام ١٩٢٩ ينفذون تدابير من شأنها أن تدمج المزارع الصغيرة التي لا يقل مجموع الزراع المالكين فيها عن مائة مليون مزارع، في شبكة الزراعة الجماعية.

وكانت هذه الزراعة هي الانقلاب الأول في نظام الحرث والزرع منذ تحرير العبيد في أوروبا على عهد الإقطاع القديم وتحويلهم إلى زراع أحرار لا سلطان عليهم لأحد من السادات والمتجبرين.

وكان المأمول من المزارع الجماعية أن تكفل مزيداً من الإنتاج، وكما حل المصنع الآلي محل الصانع اليدوي في القرون الوسطى، جاءت «الكولخوز» -أي المزرعة الجماعية- لتحل محل الزارع المستقل الصغير؛ فلا عجب إذا بدا هذا النظام «الجماعي» في الزراعة «كنقطة تحول» في تاريخ البشرية، ولا بدع إذا راح البلاشفة، بتلك الروح «الدرامية» التي انمازوا بها، يحشرون هذا الفصل الجديد في «باب»

التطور الاجتماعي خلال بضع سنين، ولا غرو إذا مضى المراقب الأجنبي في تلك البلاد يهنئ نفسه بهذا الحظ السعيد النادر الذي أوتيّه، وهو أن التاريخ أخذ يُصنَع بعينه وسمعه!

ولكن الزراعة الجماعية لم تلبث أن بدت «كرونستاد» أخرى في أعين فريق كبير من الأجانب الذين يعطفون على النهضة الروسية، وعدد لا يحصى من المواطنين السوفييت أنفسهم، فقد تبين لهم، قبل أن يتبين لي، أن هذا النظام ليس إلا ضرباً بارعاً من الاستعباد في القرن العشرين، بل استعباداً بالجملة يراد به حمل الفلاح على العمل تحت أعين بضعة أفراد مختارين من الشيوعيين في القرية، ويقصد منه أن يظل المسكين «عالة» على الدولة في العُدَد والبذور ومعظم دخله.

وكان طبعياً أن يلاقي التأميم الزراعي على هذا النحو مقاومة عنيفة موحشة مترامية المدى من معاشر الفلاحين، وقد رأينا جميعاً ما فعلت الحكومة السوفيتية حيالها، فقد نفت جموعاً جامعة من «الكولاك» أو الزراع الموفقين من الأرض وألقت بهم في معسكرات «السخرة»؛ ولكن هذا النفي بالجملة لم يحطم المقاومة القائمة في القرى؛ فقد أبى الفلاحون الفقراء استياق ماشيتهم إلى المزارع «الجماعية»، وعمدوا إلى ذبحها وأكلها، أو بيعها، قبل أن يستسلموا للضغط ويرتضوا الدخول في حظيرة المزرعة الجماعية، حتى لقد لبثت روسيا عدة أعوام تعاني نقصاً في الماشية، وقلة في الخيل، واضطرت السلطات إلى الاستعانة بمختلف جميع وسائل القوة والإكراه على استياق الفلاحين إلى المزارع الجديدة؛ وكثيراً ما كانت وحدات من الجيش الأحمر تغشى القرى وينتقل جنودها من كوخ إلى آخر لإكراه القوم على تكوين «كولخوز» أو مزرعة جماعية، وتهديدهم بالنفي إلى سيبيريا أو التركستان إذا هم أصروا على الاستقلال بزراعة أرضهم.

وبهذه الوسائل وأمثالها سيق بالكثرة الساحقة من الفلاحين الروس إلى هذه المزارع، ولكن فريقاً كبيراً منهم ما كادوا يدخلون حظائرهم حتى تململوا منها أو

راحوا «يعرقلون» جهودها الجماعية احتجاجاً على الإفراط في فرض الضرائب عليهم؛ أو لبقية أمل في عدول الحكومة عن المزارع لإخفاقها؛ وقد رأينا كيف أدت هذه العوامل في أوكرانيا إلى المجاعة التي ضربت أطنابها في عام ١٩٣١ - ١٩٣٢ وفتكت بعدة ملايين من أهلها، وأفنت قرى بجملتها، وجعلت ثمن تهوّر البلشفية وعنادها فادحاً غالباً.

وقد زرت عشرات من هذه المزارع في أوكرانيا والقرم والقوقاز وشمال روسيا في الفترة بين ١٩٢٩ و ١٩٣٦ وكانت تبدو أكبر وأفضل كثيراً من تلك المزارع الصغيرة التي رأيته قبل ذلك بعدة سنين، فقد اختفت منها الأسوار المقامة من العوسج وتوارت الخيران والأخاديد، وظهرت فيها الآلات الحديثة وأقيمت رياض الأطفال ومعاهد الحضانة، وقال الموظفون إن غلة الأرض زادت، وأن تجارب البذور، وتحسين الإنتاج والحرث بالآلات الكهربائية وغيرها من المستحدثات العلمية التي لم تكن تخطر للفلاح يوماً ببال أصبحت وفيرة متداولة.

ولكن هل تساوت المحاسن والمساوى، وهل يعدل الأمل الموعد الثمن المدفوع في سبيله...؟

لقد بدأت أشعر بقلق، وأخذتني الحيرة من جميع جهاتي، فمضيت أسائل نفسي: أتراني رحت أمجد الصلب والكهرباء، ونسيت الإنسان ذاته؟

إن كل ما في العالم من أندية ومدارس وكتب وجارات وأنوار كهربائية وطرق ودروب معبدة لن تزيد شيئاً على العالم الذي كنت أحلم به، إذا كان النظام الذي أثمرها فاسداً بعيداً من الخلق خليئاً من البشرية.

فلا عجب إذا بدت نقط سوداء تلوح في نسج الخيال الذي قام في خاطري من ناحية السوفييت ونظامهم؛ وقد عمد البلاشفة في شهر يونية عام ١٩٢٨ إلى إعدام المسرح لأول محاكمة رهيبة من محاكماتهم في موسكو، وأعني قضية «شاختي» التي اتهم فيها نحو خمسين مهندساً من كبار المهندسين السوفييت بالتخريب والجاسوسية،

وقد حضرت الجلسات من أولها إلى آخرها في بهو «الأعمدة» المشهور، ولم أدر ماذا أصدقه، وما الذي أكذبه؛ ولكنني صدقت جزءاً وعجبت للبقية. ولشد ما تفاقمت ربيي وشكوكي حين رأيت شرطياً من هيئة البوليس السري مسلحاً بالبندقية وقد ركبت فيها «السونكي» وهو يقتاد إلى المحكمة رجلاً يدعى «موخين» فيقف في مكان «الشهود»، ولا أزال إلى هذا اليوم ذاكرة اسم ذلك الرجل وثوبه الأسود ووجهه اللحيم الشاحب المستدير، فقد مضى يشهد على متهم يدعى «رانبوفتش» وهو شيخ جاوز السبعين من العمر، كان يناضل في نفي التهمة عنه نضالاً بارعاً حيال النائب العام «كريلنكو»، وهو في القضية يصول ويجول، ولا يكاد أحد من هول حجبته وبراعة مرافعته يعرف كيف يقهره، ولهذا سيق بهذا الشاهد «موخين» لإثبات التهمة وتأييد الحكومة في موقفها، وكان من قبل في السجن عدة أشهر بتهمة لا علاقة لها بهذه القضية، وقد راح بعد حلف اليمين يعلن أنه سلم رانبوفتش رشوة له وأخرى لتوزيعها على المتهمين.

فلم يكد رانبوفتش يسمع هذا القول منه حتى مشى نحوه فلم يبق بينهما غير قيد شبر، وراح يحملق ببصره في وجهه، قائلاً: عمن تتكلم... أعني أم عن أحد سواي...؟ قال: أتكلم عنك.

فصاح رانبوفتش به قائلاً: لماذا تكذب؟ ومن الذي طلب إليك أن تقول كذباً، وأنت تعلم أنك لم تعطني مالاً.

فاشتد شحوب موخين وازداد وجهه اصفراراً وعاد يردد قصته كمخلوق يردد أقوالاً، فرض عليه أن يقولها، أو كآلة حاكية مسخرة؛ وعندئذ عاجله الشرطي، فاقتاده إلى الخارج، وبدا النائب العام كريلنكو مطرقاً، كأنما قد أسقط في يده، ولم يبق من شك في أن «موخين» إنما كان يمثل دوراً اخترع له في دار الشرطة السرية اختراعاً.

وقد تحدثت بعد ذلك في هذا المشهد الذي رأيته مع كبير من رجال وزارة الخارجية الروسية، وكان يعرفني حق المعرفة. فلم يستطع أن يماريني في أكذوبة ما جرى واصطناعه.

ولو أن حادث هذا الشاهد كل فرديًا لهان الأمر، ولم ينطو على أي دلالة بالغة، ولكن هيهات أن يعد كذلك، لأن البوليس السري الذي أعد مشهده كان قد اشتد في البلاد نفوذه، واتخذ لنفسه سلطات جديدة، أو على الأصح سلطانًا عرقيًا لا يعرف قانونًا، ولا يوقر قضاء، ففي شهر يناير عام ١٩٢٨ قبض على ليون تروتسكي وأبعد إلى آسيا الوسطى، وكانت جريمته خلافه السياسي مع ستالين؛ وكانت هذه المشاورات والخصومات قبل الثورة وفي عهد لينين تعرض على الحزب الشيوعي وهو وحده الذي يفصل فيها من طريق المناقشات وأخذ الآراء، أما الآن فقد أصبح المسدس في يد البوليس السري هو الحكم الفيصل!

لقد كان استخدام البوليس في إنهاء كل نزاع على السياسة هو «واترلو» الحزب، والمعركة الفاصلة التي انهزم فيها، بغض النظر عما إذا كان الحق مع تروتسكي أو مع ستالين؛ وقد عدت إلى تقاريري ومذكراتي فتبين لي أنني لم أنحز إلى هذا أو ذاك في تلك العهود.

وقد استتبع الاستعانة بالشرطة على هذا النحو اعتقاد الذين أوتوا القوة في أيديهم أنهم قد أوتوا معها الحكمة. فلم يسع المخالفين لهم إلا أن آثروا السلامة على المجاهرة بالرأي. ولم يلبث خراب الذمم أن انتصر على الأمانة والنزاهة والصدق. ولم تغب عني هذه الظاهرة، وإنما غاب عني يومئذ أنها بداية التدهور الذي أثمر اليوم هذا المين والإفك الذي نراه، وأدى إلى هذا الصمت السائد الذي نشهده. ولم يكن بد أيضًا من أن تساعد هذه الظاهرة على ظهور «الزعيم».

وقد نفرت نفسي من هذا التمجيد الذي رأيته لمكانة ستالين، والمديح الذي يزجي إليه، والملق المترامي من حوله؛ فقد راحت الدعايات التي كان هو بالذات مسؤولاً عنها تصوره للناس في صورة الزعيم «المعصوم» الرحيم العليم المبدع الذي صنع كل شيء حسن في روسيا، جاء بكل خير، ومنه كانت تستفيض البركات والأنعم والطيبات. أما الأغلاط والمحن والنكبات والهزائم والنكسات، فلم تكن بالضرورة

إلا من عمل «المخربين» و «التروتسكيين» وأعداء الشعب وخصومه!

وقد رحت أصبُّ جامَ غصبي على هذه العبادة الجديدة لشخص ستالين في مقال كتبه في موسكو ونشرته في نيويورك عام ١٩٣٠، وحملته تبعة ذلك كله، وسميت هذه الظاهرة أسوأ التسميات، فقلت إنها «مناقضة للبلشفية»، وإن كانت في الواقع «بلشفية» صميمة، لأنها النهاية التي لا مفر منها للدكتاتورية؛ فقد رأينا موسوليني وهتلر يتوليان حركة مماثلة في باب المديح الذاتي، وإملاء التسبيح والحمد والتمجيد؛ ولكنني في ذلك الحين لم أكن أعتقد أن فساد ذوق ستالين، وسوء سلوك البوليس السري، من الجرائم الفناكة القاتلة، وإنما كنت أحسبهما «دُمَلَيْن» في جسم سليم كان من ذلك يشيد المدائن وينشئ القيم الجديدة، وكنت أعتقد أن ما ينفع الناس سيمكث في الأرض، وأن ما لا خير فيه عارضٌ لا يلبث أن يزول، ومضيت أضع كل شيء في الميزان، ولكن الأمل الذي كان يداعب خاطري شوّه حكمي على الأمور، وجعلني لا أقسط في الوزن، ولا أعدل في الحكم، لأن الرؤية ذاتها لم تؤثر في الإيمان.

ولعل انكشاف الواقع لخاطري كان بطيئاً، ولكن لم تعرض يومئذ لي مشاهد «كرونستاد»، ولو وقعت لمنعني «حمام الدم» الذي أقامه هتلر في ألمانيا عام ١٩٣٣ من التخلي عن الإيمان بالاتحاد السوفييتي، فقد مضى النازيون يعلنون جهرة مذهبهم وهو «الفأس» -وفي ذلك كان هتلر يقول «سنطيح بالرؤوس»؛ وإلى جانب الفأس «الفورر» وألمانيا المترامية النطاق، والمناهضة للسامية، والعداء للشوعية، ولو نجحوا في هذا السبيل، لهوت البشرية إلى درك الوحشية، والدم؛ وقد أعان الشيوعيون هتلر على الوصول إلى ذروة الحكم وقوة السلطان ظناً منهم أن القضاء على مراكز الديموقراطية سيذلّل لهم في النهاية النضال حيال النازيين، وهو خطأ منهم لا يغتفر، وسوء تقدير لا علاج له.

ولم يكد «النازيون» يستولون على ألمانيا، حتى انقلب الشيوعيون الألمان عليهم، بينما ظلت حكومة السوفييت عامّاً على الأقل مترددة لا تدري أتقدم أم تحجم قبل أن

تنضم إلى الصراع، ولم تتنبه الدول الرأسمالية إلى خطر هتلر إلا بعد ذلك بوقت طويل. وقد رأينا ليتفينوف وزير الخارجية السوفييتية عندئذ يوجه حركة قوية نحو تحالف ضد الفاشية لكي يمنع الحرب، وينبرى في جنيف ليسلخ أديم الذين كانوا يحاولون تهدئة خاطر هتلر وتمليقه، ومصانعة موسوليني واليابان؛ وكان نجاحه في إقناع الصحفيين والمنادين إلى «المسالمة» غير معوض عن فشله في تغيير خطط الحكومات البورجوازية المحافظة النّهّازة للظروف؛ وقد أصبح اسم «ليتفينوف» رمزاً، ولا يزال كذلك، للسخرية من أولئك الذين كانت ولا تزال حجتهم أن المعتدين الفاشيين هم وحدهم الذين أثاروا الحرب العالمية الثانية، فقد كان لهتلر أعوان بين الدول الديمقراطية كان لهم أثر إيجابي أو سلبي في دفع العالم إلى الحرب.

إن محاربة هتلر تبدو خيراً وأحكم من محاربة الاتحاد السوفييتي، ما دام الأخير يشن نضالاً عالمياً على الفاشية والحرب معاً، فلا عجب إذا رأينا النقاد الذين دأبوا فيما مضى على انتقاد موسكو يخففون من هجماتهم، ويضمون صفوفهم لتكوين جبهة شعبية من الأحرار والاشتراكيين والشيوعيين.

وتحسنت أحوال المعيشة في روسيا تحسناً محسوساً في الفترة بين عامي ١٩٣٤ و ١٩٣٥، وإن كان تحسنها ضئيلاً إذا قيس بمستواها في البلاد الأخرى، ولكن الروح المعنوية والمبادئ والمثل العليا بين الشيوعيين كانت آخذة في التدهور والوهن، حتى لقد أحال تدخل البوليس السري في مشاجرات ستالين واختلافاته في الرأي مع اليساريين واليمينيين المعارضين، الحزب الشيوعي إلى شيء أشبه بخاتم من المطاط في يد الطاغية. يبصم به ما يريد. ويطبع به ما يشاء. فقد طغت بيروقراطيته إلى جانب بيروقراطية الحكومة ذاتها. فأولدتا المتملقين والمداهنين وخربي الذمم والمستهترين والجبناء، وكان باعث كل كلمة تقال، أو فعلة تفعل؛ في أعلى الأوساط وأدناها على السواء، يرجع إلى الخوف، أكثر منه إلى الفكر، ومرده إلى المصلحة الشخصية أكثر منه إلى المصلحة العامة، وكان كل إنسان له رأي مخالف فيما مضى أو عاد يفوه بكلمة

صريحة قد تحدث أثرًا في النفوس، يتلقى زيارة من الشرطة في الثانية من الصباح، ولا يلبث أن يضم إلى «بناة الاشتراكية» في مجاهل سيبيريا والمناطق المتجمدة الشمالية. فلا غرو إذا شهدنا قناصي الفرص، الحذرین، الحريصين، الخانعين، سواء في هيئة الحكم، وصفوف الحزب، والنقابات وغيرها من الهيئات، يقدرّون مواقع أقدامهم قبل الخطو، ويتلفتون يمنة ويسرة، ويجاهرون بالولاء مجاهرة، ويرددون في أنغام رتيبة ألفاظ الدعاية الحكومية وعباراتها، ويلتمسون عن ذلك كله العزاء، في العيش المترف، والحياة المليئة باللوح البذخ ومظاهره، فهم يأكلون ويشربون ويرقصون ويلهون، على قدر ما يجيز التسامح في الأقيسة، ويبيح التراخي في التطبيق.

وجعلت «الكرملين» تنادي بأن المساواة هي «فضيلة برجوازية» ولكن لا شك أيضًا في أنها ليست فضيلة «سوفيتية» فإن المسافة بين أغنى الأغنياء، وأفقر الفقراء، لم تلبث أن تجاوزت الحدود المعروفة عن الرأسمالية المتناهية، وأصبح العمل «بالقطعة» عامًّا، واستحالت النقابات مجرد هيئات «على الورق» -أو صورية- بينما أمسى مديرو المصانع والإدارات «القواد الأفذاذ» المنفردين، الذين يستأجرون ويفصلون ويحددون الأجور.

وفي عام ١٩٣٤ أطلق شاب يدعى «نيقولاييف» النار على سرجى كيروف فقتله، وكان هذا «الرابع» في ترتيب رؤساء النقابات في ليننجراد، وإذا بالبوليس السري يعدم مائة وثلاثة في الحال، وكان هؤلاء سجناء من عدة أشهر قبل مصرع كيروف، وتلا هذا الإعدام بالجملة على هذه الصورة إبعاد زينوفيف زميل لينين من البلاد ومعاقبة رؤساء البوليس السري في ليننجراد.

وأحسست في أعماقي ملالة وتبرمًا؛ حين رأيت الدولة «السوفيتية» التي كان محكومًا على مثلها نظريًا أن «تذبل وتموت» قد ترامت حتى استحالت إلى «غول» بشع ضخم مشنوء الخلقة موحش رهيب؛ وشاهدت هذه الحكومة البلشفية ذاتها مواصلة في الخارج السعي لإقامة كتلة من «السلامة الجماعية» حيال العدوان الفاشي، ولكنني

كنت أشعر بأن هذا كله لا يكفي، حتى لقد كتبت يومئذ أقول في سياق رسالة نشرتها صحيفة نيويورك نيشن: «أعتقد أن صبح الاتحاد السوفيتي بالصبغة الديمقراطية^(١) من شأنه أن يضعف خصوم السلام». ورحت في ذات مساء أقرأ هذه العبارة وأنا في موسكو من مسودة رسالتي على قسطنطين أومانسكي مدير إدارة الصحافة في وزارة الخارجية الروسية ومساعدته بورييس ميرنوف، فأمن هذا عليها، بينما مضى الآخر، وهو أومانسكي الموظف الصُّلب المتشدد يقول إنها ليست في محلها.

وقد أعدم ميرنوف فيما بعد بسبيل إحدى المحاكمات، وأصبح أومانسكي سفيراً في واشنطن والمكسيك، وإن كان قد لقي حتفه بعد عشرة أعوام أو قربتها في حادث سقوط طائرات أحاطت به ظروف غامضة.

والواقع أن الديمقراطية داخل روسيا كانت ستروح ملائمة كل الملاءمة، متسقة كل الاتساق، مع سياسة التعاون على صون السلام مع الديمقراطيات الغربية حيال هتلر؛ ولو تحقق ذلك لها، لاستطاعت روسيا أن تؤيد العناصر المناهضة لفكرة «المسالمة» في بريطانيا وفرنسا وتناصرها في التخلص يومئذ من أشباه نيفيل تشمبرلين وأشياخ ديلادييه، ولتحاشت حركة التطهير التي تولاها ستالين، وتجنبت المحاكمات الكبرى التي جرت في موسكو فأوهنت روسيا اقتصادياً وعسكرياً. بل لو أن ذلك تحقق لما وقعت روسيا ميثاقها مع هتلر في عام ١٩٣٩، وبعبارة أخرى لعرفت روسيا كيف تمنع نشوب الحرب التي أعان السوفييت الطغاة على التعجيل بها.

ولست أشك في أن ستالين عاقل، إذا نحن استثنينا الدوافع القاهرة إلى الحماقة التي تلازم نظامه، وقد توافرت البوادر على أنه كان عليماً بأمر الأزمة الداخلية التي ترجع أسبابها إلى اشتداد الطغيان ووهن الإيمان، فقد بدد البلاشفة التراث الروحي الذي خلفته الثورة، فلم يأت عام ١٩٣٤ حتى توافر الخبز في البلاد، ولكن الناس لا

(١) في الأصل استعمل الكاتب لفظة جديدة، وهي «دمقرطة» الاتحاد السوفيتي، وهي فعل مشتق من «ديموقراطية».

يعيشون على الخبز وحده، وبخاصة إذا كانت موافاتهم به غير مضمونة، ولا مستقرة، واحتاج هذا النظام إلى حوافز جديدة تحبب الشعب إليه، وتخفف من وقع السياسة التي رسمت أخيراً، لمنح امتيازات واجبة للجيش والشرطة والمهندسين والطبقة الارستقراطية في صفوف «الكادحين» وكبار الموظفين في الدولة «البيروقراطية» الذين يتألف منهم الحرس المأجور لهذا النظام الجديد.

ولكن لم يكن ثمة من حوافز جديدة، ودوافع مبتكرة لم تجرب من قبل، يتيسر للعهد البلشفي الالتجاء إليها، غير «القومية» والحرية. فعمد ستالين إلى تجربة الأولى.

ولم يكن أمام الدكتاتورية، بعد أن بددت الأحلام الزاهية التي تتطلع الحوافز إليها على الأيام، غير شيء واحد، وهي أن تتولى عن الغد بوجهها، وتنظر إلى الماضي وتحصر كل همها فيه.

وكان هذا هو جوهر السياسة «القومية» التي انتهجتها الكرملين في ذلك العام. وقد شهدنا الثورة النازية تبدأ بتمجيد ماضي ألمانيا، ورأينا الثورة البلشفية تنتهي بتمجيد ماضي روسيا.

لقد كان لروسيا ماض عظيم، وكان أبطاله خصوصاً للقيصرية وعليها متمردين؛ أما هذا الدور الجديد فلم يعمد إلى تمجيد ذكرى أولئك الثائرين، وإنما راح يمجّد القياصرة، من أمثال «إيفان الرهيب»، وبطرس الأكبر، وكاترين العظيمة، ويشيد بذكر الأمراء القيصريين، والقواد الذين حاربوا الثائرين، أشباه «سوفاروف»، وانثنى ينتزع رهبان القرون الوسطى وأخبارها من وسط خيوط العناكب التي نسجت حولها لنفض الغبار عنها وإعادة تجميلها، وإزجائها في صور القديسين والأولياء الوطنيين، وحث الناس على تقديسهم، وكانوا من قبل قد أوحى إليهم أن يبغضوهم ويولوهم المقت الشديد؛ فلا عجب إذا بات الناس من هذا التناقض مبهوتين ذاهلين، ولم يكن من هذه

«المهازل» إلا أن زادت في حرج أزمة الإيمان التي كانت قد بدأت حين قيل للناس إن تروتسكي وغيره من مؤسسي الحركة الثورية «فاشيون»؛ ويوم يقال عن تروتسكي إنه «فاشي» وعن إيفان الرهيب إنه بطل سوفيتي، لا تلبث أقيسة الحكم الثابتة أن تتوارى ويصبح الناس متلذذين حيارى لا يدرون بماذا يؤمنون وبماذا يكفرون، فقد ينقلب الذين كانوا في مطلع النهار ملائكة إلى أبالسة قبل أن تغيب شمسهم، وليس لبلبلة الأفكار على هذا النحو غير نتيجة واحدة، وهي شيوع النفاق، وقبول ما يهبط الوحي به من قباب الكرملين بغير تفكير ولا مناقشة، وهي حال قلقلة لا يأمن الناس فيها على نفوسهم، ولا تطمئن بهم حياة.

وكانت الروح القومية الجديدة «روسية» صرّفاً، فقد عمد الكتاب الذين يمشون مشية «الإوز» إلى إعادة كتابة التاريخ للتدليل على أن روسيا القيصرية لم تكن «سجن الأمم» كما كان الشيوعيون من قبل يقولون في وصفها، وجعلت دراسة اللغة الروسية إجبارية على سائر الأقليات، وأعيدت مخلفات القيصرية ومظاهرها الخارجية التي طالما سخر البلاشفة منها وانتهكوها، ودعوها آثار الماضي البغيض، وظهرت من جديد الألقاب الجديدة التي كانت تمنح للضباط و«الشعائر» التي كانت توضع على الأكتاف.

وكان هذا مولد الفكرة الجديدة «روسيا فوق الجميع» التي راحت القومية الجائحة، المتوثبة بعد بضع سنين أخرى تمحو بها فكرة «الدولية»، وتؤثرها عليها، كشعار وطني لروسيا الحديثة، كما أدت الفكرة الجديدة إلى الاستعانة بالكنيسة كأداة محلية، ووسيلة في الخارج، لخدمة أغراض الحكم وتحقيق مراميه، وإلى ظهور قواد عظام تملأ صدورهم الأوسمة، ويلوحون أشبه «بجورنج» أشكالاً ومظاهر وقوداً، وإلى ظهور الروح الاستعمارية السوفيتية، وليدة القومية، وإلى الدعاية والترويج للجامعة السلافية، وهي نزعة لا تقل عن «الجامعة الجرمانية» شرّاً ونكرّاً.

لقد كانت البلشفية ثورة على ما تركته القيصرية من تراث سيئ، في مختلف النواحي المادية والثقافية والنفسية، ولكن ما لبثت القيصرية أن دلت على أنها ما

فتت تقاوم وتكافح، فلم يتقدم العالم الخارجي إلى معاونة العهد الجديد على دحر العهد القديم.

ولهذا كله تولاني العجب العاجب من جنوح البلشفية إلى النهل من آبار القيصرية «الكدرة»، وشعرت باشمئزاز بالغ، فقد كان ارتباطي القوي بالنظام السوفييتي يعود إلى «دوليته» ونظراته التقدمية، وتطلعه إلى الغد المرقوب.

وجرى التهامس بين الناس فجأة في عام ١٩٣٥، بأن النية متجهة إلى وضع دستور ديموقراطي جديد، وما إن حل العام التالي حتى تحقق الهمس، وأعلن النبأ ونضجت الفكرة.

دستور ستالين!

لي الله...! لقد أمسكت بالنبأ من قرنيه!

فقد أردت أن أصدق به وأؤمن، لأنني لم أشأ أن أتخلى عن قضية وضعت فيها مثل ما وضعته من مدخر روحي، ورأس مال عاطفي.

ومن يدري لعل ستالين قد فطن يومئذ إلى أن الشعب ظمآن إلى منهل الحرية، فقد كانت له، كما قال لينين، في الفترة القصيرة التي تولى كيرتسكي فيها الزمام، وتقلد السلطان، بل في الحق لقد كان الشعب يستمتع منها في عهد القيصر نيقولا الثاني بنصيب أوفر مما أصابه تحت حكم البلاشفة.

والآن وقد تم القضاء على جميع العناصر المعادية في الاتحاد السوفييتي بلا أمل في رجعة أو مآب، فقد أصبح في وسع ستالين بلا أدنى خطر على النظام ذاته أن يمنح الشعب وثيقة جديدة للحرية، قد تثير الحماسة مرة أخرى، وتستعدي الحمية الماضية، فيذل بذلك مهمة الحكم في الإدارة والإنتاج.

لقد أردت أن أؤمن بأن الدكتاتورية الخيرة المنبعثة عن سامي الدوافع ونبيل الأغراض يمكن أن تتخلى عن طغيانها، وتتحول عن غاشم سلطانها، وتسلك مسلكاً جديداً.

ولكن لم يفتني حين وضع الدستور المرتقب ما فيه من نقص وعيب؛ فقد أقام وثيقة حقوق، ولكنه لم يعين أداة تنفيذية لتحقيقها، ولا سلطة قضائية لحراستها وضمانها.

وقد تحدثت في ذلك إلى «كارل رادك» Radek عشية صدور الدستور.

وكان رادك كاتبًا سوفيتيًا يشار إليه بالبنان، وأحد أصحاب لينين، وعضوًا في اللجنة التنفيذية للحزب، وزميلًا لستالين، ومحدثًا بارعًا لا يشق له غبار، حتى ليعرف كيف يرد على كل سؤال، ويجيب عن كل أمر، وقد يلقي سؤالًا ويبادر بالجواب عنه، قبل أن يتمكن المسؤول من الرد عليه.

قلت له في هذه المناسبة: إن مسألة الدستور هي في الواقع مسألة «الأوجوب» -أي البوليس السري-.

فصمت دقيقتين كاملتين، وهو يذرع الحجرة ذهابًا وجيئة، ثم انثنى في النهاية يقول: «لك حق!».

وكان ستالين يومئذ متعبًا من البوليس السري متضايقًا، فقد حاول على عهد رئيسه «ياجودا» الذي حكم عليه بالإعدام فيما بعد بسبب مطامعه أن يصبح رأس الديكتاتورية وذراعها في وقت واحد، وأن يسمى دولة في الدولة، فلم يلبث ستالين أن عمد يومئذ إلى تطهيره.

ولكن هل تراه مستطيعًا أن يقص من أطرافه، ويكبح من جماحه، ويجرده من سلطانه وسلاحه..؟ وبذلك يتيسر له أن يجعل الدستور حقيقة واقعة تبعث الأمل في التحسين والإصلاح.. لأنه إذا لم يفعل بقيت وثيقة الحرية التي حملت اسمه مجرد «رمز» لإحداث تأثير في نفس العالم الخارجي، وظل سهمًا في كنانة المهيج السوفيتي المحترف، ووسيلة لتضليل الناس في الداخل والخارج على السواء.

وإذا بالأمال التي كانت تداعب خاطري وأنا أحاول جمع الأدلة والقرائن على صدق إيماني، وقوة يقيني، أن تحطمت بددًا، وتلاشت وشيكًا؛ فإن هيئة البوليس

السري لم يكبح جماحها، ولم ترد عن غيها، ولم تجرد من سلاحها، وإنما غربلت غربلة، ولم يتجاوز الأمر مجرد «تنقية» أضفيت عليها حقوق جديدة، ورفعت سلطات أخرى، على حساب الوثيقة والدستور.

وكانت محاكمات موسكو الصاخبة في أعوام ١٩٣٦ و ٣٧ و ٣٨ قد أعدت فعلاً عدتها، ولم يكن الشعب خلالها يشهد إلا جزءاً يسيراً من مصارع الألف الذين مضى البوليس السري يقتلهم برصاصه، مصوباً نيرانه إلى رقابهم من الخلف في المحابس والسجون، بغير محاكمات.

لقد كانت تلك المحاكمات والمصارع الرهيبة، تناقضاً غريباً مع مزامير الدولة وأناشيدها في مديح «الدستور الجديد»!

وكان الظلام قد بدأ من قبل يلقي ظلاله القاتمة، فلم يتتصف عام ١٩٣٦، ولم تكذب المحاكمات، حتى أحسست أن الليل مقبل، والظلمة مدلهمة، وشعرت بأنني لم أعد أبغي المقام في روسيا السوفيتية.

وكان في الإمكان أن أظل يومئذ على حماستي لما أخذت المصانع الجديدة تضطلع به من جسام الأعمال، وما أدخل على الزراعة من حديث الوسائل والأساليب، فقد كنت أحب الشعب السوفيتي، وأرجو أن يظفر على الأيام بوفرة من الأحذية والمساكن والنور الكهربائي، وكان قد بدأ فعلاً يظفر بزيادة في عدد المدارس وعناية بالصحة والعلاج، ووفر من الرفاهية.

لقد كانت الروح المعنوية قوية في روسيا حين زرتها لأول مرة، وإن لم يكن ما حققته الثورة يومئذ شيئاً مذكوراً.

لقد كانت الروح العامة روح تفان مثالي، وتضحية سامية، وإقدام جريء، وشجاعة نائرة، وكانت الشيوعية رمزاً للثورة والانقلاب.

وأما اليوم، بعد تسعة عشر عاماً من مولد النظام البلشفي، فقد قتل الخوف المقيم

الذي يبرره الإرهاب العام، روح الثورة، وأسكت الأصوات الناقمة، وقضى على تلك الشجاعة المتمردة، وحل الاستهتار وطلب السلامة والأمان محل التفاني والتضحية، وقام في موضع النضال في سبيل المثل الأعلى، العمل للمصلحة الخاصة، والمجد الذاتي، وحلت محل الروح الحية المتوثبة، روح المجازاة الميتة، والمداراة السقيمة، والأوضاع البيروقراطية، وترديد العبارات المصطنعة، وتكرار «الكليشيهات» المزيفة المفتعلة.

وقد جالت هذه الخواطر الغامضة في نفسي، واستولى أشباهها على مشاعري، ورأيت من جماعة الموظفين قوماً كانوا صحاباً لي لا يترددون أحياناً في الكلام معي، أو التلميح لي، قد عادوا يصمتون، ويخلدون إلى السكوت، أو إذا هم تكلموا لم يخرج كلامهم من القلب، وفقد العمل الصحفي في موسكو ما كان له من حماسة، وما كان يقدمه إلى المرء من عزاء وترضية.

فما الذي يغريني بالعيش في بلد كهذا ويحبب إلى نفسي الشواء فيه...؟
وفي ذلك الحين بالذات -أي في شهر يولييه عام ١٩٣٦- نشبت الحرب الأهلية في إسبانيا.

فقد عمد الجنرال فرانسيסקو فرانكو، بمعونة فريق من العسكريين الرجعيين، وحزب الفلانج الفاشي، وجماعة الملكيين، والارستقراطيين الموسرين، وكبار أصحاب الأراضي، إلى تنظيم حملة عدوانية على الحكومة الحرة الديموقراطية المستنيرة وليدة الانتخابات الشرعية في البلاد.

وكان الشعب الإسباني قد ظفر بمحبتتي وإعجابي خلال زيارتي لإسبانيا في عام ١٩٣٤ وريبع ١٩٣٦، فقد رأيت الإسبان قوماً مثقفين؛ حتى وإن كانوا أميين جائعين ساغبين، وأدركت أن بهم فتوناً ولوعاً بالظهور بمظهر الأمة «الديموقراطية» وهو تكلف يثير الاشمئزاز ويبعث النفور إذا لم يكتسب شيئاً من الروعة، ولو تتوافر له الهيئة البالغة.

وقد عرفت فيهم الاهتمام بالشكليات، ويؤثر عن امرأة إسبانية قولها: «إننا لنؤثر أن نموت قيامًا على سوقنا، على أن نموت ركعًا جاثين...».

ولكنهم مع ذلك عاشوا قرونًا عدة على رُكبهم؛ مستذلين، تصرعهم الفاقة، ويطحنهم الظلم والاستبداد، وتخضعهم طبقة عليا من الحكام المتخلفين، استطاعت حجز الثورة الفرنسية عن دخول بلادهم، وتولت في عام ١٩٣٦ التجربة ذاتها؛ فحاولت حجز مبادئ القرن العشرين عنها؛ وهذا هو ما كان فرانكو يريد من عدوانه وهجومه، فلا عجب إذا هو تلقى على الأثر من هتلر وموسوليني عدة وعتادًا وأعوانًا ومناصرين.

وما لبثت إسبانيا أن أصبحت الخط الأمامي للقوات المناهضة «للفاشية» ولشد ما سرنى أن أغادر روسيا لأكون عن كذب من المعركة.

لقد تسلل الموت إلى روسيا في فحمة الظلام، ولكنه جاء إلى إسبانيا من الأمام، وتحت الشمس، وفي وضح النهار.

وقد حزنت إسبانيا، ولكنها ظلت نبيلة مترفعة سامية؟

وأرجأت الحرب الأهلية الإسبانية خروجي على الشيوعية وتمردى، لأنها شغلت بالي، واستنفدت نشاطي، واستحوذت على قواي، وإن ظل الاتحاد السوفيتي ماثلاً في مخيلتي، وبقيت أفكر فيه عن بعد وأسترجع ذكرياتي فيه.

ولعل صراع الجمهورية في إسبانيا حيال الفاشية كان الذروة التي انتهى إليها السمو السياسي، والنبالة المثالية، في النصف الأول من القرن العشرين.

لقد كان العطف الخارجي على روسيا السوفيتية حتى في أنضر السنين، وأحسن العهود، عطفًا سياسيًا، أو فكريًا؛ فقد مضت البلشفية تثير عواطف حادة في نفوس أنصارها في الخارج وجوانح المتشيعين لها في مختلف البلاد، ولكنها لم تثر فيهم غير قليل من ذلك العطف الرفيق والحدب الرفيع الذي أثارته إسبانيا الوفية لعهد

الجمهورية الصادقة الولاء لقضيتها الوطنية.

لقد كان أنصارها يحبون الشعب الإسباني، ويقاسمونه على ماضى محنته، مستعينين بالرصاصة والقنبلة، أو صابرين على الشظف والمسغبة والجوع.

وكان الفارق بين العاطفتين أن النظام السوفيتي أصاب موافقة فكرية، وأن النضال الإسباني جعل الناس مواسين له في أعماقهم، متأثرين له بأرواحهم ومشاعرهم، وزاد في هذا العطف أن أنصار الجمهورية كانوا أبداً الجانب الضعيف في هذا النضال المستعر، وظلوا طيلة المعركة الخاسرين المندحرين، وكان أصحابها وأنصارها يخشون كل الخشية أن تنتهي قواها، وتضمحل مُنتها فتستسلم وتستكين.

ولن يستطيع أحد أن يدرك مدى الفرح بالنصر وكثرة الأسى والحزن على الهزيمة، في نفوس الملايين من المشتركين من بعيد في تلك الحرب الأهلية وتقلباتها، غير الذين عاشوا مع إسبانيا بأرواحهم في تلك الفترة الدامية، فترة الثلاثة والثلاثين شهراً التي سلختها، من شهر يولية عام ١٩٣٦ إلى شهر مارس عام ١٩٣٩.

وقد تبين لي بعد متابعة الموقف عدة شهور أن الكتابة عن ذلك النضال الخطير من ناحية مصير الحرية البشرية والسلام العالمي لا تكفي، فبادرت إلى التطوع في صفوف «الفرقة الدولية» وكنت أول أمريكي فعل ذلك.

وعيني أندريه مارتى الزعيم الشيوعي الفرنسي الذي كان يتولى قيادة تلك الفرقة في وظيفة «الكوارتر ماستر»، أو ضابط المئون «والتعيينات»، ولكن لم يلبث وجود رجل مستقل مثلي في الفرقة أن بدأ يقلق باله، فنقلني إلى عمل آخر، وهو العمل الذي ظللت أؤديه إلى أن انهارت الجمهورية وتداعى بنيانها.

وكنا جميعاً مقتنعين بأن الحرب الإسبانية هي المعركة الأولى من الحرب العالمية الثانية التي اقتربت ساعتها وحان اشتعالها، وكانت ألمانيا وإيطاليا تنظران إليها هذه النظرة بالذات وقد استخدمتاها لتجربة أسلحتهما وتدريب رجالهما، وكسب حليف

لهما في شبه الجزيرة الاستراتيجية، وهو أهم من الهدفين الأولين وأخطر شأنًا.

ولكن بريطانيا وفرنسا وأمريكا، بقصر نظرهن على غير المألوف منهن، ودافع «باثولوجي»، عجب نحو تعذيب أنفسهن، مضين يبذلن كل ما أوتين من قوة وجهد لتدمير تلك الجمهورية الديمقراطية، التي كانت ستصبح لولا ذلك كله شريكتهن الصادقة، ونصيرتهن المخلصة الجلييلة النفع في الحرب ضد الفاشية.

أما المكسيك، وروسيا السوفيتية وحدها دون الدول العظمى، فجعلتا تمدان الحكومة الموالية للجمهورية بالأسلحة وتزودانها بالخبراء ولم تكن مساعدة موسكو لها تكفي لتمكينها من كسب النصر، وكانت روسيا قد لجأت إلى بذل تلك المعونة، عقب تخلى تشمبرلين رئيس وزراء بريطانيا، ودلاديه رئيس وزراء فرنسا عن سياستهما المسالمة حيال النازي، والفاشية، وفرانكو، ولولاها لأمكن منع الحرب العالمية الثانية، أو تيسر الظفر للديموقراطيات بحصن منيع في إسبانيا يتسنى لها أن توجه الحرب منها، ولكن بريطانيا وفرنسا عجزتا عن إنقاذ تشيكوسلوفاكيا في محادثات ميونيخ خلال شهر سبتمبر عام ١٩٣٨ بل تركتاها، حتى نزع منها سلاحها وجُردت من مقومات النضال تجريدًا، وبدا يومئذ جليًا أنهما لم تنقذا الجمهوريين في إسبانيا، وما لبثن البوادر أن أوحى بأن الجمهورية الإسبانية مقضي لا محالة عليها، فأقلت روسيا من المعونة، وتولت عن التأييد والإمداد.

والتقيت في الجبهة والمطارات والمستشفيات ومقر القيادة، والدور والمساكن الخاصة، بفريق كبير من الروس الذين أوفدوا لبذل أقصى ما في مكنتهم من المعونة للجمهوريين، وما رأيت في الحرب الإسبانية أحدًا أشد منهم دأبًا، ولا أكثر منهم إقدامًا، ولا أبهر قتالًا، ولا أصدق تفانيًا وولاء، حتى ليخيل لي أنهم مضوا يسكبون في ذلك الصراع الرهيب تلك القوة العاطفية الثورية المستحصدة التي لم تعد تجد أمامها مجالًا فسيحًا في روسيا ذاتها.

وكان هذا هو بعينه إحساس عدد لا يحصى من الأشخاص في الاتحاد السوفيتي،

فقد كانوا يرجون أن تكون إسبانيا وسيلة روحية «لنقل الدم» إلى البلشفية بعد ذبولها، وأداة لعلاجها من خمودها، وانطفاء جذوتها الماضية.

ولكنني في سفرتي إلى موسكو عامي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ لرؤية زوجي وولدي وجدت الأفق القاتم أشد قتامًا مما تركته، وأفحم سوادًا، وأبصرت ستالين ورئيس شرطته الجديد «يزهوف» ممعنين في مذابح تشمل كبار الشيوعيين وصغارهم، وتطيح بالموظفين والمهندسين العسكريين والفنانين والمستنيرين والأجانب من الشيوعيين وأعضاء النقابات والمشرفين على المزارع الجماعية ممن استهدفوا لنقمتها أو أخذوا بالشبهات أخذًا.

لقد راح النظام البلشفي يؤند العقول الكبيرة فيه وكان الناس يتكلمون مخافتين، ويتحادثون هامسين، ولم يعد أحد منهم مطمئنًا على نفسه من كلمة سوء تقال عنه، أو كيد يكاد له، فتنتهي حياته في غيابة السجن، أو يجد أسوأ من ذلك منقلبًا، وكان كل امرئ بالآخر متظنًا ومنه متوجسًا، وكل إنسان في أعين سواه جاسوسًا، بل لم يكن المالقون أنفسهم يومئذ مطمئنين.

ولو أنني جاهرت يومئذ بالخروج لخسرت صلاتي بالروس الشجعان الباهرين في إسبانيا، وأضعت كل فرصة أمامي للعمل مع زعماء الجمهوريين في سبيل قضيتهم، وكان الشيوعيون الإسبان يومئذ قد اكتسبوا قوة بالغة في المعسكر الجمهوري، فلو أنني ظهرت عندئذ بمظهر الناقد لروسيا السوفييتية لنفروا مني، ولم يرحب أحد فيهم بي، ولهذا اقتصر على التحدث مع «نجرين» رئيس الوزراء ونفر من أصدق أعوانه عن الأحداث البشعة التي كانت تجري في روسيا، وتحذيرهم من قيام ديكتاتورية في إسبانيا.

ولكنني مع استنكاري للسياسة الداخلية في روسيا، كنت بسياستها الخارجية معجبًا، فقد كانت معاونتها للجمهوريين في إسبانيا تناقضًا ظاهرًا مع مسلك الديموقراطيات وتصرفها الأحق، ومناصرتها المعيبة لفرانكو، تلك السياسة التي كانت تدعوها إلى الامتناع عن التدخل.

وتبين لي أن الفظائع التي تقع في داخلية روسيا، والفساد الذي طرأ على البلشفية من جراء «القومية» سينتهيان بها إلى إفساد علاقاتها بالعالم الخارجي، وإن كان الدور الذي قامت موسكو به في إسبانيا قد خفف من حنقي عليها، وقلل من نفوري النفسي منها، إن لم يكن قلل من نفوري الفكري، فلم ألبث أن ترددت في الهجوم، وأمسكت عن المجاهرة بالاستنكار والتنديد.

وكانت الكفتان اللتان رحت أزن فيهما الحسنات والسيئات متعادلتين، بحيث لو زيدت شعرة واحدة على كفة روسيا، لكانت هي الكفة المرجوحة، أما الآن فقد أُلقيَ طن كامل في الكفة المقابلة!

وكان رجال الجمهورية الإسبانية قد بدأوا يجمعون الأدلة التي تثبت التدابير التي اتخذها السوفييت حيال الأفراد الروس الذين اشتغلوا في إسبانيا، قبل أن يتم لفرانكو النصر على الشعب الإسباني في شهر مارس عام ١٩٣٩، فكانت الحكومة السوفييتية من حين إلى آخر تستدعي واحدًا أو أكثر من أولئك المجاهدين والأنصار الذين أعانوا الجمهوريين، فلا يكاد يعود إلى بلاده حتى يختفي ولا يبقى له أثر، حتى اقتنع الجمهوريون الإسبان في نهاية الأمر بما توافر لديهم من الوقائع الثابتة والأدلة الدامغة، بأن أكثر العسكريين والمدنيين الروس الذين عملوا في إسبانيا، إن لم يكن كلهم، قد أعدموا أو نفوا عند مآبهم إلى بلادهم.

فقد أعدم الجنرال جوزيف الذي كان يتولى الدفاع عن مدريد، وقبض على جريشين الذي كان أول رئيس أركان حرب في الجيش الإسباني، ونفي ستاشيفسكي مندوب السوفييت التجاري في إسبانيا عام ١٩٣٧ - ٣٨ وكان شيخًا بولونيًا من كبار الثوريين، ومستشارًا اقتصاديًا يتمتع بمكانة مرموقة عند نجرين رئيس الوزراء، كما أعدم مارسل روزنفرج أول سفير روسي لدى الحكومة الجمهورية في إسبانيا، وجيكيز مستشاره، وأنطونوف أفسينكو ممثل السوفييت في «قطالونيا» وهو الذي هاجم «القصر الشتوي» الذي كان يملكه القيصر في شهر نوفمبر عام ١٩١٧ واستولى

عليه باسم الثورة البلشفية في إبان مطالعها.

ومن الذين شملهم الإعدام أيضاً الجنرال أوريتسكي الذي كان يتولى الإشراف على شحن الأسلحة للجمهوريين الإسبان، وميشيل كولتسوف مراسل جريدة «برافدا» الذي كان يوافي ستالين وفوروشيلوف بأنباء الإسبان مباشرة.

وليس هذا التعداد للضحايا إلا قائمة يسيرة لأسماء الذين لم يعد أحد يراهم أو يسمع نبئهم منذ كانوا يعملون في إسبانيا؛ ومن يدري فلعلهم احتبلوا في الشرك الذي نسجه ستالين ورئيس شرطته يزهوف، وقد يكون سر مصارعهم أنهم كانوا يعرفون أكثر مما يجب عن حقائق الأحوال في الخارج.

وقد عيب عليّ أنني لم أعلن خروجي عند هذا الحد أو قبله، ولعله كان واجباً، فلم تكن يومئذ تخالجنني شكوك فيما حدث وأسبابه، وكنت على يقين أنه لا ينتظر أن يدخل تحسين ما على سياسة السوفييت ومناهجها.

ولكنني انتظرت ولبثت صامتاً، ما دام ذلك جائزاً.

ولم يلبث ميثاق التحالف بين السوفييت والنازي أن وقع في ٢٢ أغسطس عام ١٩٣٩، وهو الميثاق الذي ألزم الحكومة السوفيتية أن تتخذ السبيل الذي اتخذته من ذلك الحين، فرأيت أن الساعة قد حانت لأعلن... الخروج!

ولم يكن هذا الميثاق اتفاقاً على كسب الوقت، ولكنه كان اتفاقاً على كسب إقليميّ، فقد تبين من «البروتوكولات» السرية المتصلة به، التي أعلنت بعد الحرب وأذيعت، أنه ينص على تقاسم الأراضي التي قد يتعرض الروس والألمان منها للعدوان كمناطق نفوذ، وظهر بعد ذلك كيف بدأت روسيا خططها العدوانية التي أكسبتها اليوم إمبراطوريتها المتداعية، وجعلت مشكلة البشرية تزداد اشتداداً واستعصاء.

لقد كان ذلك الميثاق مقبرة البلشفية «الدولية»، وحجر الزاوية في بناء البلشفية «الاستعمارية»!

ولم يذلل ذلك سوى أن روسيا البلشفية أصبحت مقبرة البلاشفة، ولست أجد في نفسي عطفًا على نظام يتخلى عن أصوله، ويغدر بصانعيه ومؤسسيه.

وقد كان التوسع القيصري من قبل توسعًا طوليًا وعرضيًا، أو بعبارة أصرح، توسعًا إقليميًا، فقد مضى يفتح أقاليم، ويغزو ربوعًا، وهو غير آبه بتحسين أحوال الناس ورفع مستوى عيشهم.

وجاء ستالين أيضًا يحذو حذو القيصرية آل رومانوف الغابرين.

لقد راح يبنّي على أكتاف الكادحين والفلاحين الذين أصارهم «قوميين»، وعلى هتاف المستنمجين والمستنيرين القابعين، وصيحات الاستحسان من المَلَقَة والمنافقين نظامًا قوميًا ضخّمًا، بل نظامًا استعماريًا، رأسماليًا، عسكريًا، يتولى هو فيه مكان المولى المعظم، والسيد المطلق في عبيده الأرقاء، ويتولاه من بعده من هو على الأيام خالفه...

فليت شعري كيف يسوغ لأحد يعنى بأمر الشعوب ويحرص على السلام، ويتوخى كل ما يجدي على البشرية، أن يؤيد نظامًا كهذا أو يناصره.

أفيكون التأييد لأن الفساد أصاب صميم العالم الديموقراطي؟

إن في إمكاننا أن نحارب هذا الفساد ونكافحه.

ولكن ماذا في وسع المواطنين السوفييت أن يفعلوا إزاء هذه النوازع «الاستالينية»؟

لقد رأيت خلقًا كثيرًا يعجبون لأمرّي كيف لم أبادر بإعلان خروجي، بعد أن رأوا الظلام الدامس يغمر روسيا بأسرها، ولكنني لا أحس هذا الإحساس نحو الذين لا يزالون مترددين كما كنت، فلا أعيب عليهم البقاء، ولا أعجب لترددهم.

فقد كان ذلك الميثاق إيدانًا لي بالخروج، بينما رأيت غيري لا يغادرون «القطار»

حتى شهدوا روسيا تغزو فنلندا في شهر سبتمبر عام ١٩٣٩.

إن تحديد المرء لساعة خروجه رهن بعدة عوامل موضوعية، وأخرى نفسية؛

ففریق قد بلغ بهم استنكار الجرائم التي ترتكب في العالم الرأسمالي حدًا أعماهم عن جرائم البلشفية وفشلها وإفلاسها، وفریق آخر ليس بقليل، عمدوا إلى استغلال عيوب الغرب ومساويه لصرف الأنظار عن فظائع موسكو ومنكراتها.

ووصفتي أنا للناس هي: التخلي عن الجانبين، أو رفض كلا الرأيين.

إن صاحب الفكر الحر، المتخلص من سائر القيود الاقتصادية والتحيز الفكري، يستطيع أن يولي ظهره لمساوي العالمين، ويحاول بتحسين شأن العالم الذي ينتمي إليه أن يقيم عالمًا يتوافر له السلام، والرخاء، والأخلاق، ولا تلبث الدكتاتوريات القائمة على كل جانبي «الستار الحديدي» الذي يدعونه أن تختنق ويسرع إليها الفناء.

وهذا يستتبع إثارة سؤال حاسم، وهو إلى أين يذهب جموع الذين أفلتوا من أغلال الحزبية الشيوعية، وزالت عن أبصارهم غشاوتها، حين يجدون أنفسهم أحرارًا ناجين...؟ إن «كرونستاد» ليست المنتهى، فأولى بها أن تكون «وقفة» على الطريق المؤدية إلى نقطة انتهاء أفضل من الدكتاتورية وأحسن منقلبًا.

ففي كرونستاد، وسط الشيوعيين القدامى، وبين أمثالي من أنصار السوفييت الذين لم يكونوا في يوم من الأيام شيوعيين، صنف من الناس يصح أن ندعوه الفريق «المتأثر» من طريق الإلزام النفسي، والتأصل العاطفي، فهو بتغير وجهة نظره، أو سوء ما شاهده، ونكر ما رآه بعينه، قد يتحول عن «الاستالينية» وأثرها فيه، ولكن لا تزال لديه العيوب ذاتها التي دفعت به إلى المعسكر البلشفي أول مرة، فهو يتخلى عن الشيوعية فكريًا، ولكنه يظل مع ذلك بحاجة إلى بديل عاطفي منها، لأنه لا يني بضعفه في أعماق نفسه، وافتقاره إلى السلامة، وحاجته إلى فكرة مواسية، ومبدأ يجد فيه الراحة والعزاء، وكتيبة ضخمة يمد فيها خطوه، وينشر فيها جناحيه - أن ينجذب إلى قطب جديد من «العصمة»، والألوهية، والشيء الذي يحسبه قد وصل إلى مرتبة «اليقين»، فيتشبث بما يبدو له من الظاهر قويًا موحدًا متماسكًا لا اختلال فيه، وكثيرًا ما يهجر الشيوعية لأنها ليست مأمونة كل الأمان، ولا مستقيمة كل الاستقامة، بل ملتوية متراوحة، لا تحقق

له الاستقرار الذي ينشده، وحين يجد دكتاتورية جديدة ينطلق في محاربة الشيوعية بذلك العنف ذاته الذي تحارب الشيوعية به، والتجبر الذي تستخدمه، والتعصب الذي تلجأ إليه، فهو «شيوعي خصم للشيوعية»!

وقد رأينا «دوريو» الزعيم الشيوعي الفرنسي، والعضو في اللجنة التنفيذية «للدولية» الثالثة، ينقلب «فاشيًا» ويحارب الشيوعية حربًا «دينية» عنيفة موحشة، وشهدنا «لأفال» الشيوعي القديم، ورئيس الوزارة السابق في فرنسا، يتحول فيما بعد إلى مناصرة «النازية» والمبادئ الرجعية.

وقد انقلب عدة ألوف من الإيطاليين والرومانيين والمجريين والبولونيين، الذين كانوا من قبل فاشيين ونازيين، إلى حظيرة الحزب الشيوعي القومي في بلادهم، والطيور على أشكالها تقع.

ولن تجد يومًا الرجل المتشبه بصاحب السلطان، بسبب الإلزام النفسي، أو ما يعتمل من الإرغام في أعماقه، هاجرًا ستالين إلى نقيضه غاندي.

ويوم يعجز القائد العام عن اقتضاء التفاني التام من جنوده، لا يلبث أن يقنع بأن يكون «قائدًا» كسائر القواد الآخرين، ويوم يذبح الجندي في فرقة «العاصفة» الملايين من بني قومه تذبيحًا، لا يتخلى عن الإرهاب، وإنما يتولى هو الإرهاب بنفسه، لأن الدافع الوحيد عنده حيال الدكتاتورية ليس سوى الرغبة في أن يكون هو الدكتاتور، لا فريسته!

والذين ينطلقون من «كرونستاد» -أو خاتمة المطاف مع الشيوعية- بعد زوال الغشاوة عن أبصارهم، واستنكارهم لما لمسوه منها، لا يلبثون إذا كانوا من هذا الصنف المولع بالسلطة، أو هذا الصنف «القوميساري»، أن يتجهوا نحو دكتاتورية أكثر نجاحًا، فليست نقطة «الانتهاء» أو «كرونستاد» عندهم سوى انتقال ولاء، وما هي بتحول قلبي، ولا تغير فكري بحال. وإنما يصبح «الخروج» مجددًا كبير الأثر جليل النفع، حين يكون رفضًا لجميع وسائل الدكتاتورية وأساليبها، وتحولًا إلى المبادئ الديموقراطية واتجاهاتها.

ولن تجد دكتاتورية في العالم منطقية على شيء من الديمقراطية، وليست في الدكتاتوريات إطلاقاً بذور الحرية.

ولم أكن أفهم ذلك في تلك السنين التي كنت فيها مناصراً للسوفييت، وإنما كنت يومئذ أعتقد أن وقف إطلاق الحريات إلى حين من شأنه أنه يمكن النظام السوفيتي من التقدم بخطوات اقتصادية سريعة، وعندئذ يعيد الحريات كما كانت.

ولكن ذلك لم يحدث، وتبين أن الدكتاتورية السوفيتية ظلت مقفرة من القول والأغذية، لأنها قد ظلت مقفرة من الحريات، إذ لا سبيل إلى ضمان مادي، ولا إلى ديمقراطية اقتصادية، ما لم تتوافر الديمقراطية السياسية. وإن اعتقال ملايين من الخلق في معسكرات السوفييت وسجونه عقب انصرام ثلاثين عاماً على بداية الثورة لهو في الحق سخرية من كل ادعاء بأنه توافرت فيه الديمقراطية السياسية والاقتصادية. وليس ثمة أيضاً أقل بادرة على أن هذه الدولة «البوليسية» آخذة في الذبول والفناء، بل بالعكس، كل تطهير فيها يخلق ساخطين جددًا، ويستوجب تطهيراً آخر، وهكذا ينقلب التطهير غير المشروع سلاحاً دائماً في يد الدكتاتور ضد الشعب.

ولا تتواتى الحرية في ظل الدكتاتورية. إذ ليست هناك حقوق ثابتة لا تبديل فيها ولا تحويل. فإن للدكتاتور من كثرة القوة، ولل فرد من ضآلتها، ما يبيح للأول أن ينزع أي حق يعطيه، ويسترد أي شيء هو واهبه. فإن حق العمل مثلاً قد يكون معناه اليوم حق العمل في المصنع بأجر. وقد يكون غداً ضرورة ملجئة إلى العمل في معسكر اعتقال لقاء «جراية» لا تغني من جوع. وليس لل فرد من يستعديه لكي ينصفه؛ لأن الدكتاتور هو السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية. والسلطة القضائية موسدة في واحد بذاته. وليس من شك في أن الشعوب السوفيتية الدؤوب الذكية تستحق أحسن من ذلك، وتعرف أكثر من ذلك؛ لأنه من السهل أن يحب الإنسان الحرية. ولكن ما حيلتهم، والإرهاب على السنين متزايد؟

ورأيت مناصرتي للسوفييت مؤدية بي أيضًا إلى الوقوع في خطأ آخر. وهو الاعتقاد بأن نظامًا يقوم على المبدأ بأن الغاية تبرر الوساطة، قد يخلق عالمًا أفضل، إن شئت قل إنسانًا أحسن حالًا.

ولكن الواقع أن الوسائل المنافية للأخلاق لا تنتج إلا غايات منافية لها، وأناسًا منافين لمبادئها، في البلشفية والرأسمالية على السواء.

إن الغايات من نحو مال أو ترقية أو نجاح هي في ذاتها وسائل لغاية لا تفتأ ترد وتراجع، ومن هنا رأينا أكثر الحياة عند الأفراد تتألف من وسائل، وكل حياة يقل فيها نقاء الوسائل وطهرها وبهجتها في سبيل تحقيق مستقبل طبيعي أو خارق للطبيعة، من شأنها أن تحيل العيش تَعَسًا قذرًا كدراً لا هناءة فيه.

إن الدكتاتورية مستوية على بحر من الدماء، وأوقيانوس من الدموع، وعالم من الآلام، وهي كلها نتائج وسائلها القاسية، فكيف إذن يتواتى لها أن تكفل الرغد أو الحرية أو الطمأنينة ظاهرة وباطنة..؟ بل كيف يتهيا للخوف والإرغام والكذب والعسف أن تصنع إنسانًا أحسن حالًا؟

لقد علمتني الأعوام التي قضيتها في مناصرة السوفييت أنه لا يصح لامرئ يحب الناس ويريد السلام أن يناصر دكتاتورية ما، وأن قيام نظام اجتماعي يناهز بالحرية ولكنه مع ذلك يحد منها ليس سببًا يبرر اعتناق مذهب يدمر الحرية تدميرًا، ويقضي عليها قضاء مبرمًا، بل من الخير أن يعمل على إزالة القيود المضروبة على الحريات بأنواعها من شخصية، وسياسية، واقتصادية، وهي القيود الملموسة في الديمقراطيات جميعًا، وتغذيتها بمبادئ غاندي وتعاليمه، وفي مقدمتها احترام الوسيلة، والإنسان، والحقيقة.

واليوم وأنا أعود بالخاطر إلى الماضي لا ألبث أن أتبين أنني إنما توليت يومئذ بوجهي شطر روسيا السوفييتية لأنني ظننت أن فيها الحل المطلوب لمشكلة القوة، وقد رأينا العلم يضع القوة المتزايدة على مر الزمن تحت تصرف الإنسان، فلا يدري كيف يفعل بها، وليست مشكلة القرن العشرين الكبرى سوى مشكلة ضبط

القوى الشخصية، والجماعية، والوطنية في العالم الحديث، وكيفية الإشراف عليها وتوجيهها، وأحسب قبولي لروسيا السوفيتية جاء يومئذ وليد سخطي على القوة التي يكسبها الإثراء والرغد ووفرة المال لأصحابها فتعطيهم سلطاناً على البشر. وكنت في شبابي قد قرأت كتاب هنري جورج «التقدم والفقير». وأُشربت روعي المبادئ التي راجت في عهد «تيودور روزفلت». ومذاهب الأحرار والشعبين التي كانت جزءاً من تراث كل أمريكي فقير في تلك الأيام، ولم تلبث روسيا السوفيتية أن ظهرت عقب ذلك كله منادية بأنها ستحطم إلى الأبد قوى السادات المالكين، والشركات الضخمة، وتقضي على المستغلين والرأسماليين القضاء الأخير.

وأنا إلى الساعة لم أغير موقفي إزاء أخطار القوة المتناهية، ولم أعدل عن رأيي، وإنما أدركت الآن أن البلشفية ليست هي المخرج، لأنها في ذاتها جماع القوى المسيطرة على الإنسان الباغية الحاشدة، وإن غضبي لتغلي مراجله كلما ذكرت المظالم التي تنصب على رؤوس السكان المساكين في مناطق الفحم بولاية بنسلفانيا التي نشأت فيها ودرجت من الطفولة، لأن شركات التعدين فيها هي التي تملك مساكن العمال، وتتولى بنفسها إدارة المتاجر والحوانيت، وما الاتحاد السوفيتي في الحق إلا شركة ضخمة تشرف فيها الحكومة على جميع الأعمال، وتملك جميع الدور، وتدير جميع المتاجر، والمدارس، والصحف وما إليها؛ ولا سبيل إلى الفرار منها. وإن كان للفرار من مناجم بنسلفانيا وسلطان شركاتها سبيل لمن يشاء فراراً.

لقد وُصِفَتْ «روسيا ستالين» بأنها «دولة بوليسية». ولكن ذلك بعض الشر أو أهونه، فإن الكرملين لا تتوسل إلى إخضاع الناس بقوة البوليس والسجن وحدهما. بل بقوة أكبر من ذلك، بتلك القوة الملازمة لملكية كل عمل اقتصادي والاستيلاء على إدارته.

وما الشركات الضخمة بأنواعها في الدول الرأسمالية إلا أقزام إذا قيست بذلك

«الاحتكار» السياسي الاقتصادي «الماموثي»^(١) الذي يتمثل في الدولة السوفيتية إذ ليس لقوته الضخمة نقض ولا إبرام، ما دامت مظاهر القوة كلها موسدة في دكتاتورية الحكم وطغيانه.

فلا عجب إذا علمتني روسيا أن نقل الملكية من أيدي الأفراد إلى أيدي الحكومة ليس وحدة الطريق إلى الحرية وتحسين مستوى العيش، لأنه إذا آلت الملكية كلها إلى الحكم، وقضى في عملية نقلها على الطبقة الوسطى التي أصبحت عاملاً حاسماً في حضارتنا الصناعية الحديثة، فلا فائدة من ذلك ولا كسب، بل فيه حقاً الخسار المبين. إن العالم بحاجة إلى توازن في القوى السياسية والاقتصادية على السواء، فلا يصبح حزب، ولا تمسى طبقة، ولا حكومة، ولا مجموعة شركات، مستأثرة بكل قوة. لا يستطيع أحد لها تحدياً. ولا ينهض حيالها ناهض.

وقد رأينا روسيا السوفيتية مفتقرة إلى هذا «التوازن» وهذا هو سر الدكتاتورية فيها وجوهرها. بل هذا هو علة التصرفات العرفية التي تبدو من الحكومة السوفيتية في الخارج والداخل فيما يتصل بالعمال والفلاحين والموظفين والشيوخ والموسيقين وأرباب الفنون ومن إليهم.

وليس في إمكان روسيا حل مشكلة القوة لأنها في ذاتها أقبح مظاهر المشكلة وأسوأ وجوها.

ومن واجب كل رجل بعد تنحيه عن مظاهر الدكتاتورية أن يعمل في سبيل قيام ديمقراطية تتوزع القوى فيها بحيث لا يتسنى يوماً لحكومة تستند فيها إلى الأغلبية، ومن باب أولى لا يتيسر لأية جماعة من الجماعات، أن تحتكر القوى احتكاراً وتستأثر بمظاهرها استئثاراً. والزعيم الحكيم الأريب من يقدر على كبح جماح القوة التي تتواتى له، ويعرف كيف يعدل في استخدامها.

(١) نسبه إلى «الماموث»، وهي الحيوانات الضخمة التي كانت في بداية الخليقة.

ومن المتعين على كل رجل يتحول عن الشيوعية، وكل معتمر متشفع قديمًا لروسيا السوفيتية أن يتطوع في «الجهاد» من أجل الظفر بالحرية التامة لكل من يخالفونه في الرأي، والمذهب، والدين، والعنصر، واللون؛ فإن أسمى ذرى الثقافة أن يستطيع المرء أن يعيش في سلام مع من يختلف معه، وبغير ذلك لا قيام لشيء غير نكد الحياة وصَلَف الطغيان.

وأخلق بالذين كانوا فيما مضى أنصارًا للسوفيت أن يظاهروا «دولية» لا دخل فيها «للقوميات» والنزعات «الوطنية»؛ وقد يأتي يوم نرى فيه «القومية» بغير حاجة، سواء من الناحية النظرية أو العملية، إلى النزاع مع «الدولية». ولكن فكرة قيام بلد منعزل كحصن أمان، أو معقل رأسمالية، أو قلعة اشتراكيين، أو نصير للفضيلة، هي التي تحول فعلاً دون نمو العاطفة الدولية.

أما أن ينادي اللسان إلى حكومة عالمية، بينما طفر القلب فرحاً لكل توسع عسكري أو نجاح ماديّ تصيبه بلاده، فخير لهذا اللسان أن يخرس.

إن كل مستمسك «بالعنصرية» أو العزلة، وكل كاره للشعوب الأجنبية، لخصومة قائمة، أو عداوة ماضية، أو محتملة الوقوع، ليس بدوليّ، وإن زعم أنه كذلك. إن هو إلا نصير لفكرة الحكومة العالمية على الورق فقط، والقلب من اليقين والإيمان بها خلاء. وسيأتي على الناس يوم لا تجد فيه أمة ناعمة مستمتعة بنجاح وحدها، إذا هي لم تشارك غيرها فيه. وهيهات لن تتوافر لك هناة ولا طمأنينة ولا سلام إذا كان جارك في الشارع الذي تسكن فيه أو على بعد ألوف الأميال منك، معذباً شقيّاً.

وأهم من ذلك كله، أن الواجب على المتنحي عن الجانبين، والمستنكر لمساوئ الدكتاتورية ومساوئ الديمقراطية على حد سواء، أن يحصر همه جميعاً في أمر «الإنسان». فإن مختلف الأهداف، من استقلال وطني، ونظام دولي، وتقديم اقتصادي وعلمي، وسلامة قومية، وحرص على الرأسمالية، وإقامة حكومة اشتراكية ونحوها من المقاصد والغايات ليست شيئاً في الجوهر واللباب، بل كل معانيها في صلتها

بمصالح الأحياء من الرجال والنساء والأطفال الذين هم الوسائل التي يتحقق بها كل شيء في هذا العالم.

وقد ينسى المرء من فرط حميته وحماسه لفكرة من الأفكار، أو مذهب من المذاهب، أمر هؤلاء بتأتا، أو قد يحسب أنه في إمكانهم أن ينتظروا، أو يخيل له أنهم لا يحفلون ولا يعبأون.

وقد يذهب الظن بالمرء. وهو في شغل شاغل ببعض المثل العليا. أنه من الجائز التضحية بجيل من الأجيال في سبيل مصلحة الأجيال الخالفة. ولكن التضحية بالناس قد تصبح عادة في الجيل الثاني أو الثالث.

لقد كنت وأنا أناصر السوفييت أظن أنني بذلك أخدم البشرية.

ولكنني من ذلك الحين فقط اكتشفت حقاً الإنسان.

فهو الوسيلة والغاية معاً. والواسطة والهدف على السواء.



ستيفن سبندر

لبثت بضعة أسابيع عضوًا في الحزب الشيوعي البريطاني خلال فترة الشتاء بين أواخر عام ١٩٣٦ وأوائل عام ١٩٣٧. وسرعان ما انتهت عضويتي عقب انضمامي. فلم أتلّق يومًا دعوة إلى حضور الخلية الشيوعية في «هامر سميث» حيث كنت أقيم، ولا دفعت رسومًا غير الرسوم الأولية التي دفعتها عند قبول عضويتي.

وكنت قبيل انضمامي قد نشرت كتابًا عنوانه «خطوة أخرى بعد مذهب الأحرار» وقد وقع اختيار نادي الكتاب «اليساري» عليه ليكون «كتاب الشهر».

وكانت حجتي فيه أن في فكرة حزب الأحرار عن حرية الفرد ثلمة ظاهرة. فقد رأيناهم أحيانًا يتحدثون ويكتبون كأنهم مؤمنون بوجوب ترك الحرية الفردية مطلقة بلا حد ولا قيد. وأحيانًا أخرى بوجوب إطلاق الحرية بين الأنداد بالسواء. وكان رأيي أن الأحرار استطاعوا في القرن التاسع عشر، خلال فترة التوسع في آفاق التجارة البريطانية، أن يوفقوا بين التنافس الحر بين أصحاب العمل، وبين الإصلاح المطلوب للعمال، دون تعريض موقفهم لتناقض ظاهر، ولكن لم يعد في إمكانهم عام ١٩٣٠ عقب حرب عالمية أشاعت بعد انتهائها الركود وزيادة التعريفات الجمركية والبطالة، وقامت على أثرها حركات فاشية في أوروبا، أن يناصروا فكرة إطلاق الحرية للعمال وأصحاب الأعمال على السواء، بل أصبحوا مضطرين إلى إقامة فكرة الحرية على أساس العدالة الاجتماعية والحد من الاستغلال.

وقد أشرت على الأحرار في كتابي الذي أسلفت ذكره بوجوب تأييد العمال، وقبول الضرورة الملحة. وهي محاربة «الفاشية». والدفاع في الوقت ذاته عن الحرية الفردية في التعبير. وكنت أقصد من هذه العبارة «حرية القول» والحرية الشخصية.

لقد كانت مهمة الأحرار تعليق حرية الفرد على محاربة الفاشية، ومواجهة الوسائل التي قد تكون ضرورية لتحقيق القوة. أو بعبارة مختصرة وضع قضية الحرية بجانب قضية العدالة الاجتماعية. ونقل الحرية الفردية من الرأسماليين إلى مصلحة العمال.

وقد أثار كتابي كثيرًا من البحث والمناقشة، وكان بين الذين كتبوا لي بسبيله المستر «هاري بوليت» فقد دعاني إلى لقائه فذهبت ذات أصيل إلى مكتبه القاتم في دار الحزب الشيوعي بقرب محطة «شارنج كروس».

وكان المستر بوليت رجلًا صريحًا تسترّوح النفس إليه، ويسكن الخاطر إلى أحاديثه، وكان قصير القامة، ضئيل الجسم، محمر الملامح، أسود العينين، تحت حاجبين غزيرين، فلم يلبث سمته هذا أن ذكرني «بجورج روبي».

وقد بادرنى بمصافحتي وأنشأ في الحال يقول: «لقد شاقني كتابك، والذي أدهشني منه الخلاف بين طريقة تناولك للشيوعية، وبين طريقتي، فطريقتك أنت فكرية محض، وأما أنا فقد أصبحت شيوعيًا لأنني شاهدت بعيني رأسي جرائم الرأسمالية في موطني ودياري، ورأيت أمة تذهب لتعمل في طاحون، فلا تلبث الأحوال التي كانت تعمل فيها أن عجلت بمصرعها...».

وقال إن هناك وجهًا آخر للخلاف بيننا، وهو أنني لا أظهر في كتابي كراهية للرأسمالية ولا أطوي النفس منها على بغضاء، وأنه يؤمن بأن كراهيتها هي القوة العاطفية التي تدفع الحركة العمالية إلى الأمام.

واعترض على انتقادي لمحاكمة بوخارين وغيره في موسكو. فكان جوابي أنني غير مقتنع بأن المتهمين لم يكن لهم من ذنب سوى معارضتهم لستالين، ولكنه

خالفني في هذا الرأي أشد الخلاف وقال إن المحاكمة كانت من حسن حظهم لأنهم لم يكونوا يستحقون منها شيئاً.

ومضى يقول إننا وإن اختلفنا في مسألة هذه المحاكمات فلا نزال متفقين على ما بدا من الشيوعيين من المناصرة والتأييد للجمهورية الإسبانية.

وقال إن لديه فكرة، وهي أن نتفق على ألا نتفق. ولكن ذلك لا يمنع مطلقاً من انضمامي إلى معاصر الشيوعيين لمناصرتهم في قضية الإسبان، وأنه لا بأس من أن أكتب في صحيفة «الدلي وركر» مقالاً أنتقد فيه تصرفات الشيوعيين وأن أنضم في الوقت ذاته إلى الحزب.

فقبلت ما عرضه، وتلقيت بطاقة العضوية من الحزب، وظهر مقالي في تلك الصحيفة، ولكنه لم يلبث أن أثار حنق الشيوعيين في إسكتلندا وشمال إنجلترا، وسرعان ما نسيت عضويتي وعفا الزمن عليها العفاء.

وقد أصاب «بوليت» في قوله إن الأسباب التي حملتني على أن أكون شيوعياً لا صلة لها بي كعامل، ولكن كانت هناك سلسلة من الأحداث جعلتني أحاول التوفيق بين أفكاري والانخراط في الحزب.

وهذه الأسباب تعود إلى عهد طفولتي، فإن أشد ما أثر في نفسي يومئذ من قراءة «الإنجيل» هو قوله إن الناس جميعاً سواسية في عين الله، وإن يسار الأقلية هو ظلم للأكثرية.

ولم يكن إدراكي للمساواة بين الناس قائماً على فهم أحوال الجماهير، بقدر قيامه على الشعور بالوحشة، والإحساس بالعزلة والانقطاع.

ولا أزال أذكر كيف كنت أسهر الليل مفكراً في أحوال البشر، ومهبط الإنسان إلى هذه الأرض بغير طلبه، ودون سؤاله، وانطوائه على نفسه، غريباً عن بقية البشر، بحاجة إلى الحب والعطف، مواجهاً في النهاية أجله، ملاقياً على الأيام منيته.

وإذا صح أن الإنسان إنما يولد في هذه الدنيا ليكون «روبنسون كروزو» طريقًا على جزيرة منقطعة، فمن الظلم البين ألا يكون الناس جميعًا أحرارًا في اقتسام ما أفاءته الطبيعة في هذه الدنيا عليهم، ومن الجور البالغ أن يكون فيهم قوم محرومون من ارتياد العالم الذي ولدوا فيه، يقضون طيلة حياتهم في أكواخ محبوسة كأنها مقابر الأحياء.

وكان يبدو لي -ولا يزال يبدو- أن حالة كل إنسان في هذه الحياة ينبغي أن ترجح في الاهتمام بها، ووجوب علاجها، على سائر الاعتبارات المبررة لقيام الطبقات والفوارق بين الناس.

ولكني لم أكن أعطني «ثوريًا» لمجرد مساورة هذه الخواطر وأشباهاها لنفسي، فقد كانت أفكارًا «مسيحية»، وكان عملي بها مقتضيًا أن أهب كل ما أملكه للفقراء، وأن أعيش عيشة فلاح في الهند أو الصين.

وكان الشيوعيون يلوحون لي قومًا بشعين كأكلة اللحوم البشرية، أو كالذئاب الضارية، يريدون أن يدمروا مدائن العالم ويعيشوا على تلها، فقد أشربت نفسي أفكار عشيرتي وأصحابها واعتقادهم أن الثورات نكبات كالزلازل، وأن الاشتراكيين ليسوا سوى خلق أقل خطرًا من الشيوعيين. كما لقت أن أتحاشى النزوع إليهم، وأن أعتقد أن الذين يتزعمونهم مجانين أو في مرتبة أخط من مرتبة البشر.

ولما بلغت السادسة عشرة دخلت مدرسة لندن النهارية، فالتقيت فيها بمعلم وفتى أو فتيتين من الاشتراكيين. وكان المعلم قد خدم في الحرب واشترك في نادي ١٩١٧، واعتاد قراءة «الدلي هيرالد»، فكان رأيه أن الاشتراكية ليست عهد إرهاب أو حماقة، ولكن معناها تأميم الصناعات حتى تنتج سلعة وموارد ثروة تتولى ملكيتها الأمة بأسرها لا بضعة أفراد فيها، وإزالة التنافس المبني على طلب الربح والكسب. لأنه يؤدي إلى الخصومة الدولية والتزاحم التجاري، ومن ثم يسوق إلى الحرب، وتوفير التكافؤ في الفرص لجميع الصبيان والشبان من مختلف الطبقات في التعليم والعمل.

وكان هذا مطابقاً لفكرتي الأولية عن العدالة الاجتماعية. وكان لي في المدرسة صديق يدعى «موريس كورنفورث» ألف قراءة روايات برنارد شو وكتابة مسرحيات لا تقل عنها إجابة وصدقاً.

وكان كورنفورث قد أوتي ذهنًا يستطيع أن يشرح الأشياء وينسقها في نظام من الأفكار، وسلسلة من الخواطر، فلم ينقذني من الكاثوليكية الإنجليكانية إلا ليلقي بي في تيار «البوذية»، وكان «نباتياً» اعتاد أن يمشى ثلاثين أو أربعين ميلاً في اليوم في مترو لاند كلما حلت أواخر الأسابيع.

وكان له رأس أشعث، وقلبه أشعث الشعر مثله. وهو يومئذ المسيطر على المناظرات والمناقشات في حلبة المدرسة وندوتها، والعاكف على نظم الشعر وكتابة الرسائل، وتأليف الروايات.

وكانت الاشتراكية عندي وعنده أحد الموضوعات المتعددة التي نعني بها، كمذهب الرسم «التعبيري» الحديث والمسرح و«الباليه». والرقص، والشعر، بل لقد كانت الاشتراكية في الواقع ضرباً جديداً من السلوك، كاستعمال أربطة العنق الحمراء، وإرخاء اللحي على نحو ما كان برنارد شو يفعل.

وهكذا مضيت وأنا في أكسفورد أتقبل بسهولة الرأي الذي كان يراه أكثر الصحاب فيها واللدات، وهو أن الفن ليس له أدنى صلة بالسياسة، ورحت أحذفها من قائمة آرائي الحديثة في مختلف الشؤون، وآمنت بالفن لذاته.

واليوم تلوح لي أعوام ١٩٢٨ و ٢٩، بل ٣٠ أيضاً هادئة، رفرت السكينة بجناحيها عليهن، وكان من السهل في أكسفورد أن ينسى الفتى منا مظالم البشر، أو على الأقل يحسب أنها ليست من شأن «الشاعر».

وبقيت يومئذ اشتراكياً على النحو الذي يبقى عليه بعض الناس كثالكة؛ وإن لم يصلوا يوماً، أو يقفوا في المحراب، أو يحوهم صحن الكنيسة، إذ حسبهم أن شيئاً من

«الأرثوذكسية» استقر وجمد في أعماق أذهانهم وهم عالمون بأنه في عقولهم قائم، وأنه قد يذوب في يوم من الأيام فيتركهم في غمرة فيضان جائح، وإن بدا في الساعة الراهنة منقطع الصلة بأعمالهم وتصرفاتهم.

وذهبت لأقيم في ألمانيا بعد مغادرتي أكسفورد، فلم يلبث الشعور بالبشرية كضال اجتماعي أن استيقظ في نفسي؛ وقد كان أكثر ما لقيت من الشبان الألمان أو كلهم فقراء يعيشون على اللقمة، ويحيون من اليد إلى الفم، على نزر يسير من المال، ورزق طفيف محدود؛ وكان الناس على اختلاف طبقاتهم شاعرين بوطة الهزيمة والتضخم النقدي وعقابيل الحرب ونتائجها، وكان كثير من الموسيقى والرسم والأدب الشائع في عهد جمهورية «فايمر» صورًا تعبر عن روح ثورية، أو عن رثاء للفقراء والمحايج، حتى ليخيل إلينا أن أعين الضحايا والصرعى في عالم بعد الحرب تحمق في ألواح الرسامين الألمان الذين يعتنقون المذهب «التعبيري» في الفن.

وكنت في ألمانيا غريبًا، وكان أول أثر في نفسي لهذا الشقاء العام في تلك البلاد عطفًا بالغًا على أولئك الضحايا الذين عصفت بهم الأزمة التي بدأت عام ١٩٣٠.

ولكن على فرط تأثري بمشهد المتعطلين الذين راحت أبصارهم محملقة من حواف الأفاريز، لم يكن شعوري يومئذ متجاوزًا حدود الشفقة، ولم أكن أملك لهم غير الأسف والرثاء، لأنني كأجنبي كنت أشعر أنني خارج ألمانيا، ولكن لم تكد الأزمة تسري إلى بريطانيا وسواها من البلاد حتى بدأت أدرك أن هذه الأزمة هي مرض من أمراض «الرأسمالية» راح ينتشر كالوباء في أرجاء العالم كله وبقاعه.

ومضيت رويدًا أقتنع بأن العلاج الأوحده لمشكلة المتعطلين - إذا أخرجنا الحرب من الحساب - هو قيام مجتمع دولي تستثمر فيه موارد العالم لمصلحة شعوبه جميعًا وأممه.

وجاء إلى برلين صديق دعاه «إشرود» Isherwood في كتابه عن حياته الخاصة «الليوث والضلال» Lions & Shadows - شالمرز، فدعاني كريستوفر في ذات يوم

إلى لقاءه، وكان شالمرز قد انضم من عهد قريب إلى الحزب الشيوعي، وذهب في رحلة سياحية إلى روسيا لم تتجاوز بضعة أيام، وقد عطف على برلين عند رجعته منها.

وكان يلوح قَزَمًا أسمر اللون في ربيع الشباب، أصاب ملاحظة ظاهرة، وبدا أبا وسامة تأخذ العين، وكان ينظر إلى الأشياء نظرة الرقيب الحارس المتحفز الذي لا تأخذه غفلة، ولا ينثني عن متابعة، حتى لتستقر منه العين عليك وهو يحدثك، أو يستمع إليك؛ ويبدو جامعا بين المرح والمجانة، وبين الرزانة والوقار، في آن واحد. فلما سألته ما خطب روسيا وأموالها؟ مضى يرسل بصره بعيدا، ويقول بلهجة امتزجت فيها السخرية بالغموض: «إنها أجمل بلد في العالم!».

ولو أن شالمرز عاش في جيل آخر غير جيله لكان أكبر الظن قسيسا في الريف يجد الإلهام الشعري حتى في مغالطات الأرثوذكسية ومفارقاتها، كما تكون الأزهار مختبئة بين العوسج في بعض الأزقة والدروب.

وذهبت ذات أصيل معه للرياضة في أرجاء برلين، ولم نسر غير بعيد حتى أخذنا نتحدث عن الشيوعية، وكان لشالمرز رأي صريح واضح فيها، فقد مضى يقول إن البطالة والحرب وأكثر مساويء العصر وآثامه، ومنها الغيرة الجنسية، ومشاكل الكتاب وأرباب الأقلام، راجعة إلى الرأسمالية، وإن العلاج الوحيد منها هو إلغاؤها وإقامة الشيوعية مكانها، وإنه من المتعين في المجتمع أن يتوافر التعاون مع العمال الذين أدركوا خطر طبقتهم، وبين المرء ونفسه يتحتم أن يأخذها بالحزم والإرادة.

وكان يقول إن هناك قوماً في المجتمع الحاضر لا يروقهم التعطل، ولا يحبون الحرب، بل قد يطيب لهم أن يتخلوا صادقين عن مصالحهم في سبيل إزالة هذه المساويء والآثام، ولكن جهودهم ذاهبة أدراج الرياح ما داموا مرتضين المجتمع البرجوازي وأصوله وقواعده لأن الرأسمالية معناها حتماً التنافس بين الطبقات والأمم؛ وليس الذي يعمل ضد اتجاه هذا النظام مع قبوله له في الوقت ذاته وارتضائه

إلا كمن يحدث جدولاً صغيراً من الماء لراحة ضميره أمام تيار نهر جارف، وليس أمامه إذن من سبيل غير أن يتخذ المرء «جانب التاريخ» فيعمل على تغيير اتجاه التيار ذاته جملة واحدة. وهو عمل باهظ، وكفاح بالغ، ومن يتولاه لا ينظر فيه إلى الوسائل الماضية التي استعان بها الناس من قبله، إلا من ناحية مدى أثرها، ومبلغ كفايتها، ولا يفكر في المصاير التي انتهوا إليها، فإن التاريخ لم يعبأ يوماً بأمر الذين لم يكونوا «في جانبه».

وكان التاريخ في تعبير صديقي «شالمرز» هو بالطبع «الثورة العمالية» ودكتاتورية الكادحين، وقيام الشيوعية لأنها ستقضي على مساوئ الحاضر وآثامه، وتنشئ عالماً حراً على السنين.

وكان «شالمرز» يحلم حقاً بقيام هذا العالم، فلا عجب إذاً هو كان صادقاً في منزعه، مخلصاً في طلب السعادة لبني البشر.

ولكنه لم يكن يلقي بالاً إلى المظالم وصنوف «القسوة» التي اقترفها «التاريخ» في طريقه، ولا يتأثر بها، ولا يريد أن يستمع إلى قصتها وحديثها، بل لا أظنني ظالماً له إذا قلت إن تلك المظالم كانت تروقه، وترضي سخريته ونزعتة الأدبية، وروح التهكم المكنية فيه.

وقد أقام خاطره ونيته واتجاهه على اتخاذ سبيل «ثورية»، ومضى ينظر إلى النتائج التي قد يؤدي هذا السبيل إليها، من مكان سحيق؛ وكان كل ذهنه متأثراً بالمستقبل، مصروفاً إليه، حتى لبيدوا الحاضر وما يحدث فيه، أمراً لا يستحق العناية منه، ولا هو مباليه، كما لو أنه مصير قوم قضت عليهم الزلازل منذ مئات السنين.

لقد كان يعيش بروحه وخاطره في المستقبل، وما الحاضر عنده إلا ماض رهيب يسبق الثورة، وكان كل ما يطلبه من نفسه ومن الذين رضوا لأنفسهم الانضمام إلى «جانب التاريخ» أن يتوفروا بكل قواهم، ويتفانوا بكل عقولهم وخواطرها، ويكرسوا كل تصرفاتهم وفعالهم، في سبيل إيجاد مجتمع مطهر من فروق الطبقات، فلم يكن

ليتردد في إخضاع الحاضر كله لعمل تمليه مقتضيات المستقبل ومطالبه.

وما لبثت أن شعرت بتشكك نفسي حياله لأنني صارحته بأنني أكره العنف وأؤثر حرية التعبير، على ما عداها، في هذا العالم، وقلت له إنني مع ذلك أريد انقلاباً ثورياً يكفل قيام مجتمع عادل دولي، دون تدمير حرية الفرد وتحطيمها.

فلم يكذب يسمع هذا القول مني حتى أخرج قصبة التبغ من فمه وقال بلطف: «يا غاندي!».

وكنت قد تحدثت إليه في أمر «عصبة الأمم» فمضى يقول إن المبادئ الخيالية التي من هذا القبيل، والنظريات المثالية التي تحتضنها هذه العصبة لن تفعل شيئاً في سبيل إلغاء الحروب، فإن هذه العصبة ليست سوى مجموعة من الدول الاستعمارية أرادت أن تستغلها كوسيلة لوقاية ذاتها إن لم يكن تريد منها أن تمتد في نطاقها، وتنمي مواردها، وتزيد في سيادتها وسلطانها؛ وكانت الأمم التي استخدمت العصبة هي بذاتها أدوات التسلح ونصيراته، وليست العصبة في الحق إلا تحالفاً على الروس، فكل حديث اليوم عن التسلح على ضوء النظام الحاضر هراء وكلام لا طائل تحته...

ودار بعض الحديث بيننا على القصة، فكان شالمرز كخلق كثير من الكتاب الشيوعيين يرى أنه بشيوعيته قد قطع الأرض من تحت قدميه، فلم يعد له غير الإيمان بالثورة، وأنه أحد «البرجوازيين» الذين عناهم البيان الشيوعي بقوله إنهم هم الذين «انتقلوا» إلى صفوف الكادحين، وأن هذا المركز لا بأس به من الوجهة السياسية، لأن أكثر زعماء الثورة جاءوا من عُرض البرجوازيين، ولكن الأمر يختلف من جهة «الفنون» فإن «حساسيته» البالغة التي استمكنت منه منذ طفولته هي نزعة «برجوازية» في جوهرها وصميمها، فلا أمل له في اكتساب عقلية عمالية من طريق الإرادة، والرياضة السياسية؛ ولو أنه فعل، لواجهته مشقة كبيرة، وهي أن الطبقة العاملة هي في الجملة وعقب الثورة أكثر «برجوازية» من البرجوازية ذاتها، خلافاً قليلاً من العمال «الشاعرين بتأثير طبقتهم»، وقد رأينا العمال غير حافلين بالقصص «البروليتارية»؛

ولا تنس أيضًا أن تأليف قصة ثورية تهاجم الرأسمالية مشكلة فنية، لأن المشتغلين بالسياسة والذين لا يفكرون إلا في السياسة، معنيون بالترويج والدعايات، أكثر من عنايتهم بالفن المبني على التجربة والملاحظة، وما يستوجبه حتمًا من إبراز العوامل المثبطة والعوامل المشجعة على السواء.

وكان شالمرز في أحاديثه معي يعترف بهذه المشاق صراحة، ويقول على سبيل الشرح النظري: «لست أعتقد أن قصة تحوي بطلاً من العمال ورأسماليًا شريرًا ليست من القصص الشيوعية الحسنة، وقد تفضلها قصة تحوي أشخاصًا رأسماليين من ذوي العطف والطوية الحسنة وآخرين من الشيوعيين الساخطين المتبرمين الناقمين، على أن يذهب السياق فيها إلى التدليل على أن هؤلاء هم الذين على حق، وأن أولئك هم المخطئون، ولست أنكر أن الحزب طبعًا لن يرحب بقصة من هذا الطراز».

وكان رأي شالمرز في قصة تصور هؤلاء الشيوعيين الناقمين، وهم يبررون التطور التاريخي حيال الرأسماليين الطيبين الضالين بسبيل «التاريخ»، أنها ليست سوى مثل يصور أدق التصوير موقف الشيوعي الفكري المستنير، فهو يضع كل إيمانه في «آلية» التاريخ لأنه حتى وإن تحقق على أيدي أشرار، وبوسائل سيئة، فسوف يجعل الناس في النهاية أخيرًا، كما رأينا النظام الرأسمالي يدفع اعتباطًا جميع المقاصد الطيبة في طريق الحرب والدمار، وإن كان معاشر الشيوعيين لا يروقه أن تبسط أمامهم حقيقة العقيدة الشيوعية على هذا النحو الصادق الصريح.

وكان هنري بوليت قد نبأني أن أبدع قصة ثورية في نظره هي قصة «جاك لندن» «الكعب الحديدي»!

وانقضت بضع سنين على هذا الحديث الذي جرى بيني وبين شالمرز، وعرض لي بعد ذلك في عام ١٩٢٧ أن أسأله عن رأيه في سلسلة المحاكمات الروسية الأخيرة التي شملت بوخارين ورادك وغيرهما، فتردد لحظة وأطلق بصره بعيدًا كأنما ينظر إلى شيء قصيٍّ ثم طرف بعينه ومضى يقول: «لقد كثرت هذه المحاكمات حتى تركت

التفكير فيها من زمن طويل».

وكذلك قرر في نفسه، وارتضى الوسائل الحالية، لأن كل أمله كان مركّزاً في شيء واحد، وهو الغد!

وكان شالمرز يجمع بين الإيمان بالتطور التاريخي الذي لا يخطئ ولا يضل، كما يقول ماركس، وبين إيمان غريب، بل إيمان «متصوف» بالعمال، فقد كان يعتقد أنهم يمثلون المستقبل وأنهم سوف يزدهرون في حضارة أفضل لو أتيحت الفرصة لهم.

ولست أشك في أنه لم يكن متطيراً بشيء، أو موجساً من ناحية، تتصل بوسائل الشيوعية وأساليبها، اللهم إلا قوله إن المجتمع «البروليتاري» المتطهر من الطبقات، في عالم عمالي جديد، سوف ينمو ويتعرّج في التربة ذاتها التي حرثت بوسائل الدكتاتورية الكادحة.

ولا يخفي أن في هذا الإيمان عنصراً من «الصوفية»، ولعل هذا هو سر فتنة الشيوعية وسحرها في خاطر المستنير، فإن الإيمان بالعمل السياسي والقوى الاقتصادية وأثرها في إطلاق سراح طاقات جديدة في هذا العالم، هو إيمان من شأنه أن يقوي نفس صاحبه، ويطلق سراح طاقته، ويثير قوى جديدة في نفسه، فلا يعود يشعر برثاء لضحايا الثورة أو شفقة على صرعاها، بل قد يعد الشفقة بمثابة عرض ظاهر من أعراض رغبة «رجعية» لديه في الفرار من لوازم الثورة ومطالبها؛ وفي وسع المرء أن يحتفظ بإيمانه بأهداف الإنسانية ومقاصدها العليا، وأن يتجاهل في الوقت ذاته وجود ألوف مؤلفة من الناس في معسكرات الاعتقال وغيابة المحابس، وألوف آخرين في أعمال «السخرة» يكدحون مستذلين. وإنه ليتساءل: ألّهؤلاء حقاً وجود؟ وسواء كان لهم وجود، أو لم يكن، فإن الزعم بوجوده ليس إلا دعاية «برجوازية»، فلا مناص إذن من أن ينكر أن في روسيا معسكرات اعتقال أو معسكرات للمسخرين، فقد أصبحوا «أصفاراً» في حجة المؤمنين بأن الحاضر للنضال، والمستقبل للشيوعية، وهو عالم سيصبح كل إنسان فيه على الدهر حرّاً؛ فإن اعترف امرؤ بينه وبين نفسه بوجود تلك المعسكرات

وأولئك الضحايا، فلا مندوحة له عن اعتبارهم تضحيات لا بد منها في سبيل نصرّة القضية ونجاحها، ولا معدى له عن القول بأنه من الضعف «الإنساني» أن يكثر الناس من الكلام عن الضحايا، وإنما كل ما يجب هو أن يضع المرء الهدف نصب عينيه، فلا يلبث بذلك أن يتخلص من الشعور بالاستنكار والقلق اللذين يلازمان عقلية الأحرار، وإن كان شعورًا لا جدوى منه ولا خير فيه، على كل حال.

ولا تنس أيضًا أنه إذا كانت للشيوعية ضحايا، فللرأسمالية ضحايا أكثر منها عددًا، وإلا فما بال الملايين من المتعطلين، في أيام السلم، والملايين الآخرين الذين يقتلون في الحروب، أليس هؤلاء جميعًا ضحايا التنافس الرأسمالي وفريساته؟ أو ليست الرأسمالية نظامًا يقوم على التضحية بالملايين حتى لينمو عدادهم كلما نما شأنها واستطال أمدّها؟

أما الشيوعية فنظام ستندعم فيه الضحايا ما دام الكل فيه شيوعيين في مجتمع غير مقسوم طبقات ولا موزع طرائق، وما ضحايا اليوم إلا ضحايا الثورة، لا ضحاياها هي بالذات، ويوم تنجح الثورة، وتذوي دكتاتورية «البروليتاريا»، تقل الضحايا بطبيعة الحال، لأن الشيوعية ليست بحاجة إلى استغلال الطبقات، وإنما كل ما تقتضيه هو تعاون الناس جميعًا على قيام عالم أفضل.

وقد مضيت خلال الأعوام التي توالى بعد عام ١٩٣٠ أحاج نفسي على هذا النحو وأناقش خاطري، وكان شعوري بالإثم يعزز حججي، وكانت استرايتي بأن ذلك الجزء مني الذي يرثي لضحايا الثورة وصرعها، إنما يناصر خفية الرأسمالية ويؤيد مساوئها وشروها التي أفدت أنا شخصيًا منها وانتفعت.

وكانت البذور التي غرسها شالمرز في خاطري بحملاته على عصبة الأمم، والنقد الضمني الذي وجهه لي حين وصفني بأنني من شيعة «غاندي» ومريديه.. قد تركتني في الأشهر التالية أعتقد أن جميع الأعمال العامة، وكثيرًا من التصرفات الخاصة والشخصية، نوعان: أحدهما من أجل الشيوعية، والآخر ضدها. وأن الدوافع

«الشخصية» لا صلة لها مطلقاً بالنزوع «الموضوعي» إلى إتيانها، فإن من يعمل مع الفقراء، ويجاهد لخيرهم، ويود صادقاً أن تتحسن دنياهم، وينصلح عالمهم، قد يكون من الناحية «الموضوعية» ضد العمال إذا جعل الذين يشتغل لخيرهم راضين بمجتمع رأسمالي قانع ببقائه واستمراره. والواقع أن القسيس الفقير، والمساعد في الخدمات الاجتماعية، هما من صنائع الأغنياء وأدوات الرأسماليين، سواء بسواء.

ولكنني آمنت اليوم بأنه من الجائز أن يتولى حكم بلد من البلاد زعماء يؤمنون إيماناً صادقاً بأنهم من الاشتراكيين، ولكنهم مع ذلك لا يريدون استخدام الوسائل القاسية العنيفة التي تتذرع الثورة بها، وأن هؤلاء الاشتراكيين قد يجدون أنفسهم يوماً في مركز تتعرض فيه الاشتراكية للخطر من جانب الرأسماليين الذين وطنوا نفوسهم على تدمير سمعة البلاد في الخارج، على أمل أن يتمكنوا بذلك من تدمير سمعة الحكومة الاشتراكية أيضاً، فلا يسعها عندئذ غير قضاء لبانة الرأسماليين، أو الالتجاء إلى الوسائل العنيفة لتحطيم الرأسمالية.

وقد أثبتت لنا الأحداث التي وقعت في عام ١٩٣٠ أن الديموقراطيين الاشتراكيين أمثال «برون» وسيفرنج في بروسيا، ورمزي مكدونالد في بريطانيا، رفضوا حين رأوا أنفسهم أمام أحد هذين الأمرين، أن يتخذوا الثورة فعمدوا إما إلى اتخاذ الأمر الآخر، أو لجأوا إلى الاستقالة والتخلي عن الحكم.

وقد مضيت أعرض حالتي الخاصة على التحليل ذاته الذي طبقته على أولئك الاشتراكيين الرسميين، فجعلت أسائل نفسي ما الذي أريده حقاً وأبغيه..؟ هل تراني في هذا المجتمع ألهو على سبيل الترف الملازم لمركزي بالتظاهر الخداع المغالط لحقيقة نفسي بأنني أحب لغيري ما أحبه لنفسي، وأبتغي لهم التوفيق ذاته الذي أصبته، والحظ عينه الذي أنعم به؟ وهل تراني على استعداد لقبول اشتراكي، إذا أنا صحت من نومي فجأة في يوم من الأيام فوجدت أن ذلك قد تحقق بغير ألم، ونفذ بغير عنف، أو أنا على استعداد لتأييد الوسائل التي قد تحقق هذا الهدف، أو أرتضي قيام فترة

«انتقال» قد تكون مرهقة كل الإرهاق بل شرًا من الرأسمالية وأسوأ منقلبًا. وقد يطول عليها الأمد ثم تنتهي إلى الهدف الذي يريده الاشتراكيون ويشتهونه؟ وإذا أنا لم أرتض الوسائل التي ستجلب الاشتراكية، أفلا تكون أفكارى وآرائى مجرد مخادعة لنفسى ورتاء لها، وحلمًا مبررًا لتفكيرها، وأمنية مغالطة لنزوعها، ما دامت الاشتراكية اليوم شيئًا آخر غير «الاتحاد العالمي للدول الاشتراكية»، وما دامت مجرد الوسيلة التي قد تحقق الهدف، مهما تكن من السوء والجفوة والعنف؟

ولما سألت نفسى كل تلك الأسئلة، وجدتنى مضطرًا إلى الاعتراف بأن ما أريده حقًا وأبتغيه هو أن يعيش غيرى العيش الذي أعيشه؛ ولكنى لا أرتضى الانضمام إلى العمال، لأنه مطلب لا يروقنى، وعمل لا أحسنه، وأمنية أنا عن تحقيقها العاجز؛ فلا أجرؤ على التفكير فى إضاعة «الاستقلال» الشخصى الذى أدين له لمركزي فى المجتمع «البرجوازي»؛ ولكنى برياضة خيالى استطعت بعد لأي أن أبلغ حالة عقلية يتيسر لى فيها أن أقول لنفسى إننى مرتض تأييد الثورة، حتى وإن اقتضت ضياع هذا الاستقلال، فإن ذلك لا يختلف عن خسارتي الشيء الكثير إذا أنا دعيت إلى صفوف القوات فى حرب من الحروب؛ ولكنى مع بلوغى هذه الحالة الذهنية لم ألبث أن واجهتنى احتمالات مزعجة لا صلة لها بمصلحتى الشخصية.

فقد عجزت عن التسليم أنه لا معدى عن حرمان الغير من حرية التعبير عما يعتقدون أنه الحق إذا كان هذا الحق مخالفًا للحدود العرفية التى حددتها الدكتاتورية العمالية للحرية ومداهها، ولم أستطع أن أعتقد أنه من «الرجعية» السياسية الإيمان بالله، أو التمسك بآراء وأفكار فى الطبيعة والإنسانية، ليست فى عرف «ماركس» «علمية»، لأن ماركس يبنى تحديده للوسائل «العلمية» على إنكار وجودها فى البحث الحر.

إن الشيوعية فى نظر المستنير السليم النية هى صراع الضمير، وفى فهمها على هذا النحو بيان لعدة أمور، وشرح لجملة مسائل، ومنها أن الشيوعيين الذين يأتون أعمالًا قد تبديهم لغيرهم سَفلة مستهترين، قد يكونون فى الواقع مخلصين الإخلاص كله؛

مثلهم كمثل السفن المملقية مراسيها ثوابت مزدوجة في كلا مقدمها ومؤخرها، وسط تيارات متقاذفة تجعل السفن الأخرى تتمايل ذات اليمن وذات الشمال مترنحة، وما هذه المراسي المزدوجة إلا الحلم الذي يداعب خواطرهم، حلم المجتمع المتخلص من الفوارق والطبقات، والأمل في الغد المرتقب. وأما التيارات المتعارضة التي تزعج ضمائر الأحرار فهي هذه الهواجس التي تنتاب الأذهان من جهة الوسائل التي لا غناء عنها لتحقيق أهداف الشيوعية ومراميها، ومعرفة آلام الألوفا من الناس الذين ليسوا شيوعيين.

وبين لنا هذا الضمير الشيوعي المكين المطمئن من هاتين الناحيتين سر الندم والأسف اللذين يبيدهما أحياناً غير الشيوعيين نحو الشيوعيين الأفحاح الذين استقرت ضمائرهم بالساحل وألقت مراسيها المزدوجة، ورسخت رسوخاً، فإن للضمير المستقل سلطاناً غالباً، وأثراً فعالاً بالغاً، وهذا هو الذي يضمني على الشيوعي رهبة، ويوحي إلزاماً، ويجعل إيمانه بالشيوعية سخرية وتعبيراً لكل من يدين بمذهب الأحرار، ويترنح ضميره ويتمايل من مبدأ إلى مبدأ، وهاجس إلى هاجس، فتراه حيناً مؤيداً حرية كاتب قد يكون مجرداً من الضمير، أو من شيعة «السيريا ليزم»، وحيناً آخر مناصراً قسيساً كاثوليكياً، وحيناً ثالثاً أستاذاً في السجن.

وليت شعري أي قوة تلك التي يملكها الضمير الذي لا يعيرنا بالشروع والعيوب فحسب، بل يعيرنا ببعض الفضائل أيضاً، كراثنا للمظلومين بغياً وعدواناً، أو حبنا لصديق ليس حزبياً متطرفاً؛ أي قوة لضمير كهذا يقول لنا إننا مستطيعون إذا نحن اتخذنا موقفاً سياسياً معيناً اليوم، أن نبلغ مركزاً ضخماً مكيناً كالصخر يغطي على كل ماضي، بغير غضاضة علينا ولا مقارفة إثم، ولا عسير محاولة، بل بمجرد تحويل شخصيتنا كلها إلى مادة أولية تستغلها الأداة الحزبية لمصلحتها.

ليس ثمة شيء أسهل ولا أيسر من التوكيد بأن الهواجس والشكوك التي تخالج نفس الرجل المؤمن بمذهب الأحرار - مهما تكن هذه الهواجس حسنة النية، والمراد

منها طيبًا- إنما تتجاهل الخير العام، والصالح الاجتماعي، بل ما أبسط وأهون من القول بأن هذه الهواجس ليست في الواقع غير «نقط أمامية» على خط الدفاع عن «البرجوازية»، وأن الرجل حسن النية قد يدافع عن القوى التي جلبت أكبر النكبات على العالم، ورمته بأفدح الخطوب؟

وقد أسلفت عليك الحديث عن تلك «الصوفية» العجيبة، أو الإيمان الغريب الذي يؤمن العمال به، وهو أنهم كطبقة سيخلفون البرجوازية. وهي «الصوفية» التي لا أشك في أنها قد أحدثت أثرها في نفس «شالمرز» ولكن فكرة «العمال» ذاتها لا يزال لها أثرها في الصراع المحتدم في أعماق ضمير الشيوعي المستنير. فقد يروح رغم إيمانه بالحرية الفكرية يسائل نفسه: «لماذا ينبغي للعمال أن يتدخلوا في حريتي؟» فإن ما يطالب به ملايين العمال في المناجم والألوف المؤلفة من الصناعات والفلاحين هو شيء آخر غير الحرية في ترقية شخصياتهم، وتنمية قيمتهم؛ إنهم يطالبون باستتباب السلام، ووفرة الخبز، وتحسين مستوى العيش؛ فإذا كانت التضحية بحرية بضعة ألوف من المستنيرين هي الثمن الذي ينبغي أن يدفع في سبيل خير الملايين، فقد تتعين التضحية بها، إذ لعمرى ما قيمة شخصية كاتب متحمس يجلس في مقهى كافيه دي فلور، ويقضي الوقت في التحدث عن «الوجودية»، في نظر الفلاح الهندي، أو الحمال في الصين؟

إن المستنيرين ليسوا عمالاً، كما مضى هنري بوليت يحدثني، فلا معنى للبحث في أمرهم، ما دام موقفهم لا يتجاوز حدود «النظريات»، بل لقد تأثروا بالفاشية أشد التأثر؛ وكان انتصار هتلر عام ١٩٣٣ هزيمة للحرية الفكرية في ألمانيا، وخطرًا يهدد الحرية في كل مكان، وجعلت اليهود والمستنيرين على حد سواء، قوى سياسية، لمجرد أنهم مستنرون ويهود لا أكثر ولا أقل؛ وكان وجه الخطر من انتصار هتلر على الحرية العامة أنها تمس حرية الأقليات العنصرية، وحرية العلماء في استنتاج نتائج دون النظر إلى اعتبارات السياسة وظروفها ومواقفها، وحرية الشاعر والرسام

في التعبير عن أدق مشاهداته، وألصق الأحاسيس بدخيلة نفسه. وقد شاهدت في ذلك العهد أفلاماً روسية كفيلم «الأرض» وفيلم «بونومكين» والأم، والأيام، التي هزت العالم، والطريق إلى الحياة؛ وهي جميعاً من أوفر المنتجات الفنية في العالم براعة وإثارة للحماسة، وقرأت كتباً وبحوثاً لموريس هنداس ولويس فيشر وغيرهما، وهي جميعاً تنوه بالتقدم الاجتماعي الكبير في الاتحاد السوفيتي، وتبين لي أيضاً أن النقد الذي قرأته يومئذ عن روسيا وصدقته لأول وهلة لم يكن سوى دعاية ضدها، وجاء نشر الدستور السوفيتي فبعث في النفس الأمل في قيام عهد جديد في روسيا يتوافر فيه نصيب كبير من الحرية.

وأما اليوم وأنا أكتب هذه السطور، فيبدو لي أن ذلك كله كان في الواقع سخرية أو حلماً كاذباً لأن الاستالينيين اليوم إنما يمثلون الخطر ذاته الذي كان أشياح هتلر في عام ١٩٣٣ يهددون به الحرية الفكرية، وإن لم يكن ذلك جلياً ظاهراً في ذلك الحين؛ وكان الغالب على الظن إلى قبيل مقتل «كيروف» أن روسيا توشك أن تظفر بقسط كبير من الحرية بدليل ما كان ملموساً يومئذ في المسرح من التطورات السريعة، وما بدأ يدخل من التحسين على السينما والموسيقى؛ ولست أنكر أن الذين كانوا عندئذ يزورون روسيا بواسطة الهيئات السياحية ظلوا تحت رقابة شديدة وحراسة مطبقة، وعيون تترصد لهم؛ ولكن روسيا لم تكن مع ذلك معزولة عن بقية العالم، لأن الدعاية المتهوسة التي كان المناهضون للثورة يوجهونها أفادتها كثيراً على كل حال، بإثارتهما جواً كثيفاً من الضباب جعل من المتعذر على الرقيب المجرد من الهوى أن يقبل ما يقال ضدها ويروى عنها. وعلى ذكر الدعاية أقول هنا إن الدعاية ضد الشيوعية دلت على أنها أجدى ما تكون على ستالين وأكبر نفعا من أي دعاية استعين بها منذ قيام الثورة البلشفية.

فلا عجب إذا رأينا اليهود والمستنيرين أو معاشر «الكُتبة» الذين أبت عليهم أذهانهم «المستنيرة» أن يرتبطوا بأي علائق طائفية، أو صلات حزبية، مضطرين إلى البحث

عن حلفاء لهم وأنصار، وحين خاب أملهم في الديمقراطيات تحولوا بوجوههم شطر الحركة العمالية، وراحوا يوازنون بين مساوئ التعطل بالجملة وعيوب «الفاشية» وويلات الحروب، وبين سيئات الشيوعية وآثامها، فلم يلبث الأمل أن مضى يداعب أحلامهم في أن تكون الشيوعية علاجًا يعين على إزالة هذه السيئات، ووضع حد لهذا المنكر العظيم، حتى لقد شهدنا كاتبًا حرًا كالمستر «فورستر» يكتب قائلاً إن الشيوعية هي العقيدة السياسية الوحيدة التي يقوم عليها الأمل في الغد المرقوب، وإن استطرد يقول إنه لا يرضى لنفسه أن يكون شيوعيًا، وهكذا تحولت الحياة الفكرية في عام ١٩٣٠ إلى جدل مستطيل حول «الوسائل والغايات».

ولكن الذين أسهبوا في ذلك الجدل المحتدم المصدع للرؤوس، راحوا على الأيام ينظرون إلى الأمر نظرة مختلفة، فقد أزعجتهم الأزمة الاقتصادية في ذلك الحين، وجاء انتصار هتلر فبدد دعواهم أنهم يعيشون في عالم أخذ التعصب يقل فيه، ورأوا اضطهاد اليهود فثارت الشفقة في نفوسهم، واحتدم الغضب، واشتد السخط.

وليس من شك في أن الحرب الأهلية في إسبانيا كانت الطامة الكبرى في عام ١٩٣٠ وذروة البلاء والسوء، وكانت النتائج التي قد تسفر تلك الحرب عنها تلوح في إسبانيا ذاتها، وأعين الشعب الإسباني نفسه، أكثر تعقيدًا وتشعبًا مما كانت تبدو في تقدير الذين يعيشون خارجها، وقد يكون ثمة بعض الحقيقة في قول «آرثر بريانت» Arthur Bryant إن الإسبان في كلا الجانبين المتحاربين كانوا أشد كراهية للذين هرعوا إلى معونتهم منهم لخصومهم الإسبان، وأعدائهم المواطنين؛ ولكن إسبانيا كانت تبدو أمام العالم كله يومئذ المسرح الذي تمثل عليه مأساة الصراع بين الفاشية وخصومها.

وجعل تدخل موسوليني وهتلر، ثم روسيا، والفرقة الدولية، في الحرب الإسبانية في ذلك العهد مدار الصراع العام في أوروبا لاستنقاذ روحها، فقد ثار القواد الإسبان فيها على حكومة انتخابها الشعب، فما إن عجز الثائرون عن تعزيز ثورتهم، وأقبلت

قوات من الخارج لتساهم في النضال، حتى أصبحت المقاومة الجمهورية ذاتها قضية الديمقراطية، ومقاومة الثوار، قضية «الفاشية».

وكان هذا الوجه من التفكير هو الذي تحارب من أجله إيطاليا وألمانيا وروسيا والفرقة الدولية على التربة الإسبانية، وإن اشترك الإسبان في الصراع لنصرة كلا الجانبين.

وقد تحول الصراع بين الفاشية الأوروبية والحركة المناهضة لها إلى «مأساة» تمثل على المسرح الإسباني كأنها بعض الروايات التمثيلية الدامية؛ وما لبثت النزعة العاطفية الغربية التي ركبت في نفوس الإسبان والجنوح الذي طبعوا عليه نحو الأمثلة العليا، وحدة المزاج التي عرفوا بها، ومشاهد الطبيعة ذاتها في بلادهم، أن خلعت على الحرب لوناً بارزاً، وزادتها شدة واستعاراً، وأضفت عليها لوناً من الشعر لم يكن لها من قبل، وما كان لها من بعد.

لقد كانت تلك الحرب قبل كل شيء حرباً لا يزال الحساب فيها والاعتبار للفرد وعاطفته ونزعاته واستقلاله عن الوسائل الميكانيكية، بل في الحق لقد كانت من ناحية ما حرب فرد فوضوي أو حرب شاعر، وقد رأينا خمسة على الأقل من خيرة كتابنا الشباب يهبون لها أرواحهم كما وهبها لها الشعراء من مختلف البلاد، وهذا هو ما اجتذب إليها المستنيرين وفتنهم بها فتوناً.

ولم يلبث الصراع القائم بين الفاشية والديموقراطية بعد سقوط الجمهورية، أن أمسى صراعاً كان الحساب فيه والاعتبار للجيش والآلات والبيروقراطيات أكبر من حساب الأفراد.

وكنت قد شخصت إلى جبل طارق في المراحل الأولى من تلك الحرب، وزرت أوران وطنجة، ولشد ما كانت دهشتي لمشهد الحمية التي كانت تسود الناس في المجمام لنصرة الجمهورية الإسبانية ومظاهرتها؛ وما أحسبني رأيت في حياتي اجتماعاً كالذي حضرته في طنجة، فقد رأيت عدة مئات من أشد خلق الله فاقة،

وبينهم المقعدون والكسيحون والعمي، يستمعون في حماسة بادية على سحنهم إلى الخطباء الذين كانوا يدافعون عن قضية الجمهورية.

لقد بدا لي في هذا المشهد بريق من الولاء والأمل المشع، جعلني أتمثل في خاطري الجموع الحاشدة التي وصفها «الإنجيل».

وكنت أينما أذهب في غمار تلك الحشود الشيوعية أستشعر روعة بالغة من مشهد ثقتهم وطمأنيتهم وحسن سلوكهم، وفي «أوران» وسط الضجيج والعجيج والعربدة الشائعة في الميناء، كان الشيوعيون الذين ألفوا الاختلاف إلى مقهى صغير يلوحون كأنهم في عالم مختلف عن عالم المدينة كل الاختلاف.

وعلى النقيض من الأثر الحسن الذي قام في نفسي من مشهد معاشر الشيوعيين، كان إحساسي من ناحية الموظفين ورجال الأعمال الذين يمثلون مصالح الدول الديموقراطية، فقد تبين لي أن أكثر الذين لقيتهم من هؤلاء كانوا يؤيدون فرانكو، وفي وسعي أن أضرب عدة أمثلة، ولعل أشملها ما شاهدته في طنجة التي تتولى الإدارة فيها لجنة «دولية» تتألف من وزراء ينتمون إلى عدة دول كبريطانيا وإيطاليا وإسبانيا وبلجيكا وفرنسا؛ وكان «بريتودل ريو» الوزير الإسباني الذي يمثل الجمهورية مندوباً من الآخرين، أو منقطعاً عنهم.

ولما ركبت سيارة «تاكسي» وطلبت إلى السائق أن يذهب بي إلى دار المفوضية الإسبانية، راح يتبع إجراء معيناً، ويأخذني إلى دار البريد، وهي يومئذ مقر رئاسة الجنرال فرانكو، ورأيت المدعوين إلى حفلة «كوكتيل» في المفوضية البريطانية يتحدثون عن الوزير الإسباني قائلين إنه قلما يحدث أن يتخذ رجل طيب مثله الجانب المخطئ، وهم يعنون به جانب «الجمهورية» في بلاده، ذلك الجانب الذي يمثل الحكومة الشرعية التي اعترفت الحكومات الأخرى بها.

ولما زرت بريتودل ريو في النهاية وجدته جالساً مع رجلين من أعوانه وموظفيه معزولاً عن الحياة «الرسمية» في طنجة، التي كان عضواً في حكومتها.

وفي جبل طارق وصف لي موظف بريطاني متقاعد الموقف وصفاً صريحاً جلياً، تخالطه سخرية مرة لم يكن يقصدها، فقد ذهب يقول لي إن الشيء الذي لا يفتن إليه الناس في بلادنا هو أن الجمهوريين الإسبان ليسوا كديموقراطيينا؛ ولو أنك ذهبت إلى الشارع هنا وسألت أول عشرة من العمال الإسبان تلقاهم، أي الجانبين في بلادهم يناصرون، لقالوا لك جميعاً، إنهم يناصرون الجمهوريين. إن هذه ليست فكرة الديموقراطية عند البريطانيين مطلقاً، وهو ما يريده تسعون في المائة من الشعب.

وبدا لي أن الموظفين البريطانيين في جبل طارق لا صلة لهم بالإسبان الذين يريدون الجمهورية، وأنهم لا يعرفون غير الذين يشتركون في الصيد، وأنهم سمعوا منهم روايات شتى عن الفظائع التي يقتربها الجمهوريون، وينكرون علمهم بشيء عن وحشية الآخرين.

وبعد أن زرت برشلونة ومدير وبلنسية مرة أخرى بعد زورتي الأولى، اشتركت عند عودتي إلى الوطن في مظاهرة مناصرة للجمهورية الإسبانية، وألقيت خطاباً وانضمت إلى عدة لجان، وحملت في ذات مرة مع بعض الكتاب الآخرين لافتات خشبية كتبت عليها هتافات مؤيدة للجمهورية، ومضينا نخترق بها شارع أوكسفورد وريجننت.

وكانت تلك الأيام هي الفترة التي قامت فيها الجبهة الشعبية، وكانت العوامل العاطفية التي أوقدت هذه الحركة وأكسبتها الحياة، بعثاً غامراً لفكرة الأحرار ومشاعرهم وإن لم يكن في بريطانيا يومئذ أحد من الأحزاب يمكن أن يقبل على تلك الحركة ويناصرها إلا معاشر الشيوعيين؛ فقد كان حزب العمال لا يزال متأثراً لم ينقعه بعد من غدر رمزي ماكدونالد وخيانتته، فلا عجب إذا استغل الشيوعيون هذه الحركة التي أعادت الحياة إلى مبادئ الأحرار، وإن ظهرت في صورة المناهضة للفاشية.

وكان بين المستنيرين والكتاب من أمثال فيكتور جولانكز وجون ستراشي وجورج

أورويل^(١) وأرثر كوستلر وفورستر، فريق لا يترددون في مجازاة الشيوعيين والذهاب مذهبهم في مقت الفاشية ومقاومتها، والدفاع عن الحرية والعدالة الاجتماعية، كما رأينا خلقًا كثيرًا ممن لم يكونوا شيوعيين يبذلون قواهم في سبيل تأييد الجمهورية الإسبانية مؤمنين بأنها «قضية الديمقراطية».

ولو أن الشيوعيين أقبلوا على الجبهة «الشعبية» بذلك الإيمان القوي الذي أقبل به الاشتراكيون والأحرار عليها لامتدت حركة ديمقراطية من أقصى اليسار إلى وسط الأحرار، ولظفرت بتلك الحماية والسماحة وسعة الخيال التي كانت ثورات الأحرار في سنة ١٨١٨ مقترنة بها؛ ولكن القدر الموكل بالشيوعيين قضى ألا يفكروا في شيء غير تأليف جبهات متحدة ليتولوا الرقابة عليها من الداخل، وهكذا راحت قوى الأحزاب تتأثر بالحزب الأوحده الذي كان يلح في إعلان رغبته في الوحدة ويرفع الصوت عاليًا في مناشدتها.

وكانت أزمة ١٩٣٠ الاقتصادية، ونكبة جمهورية «فيمر»، وسقوط «فيينا» الاشتراكية - وهي الأحداث التي شاهدها من الخارج - قد اضطرتني يومئذ إلى قبول مكان لي في الشيوعية وإن لم يتعد الناحية النظرية الصرف، فمضيت في أشعاري وفي كتابي «خطوة أخرى بعد مذهب الأحرار» أقرر أن الشيوعية ضرورة عقلية عاطفية، ولم يلبث إلحاح بوليت عليّ في وجوب المعاونة والعمل في إسبانيا أن دفعني إلى الحزب الشيوعي دفعًا.

ولكن إسبانيا مع ذلك هي التي ورطتني في أولى تجاربي العملية واشتغالي بالسياسة مع سواي، كما تجاوزت بي هذه الخطوة التي جعلتني عضوًا في الحزب إلى ما وراءها، بل إلى خارج الحزب ذاته، فلم ألبث أن بدأت أدرك أنه إذا كانت

(١) مؤلف «مزرعة الحيوان»، وهو كتاب أجراه على ألسنة البهائم، ككتاب كليلة ودمنة، ووصف فيه روسيا الشيوعية أبدع وصف، وقد نقلته بقلمني إلى العربية أخيرًا. (المترجم).
وقد أصدرت دار آفاق طبعة حديثة لهذا الكتاب. (المحرر).

الشيوعية هي القوة المنظمة الموجهة التي تكمن خلف مناصرة الجمهورية الإسبانية، فإن قوة الجبهة الشعبية ونشاطها الحقيقي، إنما يتغذيان بتأييد الذين يحترمون فيهم مذهب «الحرية» وأقيسته؛ بل لقد فطن الشيوعيون أنفسهم إلى أن ما جعل إسبانيا جهادًا وشعارًا، أو عملاً ورمزًا، في القرن العشرين، هو بذاته الذي جعل لعام ١٨٤٨ وانهياره خطره البالغ وعظيم شأنه في القرن التاسع عشر، ونعني به أن الجمهورية لم تكن شيوعية، حتى لقد رأينا معاصر الشيوعيين يعلنون ذلك من البداية، ويجاهرون به رغم محاولتهم استغلال الموقف والإفادة منه، وينكرون في غضب قول القائلين إنها شيوعية، ويقولون إنهم إنما فعلوا ذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن ذلك من قبيل الدعاية الحسنة، بينما مضوا في تصرفاتهم وتدابيرهم يحاولون جاهدين تكذيب تلك الدعاية ومناقضتها، والاستيلاء على السلطة في إسبانيا والإشراف على الهيئات التي كانت تجلب المعونة إليها من الخارج.

وما لبث الأحرار وهم الأخيار حسنو النية أن وجدوا أنفسهم بدافع من حلفائهم الشيوعيين، رغم مناصرتهم للجبهة الشعبية، مواجهين صراعًا نفسيًا، أو صراعًا في أعماق الضمائر، أحدث صدعًا بالغًا في صفوف المناصرين للجمهورية؛ فإن الحرب الإسبانية كانت يومئذ في أعين الشيوعيين مرحلة من مراحل نضالهم في سبيل الوصول إلى القوة والسلطان، وليس ثمة عجب أن يصبحوا عندئذ القوة المحركة في الجبهة الشعبية وإسبانيا خاصة، لسيطرة فكرة واحدة على عقولهم، ولشدة تعصبهم لرأيهم، ووحدة اتجاههم؛ بل كانوا أيضًا القوة التي تكبح القوى الأخرى وتمسك بها، وهي القوى التي كانت في النهاية أكثر حيوية منهم، لأنها أكثر تشعبًا، وأشد اهتمامًا بالحرية، والاستقلال في الرأي، ومختلف ضروب التعبير ووسائله.

ويكاد كل ما كتب عن الحرب الإسبانية يصور «البعث» الذي طرأ على مذهب الأحرار، ولم يصب الشيوعيون منها شيئًا، لأن «أورثوذكسيته» كادت تقتل البحث في الأفكار السارية، والآراء الشائعة، وتعمي العين عن مشاهد تشعب الأحداث

وتعقدها؛ وكانت أفضل الكتب التي وضعت عن الحرب -وهي كتب مالرو Malraux وهمنجواي Hemingway وكوستلر وأورويل- مفعمة بوصف المأساة الإسبانية من وجهة نظر الرجل الذي يدين بمذهب الأحرار، وهي شهادة على الشيوعيين وما اقترفوه من أغلاط وآثام.

وقد رأيت خلال زيارتي الثانية لإسبانيا كيف استطاع الشيوعيون الرقابة التامة على «الفرقة» الدولية وكان أفرادها قد جندوا على «حس» الجبهة الشعبية المنتمية إلى الجمهورية، فإذا بالشيوعيين يركزون في أيديهم جميع العناصر الديمقراطية المختلفة التي كانت الفرقة تتألف منها، وكان هذا التركيز إلى حد ما مثلاً من الأمثلة على ما كان الشيوعيون يفعلونه في إسبانيا، والوسائل التي كانوا يتوسلون بها؛ وكان هدف هذه الخطة في داخل الجيش الجمهوري دعوة الأحزاب إلى تأليف جيش تندمج فيه سائر الهيئات السياسية وتشكيلاتها ولجانها وشعبها، لكي يتزعموها في النهاية ويظفروا بالرقابة على الجيش بجملته.

وقد وقعت أحداث أليمة في الفرقة الدولية من أثر سيطرة الشيوعيين عليها، ولا أزال أذكر حادثة منها، فقد التقيت عند زيارتي للجبهة في مدريد بفتى إنجليزي لا يتجاوز الثامنة عشرة وكان يدعى ل... وقد حدثني قائلاً إنه جاء إلى إسبانيا وهو معتقد أن الفرقة الدولية لا تقل إيماناً بمذهب الأحرار عن الجمهورية ذاتها، ولكنه ما لبث أن فقد إيمانه بها حين تبين له أن الفرقة واقعة في قبضة الشيوعيين، ولم يكن يحبهم أو يجد في نفسه جنوحاً إليهم؛ وبدا لي حين ناقشته أنه لم يكن قد فكر يوماً في الشيوعية قبل مقدمه إلى إسبانيا، فسألته هل يأذن لي أن أحاول إعادته إلى بلاده فلم يشأ أن يدعني أفعل شيئاً من ذلك، وراح يشير بيده إلى طرة التل المشرف على الوادي حيث كنا نقف وهو يقول: «إنني سأظل إلى آخر حياتي أمشي في كل صباح هنا ذهاباً ورجوعاً حتى أقتل يوماً وأذهب من هذه الدنيا...».

وقد ذهب قتيلاً بعد ذلك بستة أسابيع!

ولما عدت إلى إنجلترا كتبت مقالاً نشرته جريدة «نيو ستيتسمان» أحتج فيه على الدعاية التي حملت الشبان والفتيان الصغار على التطوع في صفوف الفرقة الدولية دون أن يشرح لهم أحد أنها هيئة عسكرية يتولى الشيوعيون الهيمنة عليها.

وقد أغضب ذلك المقال معاشر الشيوعيين؛ فقد لقيت بعد بضعة أسابيع من تاريخ نشره وأنا في «بلنسية» مراسلاً لإحدى الصحف الشيوعية، فقال إنه رأى المقال وإن ما كتبه عن إسبانيا صحيح، ولكنه مضى يقول إن المهم هو أن يكتب المرء ما يعتقد أنه خير سبيل إلى تحقيق الأهداف التي يراد بها كسب الحرب، وظفر الشيوعية؛ وكان يناقشني برفق ومودة بالغة، مظهرًا ذلك النوع من الاستخفاف بآلام الضحايا الذين يذهبون فداء لقضية صادقة ومبدأ قويم.

وكان سلوك الشيوعيين في الفرقة الدولية يشابه سلوكهم ذاته داخل الجمهورية، ولا يختلف أيضًا عن سلوكهم في أمر الدعاية، فقد ذهب دعائهم ينسبون أحداث القتل والمجازر إلى الفاشيين ويصورون الجمهوريين في صور الملائكة، ويصفون الذين يقولون إنهم كانوا يقتلون الناس، ويرتكبون الفظائع بأنهم «فاشيون» أيضًا.

وهذه الصورة هي التي نفاها مالرو في قصته، وكذبها «همنجواي» في روايته، وهما القصتان الوحيدتان البارزتان عن الحرب الإسبانية.

وهناك مثل آخر على سذاجة الدعاية وفسادها، وهو استغلالها لمقتل «لوركا».

ولم يكن الرجل شيعيًا، ولكنه كان «كاثوليكيًا» فر إلى «فرانكو» في بداية الحرب، فقتله الفاشيون وعمد الشيوعيون إلى استغلال مصرعه على هذه الصورة لأنهم يكرهون «الهراطقة» الأحياء، ولكنهم قد يستغلون الموتى منهم، ما دام مصرعهم لم يكن على أيديهم؛ وقد ينتفعون بالحادهم القديم للتدليل على أن معاشر الشيوعيين قوم سماح، وأن خصومهم قوم قباح ضيقوا الأعطان.

فلا عجب إذا كان وصف «لوركا» بأنه كاثوليكي محافظ، بل رجعي، لم يغضبهم مطلقاً ولم يسوءهم، ما دام فرانكو هو المسؤول عن مقتله، بل كانوا بلا شك سيغضبون لو قيل عنه إن «أحمر»؛ فقد كان الشيء الوحيد الذي لا يغتفر عندهم ولا يقبل سماحة، هو أن يقال إن هناك غموضاً حول ظروف موته.

وقد لاحظت وأنا في إسبانيا أن أكثر الشعراء الإسبان كانوا مستحيين من هذه الدعايات التي روجت حول الوفاة.

وكان شراً منها وأسوأ تلك الحملات والدسائس وقالة السوء التي كانت توجه إلى الهيئات المتمتية إلى الجمهورية الكارهة للشيوعيين. فقد كان القضاء على جماعة التروتسكيين وجماعة «البوم Poum» والتشهير بجميع أفرادها وتصويرهم كفاشين وسمّة عار في جبين الجمهورية عند سائر الذين لم يكونوا شيوعيين.

وقد حدثني بعد الحرب قائد إسباني فقال إنه يعتقد أن الدعايات الشيوعية أضرت بقضية الجمهورية أكثر مما نفعتها، فإن قضيتنا كانت من الحق والسداد بحيث لا يعجزنا شيء عن قول الحقيقة بسبيلها.

وهذا قول حكيم، ورأي صائب، فإن الدعاية التي تصور أصدقاءها بيضاً ناصعي البياض، وأعداءها سوداً فاحمي السواد، لا تقنع أحداً سوى الذين صدقوا بها من قبل وسكنوا إليها، ولا تجد مصدقين جدداً، ولا تصيب مؤمنين، لأنها من الوجهة الإنسانية غير قابلة للتصديق، إذ هي ترسم الأحداث البشرية كأنها أمور «مجردة» لا يعتقدونها غير العمي الذين لا بصيرة لهم، وتُنفّر نفوس الذين يعطفون على القضية ولكن أعينهم مفتحة.

وكثيراً ما أدت الدعايات الشيوعية ضد الجمهورية الإسبانية إلى تنفير الذين كانوا مخدوعين بها، وإحداث رد فعل قوي في نفوسهم، فقد لقيت في بلنسية رجلاً يصور المخدوعين الذين زالت الغشاوة عن أعينهم أدق تصوير، فقد كان صحفياً أمريكياً يرأس صحيفة بريطانية كبيرة، ويعد بلا شك من أكبر العاطفين على الجمهوريين،

حتى لقد جعل يجلس في ردهة فندق فيكتوريا ليقرأ صحيفته، ويبدى الغضب والاستياء مما يقرأه كل يوم فيها من فيض الأنباء التي يبعث بها زميله المراسل الآخر الذي يقيم مع فرانكو، وقلة الأنباء التي يرسلها هو إليها، لما يتناولها المحرر به من البتر والاختصار والاقتضاب، حتى لا يبقى منها إلا على النزر اليسير.

وأقبل الرجل في ذات يوم بتلك البراءة التي يمتاز أحياناً بها أذكىاء الأمريكيين يسألني هل ارتكبت حقيقة حوادث القتل الكثيرة التي وردت الأنباء عنها في بلنسية وبرشلونة وقيل إن الجمهوريين هم مرتكبوها؟ فقلت إنه لا يبعد أن تقترن كل حرب ثورية بأعمال عنف وقسوة.

قال بسذاجة: لماذا ينكرون إذن ما هو واقع؟ أفلا تهز هذه الفكرة إيمانك فعلاً؟ قلت: مطلقاً. إن إيماني بها لن يزول إلا إذا اعتقدت أن هذه الوقائع صحيحة فعلاً. وقد ذهب صديقي الأمريكي بعد بضعة أسابيع إلى برشلونة، وكان مقدمه إليها في الوقت الذي بدأ الشيوعيون فيه يتخلصون من جماعة «البوم»، فلم يسعه إلا تكذيب كل ما كان الشيوعيون ينسبونه باطلاً إليهم، وغادر إسبانيا، وانقطع عن مناصرة الجمهورية.

وفي شهر يولية عام ١٩٣٧ حضرت مؤتمر الكتاب الدولي الذي انعقد في بلنسية ومدريد؛ وكان «أندريه جيد» قد نشر يومئذ كتابه «عودتي من روسيا السوفيتية» وهو سجل يومي للحوادث التي رآها الكاتب في زيارته؛ ولو أن كتاباً مثله وضع عن أمريكا، أو بريطانيا أو إيطاليا أو فرنسا لما أثار تعليقات كثيرة، ولا أحدث استياء شديداً، ولكنه كان يتناول الأحداث في روسيا، ويصف بجانب الكثير الذي ظفر بمديحه، طغيان ستالين، والجو المشبع بالريبة والمخاوف الذي كان يسود البلاد، ولم يرق الكاتب، بل استنفره وأوغر صدره. فلم يلبث أن أطلق الشيوعيون في جميع أرجاء العالم صرخة مدوية كصيحة أم من رؤية طفلها المدلل يتلقى تأنيباً شديداً من أحد المارة في الطريق؛ وإذا بالكاتب الكبير الذي ذهب لتحية أرقى ديموقراطية في

العالم، يصبح في نظرهم فاشيًا، منحطًا، خائنًا، وتتناوله صحفهم بالتشهير والسباب إلى حد شنيع، بدا لي يومئذ شيئًا لا أستطيع له تصديقًا.

ولم يكن للروس الذين حضروا ذلك المؤتمر من مظهر بارز اللهم إلا من ناحية صلفهم واضطراب عقولهم، وهياج أذهانهم، وكلما خطب منهم خطيب لم يتناول الأدب في شيء من البحث المستفيض، أو الدراسة الوافية، وإنما جعلوا يسخرون من تروتسكي ويستهزئون بأندريه جيد، ويمدحون ستالين والشيوعيين، ثم يجلسون.

ولم أر إيليا أهرنبرج ولا إليكس تولستوي ولا كولتزوف ولا أحدًا سواهم يقول شيئًا في المؤتمر أو المجالس الخاصة، يمكن أن يثير نقاشًا بين المندوبين الآخرين، ولم تكن لهم آراء مبتكرة، ولا خواطر مستقلة، وكانت كل براعة كولتزوف السخرية من كتاب أندريه جيد، وإن كانت هذه الموهبة الساخرة لم تنقذه من الاختفاء والخمول عند عودته إلى روسيا.

وقد ذهبت في جلسات المؤتمر أبين للمستمعين كيف أن الناس لا يريدون أن يؤمنوا بما يكرهون أن يؤمنوا به، وكنت قد ركبت في سفري من بلنسية إلى برشلونة عند عودتنا من المؤتمر سيارة كان بين ركبها أيضًا شاعر شيوعي، وسيدة قصصية، وصاحبة لها من الشاعرات، وكان مجلسي في المقعد الأمامي بجانب السائق، وهو رجل مرح ظريف راح يحدثني مباهيا بأنه أطلق النار خلال الحوادث التي وقعت ضد حزب «البوم» على خمسة أناس فقتلهم غيلة في شوارع برشلونة.

وبينما كنا منتظرين على الحدود انبرت القصاصة تقول وهي تلوح كأنها أشبه بمؤدبة، أو مربية، ولا تفتأ تردد كلما أرادت شرح رغباتها وسر ميولها ومشئاتها، «لقد كان ذلك مني إثارة وبعدها عن الأثانية أيها الرفيق»، تقول إننا لم نشهد في الأيام العشرة التي انعقد فيها المؤتمر، وخلال رحلتنا في ربوع إسبانيا، دليلًا واحدًا على أن سلوك الجمهوريين لم يكن كاملاً. فلم أستطع أن أتمالك من ترديد ما سمعته من

السائق قبل لحظة؛ فلم يكن من القصاصة والشاعر والناظمة إلا أن حملقوا في وجهي غضاباً مبهوتين، وتبادلوا النظرات، وتولوا في صمت معرضين.

وكان في مدريد كاتب إنجليزي أصبح «قوميساراً» سياسياً، وكان يبدو شحيماً كثير الحركة، فجعل يقول إن بذلة «النفر» العسكرية التي كان يرتديها هي مثال الارتجال الفاشي في الجانب الجمهوري، وكان أولى به أن يرتدي بذلة ضابط عظيم؛ وكان من عادته أن يقبل بالحديث على الروائية، والشاعرة، والشاعر، وعليّ أنا أيضاً، فيمضي في الفندق يشرح لنا سر الحرب الإسبانية ودوافعها، والعوامل التي أدت إليها، وكانت أحاديثه تدور جميعاً حول نغمة واحدة، وموضوع بعينه، وهو أن الشيوعيين هم وحدهم المتحدون، وسط هذا الانشقاق الظاهر بين أنصار الحكومة وفي الجيش والفرقة الدولية، وأنهم كلما حثوا الآخرين على الاتحاد، استطاعوا السيطرة على القوات الموحدة والإمساك بزمامها، فإذا رأيتهم في بعض الأحيان يمتنعون عن الحث عليها، فما ذلك منهم إلا لأسباب «استراتيجية» معينة.

وكان احتجاجي في بعض الأحيان بأن هذا النوع من الاتحاد لم يكن اتحاداً في شيء، ولكنه خيانة وغدر بتلك الأحزاب، ومحاولة إحداث انشقاق داخلي في صفوفها، لا يحدث غير حملة عتاب، وحجة تأنيب، من صاحبتنا الروائية؛ وكان الكاتب القوميسار في العادة ينبري لي فيردد للمرة المائة قوله إنني العاجز عن التفكير الصائب والشرح الحكيم.

وكان الرأي الذي تمسكت به هو أن الشيوعيين هم «تاريخياً» الحزب الذي اتخذ مكاناً حقيقياً بين الأحزاب، وأنهم إذا تكلموا عن «الوحدة» أرادوا توحيد الجماعات المنحرفة وتوجيهها نحو السبل الصحيحة إلى التطور التاريخي وهم يرددون أبداً قولهم إنهم الحزب «الديموقراطي» الأوحده الذي يريد توحيد جميع قوى التقدم، فإن قلت لهم إنهم إنما يفعلون ذلك ليغدروا بالأحزاب الأخرى، ويشيعوا الانقسام في صفوفها، قيل لك إن هذه حجة «فاشية» لأن الشيوعيين يعتقدون فعلاً أنهم يؤلفون

جبهة من الشعب، فإن فكرت غير ذلك كنت شيوعياً «رديئاً»، وقد كان الكاتب القوميسار مثلاً من الأمثلة التي وصفها «جورج أورويل» في قصته «١٩٨٤» لمعاشر الذين يفكرون تفكيراً «مزدوجاً»، وهو كقولهم أيضاً «إن الشيوعيين هم أنصار الحرية والديموقراطية والجبهة الشعبية، وإن كانوا في الوقت ذاته يحملون حملة شعواء على «الأحرار» والاشتراكيين والفاشييين، ويعملون في سبيل القضاء عليهم، كما قضوا على جماعة «البوم» في إسبانيا».

وكنت في ذلك الحين قد استقر بي التفكير على رأي قد يكون ظاهراً جلياً، ولكنه في الواقع كان كبير الأثر في تطوري الفكري بسبيل السياسة ومسائلها، وهو أن الناس جميعاً لا يتعلقون بالحقائق إلا على فترات منقطعة متباعدة، فلا يمسكون بها أبداً، ولا يقبضون عليها جملة واحدة، وأن كل ما هو «حقيقي» عندهم لا يتجاوز بضعة شؤون تمثل مصالحهم وتجدي عليهم خاصة؛ وأما الأشياء الأخرى التي لا تقل عنها في الواقع نصيباً من الحقيقة، فتلوح لهم مجرد نظريات، وكلام مطلق، فإن هم اعتزموا المضي في عمل معين، كان كل ما يعين على تحقيقه، أو يسعف في تنفيذه، صادقاً حقيقاً في تقديرهم، وكل ما يتعارض معه نظري مطلق لا يمت إلى الحقيقة بسبب؛ وما أصحابك إلا حلفاء، فهم لذلك مخلوقات حقيقية من لحم ودم، لهم من المشاعر والعواطف مثل ما لك؛ أما أعداؤك فهم قوم متعبون غير معقولين، ولا ضرورة لحياتهم، أو وجودهم، حتى لتود أن تمحوهم من هذه الدنيا محوًا.

ولا يخفى أن مجانبة هذا المنحى في التفكير تستوجب توافر العقلية «القضائية» التي تحسن الحكم على الأشياء، وتتجرد من الذاتية في تحقيق المسائل ودراسة الأمور؛ وقد آلمني أن ألاحظ في أيام الحرب الإسبانية أنني أنا ذاتي كنت أفكر على هذا النحو، وأتبع ذلك المنحى؛ فكلما رأيت صوراً لأطفال قتلهم الفاشيون أحسست رثاء مختلطاً بغضب، وشفقة مزيجة بحق وهياج؛ وكلما كان فرانكو يتحدث عن فضائع الحمر، كنت أغضب وأستنكر كيف تسول لبعض الناس نفوسهم أن يقولوا

كذبًا، ويرووا روايات باطلة؛ وما ذلك إلا لأنني في الأولى كنت أرى جُثثًا، وفي الأخرى أسمع كلامًا؛ ولا أحسبني تعلمت يومًا أن أتجنب نقد نفسي، فلا عجب إذا أنا اكتسبت رويدًا بعض الاشتمزاز من الطريقة التي يشتغل بها عقلي والاتجاه الذي يتخذه خاطري، وتبين لي أنني لم أكن أعبأ بقتل الأطفال وتذبيحهم إطلاقًا، إلا إذا عبأت بكل طفل يقتل، وعنيت به دون تحيز؛ وكان شعوري في أعماق ذهني بالاشتمزاز عند معرفة نبأ فريق من القتلى ورؤية الدعاة وهم يتخذونه أداة لدعايتهم، وحطباً ووقودًا لترويجاتهم، ولكني كنت أبدي الاستخفاف الشديد بتلك الجثث الأخرى التي سقطت فريسة للجمهوريين.

وإذا صح رأيي، وهو أن الناس جبلوا على التفكير المجرد دون أن يزونا الحقائق البشرية التي تتأثر بعواطفهم السياسية، كان من السهل شرح عقلية الشيوعيين، وهي أنهم قد اتخذوا نظرية من شأنها أن تشجع الناس على رذيلة بالغة، أو نقيصة مزرية، وأعني بها أن يعدوا قضيتهم حقيقية وأنصارهم حقيقيين، بينما يرون قضية سواهم ومؤيديهم أمثلة عامة على اعتقادات «نظرية» عتيقة بالية.

وقد يقال إن «النظرية» ذاتها تبرر تلك النقيصة، لأن الشيوعية تتوخى في النهاية أن تنمي السعادة الإنسانية صفة وقدراً -أو كمًّا وكيفًا- ولكني في تلك السنوات استقر رأيي شيئًا فشيئًا على مخالفة هذا التعليل، لأن اعتداد الذين يعتقدون أن اتجاههم من شأنه أنه يحقق للبشرية السعادة، ويطابق سير التاريخ حتى ليتلاشى كل إنسان يختلف معهم فيه، أو لا يلبث أن يندمج فيهم بسبيله، لا نتيجة له غير تجريد الشيوعيين أنفسهم من البشرية، فإن التاريخ البشري قد صنعه الناس الذين عملوا وفقًا لمبادئ معينة، لا على مبادئ غير نظر إلى الناس وصفاتهم، وإذا جردت المبادئ الناس من بشريتهم، كان المجتمع الذي يتألف هؤلاء الناس منه مجردًا منها كذلك، وأنا أبداً على خلاف في الرأي مع الدوس هكسلي Aldous Huxley وأمثاله من القائلين بأن كل سلطة تُفسد، فإن رأيي هو أنه لا سبيل إلى إنقاذها من الفساد إلا إذا هي جعلت بشرية

بالإذلال، إنسانية بالإخضاع، واعتقادي أن السلطة بغير إذلال تتحول إلى اضطهاد وشنق وإعدام وأكاذيب عامة.

وقد تبين لي أنا وزملائي أن تشجيعنا للتفكير في أن هناك قضية بشرية واحدة، وجانبًا بشريًا واحدًا، سيئ الأثر في شخصياتنا، مضر بنا الضرر كله، لأنه يعلمنا أن نستغل التعذيب والآلام لتحقيق أغراضنا، وأن نتجاهلها إذا لم تخدم هذه الأغراض، وهو الذي شجعنا من قبل على تكوين صورة جزئية ناقصة للصراع، بل هو الذي صرنا عن تصحيح هذه الصورة على ضوء التجربة إذا هي تعارضت مع أفكارنا النظرية.

وقد وجدتني أمام الشيوعيين المستنيرين أواجه أبدًا حقيقة ثابتة، وهي أنهم وصلوا حين أصبحوا شيوعيين إلى استنتاج جعلهم يغيرون الحقيقة في جملتها، فلم يبق عندهم غير مجرد الأبيض والأسود ولا شيء سواهما، كأنما قد أقاموا على حساب ثابت يعرفونه، ولا يعرفون غيره، وكل عامل من العوامل يواجههم في سير الحياة اليومية لا يؤثر بتاتا في ذلك الحساب الذي استقر في عقولهم، فالثورة هي عندهم البداية، وهي النهاية، وهي رقم الأرقام، ومبلغ المبالغ؛ وقد يأتي يومًا شيء في أي مكان فيضاف إلى هذا المجموع «السعيد» الذي يمثل ديكتاتورية «البرورليتاريا» والمجتمع الشيوعي.

وقد ألغى هذا النوع من التفكير كل الاعتراضات عليه القائمة على التجربة.

وهكذا رأينا الشيوعيين المستنيرين لا يعنيه شيء غير «النظرية». ولا يهمهم أمر قد يتعارض معها. فمثلاً لم ألتق يوماً بأحد منهم يعني أقل عناية بأي ناحية في روسيا لا تتصل بالدعايات الرائجة حول ستالين وبطانته، ولم يدهشني عند نظر قضية كرافشنكو Kravchenco في باريس أن أرى قوماً من أولئك الشيوعيين المستنيرين يتطوعون للإدلاء بشهادات ضد كتابه «آثرت الحرية». وإن لم يستطيعوا أن يزعموا أن لهم علماً بروسيا وخبرة بأحوالها. بل كل ما كان يعنيه من الأمر هو أن كرافشنكو

كان من المعارضين للنظام السوفيتي، وما دام كذلك فلا بد من أن يكون مخطئاً!
وينطبق هذا الاستخفاف بكل شيء غير «النظرية» على السلوك أيضاً، فإن الغاية
تبرر الوسيلة؛ وقد رأيت مراسل الصحيفة الشيوعية يظهر السرور وهو يقول لي إنه لا
غناء عن الكذب، وسمعت الكاتب القوميسار يحدثني بفخار وزهو كيف أرسل جندياً
لم يكن موثقاً به إلى موضع في ميدان القتال لم يكن يخامره شك في أنه سيقتل فيه
ويذهب في الهالكين. بل هكذا شهدنا هاري بوليت ينشر في عام ١٩٣٩، بياناً يقول
فيه إن الحرب العالمية إنما نشبت للنضال عن الديمقراطية إزاء الفاشية، ثم يبادر
إلى سحب هذا الكلام بمجرد الشعور بأنه لا يروق روسيا، وينبri يقول إن الحرب
لم تكن إلا «شجاراً» بين الرأسماليين الاستعماريين في كلا الجانبين، وهكذا مضى
أحد زعماء الحزب الشيوعي البريطاني حين لقينته في عام ١٩٤٦ يقول لي متهمّاً،
لماذا تضجون وتتصايحون لمصرع بضعة ألوف من البولونيين، بينما ترون الاتحاد
السوفيتي كله هدفاً للخطر؟

وعلى هذا النحو ترى أن الفكرة الثابتة في الخاطر وإلغاءها لكل ما عداها من
الاعتبارات الأخرى لا تزال قائمة صحيحة، فإذا غير الحزب اتجاه سياسته، وقرر أن
ما كان بالأمس ديموقراطية، صار اليوم فاشية، فليس في ذلك ما يسمى تحولاً، أو
تناقضاً، لأن سياسة الحزب ليست إلا الموقف الذي يتخذه حيال غير الشيوعيين،
وهم جميعاً موضع أقوال وبيانات تحيلهم إلى نظريات مفترضة، واستنتاجات مجردة.
وهكذا نجد دائماً أن اهتمام الشيوعيين مُنصبَّ على تطبيق النظرية على الواقع لأن
الشيوعي «السعيد» إنما يعيش في عالم ذهني، أو في «سلطنة» ذهنية تدعه لا يرى يوماً
أن الأشجار للخشب، بدلاً من أن يرى الخشب يوماً للأشجار!

ولم أر نفسي يوماً في «سلطنة» ذهنية كهذه، بل ظللت دهري في حيرة بالغة من
هذا اليقين العجيب الذي يشعر الشيوعيون به فيما يتصل بالأشياء التي لا يكادون
يعرفون عنها قليلاً ولا كثيراً، وإنما يطبقون عليها نظرياتهم.

وكان هناك شيء آخر استبهم على خاطري، واستغلق على تفكيري، وهو كيف أن فريقاً من الشيوعيين الذين عرفوا الجواب عن كل شيء استطاعوا يوماً ترك الشيوعية، وراحوا عقب تركها يعللون تحولهم بتلك الاعتراضات ذاتها التي كان غيرهم من قبل يتقدم إليهم بها، فلا يرتضونها، بل يفندونها تفنيداً، ويقنعون قائلها بأنها حجج واهية، وأسباب لا تستند إلى سبب وجيه.

ولعل خير مثل أضربه على هذا النوع من الشيوعيين القدامى هي مسز شارلوت هلدين الروائية التي كانت يومئذ قرينة العلامة هلدين، فقد كانت حين عرفتها في أيام الحرب الإسبانية أحسن مثل يضرب على الشيوعيين الذين يعيشون في «سلطنة» ذهنية، وأذكر أنني كنت راكباً معها في يوم من الأيام عقب بعض الاجتماعات، وقد مرقت السيارة بنا في أحد شوارع لندن، حيث كان خلق كثير من الناس وقوفاً في الصفوف ينتظرون «الترام» ورذاذ المطر يساقط عليهم ندياً، فلم تكد السيدة شارلوت تبصر بتلك الصفوف حتى صاحت قائلة «صفوف! يا للعار! إن هذه المشاهد لا يمكن قبولها في روسيا».

قلت محتجاً: ولكن لا بد من أن يكون في روسيا صفوف كهذه.

وكنت قد قرأت من قبل عنها.

وإذا بمسز هلدين تنظر إليّ نظرة ساخرة يمازجها رثاء مشفق، كما تفعل الشيوعيات من النساء حين ينقلبن ساخرات.

وقد ذهبت السيدة شارلوت في أعوام الحرب إلى روسيا، كأشد العاطفين على ستالين، ولكنها لم تكد تعود من رحلتها حتى تركت زوجها والحزب الشيوعي معاً، وكتبت فيما بعد مقالاً في الصحف كان جلياً من ناحية، وغامضاً مستغلقاً من الأخرى، فقد ذهبت فيه تقول: «إن كل كلمة أو عمل يأتيه الروس مواطنين عاديين، أو علماء باحثين على السواء، لا يخلو من أدلة كثيرة على تغطية بالغة لا تنقطع، للتجسس والترصد والتسجيل، بل إن كل كلمة تقال أو تكتب أو تنشر عرضة لهذا الفحص الدقيق، وقد تقدم في أي وقت ضد قائلها أو كاتبها كشاهد عليه».

ولعل الشيء الوحيد الذي يحير خاطر هو لماذا اضطرت مسز هلدين إلى السفر إلى روسيا لتكشف هذه الحقيقة...؟ ألم يكن أولى بها أن تستخلص عشرات غيرها من عدة الكتب التي لا أحسبها غفلت عن قراءة واحد منها، وهو كتاب أندريه جيد «عودتي من روسيا السوفيتية» وإذا هي لم تصدق ما جاء فيه من الشواهد على الاضطهاد الشيوعي فيها، فلا أحسبها قد غاب عنها الهياج الشديد الذي قبل به ذلك الكتاب عند ظهوره، والتشنج العصبي الذي أحدثه في نفوس الروس عقب نشره، فإن هذا الحق يبين بجلاء ماذا كان الروس صانعين بالكاتب لو أتيحت لهم الفرصة للنيل منه، وتواتت لهم أذيته.

ولعل التعليل الوحيد لتحول قلبها أن ما كان يلوح لها غير منطقي قبل ذهابها إلى روسيا عاد فجأة فبدا لها متفقاً مع المنطق خلال زيارتها، وهي بلا شك أولى بأن تهناً بهذه الأمانة التي غيرت رأيها.

وقد رأيتها في ذلك المقال بعينه تثير بنظرة من فوق كتفها إلى الأستاذ هلدين سؤالاً أهم كثيراً من سؤالك: «لماذا ينبغي أن يكون الكتاب مشايعين لستالين؟»، وهو: لماذا ينبغي أن يكون العلماء كذلك؟ وقد حاولت الرد على هذا السؤال في قولها: «إن السر في ذلك أنهم يرون من خلال زجاجة قاتمة، أو الأفضل من خلال منظار وردّي اللون، بلداً «اشتراكياً» خصصت فيه الدولة أموالاً طائلة للبحث العلمي، بلداً يتقاضى فيه العلماء مرتبات عالية لا مثيل لها في سواه من البلاد، ولا يعوق عملهم فيه خوف من أن يستغل كبار رجال الأعمال اكتشافاتهم لمنفعتهم الخاصة...».

ولعل بعض مشاهداتي الشخصية لسلوك الأستاذين هلدين وبرنال اللذين راقبتهما عن كذب بضع سنين، توحى على الأقل بأن معاشر العلماء هم بشر ككل إنسان سواهم، وتدل على ما أسلفت الإشارة إليه، وهو أننا لا نبدأ نثق بالناس، مهما يكن حظهم من الذكاء، إلا إذا أيقنا أن مبادئهم قد امتزجت بذلك الشعور بحدودهم وهو الشعور الذي أسميه الوداعة أو «الانضاع».

وقد بدا لي مما شاهدته من العلامة هلدين أنه رجل أوتي صفات جليلة، لعل «الاتضاع» أقلها بروزًا. فقد اشتهر حين كان يتولى التدريس في جامعة كمبردج بأنه أستاذ غريب الأطوار إلى حد ما، وعالم مسرف في إظهار بطولته، فقد أذيع عقب التجارب التي كان يقوم بها في «مخبأ هلدين»، بعد نشوب الحرب الماضية أنه كان يصبر على الجلوس في أحد المخابئ بينما كانت القنابل الشديدة الانفجار تتساقط بقربه.

وكنت في ذات مساء خلال الحرب الإسبانية مدعواً إلى حفلة عيد الميلاد عند شقيقته «ناوومي ماتشيسون» وإذا به يحضر الحفل؛ وكان قد رجع لساعته من إسبانيا ولبث في الحفلة واجماً مكتئباً، حتى فرغ الأطفال من ألغازهم وألعابهم، وإذا به ينثني يفاكه المدعوين بالحديث عن مشاهداته الرهيبة في إسبانيا، ولا أزال أتمثله إلى الساعة وهو يلوح، تحت سمته كمعلم وبحاته، أشبه بـغلام في المدرسة أولع بالموضوعات العلمية، وكأنما كان يطرب بمظاهر العنف وصوره، ولعل مسز هلدين كانت تعني ناحية أخرى من خلقه وهي تلمح في مقالها بقولها إن العلماء يرون أن في روسيا السوفييتية ميداناً فسيحاً يشعر العلماء الكبار فيه بأنهم أحرار في تجاربهم العلمية.

ولست أريد بهذا أن أنتقص من أقدار علماء كبار كهلدين وبرنال ومن لف لفهما، وإنما كل ما أرمي إليه هو أن أبين أنه من الخطأ أن يعتقد أحد أن العلماء يبدون من صفات النزاهة والرعاية في مجالسهم وعلاقاتهم الاجتماعية مثل ما يبدون في العمل، بل هم عرضة لأي أحد سواهم للتأثر بانفعالاتهم، والاندفاع مع عواطفهم، وأن في المجتمع المنظم تنظيمًا خاصًا من وسائل الإغراء والتشجيع ما يحملهم على الإمعان في هذا السبيل.

وأكبر ظني أن برنال أقل «صبيانية» وفضاظة من صاحبه «هلدين» أو لعله نوع آخر من الصبيان، وإن كان بلا شك عبقرياً في عمله العلمي، ولكنه أيضاً قد ألهم عاطفة

اجتماعية حادة باطشة، فهو هائج خاطر أبداً بأفكار وخواطر، عن «البيت المثالي» الصالح للإنسان في مجتمع اشتراكي، وعن وضع تصميم لبنائه يلغي جميع فنون العمارة الماضية، ويذهب بطريقتها السابقة، وهو كذلك المتهوس بمختلف الخطط لإصلاح أحوال البشر، لأنه في تفكيره الاجتماعي يبدي نزوعاً إلى كل مستطرف ومستغرب، وإن كان لا ينزع هذا المنزع في عمله العلمي وبحوثه.

ونحن في المجتمع نضفي على العلماء من الفضل ما يكاد يبلغ بهم مرتبة الحكمة الخارقة للبشر. وقد يكون من الحق أن يقال إنهم كسواهم من الإخصائين وأهل الفنون ليسوا إلى حد يسير بشريين، فقد تراهم متحمسين أشد الحماسة لمشروعات ترمي إلى تحويل المجتمع إلى ميدان فسيح للتجارب العلمية، وإن كانوا من ناحية أخرى لم يفعلوا شيئاً لحماية المجتمع من استخدام مكتشفاتهم. وكلما قيل إنهم مسؤولون عن المخترعات الهدامة، راحوا يحتمون خلف دعواهم أنهم ليسوا إلا علماء، ولا يهتمهم التفكير فيما على المجتمع الموقوت من دين لتقاليد الماضي وتراثه وفضله، ولا فيما قد نخسره مثلاً إذا قضي على فنون العمارة القديمة، واستعيض عنها في الحياة والعيش بأدق الآلات المستحدثة.

وقد رأينا العلماء في ألمانيا الهتلرية يتوفرون على مشروعات ترمي إلى تعقيم غير الصالحين من الناحية العقلية للزواج والقضاء عليهم، واستئصال مئات من الخلق لا شيء سوى استخدام الناس في تحقيق تجاربهم. وقد حدثني صديق لي من العلماء ذهب إلى ألمانيا بعد الحرب لمشاهدة مدى نشاط زملائه الألمان، فقال إن أشد ما راعني من أمرهم أنهم يسرفون أحياناً في تجربة نظرياتهم العلمية على الناس، حتى لا تأخذهم فيهم رحمة، وقد لا تكون التجربة ضرورية. ولست أريد بقولي هذا أن أقترح على العلماء في البلاد الأخرى أن يفعلوا كما يفعل هؤلاء، ولكني أريد أن أقول إن العلم لا يعارض في إجراء تجارب كهذه إذا كان المراد منها استئصال غير الصالحين من الناحية العقلية، وأن العلماء إذا اعترضوا عليها، فلا يقوم اعتراضهم

على أساس علمي إطلاقاً. ولم نر العلم الحديث يمنع الحكومات من توجيه العلم في كل بلد إلى ما يحدث الهدم، ويستعان به على التدمير، بل شهدنا العلم مجرد أداة للخير والشر على السواء، فلكي نوجه الوجهة الخيرة الطيبة، ينبغي أن يكون عند الذي يتولى توجيه فكرة عن البشرية أوسع نطاقاً من مجرد خلق مجتمع علمي منظم، إذ يجب أن يكون في المجتمع هدف آخر بجانب التنظيم الحسن، أما إخضاعه بغير قيام هدف كهذا لنظام «ديكتاتوري» في سبيل إنشائه على نظام علمي أو نحوه، فليس سوى استغلال العلم وإساءة استخدامه. وقد رأينا الساسة في روسيا هم الذين يوجهون العلم وينظمون نشاطه ويرسمون خطته.

ولهذا رأيتني حين أصبح علماء كبرنال وهلدين وجوليوت كوري شيوعيين متشككاً في الدوافع التي دفعتهم إلى اعتناق الشيوعية، وأحسب أنهم فعلوا ذلك لإيمانهم الأعمى بأداة العلم وسلاحه، ولكن هذه الأداة لا هدف لها يمكن أن يمت إلى الأخلاق، وكلما ناصر العلماء فكرة وضع العلم في أيدي الساسة الذين يلقون بخصومهم في غيابة السجون، ولا يتورعون أحياناً من اضطهاد العلماء الذين لا تتفق نتائج بحوثهم مع آرائهم السياسية وخطة الدولة واتجاهها، استطعنا أن نقول إن هؤلاء العلماء الشيوعيين هم ضحايا نوع من العمى الخُلقي الذي طالما اتسم العلم بطابعه، واتصف من عهد طويل به.

وكنت في عام ١٩٣٠ أراقب زملائي الشيوعيين فيتولاني الإعجاب بشجاعتهم، ولم أكن أتهمهم يومئذ بالأثرة والعمل لمآربهم الخاصة، فقد رأيتهم يضحون بشيء كثير، ولا يترددون في احتمال مزيد من التضحية في سبيل نصرة قضية يعتقدون صوابها أشد الاعتقاد، وإن كان الظاهر بغض النظر عن هذه الشجاعة، وتلك التضحية، أن أحسن ما فيهم من الصفات مضى في خدمة أسوأ ما عندهم منها، وأن شخصياتهم دمرت تدميراً، من إمعانهم في هذا السبيل؛ فقد آمنوا بوجوب جعل الفقير محارباً، لا بوجوب حمله على محبة جاره، وأضحى الحق عندهم خادماً يسعى في خدمة حفنة

صغيرة من الزعماء، وارتضوا «الكراهية» كدافع قويّ إلى العمل، وشوهوا معاني الكلمات التي طبقوها على الشعوب، والأحزاب والأفراد، دون أن يفتنوا مطلقاً إلى أن تشويه الكلام، يحدث الفوضى، ويفسد النظام؛ فالسلام في لغتهم يمكن أن تعني «الحرب»، والحرب يصح أن يكون معناها «السلام»، وكلمة «الوحدة» قد تعني «الخيانة من الداخل»، ولفظة «الفاشية» قد يكون المراد منها «الاشتراكية».

ولم يكن ثمة شيء يرغمهم على تنمية قوى الغرور وعوامل الحقد ومظاهر السلطة والخيانة والغدر فيما بينهم غير خدمة أغراض الحزب وتحقيق مآربه، ولو خدموها بهذه المناقص لبدت فضائل وحسنات.

وكثيراً ما تبين لي أن الشيوعي العطوف الحذب هو شيوعي «رديء»، بقدر ما في نفسه من العطف وما أوتيّه من الحذب، وإنه العليم بذلك في ذات نفسه الفطن إليه في أعماقه. وقد أدركت في تلك السنين أن الشيوعيين يكادون ينقسمون إلى أربع فرق، الأول منها فريق «النظرين» الذين يعرفون بوجه عام، وشكل نظري، حقيقة الوسائل والأساليب التي يتدربون بها، ولكنهم يرونها مجرد «ضرورة» لا مفر منها، والثاني فريق المخدوعين في حقيقة روسيا والوسائل التي يستخدمها رفاقهم، ولا يزالون بهذه الخدعة سعداء مغتبطين راضين، والثالث فريق العمال الذين لن يخسروا شيئاً غير الأصفاد التي يرسفون فيها، والذين يحاربون الاستغلال الرأسمالي، ولا يزال الخبز عندهم أهم من الحرية شأنًا، والرابع فريق رجال الشرطة والقوميسيريين والصنائع والجواسيس ومن إليهم؛ ولعل الأخيرين منهم هم الشيوعيون الوحيدون الذين يعرفون جميع الحقائق المتصلة بمعسكرات الاعتقال والسجون والمحاكمات.

وكنت أرتقب حين انضمت إلى الحزب الشيوعي أن أعرف على الأيام ماذا يفعل الشيوعيون، ويتيسر لي أن أوازن بين وسائلهم، ووسائل الرأسمالية، وأنعلم كيف أرتضي الصلة بين الوسيلة والغاية، ولم أكن أتوقع أن أرى الشيوعيين أنفسهم ينكرون تصرفات رفاقهم في روسيا وإسبانيا، أو يجهلونها كل الجهل.

وقد أسلفت عليك كيف كان صديقي «شالمرز» يستخف بالمحاكمات التي تجري في روسيا، وإصرار زملائي الأدباء في إسبانيا على رفض الاستماع إلى الوقائع التي تحدث ارتباكاً في الصور البسيطة التي ترسم فيها الحوادث لهم، وتبدو واضحة سهلة في الأخيلة والأخلاق.

وقد أتت عليّ أيام استطعت أن ألمس فيها مثاليين آخرين لسلوك الشيوعيين، وتصرفاتهم التي لا مفر من إلقاء تبعاتها عليهم، وهما أولاً، قصة حدثني بها كاتبة أمريكية معروفة كان زوجها من الروس، فقد ذهبت تقول إن رجال الشرطة جاءوا إلى مسكنهما في الثالثة من الصباح، وهما في موسكو، فاستاقوا زوجها استياقاً، ومن ذلك العهد لم تره ولم تسمع بخبره، ولا تعرف شيئاً عما قد جناه، وكانت المرأة نفسها شيوعية؛ وقد عرفت هذه القصة واشتهرت، لأن معاشر المستنيرين من البريطانيين والأمريكيين قلقوا على الرجل، وجزعوا لمصيره، وبعثوا برسائل وكتب إلى «سكرتيرية» الكومترن، فكانت السكرتيرة في بداية الأمر ترد عليهم منبئتهم أن كتبهم وصلت إليها، وتعدهم بأنها ستحقق الأمر، ثم لم تلبث أن لظمت الصمت ولم تعد ترد على الكتب التي ترسل إليها.

أما المثل الآخر فهو قصة صديق لي يدعى «ي» كان يعمل في صفوف «الفرقة الدولية» وهو ابن أخت سياسي كبير النفوذ، فخشيت عليه أمه الموت، وطلبت إلى أخيها أن يتصل بقواد الفرقة ويرجو إليهم ألا يرسلوا ابنها إلى الميدان.

ولقيت «ي» في إسبانيا، فنبأته بحماقة مني وسوء تصرف عما فعله خاله، وكان «ي» فتى شجاعاً فغضب واشتد الحنق به، فترك الفرقة هارباً، ولكنه لم يخطف عن الأنظار، بل تراءى للقوم ليأخذوه، وقرروا عقاباً له على الفرار أن يوفد إلى الميدان ليشترك في القتال، وكان هذا هو ما أراده، وقد حضر معركة «موراتا» وجال فيها وصال شجاعاً أخاً كريهة.

وكان في الأيام القليلة التي زج به في السجن خلالها يقيم مع عدة آخرين من

السجناء، وكان المحبس الذي أُلقي فيه ضيقاً «كالحاصل»، وقد حدثني يومئذ قائلاً: ولكنه لم يكن على ضيقه ليذكر بالقياس إلى المحابس الأخرى، فقد جيء بسجناء آخرين إلى محبسنا فقالوا إنه «نعمة» إذا قيس بالحصر الذي كانوا فيه، لأنه لم يكن يزيد في شيء عن «دولاب» أو قِمَطَر صغير!

ولكن الفتى «ي» لم يرع من هول تلك الخطوب التي خاضها، ولا استطاعت تلك الأهوال أن تغير من رأيه في «الجمهورية»، بل العجيب من أمره أنه راح يعد تلك الخطوب مسلية باعثة على الفكاهة والتسرية.

وقد قصصت هاتين الروائيتين في اجتماع عقدته فئة من الكتاب الشيوعيين في لندن، وقلت لهم إن هناك سبباً يدعوني إلى قصهما على أسماعهما، ومضيت أشرح لهم الباعث فقلت: «إنني مدرك بالطبع أن ليس ثمة سبب يحملكم على تصديق هذين الحادثين خاصة، ولكنني أعلم أنهما حادثان «نموذجيان»، فإن أنتم لم تصدقوا ما أنا عليه بأنه مثل نموذجي، فسأدرك أنكم تجهلون وقائع وحقائق كان أولى بكم في نظري أن تعرفوها، لأن معرفتكم لها أو جهلكم بها، أو تسليمكم بصحتها، أو إنكارها، أصبح يهمني أشد الأهمية لأنكم إذا كنتم بها جهلاء، أو كنتم تنكرونها فيما بينكم، فسوف أعتقد أن الانتماء إلى حزب ليس لأعضائه علم بتصرفاته مسؤولية لا قبل لي باحتمالها، ولكن إذا سلمتم بها، وقلتم إنه لا يصح الجهر بها في المجمع، فسوف أشعر أنكم تجدون فيما تقولون، وعندئذ قد أرتضي حجتكم وأقبل وجهة نظركم...».

ولما فرغت من الكلام نهض كاتب منهم فقال: إن الرفيق سبندر قد ألف بعقليته «البرجوازية» أن يخترع قصصاً من هذا القبيل.

وانبرى آخر يقول: وإذا لم يكن هذا الذي سمعناه منه مخترعاً، كان كل المراد منه أن يسترعي الأنظار إلى حوادث تافهة لا خطر لها ولا شأن لكي يتحامى مواجهة الحقائق ويتهرب من القضية الأصلية ذاتها.

وقال ثالث وكان طيب الشعور نحوي: «أصغ إليّ يا ستيفن، لا تنس أن صديقك «ي» كان نفسه في السجن الذي يزعم أن هذه الأحداث وقعت فيه، فلعله إنما تحدث إليك عن حقد في نفسه، وكمد في أعماقه، ولهذا ينبغي ألا تضفي أهمية كبيرة على شهادته».

ولم يجد نفعًا أنؤكد لهم أن «ي» لم يكن في نفسه شيء مما وصف، وأن هذا هو ما جعلني أختار قصته من عدة قصص كان في وسعي أن أسردها أمامهم، وما كان مجديًا أن أقول لهم إن حجتهم تلك تصلح كشاهد على وجوب تجاهل جميع الجرائم التي ارتكبتها «الفاشية»، باعتبارها غير «متمشية» من حيث المنطق مع تصرفات هتلر التاريخية، أو بوصفها مبنية على أقوال أناس ضربوا وعذبوا وسيء إليهم فأمسوا حاقدين مضطغنين، وهم على هذا النحو غير صالحين للشهادة.

وهكذا بدا لي أن أولئك الكتاب لا يريدون أن يكونوا مسؤولين عن تصرفات الحزب الذي هم أنصاره ومظاهروه؛ وبدأت أسائل نفسي عجبًا وحيرة كم من الشيوعيين يعرفون كل ما يتصل بالشيوعية أو يدخل في بابها، ولا أزال من هذا الأمر في عجب، فإن غيرهم من الشيوعيين، لا يقولون لهم إن في روسيا معسكرات سخرة واستعباد، بل لو أن شيوعيًا أشار إلى شيء من ذلك ولو تلميحًا، لاتهموه بأنه يشغل نفسه بالتوافه والكلام الذي لا طائل تحته، إذا هم لم يتهموه بأنه من الضالعين مع «الفاشية».

وليت شعري متى خطر لأحد من الشيوعيين أن ينتحي بصاحبنا «هاري بوليت» الزعيم الشيوعي البريطاني الذي أسلفت عليكم حديثه، ليقول له أشياء عن روسيا، لا دخل للدعاية فيها؟

وفي الحق إن أعضاء الحزب أقل علمًا بما يجري في البلاد التي تسيطر الشيوعية عليها مما يتصوره غير الشيوعيين ويتخيلونه، ولكنهم يعرفون بعض الحقائق عن «الدكتاتورية» لأنها جزء من المبادئ التي يؤمنون بها، فلا عجب إذا كانت أول عبارة

بادرني بها مسيو «راكوزي» نائب رئيس الوزراء في المجر، وهو من الشيوعيين، حين لقيته في بلاده عام ١٩٤٧ هي قوله: إن الحكومة العمالية في بريطانيا «فاشية»!
ولما سألته ماذا يعني بهذا أجاب إن لما قلته سببين: أولاً -إنها لم تملأ الجيش البريطاني بقواد «اشتراكيين»، وثانياً - أنها لم تتسلم إدارة الشرطة في «سكوتلاند يارد».

وقد استتبع هذا الرأي اتجاهات كثيرة أصبحت أكثر وضوحاً وجلاء مما كانت تبدو منذ اثني عشر عاماً، ورددها على سمعي الرئيس «بنش» في حديث دار بيننا في مدينة «براج» خلال شتاء عام ١٩٤٦، فقد ذهب يقول إنه يعتقد أن حكام روسيا لم يكونوا يستطيعون على الأرجح تحقيق «الثورة العمالية» بغير الوسائل الرهيبة التي لجأوا إليها؛ ولكنه أردف يقول بحماسة إنه يحمد الله الحمد كله على أنه لم يطلب منه يوماً أن يستخدم مثلها ويرجو الله ألا يضطر على الأيام إلى استخدامها.

ولم يفتني وأنا أكتب هذا المقال أن انتقاد الشيوعيين لا يزيل الحجة القائمة على النظام «الرأسمالي»، فقد علمتني التجارب الأليمة طيلة تلك السنين أن كلا الجانبين عامل شر وظلم وجور وإهدار للحريات ومساوى لا عداد لها؛ وقد يقال عن «الرأسمالية» إنها قد تكفل لطول عهد الدنيا بقيامها متعة الحرية في الفنون والآداب والمناقشات بين مختلف الأحزاب السياسية.

ولكن لا خفاء في أن الرأسمالية كما نشهدها اليوم في أمريكا التي تعد أكبر بلد رأسمالي في العالم، لا تقدم إلى الناس شيئاً غير الحرب والاستغلال، وتدمير موارد العالم. أما الشيوعية فمن الجائز إذا استطاعت أن تحقق «الدولية» وتصبغ الإنتاج الصناعي بصبغة الاشتراكية، أن تنشئ عالماً جديداً لن يكون مجموعة من المتناقضات الاقتصادية.

ولو فرضنا جدلاً جواز تحقيق انقلاب عالمي وقيام نظام شيوعي من الوجهتين السياسية والاقتصادية معاً لأصبحت رفاهية المجتمع الجديد المتخلص من النزاع

الطبقي رهناً بفرض جدلي آخر، وهو أن ديكتاتورية العمال الكادحين سوف تذوي من تلقاء ذاتها على الأيام.

وقد رأينا «الماركسيين» والكتاب الشيوعيين لا يفتأون يرددون القول بأنها «ستذبل» وتتلاشى رويداً، ولكنهم لا يريدون أن يصفوا لنا كيف ستنتهي إلى «الذبول»، وإنما يرون أن القضاء على الرأسمالية سيتحقق وفقاً لنواميس ناشئة من متناقضات في داخل النظام الرأسمالي ذاته، وأن استيلاء العمال الكادحين على زمام السلطة لا يزال يتبع أيضاً هذا التطور الميكانيكي ذاته، وإن كان من بعض نواحيه نتيجة الإرادة البشرية وثمرتها، وحين تتحقق النتيجة الحتمية لهذا التطور، لا تبقى ثمة ضرورة تقتضي فناء الرأسمالية بعملية ما، ولا تستوجب نهضة «البروليتاريا» بإجراء معين، وإنما «تذبل» الديكتاتورية طبعياً، وتذوي تبعاً للموقف الذي يصبح العمال فيه على الأيام بغير خصوم ولا أعداء.

وإذا صح هذا كانت الاعتراضات التي تقوم في وجه الشيوعية منصبة على متاعب موقوتة، ومشاق قائمة إلى حين، ولا ينكر أحد أن هذه المتاعب والمشاق عسيرة مرهقة لضحايا الثورة وفريساتها، ولكنه ثمن يصح أن يدفع لقاء قيام عالم تعيش فيه الشعوب جميعاً على وفاق ووثام!

ولكن إذا لم يكن «ذبول» الديكتاتورية محققاً، فإن انتقاد تصرفات الشيوعيين وأساليبهم اليوم يصبح انتقاد الديكتاتورية غداً، وبعد غد، واليوم الذي بعد غد.

وكان من بين الدروس التي تعلمناها في الثلاثين عاماً الأخيرة أن كل ديكتاتورية قامت في العالم الحديث، بكل ما توافر لها فيه من القوى والأساليب، كالبوليس السري، والدعاية، والإرهاب، لا تنتزع بسهولة، ولا تخلع برفق، ولم نر ستالين يوماً ولا هتلر ولا موسوليني ولا فرانكو مهدداً بخطر ثورة أو تمرد عليه من داخلية بلاده؛ وما سقط «الطغاة» إلا نتيجة دمار جلبه على البلاد أمصاراً أخرى وشعوباً، فلا غرو إذا قلنا إن قيام «ديكتاتورية» عالمية من شأنه أن يجعلها ثابتة مستقرة مكينة الجذور،

بل ستروح عندئذ أثبت الدكتاتوريات على الزمان، وما أحسب أحدًا بمصدق على ضوء ما تبين له في روسيا أن الشيوعية أو أي حزب سواها سينشئ من الطغاة و«البيروقراطيات» والشرطة من يريد الذبول، ويرتضي التلاشي والزوال باختياره.

ولا عجب إذا كانت دراسة خواص القوميسيرين والطغاة اليوم هي في ذاتها دراسة شيء من القوانين القائمة في الدولة الشيوعية التي قد تكسب السلطان غداً، ولن تتخلى عنه إذا هي كسبته.

وقد لاحظت على المستنيرين الشيوعيين في عام ١٩٣٠ سلوكاً أصبح في شرق أوروبا اليوم مشروعاً مقررًا من جانب نقابات الكتاب وأرباب الأقلام، وهي النقابات التي أصبحت تملي على الروائيين والشعراء ما ينبغي لهم حصر أفكارهم ومشاعرهم فيه فلا يتجاوزونه، وكان جل هم الكتاب الذين اجتمعوا للبحث في مشكلة «الفن والمجتمع» أن ينتهوا إلى قرار يقضي بأن يتولى الأدب التدليل على صحة النظريات الماركسية القائلة «بسمو» البروليتاريا ورفع مكانها، وضرورة الثورة وتنظيم أسبابها؛ وليس من شك في أن هذا الرأي يتجاوز حتمًا كل تجارب الكتاب ومشاهداتهم، ولكن المرء إنما يرجع إلى تجاربه ليستعين بها على تصوير وجه من وجوه الرأي وصل إليه مستقلاً عن التجربة في حد ذاتها.

ومهما يكن إخلاص أولئك الكتاب في ماركسيتهم فإن سيطرة النظريات على عقولهم، وهي سيطرة تسبق التجربة، لا تخلو من نتائج حتمية، لأنه ما دام كل همهم أن يكونوا ماركسيين «نظريين» فلا غرو إذا رأينا أن «لخيرة» الماركسيين - وهم غالبًا شر الكتاب - مزية ظاهرة على الذين يرجعون إلى تجاربهم في سبيل إنتاجهم الفني؛ ومعنى هذا أن معاصر النظريين أصبحوا اعتباطاً نقاداً أدبيين يحللون الأدب كله في ماضيه وحاضره تبعاً لمذاهبهم، وقد استمعت يوماً لشاعر شيوعي يشرح لجمعية أدبية في «هامستيد» بمناسبة الاحتفال بذكرى الشاعر «كيتس» قائلاً إن كيتس لم يكن «ماركسيًا» ولكن من الجائز لنا أن نقول على الأقل إنه كان ابن سائس خيل، ومريضاً

بالسل لم تعن الدولة بعلاجه، فهو إذن حقيق بأن يعد ضحية من ضحايا الرأسمالية. وأصغيت أيضاً لهذا الكاتب وهو يقول إن كتاب «ليلة بجانب فراش ميت» الذي وضعه «جويس» Joyce يصور مبلغ الانحلال الفكري واللغوي في دنيا «البورجوازية».

وكان هذا الكاتب هو نفسه الذي كتب في عام ١٩٤١ حينما عمدت «فرجينيا وولف» إلى الانتحار، يقول إنه يهنتها باختيار هذه «الضرورة التاريخية»، وإنه بات منتظراً أن يحذو حذوها كتاب برجوازيون آخرون.

وقد أصغيت باشمئزاز إلى سفسطة كتاب من صغار العقول، وسمعت إلى نظرياتهم، فبدا لي أن هناك شيئاً غير مستساغ في دعواهم أن صاحب النظرية الاجتماعية يستطيع أن يحتل مكاناً يزري بمكانة «العبقرية»، إلا إذا كانت إلهامات العبقرية، وخواطرها في ذاتها، تطبيقات لنظرية سياسية على مبادئ كمالية أو مادة من صميم الفنون وجوهرها.

وأحسست الاشمئزاز أيضاً من ذلك النقد الأدبي الذي يلجأ الماركسيون إليه، لمحاولة التدليل على أن الأدب هو مجموعة «أساطير» وخزعات اخترعها الكتاب عمداً أو بغير عمد لخدمة أغراض بعض الطبقات العليا في التاريخ، فإن رأيي في شاعر كدانتى، أو شكسبير ومن جاءوا على غرارهما أنهم كانوا بلا شك رجال عصورهم ومفكرين سياسيين في أزمنتهم، ولكنهم أصابوا أيضاً من التجارب والمشاهدات في الحياة ما نقلهم إلى أسمى الآفاق، وجاوز بهم حدود المصلحة الذاتية، أو شؤون الاجتماع ومشاكله، وأنه من الجائز أن يتبعهم المجتمع إلى إلهامات مثيرة، واكتشافات باهرة، فيما يتصل بطبيعة الحياة، وإلى خواطر تتراعى وراء مشاغل الناس، وهماهم^(١) عيشهم في أي عهد من العهود، وهو ما يرفع المجتمع فوق ذاته ويسمو به مكاناً علياً،

(١) الَهَمَاهُم: الُهموم.

ولكن هذه الإلهامات ليست من قبيل الأمانى التي تجول في نفس جيلهم.

واعتقادي أن معتقدات الشعراء إلهامات قدسية، وصور لحقائق عن طبيعة الحياة وأسرارها، وقد لا أؤمن بها، ولا أقاسمهم أحاسيسهم بسبيلها، ولكني لا أستطيع ولا أود أن أفندها أو أصفها بأنها «ظواهر اجتماعية»، فإن كان للفن ما يزكينا ويعلمنا فهو بلا شك تلقيننا أن الإنسان ليس محتبسًا بكليته في مجتمعه، بل قد يتعلم المجتمع من الفن كيف يتسنى له إلى حد ما الفرار من محتبسه.

أما رفض التصديق بأن الفن في بعض معانيه هو أداة التعبير الوحيد في يد الفنان فهو بمثابة الحكم على الفن بأنه مجرد التعبير عن حاجة الاجتماع ومطالبه.

وهذا هو رأي معاصر الشيوعيين فيه، وموقفهم منه، فكأنني بهم يريدون أن يقولوا إن الشعراء وأهل الفنون ليسوا بأحسن القضاة في الحكم على النظريات والمذاهب الاجتماعية، فلا معدى إذن للنظرين والمفكرين السياسيين من إملاء حاجة المجتمع عليهم ومطالبتهم بجعل فنونهم خاضعة لمقتضياته.

وأذكر أنني حضرت في عام ١٩٣٠ اجتماعًا عقدته لجنة التنظيم في مسرح «جروب» للبحث في مسرحية شعرية لي تدعى «محاكمة قاض» كانت قد ظهرت من قبل على المسرح، وإذا بامرأة أنيقة من الشيوعيات الشابات تنهض في المجتمع فتحتج على الرواية قائلة إنها لم تسر من الرواية ولم ترتح إليها، وإن زملاءها الشيوعيين أيضًا قد نكروها، فقد كانوا يتوقعون من رواية كهذه أن تصور حادثة يبدو الفاشيون فيها رأسماليين، والأحرار ضعفاء، والشيوعيون هم وحدهم الذين على الحق، كما هم مؤمنون كل الإيمان، ولكنها لم تخرج عن مجرد قصة يميل فيها المؤلف إلى العطف على وجهة نظر الأحرار ومناصرتها، بل أدهى من ذلك أن الفصل الأخير لا يزال يحوي شيئًا من «الصوفية»، ونحن لا نريد أحرارًا، ولا متصوفين، وإنما نريد من كتابنا أن يكونوا شيوعيين مكافحين.

ولعل هذا هو رأي «هاري بوليت» نفسه واتجاه تفكيره، فقد كان دأبه كلما لقيته أن يقول لماذا لا تنظم أغاني وأناشيد للعمال كما فعل بيرون وشيللي وورد شورث؟ وهو سؤال لا جواب عنه، إلا إذا أردت أن أعرض الشعراء الإنجليز «الرومانتيكيين» للعار والنقيصة بعد مماتهم، وأحسب أن الشابة الشيوعية التي سلف ذكرها وهاري بوليت مثلاً «غشيمان» أو «خام»، ولكن ستالين قد يكون أغشم منهما مثلاً، وإن كان أشد أُنْراً، وكثيراً ما نرى هذه «الغشومية» تصور وترسم بشيء من الحذق، ولون من ألوان الدهاء، فقد حدث مثلاً في تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٤٧ أن معلم اللغة الروسية في إحدى الجامعات الكبيرة، وهو شيوعي وأخو ذكاء وفتنة، أراد أن يدافع عن اتحاد الكتاب السوفييت في حملاتهم على باسترناك وزوشنكو وغيرهما، بحجة أن روسيا ليست بحاجة إلى كتاب مجيدين، فقال إن هؤلاء بالطبع هم خيرة كتابنا، ولكننا لا نملك أن يكون لنا كتاب مجيدون، وقد رأينا أحسن شعرائنا ينظمون قصائد محزنة للناس، ميسة لنفوسهم، من ناحية تصويرهم تفاهة الحياة وخلائها من الهدف، ونحن نريد من الناس أن يعملوا أشق مما عملوا يوماً في حياتهم الماضية، ولهذا لا نستطيع أن نسمح للشعراء بأن يقولوا إنهم محزونون غير سعداء.

ودعني أيها القارئ الكريم في وسط هذه الحماقة التي أنا ماض فيها، أعد إلى القضية الأصلية، فأقول إن العنف ومعسكرات الاعتقال وسوء استغلال العلوم وإفساد الفنون، قد يكون لها ما يبررها إذا كانت على الأيام مؤدية إلى قيام المجتمع الخالي من الطبقات الذي ينشدونه، وقد ظلت هذه الحجة ماثلة لخاطري أبداً، لأنها حجة من الخطر والقدر الكبير بحيث لو صحت لجعلت الاعتراض على قيام شيوعية تستطيع حقاً أن تنشئ مجتمعاً دولياً عادلاً، حجة تافهة، ورأياً سخيفاً.

ولكن جملة الرأي الذي انتهت إليه هي أن الأحزاب الشيوعية في العالم، كما هي قائمة اليوم، لا تستطيع إقامة عالم أفضل، بل قد تقيم عالماً شراً من هذا وأسواً منقلباً، وسر رأيي هذا وباعته أن قدرًا كبيراً من السلطة موضوع في أيدي حفنة قليلة من

الناس وهم في مناعة من نقد تصرفاتهم، فلا يستطيع أحد أن ينتقص من شأنهم، اللهم إلا إذا وجهت شيئاً من الانتقاد إلى تصرفات الحزب نفسه وخططه وسياسته، حتى بات هؤلاء القلائل بغير رقابة، لا يجدون من يقونهم من أنفسهم، أو يمنعونهم من الإسراف في شر خصال البشر وصفاتهم، وهي الوحشية والانتقام والتشفي والحسد والطمع وشهوة السلطان.

ولست أوّمن بأن الهيئات المركزية في الشيوعية قادرة على إنشاء عالم خلو من نزاع الطبقات، وليس في مُكنتها أن تقيم شيئاً أكثر من حكم بيروقراطيّ يمتاز بالتشفي والغيرة والحسد، وهذا هو ما يجعلني لا أعتقد أنه من المتعين عليّ أن أسلم في حكمي لمشيئتهم، وأخضع عقلي لسلطانهم مهما يكن من القوة والأثر، ومهما يكن رأيي من الضعف والعجز والهوان.

ولا يخفى أن الشيوعيين يمثلون حدّاً من «المركزية» المترامية لم يعرف مثيله في يوم من الأيام، فإن الحزب السياسي - وهو الحزب الأوحد - يقوم نفسه على المركزية، ولكنه يعتمد في التوجيه على حفنة من الناس، كما أن جميع وظائف الدولة وفروعها الأخرى مركزة أيضاً معتمدة على التوجيه السياسي.

وليس معنى تركيز الفنون في خدمة السياسة إلا الدمار للفن في النهاية، والخراب «المستعجل» لكثير من الناس حتى ولو تعذر تعريض السلطة المركزية التي تحميها الشرطة للخطر. والواقع أن الفنون في روسيا مُدْمَرة فعلاً ومُخَرَّبة، وأن الشيوعيين أنفسهم أحياناً يعترفون بأنها كذلك حقاً، وهو اعتراف يثير الدهشة، ويستولي على النفس منه العجب، وقد نبأني إيليا إهرنبرج ونحن في باريس عام ١٩٤٦ أن الروس لا يرتضون الاشتراك في معرض رسم دولي إذ ليس لديهم رسامون مجيدون، وأن القصة اليوم هي القصة «الأمريكية»، بغير منازع، وأن الروس لا يتفوقون إلا في الموسيقى، ولكنني سمعت شيوعياً مجرياً في العام ذاته يقول إن الروس دمروا الأدب في روسيا وقضوا على الرسم، وهم اليوم يقضون على الموسيقى.

ولا مرأ في أن «الفنان» هو في الواقع أسمى الأفراد في المجتمع شعورًا، وأرقاهم وأنبلهم أحاسيس، فليس له رأي عام أو فكرة مشتركة في حاجات البشر ومظاهر نشاطهم، ولكن له بصيرة عميقة تتغلغل في أغوار الجوانح وأعماق التجارب ورغد الناس وبأسائهم، وأفراح الأفراد وأتراحهم، والقول بأنه «فردى» في تفكيره وإحساسه، هو نقيض القول بأنه إنما يخلق من نفسه لأجل نفسه، ولكن الجدير بأن يقال عنه هو أنه يخلق من تجاربه ومشاهداته التي تتصل أوثق الصلات بتجارب خلق كثير من الناس ومشاهداتهم، وأن ما يخلقه ليس مجرد تعبير عن مطالب المجتمع وحاجاته.

ومن هنا كان الأدب والفن «شاهدين» على ظروف البشر وأحوالهم في ظروف خاصة، وزمان معين، ومكان بالذات، وليس إخضاع التجارب الفردية للتعميم إلا احتجاز البشرية ومنعها من الشعور بذاتها كمجموعة أفراد يعيشون معًا في حدود معاشهم الخاصة، ووجودهم الشخصي، وحياتهم المستقلة؛ ومن الصعب أن يعتقد أحد أن السلطة المركزية في الدولة، التي تحرم الكتاب وأهل الفنون من حرية التعبير عن إلهامهم ومشاعرهم المستدقة، لمجرد أنها تتنافى مع سياستها، تملك من الحيوية والقوى الأدبية ما يمكنها من إسعاد الناس وتوفير أسباب الرغد لهم، لأن كل ما لديها هو أداة «ميكانيكية» ودولاب، ونظام آلي يقوم مقام الحياة والروح، فلا غرو إذا كان تدمير حرية الفنون ضربًا من الجنون كتدمير حرية الفرد، في أذنيه، لسمع من الأصوات ما يحسها بعقله، ويستشعرها بروحه، والاستعاضة عنهما بميكروفونين مجهزين بحيث لا يسمعان إلا أوامر الدولة وتوجيهاتها، ولا يصيخان إلا إلى ما تذيعه مجاهر الدولة وميكروفونات الضخمة الصاخبة.

ولكن تدمير هذا النوع من الحرية لا يزال يجد شفيعًا يبرره في القول السائر وهو أن الحرية هي «اعتراف بالضرورة»، وما حرية الضرورة السياسية إلا ضرورة الدولة من حيث جعل مطالب الحياة «جماعية»، وإحالة الإنسان مخلوقًا «جماعيًا»، فحسب، ولكن حرية الفنون إنما تمثل «فردية» كل مخلوق بشري، وإذا لم يكن الفن كالسياسة، فلا يزال

سياسياً من حيث توسيعه نطاق فكرة الحرية البشرية وهي «عملية» من شأنها أن تغير رأينا في الحياة جيلاً بعد جيل، وتؤثر على مر الزمن في أهداف المجتمع السياسية.

ورب ناقد معترض يقول إن هذا المقال هو أقرب ما يكون إلى نقد موجه إلى شخص، منه إلى نقد موجه إلى الشيوعية ذاتها، فليت المعترض يقول هذا حقاً فيما أوردته عليك، لأنني في الواقع أردت أن أنتقد نفسي في صلتها بالشيوعية، لا نقد الشيوعية نفسها، لأن ذلك عمل لا أمل فيه، ومهمة لا رجاء منها، فإن الشيوعية تعتقد أن المجتمع يمكن تغييره بتحويل الأفراد إلى أدوات أو «ماكينات» لتغيير المجتمع، فإن أحس أحد بسخط من المجتمع في شكله الحاضر؛ كشأني أنا اليوم، فليس في استطاعته أن ينتقد هذا الرأي، وإنما يستطيع أن يربط نفسه به، ويتخذ منه وسيلة لنقد نفسه واختبار معتقداته، وهذا ما حاولته في هذا البحث.

وكلما عدت بالخاطر إلى الماضي بدا لي أن انتقادي لنفسي بدأ عندي من أول حديث جرى بيني وبين هاري بوليت حين مضى يحدثني عن ضرورة كراهية «الرأسمالية»، والواقع أنني لم أشعر بهذه الكراهية في جوانحي، وإنما وجدتني مدفوعاً بشعور اجتماعي وشخصي بأني مخطئ مذب، وقد حملني هذا الشعور أولاً على أن أتحيز لناحية معينة، وأشعرني ثانياً بأنه في إمكاني تطهير نفسي من «فردية» غير عادية من طريق التعاون مع الحركة العمالية.

وقد تبين اليوم لي أنني لم أكن بحاجة إلى الانضمام إلى الشيوعيين لأنني كنت قد ملت فعلاً إلى ناحية، وتحيزت إلى جانب؛ وكانت تلك الناحية، أو ذلك الجانب، هي ناحية كل من آمن بالعدالة الاجتماعية، والحرية، وقول الحق في الوسائل التي لا غناء عن اتخاذها في سبيل تحقيق هذه الأهداف، فإذا عجز معاشر الساسة عن جعل جانبهم صادقاً نزيهاً متفتحاً لا شبهة فيه، فلا مندوحة للمستنيرين عن مناصرة أقل الساسة غشاً وخيانة، من طريق معاونتهم وانتقادهم والتعريض بوسائلهم وأساليب العنف والكذب والمين التي أبوا إلا استخدامها.

لقد كان الصراع الذي انبرى له الأحرار الأطهار في عام ١٩٣٠ منحصرًا في مشكلة الوسائل والغايات، وكانت حجتهم أنك إذا أردت الظفر بسلطان فليس أمامك غير التوسل بوسائل سيئة، وإنكار ذلك، والبراءة منه في غضب ظاهر.

وكان واجبي ككاتب ومستنير أن أبين هذه الحالة وأصور هذا الموقف.

وقد فعلت إلى حد ما، بعد خطئي الأول، وغلطتي من البداية، وقد رحت أحمل على نفسي وألومها وأنتقدها، لا لما أغلو بقيمته عندي فحسب، بل لأنه واجبي، فقد شعرت «بوجيعة» اجتماعية، وأحسست أيضًا في دخيلة نفسي بحقيقة شخصيتي وطبيعتي، وأدركت أنهما لا تلائمان هذه الحركة الاجتماعية ولا تتفقان معها.

لقد تركت نفسي تندفع إلى الشعور بذنبي وخطيئتي، لا من وجهة تردي، بل من وجهة الحب والرحمة والولوع بالحرية الفردية، التي قربتني من الشيوعية وأصحابها؛ وقد رأيت الشيوعيين يقولون لي: إن هذه المشاعر «برجوازية»، وإن الشيوعي الذي انضم إلى الحزب لا بد من «إخفاء» عقله حتى لا يعود يفكر في الأسباب التي جعلته شيوعيًا. قد بدا لي اليوم جليًا أن واجبي يقتضي أن أبين الرأي الذي أؤيده دون تحيز إلى جانب ما.

وليس كلا الجانبين في موقف العالم اليوم يمثل ما أعتقد أنه الحل الأوحدمشاكله وما على الشعوب والأمم المحبة للحرية إلا أن تتزعم حركة عامة في سبيل تحسين أحوال الملايين من البشر الذين يهتمون بالخبز أكثر من اهتمامهم بالحرية، حتى يتسنى انتشالهم من وهدتهم إلى مستوى من العيش يحجب إليهم الاهتمام بالحرية والخبز معًا.

إن مصلحة القلائل الذين يُعَنون بقيم الحرية ينبغي أن تتفق مع مصلحة الأكثرين الذين يحتاجون إلى الخبز، وإلا توارت الحرية إلى الأبد!؟